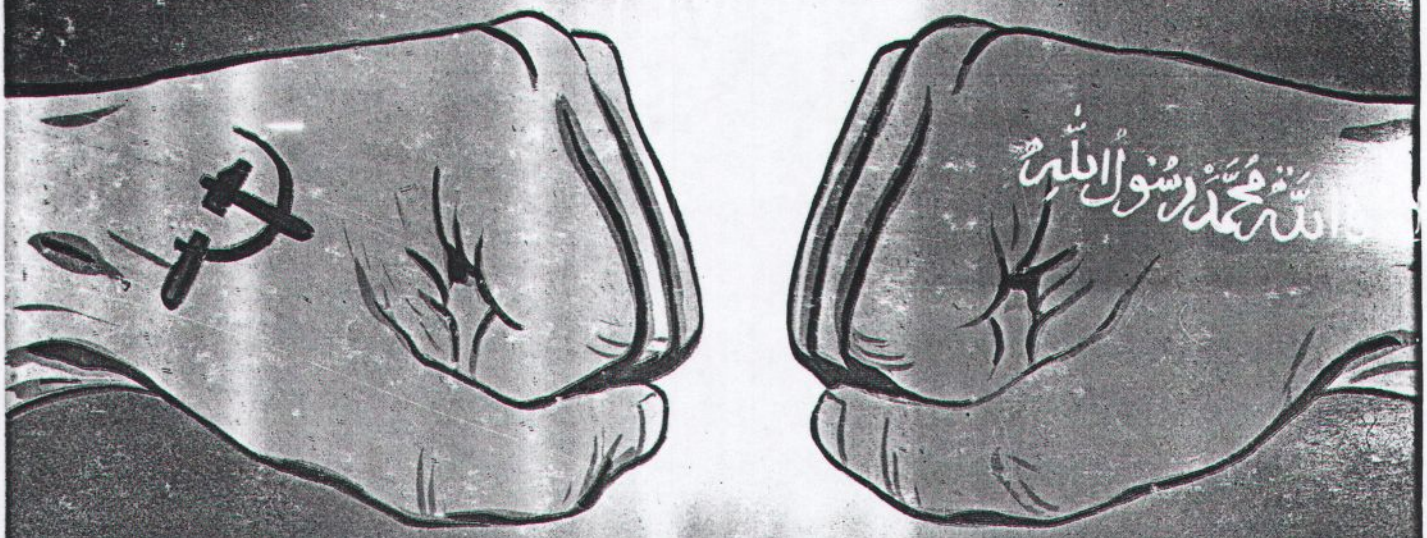
صفحات من سجل

الأنصار العرب

في

أفغانستان



محمد جميل محمد

الإصدار الثاني

٩٥٨.١
م ب
ص

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ / ١٩٩١م



الرياض ت ٤٧٨٢٠٠٠
جـــدة ت ٦٧١٥٨١١

طبعت بمطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر
ص.ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ ـ ت ٦٧١٤١٠٠ المملكة العربية السعودية

صفحات من سجل

الأنصار العرب في أفغانستان

(الجزء الأول)

باسل محمد

تحقيق ومراجعة

إدارة الدراسات والتوثيق

بلجنة البر الإسلامية

الإصدار الثاني

١٤١٢هـ / ١٩٩١م

- مقدمة -

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي الأمين .. وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد :

ليس ثمة حاجة للتدليل على أن الجهاد الأفغاني قد احتل منزلة الصدارة من إهتمامات الأمة المسلمة خلال عقد الثمانينات الذي انقضى ، وحاز المكانة المتميزة في مختلف المحافل المحلية و الإقليمية والدولية منذ ذاك .. وعبر منحنى بياني تدخلت في رسم اتجاهاته الصاعدة والهابطة عوامل و أسباب شتى .. ولا حاجة لكثير من البحث للتأكيد على أن هذه التجربة الفريدة المتميزة – ربما على مستـوى العصر كله – كانت ولا تزال – بحاجة ملحة إلى مزيد من العناية والدراسة والتمعن ، مثلما كانت – ولا تزال – مكبلة بإسار نمط متكرر من الدراسات والمتابعات لم تغادر الحالة العاطفية المزمنة غالب الأحيان ، ولم تجاوز الخطاب الإنشائي المنمّق إلا فيما ندر .. الأمر الذي أفقد عناصر تلك التجربة والمهتمين بها والمترقبين لها والمتشوقين لتلمس نتائجها الجانب الأكـبر من المردود المنتظـر، وأقـام سداً منيعاً من الغبش والضباب حال بين من هم في أمس الحاجة للإستفادة من حصاد التجربة .. وبينها !

وإذا كان ذلك هو واقع التجربة الجهادية في أفغانستان عموماً ، وواقع الأنماط الدراسية التي تناولتها ، فإن من أخص ما تضمنته هذه التجربة تعلقاً بغير الأفغانيين وأكثرها علاقة بالحركات والجماعات والتجمعات والأفراد العرب العاملين على الساحة الإسلامية – حاضراً ومستقبلاً – هو تلك المشاركة التي سجلها الأنصار العرب هناك ، من بدايات القضية وإلى يومنا هذا .. والتنوع الغني لأشكال هذه المشاركة ، وأحوالها ، وأطوارها ، والمراحل التي قطعتها ، والتجارب التي اكتسـبتها، والإيجابيات التي حققتها ، والسلبيات التي تبدّت عنها ، والنهايات المرحلية التي آلت إليها .. الأمر الذي قدّم للعاملين من أجل غد إسلامي أفضل كمّاً لا يُثَمّن من الدروس والمعارف والخبرات ، قلما تستحوذ أمة واعية على مثله ثم لا تعكف على دراسته الدراسة المتبصرة ، وتنكبّ على مطالعته المطالعة الدؤوبة وقد جمعت بين تعلقها واعتزازها بتلك التجربة وأشخاصها ورموزها .. وبين تجردها في تعقب الدروس ، وحياديتها في استخلاص العبر ، وجديتها في استقصاء مكامن الخطأ والصواب .

هذا التصور العام .. وذاك الفهم المجرد .. كان دافعاً ملحاً وراء السعي لإعداد هذا الكتا وتوثيق هذه التجربة ، والعمل على رصد يوميات الأنصار العرب في أفغانستان ، ومتابعة الخ البياني لحركتهم من بداياتها وحتى المرحلة التي وصلت إليها الساعة .. مروراً بأبرز منعطفاتـ وأهم تفرعاتها ومسالكها واتجاهاتها ؛ وذلك إيماناً بأن توثيق الأحداث – إبتداء – هو أمر في منزا الوجوب وموقع الفرض الملح .. فلولاه لما كانت بين أيدينا سيرة رسول الله صلى الله عليه وسل ومرويات صحابته وتراجم تابعيه وتاريخ أمم الإسلام وخلفائها وقادتها وفتوحاتها ونكباتها .ومدّه عبر الزمان وجزرها .. وهذا الكنز الزاخر من كتب الأولين ... ولولا توثيق الأحداث وتسجيلها لـ تناقلت البشرية تجارب الأسلاف وتوارثت خبرات السابقين المتراكمة في شتى أفرع المعرفا والإبداعات والفنون ... ولولا التوثيق والتأريخ لما كاد لصاحب حق أن يثبت حقاً تقادم عليه الزمان أو يحسم خلافاً تداخلت فيه الأقوال والإدعاءات ، ولما امتلك الوثائق التي تزوده بالدليل وبالبرهان .. ولو كان وعي الأولين لدينا .. ولو امتلكنا بعض الفهم الذي دفع الأجيال الأولى من أمة الإسلام لتوثيق أحاديث نبيّها وسير صحابته وتاريخ خلفائه وتابعيه .. لما كنا اليوم نستجدي تواريخنا ونتكفف سجلاتنا ونرتحل إلى عواصم الأمم الأخرى لنحقق مخطوطاتنا ونراجع بحوثنا ونوثق دراساتنا !! ولو كنا كذلك لما كان لبضاعات المستشرقين والمستغربين والمزورين والمحرفين المحترفين سوق رائجة بين ظهرانينا ، أو موقع فاعل في ثقافاتنا ومثقفينا وعقولنا وعاقلينا ! ولو كنا كذلك أيضاً لما كررنا أخطاء الأمس مثلما كانت ، وعدنا في كل تجربة جديدة لنبدأ من حيث بدأ الذين سبقونا نعيد سلبيات ما صنعوا ونزيد ! ولو كنا – ونحن قادرون أن نكون – لما بدأ المغرضون يعبثون حتى في صحائف أحداثنا الحية وقضايانا المستعرة ويومياتنا – كمثل أفغانستان – المضمّخة بالدم وبالدموع .. ونحن ما بين غافل وجاهل وعاجز وغير مهتم !

وإذا كان الإيمان بوجوب توثيق الأحداث وتسجيل الوقائع ورصد مسيرة التاريخ – في هذه التجربة أو في غيرها – على مثل هذا اليقين وذاك العمق ، فإن من الضروري المسارعة والقول بأن هذا الإيمان لا ينتهج – إذا انتهج الصدق – أسلوب التمثيل داخل غرف « الأستوديوهات » أو الرسم في حجرات المعاهد المغلقة ثم يقول ها أنذا قد أديتُ الأمانة وأنجزتُ المهمة .. ولكنه يفتح عدسة الرصد على مشهد حي في مسرح الحياة ، فيلتقط كل عنصر يمر من خلاله ، ويسجل كل مؤثر يعبر منه وإليه ، ويصوّر مختلف الألوان التي تشكل بمجموعها اللوحة الحقيقية للحدث ، ولذلك يصبح أمراً متوقعاً وبدهياً أن تلتقط عدسة كتلك الزوايا الداكنة من المشهد ، وتسجل الأشكال

النشاز فيه ، وتتوقف حتى عند المعايب والنقائص وأوجه القصور ، مثلما يُنتظر منها أن تعرض الألوان الزاهية .. والمشاهد الجميلة .. والمناظر الخلابة ؛ ولذلك قد يتبدى من بعض فصول هذا الكتاب أو على بعض صفحاته ما قد يفسره البعض إنتقاصاً من المجاهدين الأفغان ، أو إساءة لدور الأنصار العرب هناك .. ولقد يسارع البعض فيقرر أن نشر مرويات الذين شاركوا في إثراء مادة هذا العمل فتحدثوا – ضمن ما تحدثوا به – عن سلبيات التجربة وأخطاء المشاركين فيها هو إعتداء صارخ على قدسية الجهاد وربما على قداسة المجاهدين من العرب أو الأفغان !! وبادئ ذي بدء أود أن أسجل قناعتي الراسخة بأن المقدسات في دنيانا والقداسة التي تُضفى على الأشخاص – مهما كان إحترامنا وإجلالنا لهم – أو على الأفكار والأعمال والمسميات المختلفة أمر يخضع لحكم الشرع لا لحكم الهوى ، وأن هذا الأمر ينطبق على التخصيص مثلما ينطبق على التحديد .. إذ ليس من المعقول أن نقدس فريضة بالغة الأهمية – كالجهاد مثلاً – فنعتبر كل ما يندرج تحت هذا العنوان مقدس .. وكامل .. ومنزه ! فالفريضة مقدسة لأنها شرع الله وحكمه وأمره ، ولكن التطبيق غير منزّه .. ولا بكامل أو معصوم .. ولا يجوز أن يمتلك صفة القداسة لأنه تطبيق بشري وجهد آدمي يحتمل الخطأ مثلما يحتمل الصواب ، ويخضع لمؤثرات النقص والجهل والغرور والأثرة والطمع والشح والضعف والإفتتان .. مثلما يخضع لتأثير الكمال والسمو والتواضع والإيثار والعطاء والفداء والقوة والثبات ... إنه جهاد بشري .. ولا يشذ مخلوق من البشر عن أن يخضع لعالم الأسباب الذي يحكم عالمهم ، ويسيّر – بأمر الله – مجريات حياتهم ؛ ومثلما رُكّبَ هذا المخلوق المكرّم على صفات الخير لم يُعصم عن مسالك الشر .. ففجور النفس الإنسانية متلازم مع تقواها ، وإن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق .. وله غير ذلك من العقبات وصفات الضعف وقلة التجربة ومحدودية المعرفة ما قد يحرفه عن بلوغ الكمال المأمول ، حتى ولو امتلك القلب الطاهر والنية الخالصة والهمة العالية ، ولن يضيره – إن كان كذلك – أن يقر بالخطأ .. وأن يعترف بالتقصير .. وأن يستشعر انحرافه ويتلمس معايب ما قدّمت يداه ولو كان على طريق مُشَرّف مبارك – كالجهاد – يمضي ويَجِدّ ؛ وأسوأ الرجال – باعتقادي – هو ذاك الذي إذا وضع قدمه على طريق كهذا اعتقد أنه وصل ! وأجهل الناس – من ثم – أولئك الذين يصدقونه إذا ادعى ذلك أمامهم .. أو أسرّ به أحد إليهم !

إن الأشخاص والجهات والمعاني العظيمة لا تتصف بالجلال ما لم تكن قدوة للآخرين ، ولا تتحقق القدوة إلا إذا أشرعت للآخرين بوابات المعرفة والمراقبة والإطلاع ، وعند ذاك سيظهر جلالها بظهور إيجابياتها مشرقة على بقيه ما يشكل بنيتها من أوجه النقص والضعف والقصور ؛ أما الذين يريدون من الآخرين تقديس أشخاص أو هيئات أو معاني يجلّونها ويقدسونها .. ثم لا يجعلوننا ننظر

إليهم إلا من ثقب الباب أو من كوّة في الجدار فلا أظنهم ينتظرون مؤيدين عقلاء ناضجين ، ولا أراهم إلا يبحثون عن محبين بسطاء أغرار .. يصفقون بحرارة ، ويركضون بغير بصيرة ، ويطفؤون أسرجة العقول !

إن الجهاد الأفغاني تجربة إنسانية بشرية ، تحمل في تيارها من سلبيات الأداء البشري قدر ما تحمل من إيجابيات ، وفي الوقت الذي تصطرع ضمن هذا التيار المتدفق خصال السلب والإيجاب متدافعة بين ضفتي نهر الجهاد المقدس .. لا تعدم أن تلتقي بين فينة وأخرى بمعوقات شتى تجرفها عن المسار مرة .. أو تبطؤ تدفقها أخرى .. أو تمتص من عنفوان اندفاعتها ثالثة .. أو تبتلع من أمواجها في غيابة الأرض رابعة ؛ ولقد يطفو الزبد في مرحلة .. ولربما اختضب التيار في غيرها .. لكن عين العاقل وحدها هي التي تميّز ما آلت إليه أمواه النهر المتدفق .. وإلى أي مرحلة ستؤول .. وعلى أية حال ستنتهي .. فتحكم على كل مرحلة بذاتها ، وعلى كل حالة بما هي عليه ، فلا تنخدع بالزبد إذا طفا .. ولا تجهل الذي ينفع الناس حتى ولو غاب ، فإذا وافى المدّ لم تُطِلِ الأمل ، فبعد المدّ جزر محتمل .. وإذا انحسر الماء فلا تبتئس ، فالمد آتٍ من جديد .. والنهر ماض في مجراه المبارك بعد ذلك وقبل ذاك ؛ وهكذا الجهاد في أفغانستان – فيما أراه – نهر مبارك مقدس رفده العرب بجداول عذبة دافقة ، فكان التيار الذي لا يزال ماضياً يموج ولما يبلغ المصب بعد : يتكدر ثم يصفو ، ويستقيم ثم يتعرج ، ويُزبد ثم يروق ، ويتباطأ ليعود فيسرع .. وإذا كان ثمة ما ينبغي أن نفعله لنفيد من هذه التجربة غير الإعتيادية اليوم وغداً وفي كل حال ومآل .. فهو التملي والتأمل والنظر المستنير فيها ، بعين الباحث لا بقلب العاشق الولهان ، وبعقل الدارس لا بفؤاد المحب الأعمى وحسب ! فإذا رصدنا الإيجابيات وشاهدنا الإنجازات كان لزاماً علينا أن نتمثلها ونطورها وننميها ، وإذا استوقفتنا السلبيات وبانت أمامنا العثرات كان واجباً علينا أن نبحث عن أسبابها ونغوص وراء دوافعها ونسلط الضوء على جذورها .. ثم ننتقل بأدوات البحث ومعدات الرصد إلى أنفسنا ، وإلى كل عمل مشابه نود الشروع فيه ، فنبحث ونرصد وننقب : هل ثمة ما يشترك بين دوافعنا ودوافع تلك السلبيات التي طفت على الساحة في أفغانستان ؟ وهل هناك تطابق أو تشابه بين الأدواء التي أعاقت المسير هناك وتلك الجراثيم المخبوءة في حنايانا الساعة ونحن من النظر الجريء إليها مشفقون ! فإذا فعلنا نكن قد امتحنا النظرية بالتجربة .. وأضفنا الخبرة المكتسبة من التجربة إلى النظرية ، فازدادت حصيلة المعرفة لدينا وقلت إحتمالات الفشل ونسبة العثرات .

وإذا كنت قد أكدت فيما سبق على أن الإشارة إلى السلبيات والحديث عن الأخطاء والتوقف

عند العثرات – في أفغانستان وبين العرب أو بين الأفغان – لا يعني إلا أنها حدثت ، ولا يهدف إلا إلى بيان الحقيقة أملاً في الخروج من هذه التجربة برؤية عاقلة وعبرة وافية .. كذلك أود التأكيد بأن ثمة مواقف وروايات وعبارات تضمنتها فصول الكتاب ربما مجّدت – على لسان رواتها – شخصاً بعينه أو جهة بذاتها ، وأطرت – خارج إطار المعقول – على أدائها .. وهنا أقول كذلك بأن عرض هذه الروايات بدون تدخل أو تعليق في أكثر الأحيان كان لعرض الحقيقة التي كان عليها الراوي أو المتحدث لا الشخصية أو الجهة أو الحادثة التي يدور الحديث عنها بالضرورة .. وتسجيل هذه العبارات كان لبيان نمطية التفكير لدى صاحب العبارة مثلما هو تسجيل للحدث بعينه ، بل إن من بين العبارات المسجلة ما قد يتصف بالضعف أحياناً أو حتى بالركاكة اللغوية ، والحرص على عدم تغيير ذلك مقصود أيضاً .. لا انتقاصاً – معاذ الله – من قائله ، وإنما تجسيداً لتعبيره الخاص وفهمه الذاتي لحدث أو حديث بعينه .. ويبقى من الضروري الإشارة هنا إلى أن الكتاب – في مجمله – قام على نقل الروايات من فم أصحابها ومن سطورٍ خطوها بأيديهم .. ولقد عمدت في الهوامش التي تلت كل فصل فبينت عند ابتداء رواية الشخص المتحدث تاريخ ومكان حديثه .. فإذا تكررت أحاديثه ومروياته صار معروفاً بأن حديث فلان تمّ في التاريخ الفلاني والمكان الفلاني ، حتى إذا أتت رواية جديدة للشخص نفسه سجلتُ في الهامش التالي مكان وتاريخ روايتها ، وهو أمر حصل مع عدد من المتحدثين بحكم المرحلة الزمنية غير القصيرة التي استغرقها إعداد الكتاب ، فاقتضت مني معاودة التسجيل غير مرة ؛ ولربما اعتمدتُ على شواهد ومشاهد وروايات من مصادر أخرى غير التي سجلت ، فعمدت إلى ذكر الموضع والموقع .. والتاريخ والصفحة والمرجع الذي اعتمدتها منه ..

ختاماً لا بد لي من تسجيل وافر الشكر والإمتنان لعدد غير قليل من الإخوة الأكارم الذين أثروا مادة هذا الكتاب وأغنوها ، سواء بتشجيعهم الفكرة وتأييدهم المبادرة ، أو بتسجيل ذكرياتهم وتقديم مذكراتهم ، أو بتسهيل الإتصالات وتبديد حملات الإعتراض التي شنها عدد غير قليل ممن وددت التسجيل معهم والنقل عنهم ، وهم يتعللون بالخوف من أن يسري الرياء إليهم لو أنهم أسرّوا بما قدموه في ساح الجهاد .. أو أن تبلغ هذه الروايات أنظمة ومؤسسات يعادونها وتعاديهم ، فتفيد منها وتتقوى بها وتعتمد لإيذائهم عليها .. وكلتا التعلّتان علّة في الساحة هناك تضخمت عن حجمهما المعقول وتعدت المنطقية المفترضة لطبائع الأشياء .. والله سبحانه وتعالى أحمد وأشكر في البدء والمنتهى أن أعانني على إخراج الجزء الأول من الكتاب ، وأنا أعلم أن الصورة غير كاملة ولا مكتملة .. وأقرّ أن الإحاطة بكل التفاصيل أمر لم يتحقق لي لكنني أرى نفسي كمن يحاول جمع آنية رقيقة رشيقة من الزجاج انكسرت فأمسك بطابق شظاياها الكبيرة وأجزاءها الواضحة .. ويجمع بينها من جديد بلاصق مناسب .. هل تراه ينجح – مهما جهد – في إعادة بقية القطع

الدقيقة المتناثرة الى أماكنها الأولى جميعاً ..وحتى إذا فعل ، هل تراه يعيد الصورة كما كانت عليه قبل أن تدهمها يد الدهر فتشتتها مبعثرة متفرقة ؟ لكن الغيرة على هذه الآنية الغالية .. والشوق لمرآها والحنين لذكراها يرضيه أن تعود إليه ولو هيكل عام يصوّر قوامها ويجسد معالمها .. وحتى ولو لم ينجح في سبكها متماسكة متناسقة كماكانت أو كما يريد .. فما لايدرك كله لايترك كله ، والأحداث التي تمضي من تاريخ الأمة – على أيّة هيئة كانت عليها – جديرة بالتوثيق وبالتسجيل ، والتجارب التي تبذل فيها المهج والأرواح أحق بالعناية والرعاية والدراسة ، ولعلني بهذا العمل أكون قد أضفت ولو خطوة على هذا الطريق ، وأديت ولو بعضاً من واجب العرفان والمحبة والتقدير لأولئك الذين أحيوا في الأمة معنى النّصرة الصادقة وجادوا في سبيل الله بأغلى ما يملكون .. ولله الكمال وحده ومنه الجزلء والعطاء ، عليه توكلت وإليه أنيب.

باسل محمد

ديسمبر ١٩٩١م

الأنصار العرب(١)

الإجتياح

لم يكن ثمة ما هو غير طبيعي في أجهزة الحكومة الرسمية بـ « كابل » حتى السابعة و أربع عشرة دقيقة من مساء ذلك اليوم السابع و العشرين من ديسمبر عام ١٩٧٩ .. فالبرودة القارسة التى تدهم العاصمة الأفغانية عادة فى مثل هذه الأيام من موسم الشتاء القاسى لا تجمد الأطراف وحسب ، بل و حتى الأحاسيس وغدد التنبه فى الكائنات ! والرئيس الأخير لأفغانستان « حفيظ الله أمين » جمّد ما تبقى لدى جند النظام من مشاعر التوتر والترقب .. حينما أعلن صباح ذلك اليوم فى حديث وجهه للعسكريين الأفغان أنه تم تعزيز نظام الدفاع للبلاد بعد وصول عدة آلاف من القوات السوفييتية المحمولة جواً للبلاد [١] .. وقبل يوم مضى تحدث مع مراسل صحيفة « الشرق الأوسط » الأنجليزية فأكد ترحيبه بالمعونة السوفييتية العسكرية المقدمة لنظامه [٢] وفيما كان خمسة آلاف جندى سوفييتى نُقلوا قبل يومين – عبر جسر جوى غير عادى – إلى «كابل » .. وأربعة آلاف خبير آخرين من السوفييت ينتظرون آنئذ ساعة الصفر ليدخلوا بأفغانستان أخطر مرحلة عرفتها على مدار تاريخها المعاصر ، كان « حفيظ الله أمين » يسترجع فى القصر الجمهوري «دارالأمان » تصريحاته الأخيرة تلك بشيء من الريبة ومن التهكم ! ! فلعبة عض الأصابع بينه وبين السوفييت والتي ابتدأت قبل شهور عديدة يفترض أنها لم تعد تخفي تربصهم الماكر به ، وقفازات التحدي التي ألقاها « أمين » صر احة فى وجه الكرملين غير مرة تجعله – اللحظة – ينتظر الرد القاسي ويستعد له . . وإذا كان « أمين » قبل السادس عشر من سبتمبر الماضي في خانة « المزعجين » بنظر السوفييت نتيجة الخصومة الشديدة بين جناح « خلق » الذي ينتمي إليه مع « تراقي » رئيس الجمهورية وقتذاك ، وبين الجناح الآخر للحزب الشيوعي الأفغاني « بارشام » بقيادة « بابراك كارمل » والتي أدت إلى تصدع خطير في صفوف «الثورة » الناشئة الموالية للسوفييت . . فإنه – أى أمين – بات مزعجاً لا يُحتمل بعد انقلابه الدموي على « رفيقه فى النضال تراقي » يوم السادس عشر من سبتمبر ، ونجاحه في إجهاض الجهود التي توصلت موسكو من خلالها للتوفيق بين الجناحين المتنافسين « خلق » و « بارشام » عبراللقاء السرى الذي رتبه الكرملين في سبتمبر ٧٩ وبدون علم « أمين » بين « تراقي » أثناء عودته من مؤتمر دول عدم الإنحياز في «هافانا » والشيوعيين الأفغان المناهضين لجناح « خلق » من قادة جناح « بارشام » وعلى رأسهم « بابراك كارمل » .. والذين قرروا الاشتراك في حكومة «تراقي» شريطة إقالة « أمين » من منصبي رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع اللذين تقلدهما في نهاية مارس ١٩٧٩[٣] . . لكن . . وبعد هذين الشرخين الذين تسبب «أمين» في تمزيق صفوف الحزب الشيوعي الأفغاني من خلالهما مرة أخرى ، كان على أجهزة الكرملين المعنية أن تتدارك الوضع وتنقذ الموقف الآيل للتدهور ، خاصة وأن جماعات المجاهدين والثوار الأفغان بدأت تحقق وجوداً فاعلاً على الساحة ، واكتسبت إلى صفوفها قطاعات واسعة لا من القبائل والأفراد المتضررين من سطوة النظام وحسب ، وإنما من صفوف الجيش الأفغاني الذي ازدادت نسبة الهروب منه للإنضمام إلى المجاهدين . . وهكذالم يعد أمام القيادة الروسية إلا ثلاثة خيارات للتعامل مع هذا الوضع : فإما أن تستمر في دعم « أمين » وتقوم في الوقت نفسه بتشجيع الجماعات الشيوعية الأخرى للإنقلاب عليه وإزاحته من السلطة ، أو أن تترك «أمين » يسقط بقطع المعونات عليه وتبحث عن عميل آخر يتلاءم والمستجدات الحالية ، أو أن تقوم بتصفيته عبراستعمال القوة العسكرية ثم تدعو عملاء آخرين ليقودوا البلاد من جديد وبتوجيهات روسية ؛ والذي يبدو أن الخيارالأخيرهوالذي ترجح لدى القيادة الروسية في النهاية خاصة بعدما فشلت في اغتياله

بشكل سري عبر السم الذي دس له في الطعام من قبل طباخه الذي كان عميلا لـ « كي . جي . بي . » [٤] . . وبعبارة موجزة لم يستطع الروس صرف « أمين » عن سياساته المدمرة للذات – على حد تعبير « هاليداي » – مما اضطرهم إلى محاولة التخلص منه [٥] . . ولم يكن على « أمين » في ليلته الأخيرة تلك إلا أن يترقب المجهول المنتظر ، بعدما تسارعت الإشارات المريبة الصادرة من طرف السوفييت نحوه ، بحشد المشاة والمظليين في المناطق الحدودية من أفغانستان منذ بدايات شهر ديسمبر هذا [٦] وبوصول الجنرال « فيكتور بابوتين » الرجل الثاني في البوليس السوفييتي ، في الثالث عشر منه إلى « كابل » إضافة إلى وصول الجنرال « بافلوفسكي » رئيس القوات البرية السوفييتية و«اليكس بيشيف » رئيس مفوض الجيش [٧] .. وبرغم التطمينات التي حملها هؤلاء لـ « أمين » وتأكيدات القيادة السوفييتية التي نقلوها إليه بوقوفهم إلى جانب نظامه في مواجهة « المتمردين » .. وبرغم البرقية التي تلقاها من قيادة الكرملين في الرابع من ذات الشهر يهنؤونه فيها بمناسبة مرور عام على توقيع معاهدة الصداقة مع أفغانستان [٨] . . إلا أن « أمين » كان قد بلغ في تحديه للسوفييت حداً علم معه أن محاولات التطمين المريبة هذا لا بد وأنها تخفي وراءها أمراً جللاً ، ويكفي المنشور الذي وزعه « أمين » على رؤساء التنظيمات العسكرية والمدنية بعد محاولة اغتياله بالسم في نوفمبر الذى مضى ، والذى حمل اتهاماً صريحاً للإتحاد السوفييتي بمحاولة اغتياله تمهيداً لغزو البلاد .. ومع وصول خمسة آلاف جندى سوفيتي بمعداتهم جواً إلى قاعدة « باجرام » الأفغانية التي لا تبعد عن « كابل » أكثر من ٤٠ ميلا خلال الأسبوعين الماضيين ، عبر جسر جوي تضمن نحو ٢٥٠ طلعة طيران غير معهودة .. وبعد انتشار هذه القوات وتوزيعها في المناطق الهامة من « كابل » ومحاور الطرق الرئيسية فيها ، أسقط دون ريب في يد « أمين » ولم يجد بُداً من الترحيب المصطنع بهذه الوفود الغازية ، فأعلن صباح ذلك اليوم السابع والعشرين من ديسمبر أنه تم تعزيز نظام الدفاع الأفغاني بعد وصول القوات السوفييتية ، وبينما هو في القصر الجمهوري يعد أنفاسه الأخيرة ، بلغ التوقيت المحلي لـ « كابل » السابعة والربع مساء . . لتبلغ خطة الغزو ساعة الصفر ، ولينطلق الجنود الخمسة آلاف مع الخبراء السابقين الأربعة آلاف فيحاصروا وزارة الداخلية ، وينتقلوا إلى تجريد ضباط وجنود حامية « كابل » العسكرية من السلاح ، بعدما أعطبوا دبابتهم وشاحناتهم وكل شيء يسير على الدواليب ! وفي الساعة التاسعة والربع بتوقيت « كابل » أيضاً أذاع « بابراك كارمل » بيانه الأول الذي أعلن فيه استلامه السلطة واستدعاء القوات السوفييتية إلى البلاد للمساعدة فيما وصفه بـ « تهدئة الأوضاع تنفيذاً لبنود معاهدة الصداقة بين البلدين » واتضح فيما بعد أن بيان الإنقلاب الأول هذا لم يُذع من محطة « كابل » ولم يُتل على الهواء مباشرة .. وإنما أذيع من شريط كاسيت سابق الإعداد عبر محطة « ترمذ » داخل الحدود السوفييتية بولاية طشقند ، فيما كان « بابراك كارمل » لايزال وقتذاك في العاصمة التشيكية « براغ » [٩] ! والغريب في الأمر أن التكنولوجيا السوفييتية استطاعت أن تتدخل في موجات إذاعة « كابل » بحيث يظهر أن البيان أذيع منها مباشرة ، غير أن إذاعة « كابل » في ذلك الوقت كانت تذيع برامجها العادية المقررة [١٠] وفي الساعة العاشرة من مساء اليوم نفسه هاجمت القوات السوفييتية محطة إذاعة « كابل » وسيطرت عليها بسهولة . . وحوالي الساعة الثانية عشرة وزعت وكالة الأنباء السوفييتية (تاس) نداء « كارمل » ودعوته القوات الروسية لدخول البلاد . . وفي الثانية

وأربعين دقيقة من بعد منتصف الليل أذاع راديو «كابل» نبأ تشكيل مجلس ثوري جديد . . وإعدام « حفيظ الله أمين » !! ولم تلبث وكالات الأنباء أن استنفرت صباح اليوم التالى لتنقل للعالم أجمع نبأ الإنقلاب الجديد .. والاجتياح العسكري السوفييتي لأفغانستان !

هوامش

(١) « تاريخ أفغانستان » – فاروق حامد بدر – صـ ١٠٨ .

(٢) « السياسة السوفييتية فى قوس الأزمة » – فيرد هاليداى – صـ ١٥٤ .

(٣) « ملف الحزب الشيوعي الأفغانى » – أحمد زيدان – مجلة « الجهاد » – العدد ٤٩ – صـ ٣٨ .

(٤) المصدر السابق – العدد ٥٠ – صـ ٤١ .

(٥) « السياسة السوفييتية في قوس الأزمة » – فيرد هاليدى – صـ ١٠١ .

(٦) أكد « بابراك كارمل » فى مقابلة مع صحيفة « ذى باتريوت » الهندية فى بدايات عام ٨٠ أن القوات السوفييتية كانوا يدخلون أفغانستان منذ ١٧ ديسمبر ١٩٨٩ . أنظر : « أفغانستان الحاضر والمستقبل » – العدد ١١ – مايو ١٩٩٠ – صـ ٦٦ .

(٧) « تاريخ أفغانستان » – فاروق حامد بدر – صـ ١٠٦ – ١٠٨ .

(٨) تم توقيع « معاهدة الصداقة وحسن الجوار و التعاون بين إتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية وجمهورية أفغانستان الديموقراطية » بتاريخ ٧٨/١٢/٥ لمدة عشرين عاماً ، وكان الموقع عن الطرف الأفغانى « نور محمد تراقى » ضحية « أمين » فيما بعد !

(٩) عبد المجيد منجل » أحد مسؤولي الخارجية الأفغانية فى مذكراته بصحيفة « ديلي تلغراف » أنظر : مجلة « الدعوة » – ٨٤/٥/١ لكن كتاباً جديداً أُعِدَّ في الإتحاد السوفييتي – يصدر قريباً – عن حرب أفغانستان وأسرارها من واقع الوثائق الرسمية لوزارتي الخارجية والداخلية وجهاز المخابرات السوفييتية كشف عن أن كارمل لم يصل إلى أفغانستان بعد انتهاء حفيظ الله أمين بل قبل ذلك بعدة أيام على متن الطائرة التي استقلتها كتيبة من الجنود السوفييت أسندت إليها مهمة حراسة مطار « باجرام » بموافقة أمين ، وبقي كارمل بين الجنود والضباط السوفييت في المطار حتى نهاية الشهر مرتدياً زيه العسكري . أنظر : صحيفة « الإتحاد » – ١٩٩١/٧/٢٥ .

(١٠) « حقائق من حرب بلاد الأفغان » – علي بلوط – صحيفة « البيان » – ٨٢/١/١٣

الأنصار العرب (٢)

المفاجـــأة

لم يكن الاجتياح السوفييتي لأفغانستان بالخبر العادي لدى مختلف مواقع الرصد والتلقي في العالم . وبرغم المتابعة الحثيثة لتطورات الحالة السياسية في « كابل » من قِبَلِ أجهزة متخصصة شتى إقليميا ودوليا خلال السنوات الأخيرة ، وبدرجات من الاستقصاء والجدية مختلفة ، الا أن ليلة السابع و العشرين من ديسمبر لعام ١٩٧٩ وتدفق عدة آلاف من القوات السوفييتية على أفغانستان كان بمثابة المفاجأة ، صحيح أن عيون أمريكا سجلت ونقلت ارهاصات تحرك سوفييتي غير عادي في « كابل » تنم عن نوايا غير اعتيادية مقبلة ، إلا أن تخوفات هذه « العيون » وتحذيراتها المتشككة لم تلق اهتماماً لائقاً في واشنطن [١] التي لم تتوقع – فيما يبدو – أن تتجاوز موسكو خطوط أفغانستان الحمراء .. وتدوس ببساطة وبشكل مباشر على جرس الإنذار في « كابل » لينطلق رنينه في « إسلام آباد » و « دلهي » و « بكين » و « طهران » ومنطقة الخليج العربية وحتى « واشنطن » مروراً بعواصم أوربية مهتمة عدة ، وبدورها لم تكن موسكو نفسها تتوقع لقرار الغزو الذي لم يلق اجماعا كاملا من مصادر القرار السوفييتي منذ البداية [٢] أن يهوي بالجيش الأحمر في مستنقع رهيب لم يعرف له على مدار التاريخ المعاصر مثيلا . . وأن يستنزف من شبابه أكثر من ١٥ الف قتيل و ٣٥ ألف جريح ومفقود (وفق الاعترافات الرسمية للسوفيت) [٣] وأن تبلغ تكاليف هذه الورطة التي قضت على ثلاثة زعماء تاريخيين للإتحاد السوفييتي ، ومضت تلوث ماتبقي للكرملين من رصيد الهيبة وبقية الإحترام في العالم طوال السنوات التالية ٧٠ مليار دولار وفق الإحصائيات الرسمية أيضا [٤] ..

دخلت قوات الإتحاد السوفييتي – إذاً – حقل الألغام الأفغاني ، وداس « الدب الروسي » بحماقته المعهودة على أجراس الإنذار .. لتدخل موسكو – منذ ذاك في قفص الاتهام بأرجلها ، ولتلقى – من أيام الغزو الأولى – قرارات الإدانة الاقليمية والدولية حتى من بعض الأنظمة والتنظيمات اليسارية والاشتراكية في العالم [٥] .. لكن ردة الفعل الداخلية كانت المفاجأة الأكبر .. واستنفار غريزة الدفاع والمقاومة لدى الأفغانيين كان التطور الأخطر الذي لم توفق موسكو في تقديره التقدير الصحيح ، فعلى الرغم من عفوية أوجه عدة من ردة الفعل الشعبية للأفغان .. ومع التسليم ببدهية انعدام التكافؤ التنظيمي والإداري ، ومحدودية الخبرة العسكرية لشتى فصائل المقاومة المسلحة وقتذاك ، إلا أن الصمود الذي تبدى من شعب الأفغان و العطاء والفداء الذي قدمه أذهل العالم بحق .. وقفز باسم الجهاد وبراية المقاومة الإسلامية إلى واجهة الأحداث وموقع الصدارة .. ولقد كان بدهياً أن تتلقى الشعوب المسلمة على امتداد العالم هذه النفحات الجهادية أول من تتلقاها .. وأن تُشرع لها نوافذ شتي رحيبة على مواقع الإيمان والحماسة والعاطفية والتفاؤل فيها ، وغدا الجهاد الأفغاني – مع مطلع الثمانينات – النموذج الحي في أذهان المسلمين وعلى ألسنتهم .. والراية الخفاقة للانتماء .. وللعزة .. وللكفاح العقائدي ... وأتى الحضور الإعلامي المتعاظم المكثف والدعم السياسي المباشر و غير المباشر للجهاد الأفغاني من دول أوربا الغربية ومن أميركا ليزيد في انتشار صيت المجاهدين وانتصاراتهم .. عبر المتابعة لتصريحاتهم وبياناتهم .. وليساهم – إلى حد كبير – في توفير الخبر الطازج والصورة الحية والدعاية المبرمجة بين يدي القارىء المسلم .. عن المقاومة الإسلامية في أفغانستان .

هوامش

(١) يؤكد « بوب وود وارد » صاحب كتاب « النقاب – الحروب السرية للمخابرات الأمريكية » أن معلومات المخابرات الأميركية كانت توضح بصورة قاطعة عزم السوفييت على غزو أفغانستان ، وانه تم رصد جنرال سوفييتي متخصص في الانتشار العسكري السوفييتي والذي سبق له أن نشط في شمالي فييتنام وهو يتجول في أفغانستان قبل ٦ أشهر من وقوع الغزو .. إضافة إلى أن صور الأقمار الصناعية ومؤشرات المخابرات جعلت مايعتزمه السوفييت أمراً واضحاً .. ولكن الأمر بدا كما لو لم يكن أحد هناك ، إذ لم يستمع أحد لما يقال ! أنظر : « النقاب .. » – ترجمة واعداد كامل يوسف حسين – صـ٧٧ . وحول هذا المعنى استخلصت الصحفية « كلوديا رايت » مراسلة مجلة « نيو ستسمان » البريطانية في واشنطن إشارات واضحة عن علم الأمريكان بالغزو السوفييتي قبل وقوعه أكدتها الوثائق السرية التي كتبها الدبلوماسيون والمسؤولون في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عن أفغانستان ، والتي أُخذت من السفارة الأمريكية في طهران وأُعيد تجميع أجزائها ووزعتها الحكومة الايرانية فما بعد .. وتدل هذه الوثائق على أن القائم بالأعمال الأمريكي في كابل أواخر عام ١٩٧٩ « بروس استنز » قد حصل على إشارات ودلالات عديدة بعزم السوفييت على التدخل وعلى الغزو .. لكنه استنتج أنه ليس من المحتمل أن يذهبوا إلى هذا المدى ، لما كان يبدو أن موسكو تفهم العواقب الوخيمة لتدخل عسكري شامل .. وعندما جعلت مؤشرات لاستعداد العسكري السوفييتي من المؤكد تدخل قوات مقاتلة ووقوع انقلاب ضد أمين ، اعتقد المسؤولون في الخارجية الأمريكية أن النتيجة من شأنها أن تشعل لهيب المعارضة الوطنية وأن تدعم مصلحة الولايات المتحدة في حصيلة معادية للسوفييت في الصراع الأفغاني على المدى الطويل .. أنظر : صحيفة « الإتحاد » – ٨٥/٥/٥ – « أسرار أفغانستان » بقلم : « كلوديا رايت » .

(٢) ثمة اشارات عديدة إلى أن قرار الغزو لم يلق إجماعاً كاملاً من مصادر القرار السوفييتي منذ البداية ، ففي نوفمبر ٨٢ كشف مسؤول كبير في المخابرات السوفييتية « كي. جي. بي » هرب وقتها إلى بريطانيا أن الرئيس بريجنيف لم يأخذ بمشورة المخابرات بعدم غزو أفغانستان . وصرّح الميجر « فلادمير كوزيشكين » لمجلة « تايم » الأمريكية بأن رئيسه أبلغه أن بريجنيف ورط الروس في حرب لا يمكنهم الانتصار فيها ولا يمكنهم التخلي عنها ، وأضاف – وفق مانسبته المجلة إليه – بأن المخابرات السوفييتية حاولت أن تشرح للرئيس بريجينيف أن غزو الأراضي الأفغانية سيؤدي إلى مشاكل .. وأن نظام حكم شيوعي صريح سيثير عداء الأفغان الذي سيوجه بعد ذلك ضد الإتحاد السوفييتي .. أنظر : صحيفة «البيان » – ٨٢/١١/١٦ عن وكالة « رويتر » . ولقد أشارت صحيفة « انترناشنل هيرالد تريبيون » في ديسمبر التالي إلى أن هناك تقارير موثوقة تفيد بأن الرئيس السوفييتي الجديد « اندروبوف » ووكالة الاستخبارات السوفييتية « كي. جي . بي » التي كان يديرها في ذلك الوقت قد أعربوا عن عدم رضاهم

للغزو .. وأنهم قد تنبؤوا بالإحباطات التي أعقبت تلك الخطوة .. أنظر : صحيفة « الوحدة » – ٦/ ١٢/ ٨٢ في مقال مترجم عن الصحيفة المذكورة . وفي بداية عام ٨٩ وصف الرئيس السوفييتي الأخير «جورباتشوف » التدخل العسكري في أفغانستان بأنه خطيئة وقال بأن هذا التدخل قد يسبب زيادة في المصاريف الحكومية ومشاكل اقتصادية في الإتحاد السوفييتي . أنظر : صحيفة « باكستان تايمز » – ٨٩/١/٢٤ كما اعترف مساعد وزير العدل السوفييتي وقتها « ميخائيل فشينسكي » في حديث للصحفيين بالعاصمة الهندية بأن قرار إرسال قوات سوفييتية إلى أفغانستان كان قراراً متهوراً .. أنظر : صحيفة « باكستان تايمز » ٨٩/١/٣١ كذلك فقد أعرب عضو مجلس السوفييت الأعلى ومستشار الرئيس جورباتشوف لشؤون السياسة الخارجية « فاديمزاجلادش » عن الأسف العميق لاشتراك بلاده في المغامرة الأفغانية ، ووصف غزو عام ٧٩ بأنه خطأ كبير، وقال : « لقد خدعنا تراقي الذي كان قد تورط في مبدأ الأمر ، وحالما دخلنا المعمعة أخذنا نغوص فيها أعمق فأعمق كما يغوص الانسان في الطين المبتلع .. » أنظر : صحيفة « الشرق الأوسط » – ٨٩/٢/٢٦ ومن جانبه صرح « بوريس يلتسين » عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي سابقاً ورئيس جمهورية روسيا البيضاء بأن القرار الذى اتخذ لارسال القوات السوفييتية إلى أفغانستان اتخذ من قبل ٤ أشخاص فقط هم : الرئيس السابق «بريجنيف » ووزير الدفاع « أندريه جروميكو » والمنظّر الإيديولوجي للحزب وعضو المكتب السياسي «ميشال سوسلوف » ووصف « يلتسين » قرار الغزو بأنه قرار ميت . أنظر : صحيفة « داون » الباكستانية – ٨٩/٣/١٥

(٣) في أول اعتراف صريح بخسائر الإتحاد السوفييتي في أفغانستان بعد الإنسحاب قال المعلق السياسي «إدوارد روزنيال » في مؤتمر صحفي عقد بموسكو « إن المعلومات التي نُشرت في الغرب وأفادت عن مقتل بين ١٢و ١٥ ألف جندي سوفييتي في أفغانستان خلال ثماني سنوات ونصف من التدخل العسكري هي معلومات قريبة من الصحة » . أنظر : صحيفة « الإتحاد » – ٨٨/٥/٢٠ عن وكالات الأنباء من موسكو.

(٤) في أول أحصاء رسمي تذيعه موسكو عن تكاليف حربها في أفغانستان أعل ريجكوف » رئيس الوزراء السوفييتي بأن الإتحاد السوفييتي أنفق ٧.٨ مليار دولار سنوياً خلال هذه الحرب التي كلفه تورطه فيها أكثر من ٧٠ مليار دولار . أنظر : « الإتحاد » ١٩٨٩/٦/٨ عن « رويتر » من موسكو .

(٥) ضمن مواقف الإدانة المبكرة التي واجهها الغزو من صفوف الإشتراكيين واليساريين في العالم ثلاث مؤتمرات تمثل هذه الإتجاهات أدانت الغزو وطالبت بانسحاب القوات السوفييتية . ففي مارس ٨٠ عُقد في باريس مؤتمر دولي من أجل أفغانستان رفع هذه الشعارات ودعا إلى وضع القضية بين أيدي «محكمة الشعب الدائمة » وهي منظمة يسارية رعاها الفيلسوف الشهير « برتراند راسل » وفي سبتمبر التالي عُقد مؤتمر يساري في روما من أجل أفغانستان حضره زعماء الحركة اليسارية والحزب الشيوعي الإيطالي ، وفي مايو ٨١ عُقدت « محكمة الشعب » في « ستوكهولم » وكان من ضمن هيئة المحلفين الـ ١٤ بروفسور بلجيكي معروف عالمياً ومشهود له بالقانون الدولي ، وقد وجدت هيئة المحلفين الغزو

السوفييتي لأفغانستان خرقاً فاضحاً للمادة الثانية من مبادىء الأمم المتحدة .. أنظر : « حقائق من حرب بلاد الأفغان » – علي بلوط – صحيفة « البيان » ٨٢/١/١٤ .

الأنصار العرب (٣)

الصدى

لم تكن أفغانستان ذلك القطر المسلم الذي رفع راية الجهاد في وجه الحكم الشيوعي المتطرف وأطلق نفر من علمائه وقادته الدعوة للمقاومة مبكراً .. بالبعيد عن وجدان إخوة الإسلام في بقية أقطار الوطن الإسلامي ودوله وشعوبه .. وإذا كانت الباكستان القطر الأول الذي تلقى نداءات الجهاد الأفغاني .وتحمل مبكراً تبعات المتضررين من أ بناء هذا البلد المجاور والمهاجرين عنه فراراً بالدين والكرامة والحياة .. فان العالم العربي قلب الإسلام ومهد الرسالة وخزان الحيوية والتجديد لهذا الدين لم يكن بالغافل الجاهل بأحوال أفغانستان .. وعلى الرغم من تأثيرات البعد الجغرافي ، وعدم الاهتمام الرسمي ، والظروف الاقليمية المعقدة التي تشكل مجموعة مراحل حاجزة بين تطورات الوضع في أفغانستان وبين الشعوب المسلمة العربية .. الا أن الصورة لم تغب .. وأجزاء الحقائق لم تنقطع .. ساعد على ذلك وساهم فيه مجموعة عوامل متفرقة ،كان من أبرزها الرصد التلقائي والاهتمام العفوي لدى الشعوب المسلمة علي وجه العموم بأحوال بعضها البعض .. والحركات والهيئات الإسلامية التي تهتم -بطبيعة تكوينها وبحكم دواعي قيامها- بمثل هذه الأحوال .. إضافة لذلك فإن وجود عدد غير قليل من الطلبة الأفغان مبكراً في عواصم الثقافة والعلوم البارزة كالقاهرة ، ومكة ، والمدينة ، ودمشق .. ساهم في تمتين جسور الصلة بين الشعبين وبين أبناء الحركة الإسلامية العربية والإسلاميين الذين التزموا منهجها وتوسموا خطواتها من أبناء الأفغان [1] لكن التطورات اللاحقة التي أحدثها الغزو المباشر لأفغانستان ، والمجابهةالواسعة بين الإحتلال وغالبية الشعب الأفغاني جعلت الحركات الإسلامية والشعوب المسلمة معها قاصرة عن مواكبة هذه التطورات كما ينبغي .. والتعامل مع إفرازاتها واحتياجاتها وأصدائها السياسية والعسكرية والإقتصادية والإعلامية .. التعامل الناضج والسريع . وعلى مدار السنوات التالية من عقد الثمانينات كان على المهتمين بالعمل الإسلامي ، وبالجهاد ، وبالإغاثة .. أن يخوضوا تجارب عديدة ، ويدخلوا مجاهل غامضة ، ويخطئوا ليصيبوا .. ويصيبوا ويخطئوا .. سعياً لبلورة وجودهم على ساحة الجهاد الأفغاني واقعاً يفرض نفسه .. ويؤدي دوره .. ويحقق أمانيه ويرضي طموحه [2] .. ولقد كان استحالة بحق أن تتنبأ أية جهة في العالم مع أيام الغزو الأولى بالمدى الذي يمكن للعرب المشاركين في الجهاد أن يبلغوه ، وبالأثر الذي يستطيعون تحقيقه .. لأن أياً من المشاركين - بداهةً - لم يكن يستطيع ذلك مثلما لم يكن يفكر فيه .. وكان من باب أولى أن تحكم الإستحالة أي جهد قد يبذل وقتذاك لمعرفة الجهة المرشحة لقيادة هذه المشاركة .. أو تنظيمها .. أو تبنيها .. وانه لأمر جدير بالملاحظة بحق أن يتأمل المراقب المتتبع للجهاد العربي في أفغانستان قيادات هذا التجمع ومسؤوليه ومنظميه .. فيجد في مقدمتهم أحد أبناء أكبر الأسر السعودية الموسرة .. دفعته التطورات والظروف لقيادة حشد كبير من العرب المجاهدين في أفغانستان .. ورعايتهم .. والحياة معهم في خندق واحد .. وبانتظار مصير مشترك .. أياماً وأسابيع وشهوراً . . . وغير بعيد عن « أسامة بن لادن » .. هذا الشاب الطويل النحيل الرقيق الفؤاد . . يتلفت المراقب ليجد في ذلك الوقت الدكتور « عبد الله عزام » رحمه الله ابن الحركة الإسلامية في فلسطين .. بوجه باسم يطفح بالبشر .. وقلب نابض بالأبوة والحنان .. يألف الشباب المجاهدين بعلمه وسبقه .. وحلمه وعطفه .. وغير بعيد

عنهما يبرز ثالث الأشخاص الذين شكلوا معاً – على غير ما اتفاق سبق أو ميعاد – أركان قيادة الوجود العربي المجاهد فيما بعد وهو « وائل جليدان » .. الطالب الذي ترك التحضير لشهادة الدكتوراة الزراعية في أمريكا ولبّى نداء الجهاد .. فنفع الله به وأجرى على يديه الخير الكثير

هؤلاء الثلاثة : أسامة بن لادن « أبو عبد الله » و د . عبد الله عزام « أبو محمد » ووائل جليدان «أبو الحسن المدني » كانوا ينصتون جميعاً في الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٧٩ إلى بيان الإنقلاب الجديد في أفغانستان ، ويستقصون أنباء الغزو السوفييتي ليلة الأمس . . كل في صقيع من أصقاع الأرض المترامية . . وفي وجهة شتى . . . وقتذاك .

هوامش

(١) يرى الأستاذ كمال الهلباوي مستشار القسم العربي بمعهد الدراسات السياسية في إسلام أباد وأحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين أن « الحركة الإسلامية منذ نشأتها واتضاح الصورة الكاملة لديها عن أمراض الأمة والتحديات التي تواجهها .. كان لزاماً عليها أن تعرف أجزاء هذه الأمة وإمكاناتها ، وقد ورد في رسائل الأستاذ البنا رحمه الله وفي كتابات كثير من المصلحين قبله وبعده إشارات إلى أطراف الأمة المتعددة ومنها أفغانستان .. » ويضيف في حديث لي معه بتاريخ ٩-٩-١٩٩٠ في إسلام آباد أن الحركة الإسلامية وبصفة خاصة في مصر عايشت أفغانستان منذ معايشة الشيخ جمال الدين الأفغاني رحمه الله ، فلم يكن غريباً على المثقفين في مصر وقد عاش الأفغاني بينهم مصلحاً ومربياً وداعياً لنهضة علمية ولدولة معاصرة .. ولم يكن غريباً على أبناء الحركة الإسلامية أن يعرفوا أفغانستان » ويتابع : « .. أما الاحتكاك الفعلي بقضية أفغانستان مع الحركة الإسلامية فيعود إلى الخمسينات والستينات من هذا القرن .. حين كان بعض الشباب الأفغان يدرسون في مصر ومنهم د. غلام نيازي الذي كان رئيس كلية الشريعة بكابل ، وبرهان الدين رباني وغيرهم كثير .. وفي السبعينات ذهب الأستاذ سياف إلى الأزهر ودرس هناك واحتك بالحركة الإسلامية .. كما أن صبغة الله المجددي عاش في مصر وتعلم فيها وكان عضواً في الحركة الإسلامية ، علاوة على عدد من أسرة المجددي منهم الشيخ محمد صادق المجددي رحمه الله الذي كان سفيراً لأفغانستان في القاهرة ، وولده الشيخ هارون رحمه الله الذي كان عضواً فاعلاً في الحركة الإسلامية ، وأخوه هاشم المجددي .. كثيرون تربوا في أحضان الحركة الإسلامية بإتصال مباشر أو غير مباشر .. وفي مصر بشكل خاص ، خاصة الذين عاشروا الأستاذ البنا رحمه الله من أبناء أسرة المجددي وتأثروا به تأثراً كبيراً .. ومن جانب آخر قد يغيب عن أذهان الكثيرين أن الأستاذ البنا رحمه الله كان – بنظره الثاقب شأنه شأن كثير من المصلحين – يوفد الوفود إلى البلاد الإسلامية .. وأذكر من هذه الوفود التي جاءت أفغانستان وبقيت لسنوات تدرس شبابها الذين كان منهم غلام ورباني وغيرهم .. الأستاذ الجليل محمود أبو السعود ، وهو من الذين عاصروا دعوة الإخوان المسلمين من بدايتها وقد أمضى في أفغانستان عدة سنوات أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات .. ثم لما

جاء إلى باكستان في الستينات مستشاراً للحكومة في النواحي الاقتصادية ، ظل على صلة طيبة بالحركة الإسلامية في أفغانستان ، ونقل إلى بعضهم بعض أصول الدعوة الأسلامية في القرن العشرين .. » .

(٢) حول وجهة نظر الحركة الإسلامية في دخول حلبة القضية الأفغانية يقول الأستاذ الهلباوي :« .. بعد اقتحام القوات السوفييتية أفغانستان أواخر ديسمبر ٧٩ بدأ العالم كله يتجاوب مع الجهاد الأفغاني : العالم الإسلامي تحرك بفطرته تقوده الحركة الإسلامية ، مثلما تحركت أمة أفغانستان بفطرتها تقودها الحركة الإسلامية .. والعالم الغربي تقوده أمريكا تحرك أيضاً بحكم مصالحهم الاستراتيجية في المنطقة .. وهكذا بدأت الحركة الإسلامية تهتم اهتماماً كبيراً بقضية الجهاد في أفغانستان لأسباب عديدة :أولاً : حتى لاتكثر قضايا المسلمين وأوجاعهم .. ولعل الحركة أخذت من قضية فلسطين درساً فأرادت أن تدعم الجهاد دعماً كاملاً ، خاصة وأن الظروف مواتية .. ففي فلسطين كان الأمريكان والروس ضد المسلمين سواء ، أما في أفغانستان فالأمريكان – على الأقل – لهم مصلحة .حاولت الحركة أن تستفيد من هذا الظرف كما حاول الأفغان الإستفادة منه كذلك . وأنه لمؤسف حقاً أن اتُهموا بالعمالة نتيجة هذا ، ولو لم يستفيدوا من الظرف وقتها لاتُهموا كذلك بعدم الاستفادة من الظروف المواتية ! » ويضيف الأستاذ الهلباوي : « ولكن الحقيقة التي لابد أن نقررها أن الحركة الإسلامية اهتمت بقضية أفغانستان إنطلاقاً من مبادىء أصيلة راسخة عندها .. وإذا بدا إسهام الحركة ضعيفاً بعد ذلك أو قليلاً ، فهذا جهدها .. وهذا قدرها » .

الأنصار العرب (٤)

خطوات على الطريق

لم يكن أ بو عبد الله « أسامة بن لادن » أواخر عام ٧٩ يزيد بسني عمره علي اثنين وعشرين ربيعاً .. ولم يكن يبلغ بوزنه جميعاً – ولا يزال – السبعين كيلو غراماً ، بينما يجاوز المئة والثمانين سنتيمتراً في الطول .. لكن أسامة الذي تخرج من كلية الادارة والاقتصاد بجامعة الملك عبد العزيز في جدة .. حمل على عاتقه مسؤوليات الحياة مبكراً وخاض مع إخوانه التسعة معمعة الكفاح والجد .. وقد ورثوا عن أبيهم أمانة واحدة من أكبر مؤسسات التجارة والصناعة والمقاولات في المملكة [١] .. ويتحدث أبو عبد الله بفخر وبتواضع متلازمين أنه اعتاد منذ السبعينات امتطاء «البلدوزر » الثقيل والتقدم به كأي عامل محترف يشق الطرقات ويقطع الحجارة الصلداء .. ولا عجب أن تهبه هذه المواجهة المبكرة لمشاق الحياة العامة رصيداً غير قليل من صفات المباد أة .. والمبادرة .. والعزيمة والتصميم ، لكن أسامة – من جانب آخر – وربما لأنه أصغر إخوته .. وأرقهم قلباً وأنسهم نفساً .. لم يكن لمن يلتقي به بعد خمس سنوات أو أكثر من هذا التاريخ .. ليصافح فيه مع اللقاء الأول سوى الشاب الرقيق الأ نيس .. ولا يكاد أحد يلتقيه إلى اليوم ، وبعد كل هذه السنوات التي أمضاها في ملاقاة مشاهد يشيب من هولها الولدان بحق .. ليصدق بسهولة أن هذا الشاب الوديع المنحول الذي يقف أمامه اللحظة قُدِّر له أن يشهد على مدار السنوات الماضية من المواقف والمعارك والشدائد ماتكلّ عن حمله الرجالات العظام .. لكن أنباء الغزو السوفييتي لأفغانستان مع نهايات عام ٧٩ كانت لدى أجهزة التلقي المرهفة عند أسامة بمثابة النذير العريان .. فلم تبطئ به مسؤولياته العديدة وقتذاك إلا أياماً وحسب .. حتى بلغ من ساحة الأحداث أقرب ما يمكن لوافد مثله أن يبلغه وفق مفاهيم هاتيك المرحلة . يقول أبو عبدالله [٢] : « .. في عام ١٣٩٩ هـ . أذكر أنني سمعت وأنا بجدة من أجهزة الاعلام أن القوات الروسية دخلت أفغانستان .. هذا الخبر ساءني جداً واستنفر همتي أن آتي إلى الإخوة المجاهدين هنا في باكستان ، فصرفت أسبوعين تقريباً في تجهيز أمري وتجميع بعض الأموال من بني أبي وإخواني .. وكان لنا أخ صديق يدرس في كراتشي هو شقيق عبدالله الجفري ، فأتيت هناك أنا وأخي من أبي : محروس ، أتينا الي كراتشي وكان إيصال التبرعات في تلك الفترة عن طريق الجماعة الأسلامية ، كان الشيخ أبو الأعلى المودودي – رحمه الله – لا يزال موجوداً ولكنه كان مريضاً ، فكان نائبه طفيل محمد هو الذي يستلم التبرعات لإعطائها للمجاهدين .. » ويضيف أسامة : « في لاهور بالمنصورة [٣] إلتقينا الأستاذ طفيل وسلمناه بفضل الله بعض التبرعات التي أتينا بها ، واستمرينا على ذلك دون المشاركة الجسدية ، فقط بالمشاركة المالية ، ولأن الجو العام لم يعلن بعد عن مواقف الدول الإسلامية بالنسبة لأفغانستان وأيضاً في المملكة كان الجو العام عندنا أن هذا الأمر محذور لأننا ما ألفنا جهاداً ولا نصرة مسلحة أو في هذا الباب ، فكنا نذهب ونرجع سراً ، والأعذار كثيرة في هذا للمثبطين وإن كان تثبيطهم بحسن ظن ، وعلى هذه الحال استمرينا للأسف وأقول للأسف الشديد إلى عام ١٤٠٤ هـ » .

* * *

في عمان .. كان الدكتور عبد الله عزام رحمه الله يكمل مع مطلع الثمانينات آخر سابع سنة له مدرساً في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية .. دون أن يدري !

كان الشيخ عبد الله و قتذاك يختزن كمّاً متراكماً من الأشجان والانفعالات والحسرات تمور بين جنبيه كالبركان .. فتجربة السنتين الذهبيتين اللتين أمضاهما – رحمه الله – مع مجموعات الإخوان المسلمين التي استظلت وقتذاك بمنظمة التحرير الفلسطينية وجاهدت اليهود متخفية باسمها .. لم يكن لينساها .. « كانت تجربة عذبة جداً بالنسبة لنا ،وتجربة مريرة بالنسبة للواقع المر الذي اكتشفناه لحال المسلمين » لماذا ؟ يضيف د .عبد الله فيقول (٤) : « لأ ننا لم نستطع أن نجمع كتيبة واحدة من أبناء الحركة الإسلامية أو من أبناء المسلمين .. فكانت التجربة حزينة ومرثاة أليمة .. » فالدكتور عبد الله ابن « سيلة الحارثية » من قضاء « جنين » بفلسطين المحتلة اعتصر الهم فؤاده وقد شهد أيام طفولته المبكرة التواطؤ السافر بين اليهود المحتلين وأربابهم الانجليز والأوربيين من جهة .. وبين الحكام المتسلطين في المنطقة المتواطئين على الخيانة والتسليم .. وازداد لوعة وأسى يوم تلقت جماعة الإخوان المسلمين « جزاء سنمار » على جهادهم الذي خاضوه في فلسطين عام ١٩٤٨ .. فقُتل مرشدهم .. وطوقت كتائبهم .. ونُزع السلا ح من أيديهم بأيدي المصريين لا بأيدي اليهود ! ثم اقتيدوا إلى المعتقلات والسجون .. وعندما تبدت ملامح فرصة جديدة للمشاركة في مجاهدة اليهود انخرط د . عبدالله عزام مع مجموعات الإخوان الأردنيين ومن شاركهم من السوريين ومن السودانيين في ظرف أبعد ما يكون عن التناسب المطلوب . يقول رحمه الله : « كانت الحركة الإسلامية ظانة أن بامكانها أن تحرك مشاعر العالم الإسلامي باسم فلسطين وباسم المسجد الأقصى ، على الأ قل أن تحرك مشاعر أبنائها الذين ربتهم ، لكن الحركة الإسلامية كانت مصادرة فى السجون ، وليس هناك إلا بداية حركة في الأردن فما استطاعت أن تواكب مسيرة القتال ، ولا مسيرة التيارات التي تتاجر بفلسطين ، لتأخرها وقد سبقها الناس ، ولقلة الأ عداد التي قدمتها ..» ويضيف د . عبد الله : « لقد تأخرت الحركة الإسلامية في الدخول ، فبعد أن أمطرت السماء ومضت السيول جاء جدول نظيف بسيط هو جدول الحركة الإسلامية ..» وبانتهاء التجربة ، ومع فاجعة عمان في إيلول ١٩٧٠ « كانت التجربة حزينة ومرثاة أليمة .. لكننا كنا نعيش محلّقين في السماء ، نعيش أفقاً عاليا من ناحية استعداد هذه المرحلة ، والفضل والنعم التي منّ الله بها علينا ، والصفاء الروحي والإشراق النفسي والروابط التي قامت بيننا نحن الذين اشتركنا في هذه التجربة .. » وخلال سبع سنوات من عام ٧٣ الذي أكمل فيه الشيخ عبد الله دراسة الدكتوراة في مصر وعاد إلى الجامعة الأردنية مدرساً فيها ، وحتى اكتوبر من عام ٨٠ كان رحمه الله ماينفك يطوف بخياله مع ذكريات الجهاد وأيام الكر والفر في الأغوار .. وعلى ثرى أكناف بيت المقدس .. وفي موقعه الذي أحبه ، مدرساً ومربياً لجيل جديد يشب ، شرع د. عبد الله يغذي الطلبة الذين التفوا حوله وأحبوه بالفكر الفذ وبالموقف الجريء .. ومرة بعد مرة صدرت القرارات الرسمية بفصل الدكتور عبدالله من الجامعة ، طاش اثنان منها بقدر الله ولطفه ليتحقق الثالث بقدر الله تعالى ويصيب . يقول رحمه الله : « .. المرة الثالثة في

اكتوبر عام ٨٠ جاءني كتاب مكتوب عليه : سري جداً .. فتحته وإذ به قرار من الحاكم العسكري العام ورئيس الوزراء مضر بدران وقتذاك بفصل الدكتور عبدالله عزام من الجامعة الأردنية .. وسبحان الله الذي فتح لنا هذا الباب فكانت نعمة منه عز وجل .. ونظرت في واقع الأرض وكان الحنين إلى الجهاد يشدني دائماً .. فوجدت أن هناك جهاداً في اليمن بين الحركة الإسلامية وبين الشيوعيين ، وجهاداً في أفغانستان فصممت أن أذهب إلى أحد هذين العرينين ، وتعاقدت مع جامعة الملك عبد العزيز (بجدة) وخدمت فيها فصلاً واحداً ، ولعل الله عز وجل نظر إلى قلوبنا وشوقنا إلى الجهاد فاستجاب لنا .. وسهل لنا الطريق » .

* * *

.. وفي إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية بولاية « كنتاكي » ، وضمن إحدى مواد الثقافة العامة التي أدخلتها كلية العلوم الزراعية على برامجها .. كان أبو الحسن المدني « وائل جليدان » يتابع باهتمام محاضرات مادة « الحضارات الإنسانية » من بروفيسور يهودي .. أراد أن يحول قاعة البحث العلمي منبراً لترويج الفتن الفكرية والضلالات المنهجية .. فانقلب السحر على الساحر .. وارتد السهم المسموم على رامية ! يقول أبو الحسن [٥] : « في صيف عام ٨٠ كان البروفيسور اليهودي (جودون) قد ركز خلال هذا الفصل الدراسي على الحضارة الإسلامية بعد أن استعرض كل الحضارات الانسانية السابقة .. ولأكثر من أسبوع ، وفي محاضرات يومية متصلة كانت تزيد في كل واحدة منها على ساعتين أوثلاث .. مضى البروفيسور يتكلم عن الجهاد الإسلامي محذراً من خطورته .. وأنه أساس دمار كل حضارة إنسانية .. وقال إن بقايا الحضارة الإغريقية في اليونان هُدمت أطلالها باسم الجهاد الإسلامي .. وإن الحضارة الرومانية الثانية سقطت على يد الجهاد السلامي .. وإن الحضارة الفارسية سقطت أيضاً بنفس السبب .. وكذلك انتهت الحضارة الفرعونية ، وفي خاتمة المطاف أكد هذا البروفيسور أن الحضارة الإنسانية التي يتمتع بها الغرب اليوم في القرن العشرين سوف تنتهي وتزول باسم الجهاد الإسلامي .. فشرارة هذا الجهاد التي انطلقت من جديد في أفغانستان كفيلة بأن توقد جذوته في العدد والكم الهائل الموجود في أواسط آسيا من المسلمين ، فإذا تحرك هذا الجهاد فوصل موسكو وأمسك بزمام الحكم هناك ، عندها سوف يعلن عن حرب عالمية ثالثة باسم الجهاد الإسلامي .. وعندها سوف تنتهي هذه الحضارة الإنسانية التي نتمتع بها اليوم في الغرب .. » ! ويضيف أبو الحسن : « عند ذاك عرفت - كشاب مسلم - أن هناك أمل كبير معقود على هذا الجهاد في أفغانستان ، أسمعه على لسان الأعداء قبل الأصدقاء ، ولسان من يتربصون به قبل الذين يدعمونه ، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعمل جاهداً للوصول إلى هذه الساحة » .

هوامش

(١) في دراسة لمجلة « المجلة » السعودية - العدد ٥٦٣ - بتاريخ ١٩٩٠/١١/٢١ اعتبرت أن شركة بن لادن « بمكو » إحدى الشركات العشر المتميزة بين أكبر مئة شركة سعودية ، وذكرت الدراسة أن الشركة أنشئت عام ٧٥ وأصبحت الآن من الشركات الرائدة في مجال المقاولات الكهروميكانيكية والصيانة وكذلك المقاولات الصناعية والإنشائية ، وأضافت أن عائلة بن لادن معروفة في مجال المقاولات

منذ أن رسّخ عميدها الراحل محمد بن لادن سمعتها الجيدة بالتصدي للمشروعات العملاقة كالطرق التي تقام في مناطق وعرة مثل طريق مكة – الطائف . تميزت بأسلوب إدارتها وحققت عام ٨٩ حجم مبيعات بلغت ٣٥٥ مليون ريال .

(٢) في حديثه المسجل معي بتاريخ ١٩٨٨/٩/٢٧ في بشاور .

(٣) « المنصورة » : المقر الرئيسي للجماعة الإسلامية في الباكستان ، تقع في أحد أحياء مدينة لاهور وتضم مجمع الإدارات ومعهد الإمام المودودي ومستشفى ومسجد ومجموعة وحدات سكنية ..

(٤) في حديثه المسجل بتاريخ ٨٩/٤/٢ أثناء زيارته لدولة الإمارات .

(٥) في حديثه المسجل بتاريخ ٨٨/١٠/١٠ في بشاور .

الأنصار العرب (٥)

مسلسل الإتحادات

حتى نوفمبر من عام ١٩٨١ تاريخ وصول الدكتور عبدالله عزام العاصمة الباكستانية مستقراً ومقيماً .. وابتداء اتصاله القريب بـالمجاهدين الأفغان ، كانت القضية الأفغانية قد بلغت على مختلـف الأصعدة مـنزلة متميزة متقدمة .. واحتلت مكان الصدارة بين القضايا الساخنة والشائكة على امتداد العالم كله ، فسياسياً .. ومنذ الأيام الأولى للغزو أكد المجتمع الدولي إدانته الاجتياح السوفييتي ومعارضته إياه بما يشبه الإجمـاع [١] وتوالت قرارات منظومة الأمم المتحدة ، وبيانات الدول الغربية .. والإسلامية ، والهيئات والمنظمات المختصة تشدد على رفض الاجتياح .. وعلى وجوب الانسحاب الفوري للقوات الدخيلة ، وتـدعو لمناصرة الشعب الأفغاني ومد يد العون للمقاومة المتنامية في وجه الاحتلال ؛ ولم يكن خافياً منذ ذاك أن جميع الإعتبارات الإنسانية والحقوق المصيرية .. والأعراف والمواثيق الدولية التي يبكى العالم أويتباكى على اختراقها في أفغانستان . لسوف توظف - كلها - لتحقيق أكبر قدر من الربح يصب في كفة الولايات المتحدة الأميريكية وهي تخوض واحدة من أشرس مراحل الحرب الباردة مع الإتحاد السوفييتي الخصم التقليدي - وقتها - ثم ها هي تراه يسقط بغباوة متفوقة في مستنقع أفغانستان الدامي ! وهكذا وجدت القضية الأفغانية نفسها مبكراً أسيرة الإستقطاب الدولي ، وألفى الشعب الأفغاني المنكوب مصيره موزعاً بين حمم الموت وحمامات الدم السوفييتية .. وبين تجار الحروب وسماسرة الدم الأمريكان .. يريقونه من أوردة الأفغانيين على جوانب الشرف الرفيع الذى فقدوه في فييتنام ! وإذ ذاك كان على حركة المقاومة الجهادية أن تتحمل مسؤولية هائلة ألقاها على كاهلها وألزمها إياها ليس الشعب الأفغاني وحده ينتظر التحرير والخلاص ، ولا الأمة الإسلامية ترتجي لهؤلاء الإخوة في الدين النجاة وحسب ، فالكتلتان الأعظم في العالم تصطرعان - الآن - على رقعة أفغانستان ، وفي الوقت الذي لن تتورع الشيوعية الموتورة عن أن تسحق بدباباتها الغازية جماجم الشعب الأفغاني الأعزل لتحقق هيمنتها الجشعة .. لا تتردد الإمبريالية الأمريكية - ولن تتردد - في أن تقاتل الخصوم الشيوعيين بكل صلابة .. حتى آخر قطرة دم أفغانية !! واذا كانت مراحل الجهاد السابقة قد أفرزت - قبل الإجتياح - عدة تنظيمات تولت قيادة المعركة ضد الأنظمة السابقة العميلة للشيوعيين دون أن تفلح في تحقيق وحدة حقيقية فيما بينها .. فان المناخ الجديد والتحديات الكبيرة بعد الاجتياح جعلت من إتحاد هذه التنظيمات أمراً ملحاً . . ومطلباً مستعجلاً . وبرغم الفشل الذي انتهت إليه محاولات سابقة بهذا الصدد ، ومع التغاضي عن أسباب هذا الفشل والإشاحة عن طبيعة المعوقات والظروف التي أوجدته .. فقد تداعت همم المحبين والناصحين المؤملين وسواهم لتدفع ستاً من أبرز هذه التنظيمات للإعلان عن إتحاد جديد فور انتهاء الجلسة الإفتتاحية للمؤتمر الطارئ للدول الإسلامية الذي عقد في ٢٧/ يناير /٨٠ بإسلام آباد تحت اسم « الإتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان » حصل علي دعم قوى من بعض الدول العربية وبخاصة الخليجية . وحسبما ذُكر فقد دفع السعوديون للإتحاد ٢٤ مليون دولار [٢] وقد ضم الإتحاد وقتها كلاً من « الجمعية الإسلامية » برئاسة (برهان الدين رباني) الذي اختير متحدثاً باسم « الإتحاد » أمام المؤتمر ، و « الحزب الإسلامي » (حكمتيار) و « الحزب الإسلامي » (خالص) و « حزب إنقلابي إسلامي » (محمدي) و « حزب ملي إسلامي » (جيلاني) و« الجبهة الثورية » (مجددي) وفي

تصريح لصحيفة « الإتحاد » الظبيانية نقلته عن القادة الستة لهذا الإتحاد بُعيْدَ الإعلان عنه قالوا : إن هناك ١٥٠ ألف رجل يحاربون الآن في أفغانستان ، وهناك أكثر من ٣٠٠ ألف آخرين مستعدين لخوض القتال إذا توافرت لهم الأسلحة . . [٣] لكن عقد هذا الإتحاد لم يلبث بخروج (حكمتيار) منه – أن انقسم في شهر مارس /٨٠ مرة أخرى ليقتصر على خمسة أحزاب هي : « الجمعية الإسلامية » (رباني) و «الجبهة » (جيلاني) و « الحزب الإسلامي » (خالص) و « الحركة » (محمدي) و « جبهة التحرير الوطني » (مجددى) فيما برز البروفيسور (سياف) آنئذ وقد خرج لتوه من أفغانستان ناجياً من ملاحقة الشيوعيين واعتُبِر الوجه الذي يمكن أن يجتمع عليه الجميع ، ربما لعدم وجود حزب له وقتذاك [٤] .. ووقتذاك كان من الطبيعي أن ينضم الأستاذ (سياف) إلى « الجمعية الإسلامية » باعتباره كان وكيلاً للأستاذ (رباني) في كابل بعد هجرة الأخير وقبل اعتقال الأول ، لكن الأستاذ (سياف) استطاع الحصول على بطاقة العضوية في «الحزب الإسلامي » الذي كان الشيخ (يونس خالص) قد انشق به عن (حكمتيار) .. وعلى ترشيح «الحزب » له لزعامة الإتحاد .. وبالفعل أسفرت الانتخابات عن تعيين الأستاذ (سياف) رئيساً للإتحاد الخماسي .. والشيخ (المجددي) وكيلاً له في ذلك الوقت .[٥] . . غير أن الإتحاد الجديد لم يلبث أن تقوّض من جديد في شهر فيبراير /٨١ في الوقت الذي بدأت تتبدى دلائل متزايدة على نشوء تنظيم آخر يتمحور حول الأستاذ (سياف) ليضيف سبباً جديداً في خلافات الاحزاب والزعامات ! وهكذا أُعلن في الثاني والعشرين من ابريل /٨١ عن حل التحالف الخماسي أو « الإتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان » وعن تشكيل جبهة ثورية حديدة لتحرير أفغانستان ضمت «الحزب الإسلامي » برئاسة (حكمتيار) و «الجمعية » برئاسة (رباني) و « الحركة » بقيادة (محمدي) [٦] . . وفي سبتمبر الذي تلاه انضم (مجددي) و (خالص) من جديد إلى الثلاثة الباقين ليكوّنوا إتحاداً خماسياً تحت اسم « الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان » وضع صيغة دستوره ٣٠٠ عالم [٧] جعلوا له مجلساً أعلى للشورى الاسلامي من أعضاء التنظيمات بالتساوي ممن تنطبق عليهم شروط الحل والعقد شرعاً .. وأعطو الإتحاد والمجلس بعد تأسيسهما صلاحية إعلان حل الأحزاب ومنعها عن العمل بصورة مستقلة . . وإلزامها بوضع كل ماتملك تحت تصرّف الإتحاد .. [٨] ثم لم تلبث أن عادت التشكيلة لتُصاغ من جديد في نوفمبر من العام نفسه حينما أُعلن عن إتحاد آخر بين خمس تنظيمات يحمل اسم الإتحاد السابق ويضم كلاً من : «الحزب الإسلامي » (حكمتيار) و « الجمعية الإسلامية » (رباني) و « الحزب الإسلامي » (يونس خالص) و « جبهة التحرير الوطنية » بقيادة (مولوي محمد مير) و « حركة الإنقلاب الإسلامي » بقيادة (مولوي محمود شاه) [٩] ؛ ووقتذاك أعلن (حكمتيار) الذي طالما أظهر موقف المعارضة من محاولات الإتحاد السابقة « أننا سنتمسك بعروة هذه الوحدة ولن نتركها حتى تواجه ما واجهته الوحدة السابقة .. » وأضاف في كلمة له ألقاها في المؤتمر الأول للإتحاد الجديد [١٠] : « أن الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان سيكون الجهة الوحيدة التي ترعى قضية أفغانستان وتبادر إلى حلها .. وأن هذا الإتحاد لوحده هو الممثل الوحيد لثورة شعب أفغانستان العظيمة .. » وأضاف : « أيهاالإخوة : استمسكوا بعروة الوحدة ، وإن صمود و دوام هذه الوحدة ثم بقاؤها يتعلق بإخلاصكم وثقة بعضكم على بعض .. أيهاالأخوة : لا تسمحوا للعدو مرة أخرى أن يوزع صف الجهاد

والمجاهدين .. » وفي نفس المناسبة كتبت مجلة « الموقف » الناطقة باسم الحزب (حكمتيار) تقول [11] : «لقد قامت جهات مختلفة بمحاولات وجهود مضنية من أجل إيجاد الوحدة الا أن الموانع والعقبات كانت تحول دون وصولهم إلى الأمنية المنشودة ، كما أن هناك جهات أخرى أخذت بجهود جبارة لتشييد الكيان الجهادي وإزالة الخلافات .. ولكن حيث أن جُلَّ هذه الجهود لم تأت من طريقها السوي الطبيعي وأن جُلَّ هذه الجهات أخذت بتجميع شمل الفئات من غير أن تدرس عوامل الخلاف و من غير أن تراعي فيها المعايير والمباديء التي تضمن بقاء الوحدة ومن غير أن تعرف الجوالذي تعيشه الفئات سياسياً وفكرياً فتلاشت الوحدات بل وأكثر من ذلك تولدت مجموعات أخرى جعلت الواقع الجهادي أكثر تعقيداً وتمزيقاً .. » .

* * *

في تلك الفترة ، وبين تقوض الإتحاد الخماسي والتشكيل الجديد الذي تلاه في بدايات هذا العام . . وبين هذاالإتحاد الأخير في نوفمبر كان وصول الأستاذ كمال السنانيري -رحمه الله - مندوباً عن مكتب الارشاد لجماعة الاخوان المسلمين ، وخلال أربعين يوماً قضاها في بشاور وقتذاك شهدت القضية الأفغانية مساع عربية حثيثة لصياغة إتحاد جديد بين المجاهدين الأفغان .. يقول الدكتور عبد الله عزام رحمه الله : «وأنا في جدة ، في جامعة الملك عبدالعزيز مرّ عليّ الأستاذ السنانيري رحمه الله وكنا على صلة وثيقة من أيام مصر ، فقال لي : أنت لا يصلح لك هذا المكان . قلت له : أعلم ذلك ، وأنا أخطط للذهاب إلى أفغانستان ولكن إذهب هناك و انظر الجو ثم عد إلينا بالخبر اليقين » ويضيف د . عبد الله : « هو في الحقيقة ذهب مندوباً عن مكتب الإرشاد ليقوم بتوحيد فصائل الجهاد الأفغاني ، وهناك في بشاور مكث أربعين يوماً يحاول أن يجمع الفصائل الأربع :حكمتيار-رباني-خالص- سياف ، وكاد أن يصل إلى حل لولا أنه قتل رحمه الله بعدعودته الى مصر وقد نقل إلى إخوانه بشريات « الوحدة الفكرية بين أبرز القادةالأفغان فى بشاور.. والأمل باجتماعهم في العاجل القريب .. وبالفعل تم في شهر مارس من العام التالي ٨٢ تشكيل اتحاد جديد من سبعة أحزاب ضمت الزعماء الذين عرفوا بـ «الأصولية » تحت اسم « الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان » أيضاً ، ضم كلاً من الأ ستاذ (سياف) الذي دخل الإتحاد بحزب مستقل يحمل اسم الإتحاد الإسلامي القديم ! واختير رئيساً للجنة السياسية و (حكمتيار) الذي اختير نائباً للرئيس و (رباني) رئيساً للجنة العسكرية و (خالص) ر ئيساً للجنة المالية و (مولوي نصر الله منصور) الذي شكل « حركة الإ نقلاب الإسلامي » ومولوي (رفيع الله مؤذن) الذي شكل تنظيماً آخر بنفس الإسم ، وكلاهما كان قد خرج عن حزبه السابق برئاسة (محمدي) .. وأ خيراً (محمد مير) الذي شكل « جبهة نجاة ملي » أي « الخلاص الوطني » .. والذي انفصل عن تنظيم (مجددي) .. وبعد الإتفاق على أن يجري انتخاب رئيس لهذا الإتحاد كل شهر ، انتخب المجلس الأستاذ (سياف) رئيساً للإتحاد الذي وصفه الدكتور عبدالله عزام وقتذاك بأنه « إتحاد حقيقي و وليس مسرحية » [10] .. فيما استمر الزعماء الثلاثة الذين خرجوا عن الإتحاد ورفضوا الإنضمام إليه يشكلون تحالفاً مستقلاً فيما بينهم راجت تسميته على ألسنة الطرف الآخر وقتذاك بـ« مسجد الضرار » .. واعُتبرَ الثلاثة : (مجددي) و(جيلاني) و (محمد نبي) « سماسرة

للملك ظاهر شاه .. و سيدته أمريكا »[١٦].. وعلى الرغم من الجهد الكبير والواضح الذي بُذل لصياغة هذا الإتحاد وإقرار بنود الإتفاق عليه .. إلا أن الأمور لم تتغير في حقيقتها كثيراً .. والشكاوى والمنازعات لم تكد تتوقف .. ولم يلبث الإتحاد الأخير هذا أن صار إلى نفس مصائر ما سبقته من اتحادات .. وعادت الشخصيات العربية الغيورة على حال الجهاد والمجاهدين تهرول مسرعة لتدارك الأمر .. وتثبيت الإنهيارات .. والخروج من المأزق الجديد .. بحل آخر جديد .. وبإتحاد وليد !

هوامش

(١) منذ السابع والعشرين من يناير عام ١٩٨٠ أعرب مجلس الأمن في مشروع قرار له حول هذا الإجتياح عن أساه الشديد للتدخل المسلح الأخير في أفغانستان ، ودعا إلى الإنسحاب العاجل وغير المشروط لجميع القوات الأجنبية ، وأكد أن سيادة أفغانستان وسلامة أراضيها واستقلالها السياسي ووضعها كدولة غير منحازة يجب أن تحترم احتراماً كاملاً .. وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية ساحقة قراراً شجب بقوة التدخل المسلح الذي حدث في أفغانستان ، ودعا إلى الانسحاب الفوري غير المشروط والكامل للقوات الأجنبية .. وناشد جميع الدول والمنظمات الوطنية والدولية تقديم مساعدات الإغاثة الإنسانية للاجئين الأفغان ، وقد صوت بجانب القرار ١٠٤ دول وعارضته ١٨ دولة وامتنعت ١٨ دول أخرى عن التصويت ، فيما تغيبت ١٢ دولة عن الحضور .

(٢) أنظر : « أفغانستان الحاضر والمستقبل » معهد الدراسات السياسية – إسلام آباد – العدد ١١– مايو ١٩٩٠– صـ ٦٤ .

(٣) صحيفة « الإتحاد » – ٢٤/ ٢/ ١٩٨٠

(٤) أنظر : « أفغانستان الحاضر والمستقبل » –العدد ١١– ص٦٤ – ٦٥

(٥) يروي الشيخ جلال الدين حقاني (في حوار مسجل لي معه بتاريخ ٩٠/٩/١٨ خلال مرافقته من إسلام آباد إلى بشاور) تفاصيل حصول الأستاذ سياف على حق الترشيح لانتخابات الر ئاسة أ ول مرة بعد خروجه من أفغانستان .. ويقول : « إن بعض الإخوة تشاوروا وقالوا بـأن الشيخ سياف رجل معتدل وعالم وليس له جماعة فهو مناسب أن نجعله رئيس الإتحاد لأنه سينظر إلى كل الجماعات بعين واحدة » ويضيف الشيخ جلال : « وقتذاك قررت لجنة الانتخابات في مجلس الشورى بـأن على كل شخص يريد ترشيح نفسه أن يتحقق فيه شرطان : الأول أن يكون عضواً في أحد التنظيمات ، والثاني أن يكون عضواً في مجلس الشورى . وفي ذلك الوقت قال الشيخ سياف بأنه سيأخذ بطاقة الجمعية ، لكن الجمعية وافقت على إعطائه بطاقة العضوية فقط ، أما بطاقة مجلس الشورى فقد امتنعت عن إعطائه إياها لأن لديها خمسة أشخاص معينين فعلاً لمجلس الشورى ولن يكون سهلاً إخراج أي منهم وإدخاله بدلاً عنه.. وكان موعد انتخاب الرئيس بعد يومين أو ثلاثة » ويتابع الشيخ جلال الدين :« في تلك الأيام كان يونس خالص في الداخل وكنت نائباً عنه خلال شهر واحد ، فتشاورت مع الإخوة فوافقوا على أن نُخرج واحداً

من جماعة يونس خالص عن مجلس الشورى وكان اسمه د. حيدر ، خرج عن طيب خاطر وأعطينا مكانه للشيخ سياف ، كما أخذنا له أيضاً بطاقة عضوية في الحزب الإسلامي - يونس خالص - ووضعنا عليه مقابل ذلك شرطين قيدناه بهما : الأول : أن لا يعمل على تأسيس منظمة مستقلة ، والثاني : ألا يترك عضوية الحزب الإسلامي في حالة انهدام الإتحاد . وهكذا جاء سياف إلى مجلس الشورى وكان صبغة الله مجددي ومحمد نبي كلاهما زعلانين : كيف في ليلة واحدة لايصبح عضو المنظمة فقط وانما يصير عضو مجلس الشورى العالي أيضاً ! لكن المهندس أحمد شاه ومولوي منصور ووكيل باز كانوا موافقين معنا على رئاسة الشيخ سياف للإتحاد ، فأخذنا له أصوات جماعة يونس خالص الخمسة ، وجماعة رباني الخمسة أيضاً ، وصوتين من جماعة محمد نبي، وواحد لمنصور ، واثنين من جيلاني أحدهما وكيل باز والثاني أظنه رئيس أنور من زرمت ، وشخص آخر لا أذكره الآن ، ولم يكن مترشحاً للرئاسة وقتها إلا صبغة الله ومحمد نبي وسياف ، فكانت الأكثرية لصالح الشيخ سياف ، وصار بذلك رئيساً للإتحاد » .

(٦) «صحيفة « القبس » الكويتية - ٨١/٤/٢٤ .

(٧) أنظر : مجلة « المجتمع » -العدد ٥٤٧- بتاريخ ٢٢ ذو الحجة ١٤٠١- الموافق ٢٠ اكتوبر ١٩٨١ - صـ ٢٤ - مقابلة مع أمير حركة الإنقلاب الإسلامي نصر الله منصور .

(٨) عن « دستور الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان » - مجلة « المجتمع » - العدد ٥٤٩- ٨١/١١/٣ - صـ٢٢-٢٥- وانظر أيضاً : مجلة « صوت الجهاد » الصادرة عن الجمعية الإسلامية (رباني) - العددان ١٠/١١- بتاريخ ذو الحجة ١٤٠١ - صـ ١٨/٢٠ .

(٩) « أفغانستان الحاضر والمستقبل » - العدد العاشر - مايو ١٩٩٠- صـ ٦٠

(١٠) بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٩٨١ - أنظر : مجلة « الموقف »-العدد ٢٤-ذو الحجة ومحرم١٤٠١/١٤٠٢ - الموافق نوفمبر وديسمبر ١٩٨١- صـ ٦-٧

(١١) المصدر السابق -صـ ٨-٩ .

(١٢) أنظر : « آيات الرحمن في جهاد الأفغان » -د. عبد الله عزام - صـ ١٢٤

(١٣) مجلة « الدعوة » - العدد ٦٦ - المحرم ١٤٠٢ / نوفمبر ١٩٨١ - صـ ..

(١٤) في مقابلة له مع مجلة « الإرشاد » - العدد الثاني - السنة الخامسة - صفر ١٤٠٣ الموافق نوفمبر / ديسمبر / ١٩٨٢ - صـ ١٢ ووقتذاك صرح الأستاذ سياف لمجلة « المجتمع » - العدد ٦٠١- بتاريخ ٢٨/ ١٢/ ٨٢ - « إن هذا الإتحاد أسس على قواعد وضوابط إسلامية ثابتة وهو إن شاء الله سيكون إتحاداً ثابتاً محكماً لا يستطيع أحد أن يكسره أو يدمره .. » صـ ١٧- ومن جانبه قال المهندس حكمتيار في مقابلة مع مجلة « الموقف » العدد ٢٥- ربيع الأول وجمادى الأولى ١٤٠٢ : « إن المحاولات والإتحادات السابقة إما لم تكن لديها لوائح العمل وإما أنها أخذت بإعداد اللوائح والاستراتيجية بعد تعيين

الوظائف وتوزيع المسؤوليات ، وهذا الأمر كان بدوره عاملاً في سقوط الإتحادات السابقة وتمزيقها ، أما في هذا الإتحاد فقد انتهينا من حل جُلّ نقاط الخلاف والنزاع بين المنظمات في أول الأمر وقبل المبادرة إلى تعيين الوظائف وتوزيع المسؤوليات ، وبعد الموافقة الكلية فيها بادرنا إلى تعيين الكوادر واللجان وتقسيم المسؤوليات ، وآمل ألا تكون بعد ذلك أي عقبة أمام الإتحاد » وعندما سُئل في نفس المقابلة عن احتمال تمزق هذه الوحدة قال حكمتيار : « أنا شخصياً لا أتصور ذلك .. أنا أستبعد ذلك » صـ ٢١-٢٣

(١٦) أنظر على سبيل المثال : « آيات الرحمن » صـ ١٢٧-١٢٨ والتقرير الثاني لأمير الجماعة الأسلامية في الباكستان طفيل محمد عن أفغانستان - مجلة « البلاغ » ١٩٨٣/٣/١٣ .

الأنصار العرب (٦)

المأزق الحرج

حتى هذه المرحلة كان التواجد العربي القريب من الساحة الأفغانية يتجه في مجمله للإهتمام والعناية بثلاث قضايا رئيسية تهم الجهاد : أولاها : التبـرعات ، وغالباً ماكانت تُسلم للجماعة الإسلامية الباكستانية أو لقادة التنظيمات مباشرة يتقدمهم سياف الذي حاز صيت الشرعية باسم الإتحاد . وثانيها : الإعلام .. المنهجي – في حالات قليلة – والعاطفي السطحي أغلب الأحيان ! ثم الإتحاد ، وهو المطلب البدهي والملح منذ ذاك و إلى أيامنا هذه ، وغالباً ماكان الدور العربي في هذا الاتجاه – فردياً أم مؤسسياً – ينتهي آخر المطاف إلى منعطف غائر عمقته الخلافات المستعصية والمستوطنة بين تنظيمات المجاهدين على اختلافها ، فلا يحظى هذا الدور بأكثر من وعود للمجاملة ، أو تصريحات للتطمين . فإذا أثمرت من بعد الإلحاح والوساطات والضغوط إتحاداً واقعياً على الورق .. أوكلت زعامات المجاهدين للأيام القليلة القادمة مهمة تقويض هذه الإتفاقيات تلقائياً .. بحكم الشروخ التي ستطفو بداهة على سطح الأحداث .. لتعطي مبررات كافية – كما حدث فعلاً – لأغلب الأطراف القيادية في بشاور بإبرا ء الذمة ، والانسحاب إلى محيط «الحزبية » الذي خرجت منه وقد عُذِرت أمام العرب المحبين ! أما على الصعيد العسكري – الجهادي – فلم يكن للقادمين العرب مشاركة تُذكر حتى هذه المرحلة – على الرغم من حدوثها بالفعل – فلا عدد القادمين يشجع الأفغان على السماح لهم بالمشاركة القتالية .. ولا تأهيل هؤلاء يغري باستقدامهم إلى قلب المعركة .. ولا ظروف معظمهم الحياتية وارتباطاتهم الأخرى تسمح لواحدهم بالتفرغ للجهاد .. وهو أمر لم يكن ليحدث إلا بعد سنوات [1] .. وهكذا وضمن هذه النقاط الثلاث :جمع التبرعات ، والعناية بالإعلام ، والسعي إلى تأكيد الإتحاد وتوثيقه ، كرس الدكتور عبد الله عزام جهده خلال السنوات الثلاث أو الأربع لوصوله .. وأملاً في تحقيق هذه الأهداف كان محور جهده المبذول . يقول د. عبد الله : « في هذه الفترة من ٨١ و إلى ٨٤ كنت قد كرست جهدي على القضايا التالية : أولاً : الإعلام والتعريف بالقضيـــة الأفغانية في المؤتمرات الإسلامية الطلابية في العالم . في أمريكا ، بريطانيا ، السعودية ، الأردن ، والبلدان التي كنت أذهب اليها ، إضافة للكتابة في المجلات : (المجتمع) وغيرها . وفي هذه الفترة كتبت (آيات الرحمن في جهاد الأفغان) ثانياً كنت أجمع بعض التبرعات للمجاهدين وأسلمها لرئيس الإتحاد الشيخ سياف . الشيء الثالث : أن نفسي مالت إلى سياف وحكمتيار لأني رأيتهما من أصدق الناس الذين يقودون هذا الجهاد ، فكنت أحاول مستميتاً أن أجمع بينهما ، وكدنا في فترة أن نصل إلى توحيدهما – فقد كانا متقاربين جداً – لولا الإتحاد وآثاره وبروز الشيخ سياف على الجميع من خلال الإتحاد ، رغم أن حكمتيار هو الذي فجر الجهاد وعنده أكبر قوة داخل أفغانستان ، ففي ذلك الوقت كان عنده ما لا يقلّ عن ٤٠٪ من المجاهدين وهو الذي فتح الكثير من المناطق داخل أفغانستان ، وكان حكمتيار يرى بعد فترة أن الإتحاد قد أخفى شخصيته تدريجياً وأصاب حزبه بالفقر وبشئ من التمزق بسبب عدم وجود مبالغ مالية بين يديه يمد بها الجبهات ويواصل بها مسيرته .. » ويرى د. عبد الله هنا أن أسباب حصول سياف على أغلبية أصوات المقترعين لرئاسة التحالف تعود إلى شخصه ، أو إلى ما تتمتع به هذه الشخصية من مواصفات ويقول : « هم انتخبوا سياف لشخصه ، سياف عالم ، وابن الدعوة الإسلامية ، وسياف ليس عنده حزب كبير بحيث يسيطر عليهم ويطغى » ويشير د. عبدالله من ثم إلى

أن سياف « من أبناء الحركة الأوائل ، وعندما كان رباني رئيساً للحركة وأميراً لها (يقصد قبل انقلاب تراقي وفي أيام داود) كان سياف مساعده ، وكان حكمتيار مسؤولاً عن الجناح العسكري » لكن د. عبدالله يتدارك الحديث وهو يعرض لميزات الأستاذ سياف فيقول عن المهندس حكمتيار : « .. إلا أنني أسجل هنا ومن خلال معايشتي للجهاد وللأحداث ودراستي لتاريخ القضية ومتابعتها شهادة كما أظن بيني وبين الله : لولا الله ثم حكمتيار لكانت أ فغانستان قطعة مثل بخارى تابعة لروسيا » والأ سباب ؟ « لأن حكمتيار من أبناء الحركة الإسلامية ، ومنذ كان عمره ٢٤ أو ٢٥ عاماً كان متحمساً للقتال والجهاد ، فالتف حوله الشبان وأطلق صرخة مدوية مع الرصاص وبارك الله بجهده فمضى .. ثم شكل الشيخ رباني بعدها الجمعية التي نمت تدريجياً وصارت توازي حكمتيار تقريباً وتنازعه فى الميدان وتباريه ، لكن الحزب الإسلامي هو صاحب الجرأة الكبيرة .. » وهكذا .. وبرغم المدرسة الحركية المشتركة التي جمعت القادة الثلاثة الأبرز بين زعماء التنظيمات الجهادية : سياف وحكمتيار ورباني .. وبرغم الجهود الملحة والمساعي الحثيثة التي بذلها د. عبد الله عزام رحمه الله – وغيره – للجمع والتوفيق بينهم ، فإن الإختلا ف والتشرذم كان كان هو الذي ينتصر آخر الأمر ، وظلت الفرقة والتنافس قاسماً مشتركاً لنتائج كل المحاولا ت . يقول الدكتور عبد الله : « الذي حصل أن الإتحاد أبرز الشيخ سياف على القادة جميعاً فاختفت شخوصهم في الظل ! صار سياف يذهب إلى السعودية ويلقي خطاباً في منى أمام الملك ينقله التلفزيون ، فازداد إعجاب الجماهير وتعلقهم به ، وسياف موفق جداً – الحقيقة – عندما يتحدث ، وإذا خطب فكأنما يقرأ عن ورق ، فصار التجار الذين يتبرعون للجهاد يرسلون الشيكات باسم الإتحاد أو باسم سياف ، فإذا كتبوا رئيس الإتحاد سياف يدفعها للإتحاد ، وإذا أتت باسم الشيخ سياف وضعها باسم حزبه الذي هو (الإتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان) فصار ينمو .. أما قبل ذلك فكان أ بو بدر (عبد الله على المطوع) ومجموعة التجار الذين يأتون يدفعون الأموال للجماعة الإسلامية الباكستانية ويقولون لهم : أنتم تعيشون في الميدان فادفعوها حسب ما يرضي الله عز وجل وحسب ثقل هذا الجهاد .. ولأن حكمتيار كان أكثر مجموعة في الساحة ثقلاً وهو من أبناء الحركة الإسلامية كذلك ، وهؤلاء حركة إسلامية أيضاً ، فالتقى الماء على أمر قد قدر ، التقت رغبتهم الشخصية مع الحق لكنهم جاروا ، فكانوا يدفعون ٥٠-٦٠ ٪ من التبرعات لحكمتيار والباقي يوزعونها على بقية الأحزاب ظناً منهم أن حجم الحزب الإسلامي بهذه النسبة ، فعندما جاء الإتحاد وصارت التبرعات تصب مباشرة باسم الإتحاد إنخفض نصيب حكمتيار من ٦٠٪ إلى الصفر دفعة واحدة ! وصارت جبهاته تعاني من الضيق ، ففي كونر – مثلاً – كان عنده مجموعة جبهات فيها ١٧ ألفاً صار يقدم لهم في الشهر ١٦ ألف روبية للطعام واللباس والشراب والذخيرة .. ولكل شيء ! » ويضيف الدكتور عبد الله رحمه الله : « أما الشيخ رباني وبسبب رحلته المبكرة إلى السعودية فقد تعرف على بعض التجار فظلوا على صلة به لا يعطون غيره ، وأما حكمتيار فلم يكن يتقن العربية ، ولم يذهب الى السعودية لأنه مشغول بحزبه وبتنظيمه وما إلى ذلك .. فكان أكثر من تضرر في الحقيقة – أيام الإتحاد » .

هوامش

(١) في مقابلة مع الشيخ جلال الدين حقاني بتاريخ ٨٠/٦/١١ صرح لصحيفة « الإتحاد » بأن هناك بضع عشرات من المتطوعين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي يأتون للإنضمام إلى صفوف المجاهدين ولكن هذا يتم بدافع شخصي منهم فقط .

الأنصار العرب (٧)

لجنـــة الـ (١٧)

في ابريل ١٩٨٣ كان على المجاهدين الإستعداد لهجوم غير اعتيادي هبت عليهم رياحه من جهة جديدة غير متوقعة .. فإضافة إلى الهجـــوم الربيعي المعتاد في مثل هذا الفصل من كل عام ، كان ثمة هجوم من نوع آخر يستهدف إجهاض انتصارات المجاهدين في الداخل وإسقاط البندقية التي سقوها بد مائهم فأزهرت من خلالها بوارق النصر .. لاستبدالها بورقة سياسية لايملكون نسخها الأصلية ولا يجيدون استنقاذ أنفسهم من مكائدها التي ينصبها المحترفون !

ففي جنيف ، وفي الثاني والعشـــرين من أبريل ، نجح « دييغو كوردوفيز » مبعوث الأمم المتحدة الخاص بأفغانستان في الحصول على موافقة الباكستان وعبر مفاوضات غير مباشرة مع نظام كابل ، لإقرار مشروع تسوية سياسية شاملة للمشكلة الأفغانية .. تستهدف حل المشكلا ت التي أدت إلي الوضع الراهن ، كما يقيم أساساً دائماً لعلاقات حسن الجوار بين البلدين .. ولم تكن من حاجة لبذل جهد كبير حتى يتلمس المجاهدون معنى هذه المفاوضات ومغازي هذه التسوية .. وخطورة القفزة المشتركة بين حكومتي إسلام آباد وكابل على أنهار الدماء التي أُهرقت في أفغانستان دفاعاً عن الحق والدين والعرض .. والتجاوز الفاضح للمجاهدين الذين باتوا – على أي حال كانوا عليها – الممثل الرسمي لشعب أفغانستان المجاهد .

.. وفي اليوم التالي لإعلان جنيف ، وفي الإحتفال الذي اعتاد نظام كابل إقامته في هذا الوقت من كل عام بمناسبة الذكرى السنوية لثورة ابريل ٧٨ أصدر « بابراك كارمل » ما أسماه بالعفو عن المعتقلين الذين يناهزون الـ ٦٥ عاماً ، والذين تقل عدد السنوات التي حُكموا بها عن ٥ سنوات .. أما المساجين الذين تزيد مدد سجنهم عن ذلك فإنهم يعفون من نصفها إذا كانوا نساء ، وثلثها إذا كانوا رجالاً !! وبمقتضي المرسوم نفسه أعلن عن استثناء « مرتكبي الأعمال الإرهابية » .. وأعضاء أربعة من أحزاب المقاومة – لاتكاد تعرف – هي : « حركة الثورة الإســلامية » و «النصر » و « ساما » و « رجاء » .. من العفو ، الأمر الذي اعتبره المراقبون مناورات واضحة من النظام لتفريق المقاومة وبث الفرقة بين صفوفها [١] خاصة وأن شا ئعات أطلقتها صحيفة « الإيكونوميست » [٢] أفادت بوجود « اقتراحات باكستانية داعية إلى اشتراك حكمتيار .. الزعيم الطموح للحزب الإسلامي مع الرئيس الأفغاني كارمل في تشكيل حكومة ائتلافية ، أو إلى إمكانية توليه منصب رئيس الوزراء » وأضافت الصحيفة : « وربما يكون السوفييت يعتقدون بأن الحكومة التي يشترك فيها السيد قلب الدين تملك القدرة العسكرية الكافية لكبح جماح الجماعات الأخرى من الثوار الأفغان » ! وكان أمراً مريباً بحق أن يعلن وزير الخارجية الباكستاني « صاحب زادة يعقوب خان » عن « علامات تشير إلى رغبة الإتحاد السوفييتي في الإنسحاب من أفغانستان » [٣] دون أن يذكر شيئاً عن الشروط التي يضعها السوفيت لهذا الإنسحاب ، في الوقت الذي كانت القوات السوفييتية والأفغانية الحكومية قد شنت قبل أيام أعنف هجوم لها منذ الغزو على مدينة

« هيرات » غربي أفغانستان وعلى « وادي شومالي » إلى الشمال من كابل ، والذي وصفه الدبلوماسيون الغربيون بأ نه « قصف واسع النطاق بصورة لم يسبق لها مثيل منذ التدخل العسكري السوفييتي في أفغانستان ، يستهدف حرمان المقاومة من المساندة التي تجدها لدى السكان ومنعها من القيام بغارات على كابل » وذكرت الأنباء وقتها أن عمليات القصف الجوي أسفرت عن تدمير نصف مدينة « هيرات » ومقتل عدة آلاف من السكان المدنيين [٤] وسواء أكانت هذه التطورات غير الإعتيادية حاضرة وواضحة في أذهان قادة الحركة الإسلامية العرب أم لا ، فإن تدخلهم الملح في نفس الفترة ، وفي مسعى جديد لتمتين أواصر الإتحاد بين المجاهدين كان منطقياً .. وضرورياً .. وملحاً .. لكن الذي تبدى بعدئذ أكد من جديد أن النوايا الطيبة لاتكفي وحدها ، مثلما لا تفلح الأمنيات منفردة في تحقيق ذاتها .. فالعرب حينذاك نجحوا بالفعل في حمل القادة السبعة على تقديم استقالاتهم وحل جماعاتهم وأحزابهم وإعلان اندماجهم الكامل في الإتحاد الجديد .. لكنهم فشلوا مرة اخرى في نزع فتائل الإختلاف التي لم تلبث أن اشتعلت بين القادة والتنظيمات ! يقول د. عبد الله عزام : « كانت رئاسة الإتحاد تجدد كل شهر (يقصد إتحاد ٨٢) وكان الشيخ سياف غالباً هو رئيس الإتحاد باستثناء مرتين نجح يونس خالص في إحداها ورباني في الثانية ، وأمام ذلك فكر العرب الذين يساعدون هذا الجهاد أنه لابد وأن تكون رئاسة الإتحاد لمدة سنة على الأقل ، وحدّثوا قادة المجاهدين بذلك وقالوا لهم : ياإخوة ، انتخبوا واحداً منكم أو اتركونا ننتخب واحداً . فقالوا لهم : انتخبوا أنتم . فما استطاعوا أن يصلوا إلى حل ، عند ذاك شكلوا لجنة من ١٧ عضواً من البلاد العربية ضمت : من الكويت أبو بدر المطوع وأحمد بزيغ الياسين وأظن يوسف الفليج رئيس بلدية الكويت أو رئيس غرفتها التجارية وقتذاك ، ومن الإمارات صقر المري وكيل وزارة الأ وقاف في ذلك الحين ، ومن البحرين عبد الرحمن الجودر ، ومن اليمن عبد المجيد الزنداني ، ومن السعودية عبد الله الزايد وعبد الإله المؤيد ، ومن الأردن يوسف العظم ، ومن مصر مصطفى مشهور [٥] جاءت اللجنة وكانت تريد الإتحاد بأي وسيلة واجتمعت اجتماعات مكثفة لمدة شهر تقريباً فرغت نفسها فيه ، وأخيراً ضغطوا عليهم فقالوا : وقعوا أولاً على القبول بمن يتم اختياره من بينكم لمدة سنة أو سنتين تسلمونه المال والسلاح وما إلى ذلك ، فوقعوا ، واجتمع مجلس الشورى وكان ٥٧ عضواً فاختاروا سياف ، حيث نال على ٤٢ صوتاً ، بينما توزعت الأصوات المتبقية على بقية القادة .. وأمامنا بايع مجلس الشورى الشيخ سياف ، وظنت اللجنة أنهم استطاعوا بهذه الطريقة أن يوحدوا المجاهدين إتحاداً حقيقياً .. فذهبوا إلي ضياء الحق وقالوا له : نأمل أن تعترف بالإتحاد وألا تدعم حكومتكم با لذخائر والسلاح إلا الإتحاد ، وألا تتعاملوا إلا مع الإتحاد [٦] وحاولت اللجنة أن تضغط على ضياء الحق كثيراً ، لكن الأفغان في الحقيقة لايقبلون أي رأي يفرض عليهم أو لايخرج من رؤوسهم .. وهذا الإتحاد ما خرج من رؤوسهم ، فذهب القادة إلي الحق وقالوا له : هذا الإتحاد غير حقيقي ونحن نرى أنه يضر الأحزاب الجهادية داخل أفغانستان ، ولو ضغطت علينا فسنترك باكستان وندخل أفغانستان .. فبعد تجربة الإتحاد السابق المريرة عام ٨٢ لم يعد القادة يثقوا بإتحاد جديد » .

هوامش

(١) صحيفة « لوكوتيديان دي باري » تحت عنوان : « مناورات لتفريق المقاومة الأفغانية » في مقال مترجم بصحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٣/٥/٨

(٢) مقال مترجم عن « الإيكونومست » في صحيفة « الإتحاد » – ٨٣/٥/٧

(٣) صحيفة « البيان » – الوكالات –٨٣/٥/٨

(٤) صحيفة « البيان » – الوكالات – ٨٣/٥/١٠

(٥) في مقابلتي معه بتاريخ ٨٩/٧/٢٥ في دبي أضاف الشيخ صقر المري أن من بين الذين شاركوا في عضوية اللجنة أيضاً : الشيخ عبد الله الانصاري مدير دائرة التراث بقطر ، والشيخ عيسى بن عبد الله آل خليفة وزير الشؤون الإجتماعية السابق بدولة البحرين ورئيس جمعية الإصلاح فيها ، والشيخ محمد صالح الريس رئيس جمعية الإصلاح بدبي الذي كان يحضر بعض الأحيان ، وكذلك الشيخ محمد محمود الصواف الذي كان يشارك أيضاً في بعض الأحيان .

(٦) يؤكد الشيخ صقر المري بأن اللجنة طالبت ضياء الحق في اجتماع لها معه أن تقدم الحكومة الباكستانية مساعداتها المالية والعسكرية لإتحاد المجاهدين وحسب ، واشتكت إليه نائبه وهو أحد الجنرالات (لم يتذكر الشيخ صقر اسمه) كانت معلوماتنا وقتذاك من مصادر المجاهدين أنه قادياني .. لأنه يصر على توزيع المساعدات على كل منظمة ، كذلك طالبت اللجنة ضياء الحق أن يصغي لقادة المجاهدين الذين وقعوا على الإتحاد وحدهم ، وألا يسمع للآخرين الذين وصفهم الشيخ صقر بأنهم من المتردية والنطيحة .. من أنصار الملك .

الأنصار العرب (٨)

فرحة لم تتم!!

هللت أوساط الإسلاميين وكبرت لإتحاد التاسع من شعبان عام ١٤٠٣ هـ الموافق ٢٢ مايو من عام ٨٣ واعتبرت النص الذي وقع عليه قادة الأحزاب السبعة : سياف ، وحكمتيار ، ورباني ، وخالص ، ومنصور ، ومؤذن ، ومحمد مير .. إعتبرته الإنجاز الباهر .. والأمل المنشود .. والهدف الأسمى .. فكتبت مجلة « الدعوة » – من المنفى في النمسا – تقول [1] : « .. لأول مرة تحصل وحدة حقيقية بين فصائل المجاهدين في أفغانستان لأنها تمت انطلاقاً من وعي كامل لمخاطر المرحلة ، ولأنها بنيت على أساس تجاوز كل الأطر والقوالب التي كانت تحتفظ بها كل منظمة على حدة ، ولأن إرادة المقاتلين متجلية عبر تصويت مجلس الشورى العام الذي يضم مندوبي المنظمات كلها فرضت هذا الإتجاه ودفعت إليه .. » والعجيب في الأمر أن العبارات المشرقة التي سكبتها المجلة مبشرة بهذا الإتحاد الجديد أتت مباشرة بعد فقرة سالفة تحت عنوان « تشرذم فصائل المجاهدين » نجحت من خلاله إلى حد كبير في تلمس سلبيات المراحل السابقة والأسباب التي ساعدت على استمراريتها فقالت : « .. إن حركة الجهاد لم تبرز بقرار ولا انطلقت في وقت واحد ولا من مكان واحد ، فلكل فصيل ظروفه ومشاكله ومبرراته ، فضلاً عن تباين وجهات النظر إلى قضايا أساسية ، سواء في الممارسة السياسية أو العسكرية ، ولما كان الإفتقار إلى الدعم المادي والحاجة إلى السلاح قاسماً مشتركاً بين جميع الفصائل ، فقد لعب المال والسلاح دوراً هاماً في الضغط على بعض الفصائل من أجل أن تؤدي دوراً معيناً يضمن مصالح الجهة التي تؤمن المال والسلاح للمجاهدين ، والغذاء والكساء والمأوى لملايين المهاجرين اللاجئين .. » وبعد ما أسهبت المقالة في الحديث عن « تكالب القوى الإقليمية والدولية .. » وعن « المحاور الإقليمية التي تمسحت بالثورة الأفغانية وقد وجدت الفرصة سانحة لتلعب بورقة الجهاد الأفغاني في مقابل تقديم الدعم المادي بما يضمن لها ولاء حركات المقاومة واحتوائها .. » وبرغم الذكر الصريح لـ « سيل الزعامات التي ترفع راية الجهاد من زعماء القبائل ومشايخها ، إلى عناصر الأسرة المالكة السابقة ، إلى الزعامات الدينية والسياسية التي فاتها القطار فحاولت أن تلحق به مزودة بدعم مادي ومعنوي يؤهلها لتؤدي دورها المرسوم باسم حركة الجهاد حيناً أو التحرر الوطني حيناً آخر .. » ومع التأكيد على « وقوع القضية الأفغانية في محور الصراع الدولي .. » فإن المجلة تعود فتعكس من ثم تصورات أصحاب الآمال الطيبة والتمنيات المفرطة في التفاؤل .. لتسقط كل الحيثيات السابقة .. المروّعة ، وتفجؤنا بأن « حركة الجهاد أصرت على إسلاميتها وتميزها وانتمائها للحركة الإسلامية العالمية .. فكان الإعلان الذي وقّعه زعماء سبع من المنظمات الإسلامية المجاهدة .. ولأول مرة تحصل وحدة حقيقية بين فصائل المجاهدين .. » !! وبنفس المنهجية المتناقضة .. والموزعة بين الرصد الصريح لسلبيات الإتحاد السابقة ، والتفاؤل المفرط في إيجابيات الإتحاد القائم لتوّه ، مع الإصرار على إغفال الكيفية التي يمكن أن تنتقل قضية الإتحادات بواسطتها من مستنقع السلبيّات السابق إلى واحة الأمل المشرق مرّة واحدة .. بذات الهيئات وذات الأحزاب والشخصيّات

والزعماء ! بنفس هذه المنهجية كتبت مجلة « الأخبار » الصادرة عن « الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية » والتى تتبنى منهج جماعة الإخوان المسلمين وتعبر عنه بشكل واضح ، كتبت تحت عنوان « الوفاق في أفغانستان » ما يلي [٢] : « كان الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان على وشك الإنهيار فقد كان يحمل - ومنذ ولادته - عوامل ضعفه .. » لماذا ؟ أجابت المجلة على هذا السؤال بصراحة فتناولت بالتحليل الموضوعي المتجرد مظاهر الوهن التي قام عليها إتحاد ٨٢ السباعي وقالت : « لقد حافظت الأحزاب والجماعات التي كونت هذا الإتحاد قبل أكثر من سنة على كياناتها وتنظيماتها .. وبالرغم من أنها رفعت على منشآتها وعلى بعض معسكراتها يافطة الإتحاد .. غير أن الحقيقة أنها كانت تتحرك مستقلة في داخل أفغانستان وخارجها ، ومع مرور الزمن صار الإتحاد إسماً ويافطة وشعاراً لا حقيقة وراءه على الإطلاق » وتضيف المجلّة : « .. وكان الإتفاق على أن يتولى أحدهم قيادة الإتحاد لمدة شهر واحد .. وهذا النص كان يعكس عدم الثقة المتبادلة بين شخصيات الإتحاد من جهة ، وعدم القدرة على تنفيذ أي قرار مهما كانت نوعيته ثانياً .. فما أن يتخذ الرئيس قراره وقبل نقده أو مناقشته من قبل أية جهة كانت يكون الرئيس قد تبدّل » ! وبصراحة أكثر تتابع المجلة مقالها فتقول : « .. وباعتبار أن الإتحاد كان شكلاً والتنظيمات هي الحقيقة فقد كان لها استراتيجيات متباينة .. فمنها من يقول بالحسم المسلح دون أن يعطي لسياسة الحوار أية أهمية .. ومنها من كان يقول بضرورة الحوار مع استمرار القتال .. ومنها من كان يؤمن بضرورة تجميع كل القوى الأفغانية على صعيد واحد .. ومنها من كان يرفض التعاون مع غير العناصر الإسلامية الملتزمة .. وباختصار - تؤكد المجلة - فقد كان الإتحاد قبة .. تحتها فراغ ! .. وباعتبار أن التنظيمات الفاعلة على الساحة الأفغانية هي التنظيمات الإسلامية .. فقد كان كل فريق يعتبر نفسه على حق ، وبالتالي يكون الفريق الآخر على باطل .. ومن هذه المقدمة البسيطة فقد تصادم الإخوة في داخل أفغانستان وسالت الدماء وضرب الأخ أخاه في مأساة يندى لها جبين جميع العاملين هناك .. وفي كثير من الأحيان كان يصطدم الفرقاء بالسلاح وراية الفريقين مكتوب عليها الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان » ! وهكذا يخلص المقال إلى تقرير حقيقة الوضع فيقول : « باختصار فقد كان الإتحاد شكلاً لا موضوعاً .. ومظهراً لا مخبراً .. » ولأن هذه الحالة المزرية لم تكن واضحة لوسطاء الخير ورسل الوفاق والإتحاد من الإخوة العرب .. أصحاب النوايا الطيبة والحضور الرمزي على ساحة الأحداث .. فقد استمرت المهزلة ومضت مسلسلات الإتحادات الخداعة هكذا حتى بلغ السيل الزبى .. وافتضح الحال .. وانكشفت - دون أن ندري كيف - الصورة وذاع الخبر ! تقول المجلة : « .. وعندما انكشفت الصورة سارعت نخبة من أهل الحل والعقد المسلمين من كافة المناطق الإسلامية المهتمة بالجهاد الأفغاني .. سارعوا إلى إخوانهم لمساعدتهم في حل إشكالاتهم .. وبعد بحث مستفيض في أسباب الخلاف وطرق المعالجة ، توصلوا جميعاً إلى اتفاق من بند واحد هو : أن يتقدم جميع قادة الأحزاب والجماعات الإسلامية باستقالاتهم من مناصبهم ، وأن يحلوا تنظيماتهم ، وبعد أن فعلوا ذلك - والكلام لا يزال لمجلة « الأخبار » - قام مجلس الشورى فانتخب الأخ سياف أميراً للمجاهدين لمدة سنتين »

قد تبدو الأحداث بهذا التسلسل الذي ساقته المجلة منطقية – بادئ الأمر – وتلقائية الحدوث .. ولربما أعذرت هذه « النخبة من أهل الحل والعقد المسلمين » أو حتى أبرزت أفضالهم على مسيرة الجهاد الأفغاني .. وواقع الأمر ، ومع الإقرار بفضل الحركة الإسلامية التي يتصدرها الإخوان المسلمون .. ومن مضى معهم في تقديم العون وبذل المساعدة للشعب الأفغاني بمجاهديه ومهاجريه ، إلا أن ذلك لا يعفي أحداً من هؤلاء أن يُسأل عن سبب هذا الفصام الواضح والتناقض العجيب بين الفهم الأول والفهم الثاني ! كيف أمكن لأهل الحل والعقد الكرام أن يظلوا أشهراً متصلة وأعواماً متتالية يتابعون الجهاد الأفغاني ويتبنونه ويؤيدونه بالملايين .. ثم إذا هم يفاجَؤون مرة واحدة بأن كل الذي أملّوه في إتحاد الزعماء واتفاق التنظيمات المتوالدة .. ليس إلا « قبة .. تحتها فراغ » ! ! فإذا أمكن لهم أن يبرروا المرحلة السابقة وقد كانوا – جدلاً – لا يعلمون .. فماذا وقد علموا ؟ وكيف وقد سجلوا الأدواء بأنفسهم ورصدوا الأخطاء بأيديهم يعودون ليعيدوا الكرة من جديد .. فيضغطوا – كما روى الشيخ عبدالله عزام – على قادة التنظيمات أولاً ليحملونهم على التنازل عن زعاماتهم .. على الورق ! وعلى الإندماج تحت راية تنظيم واحد بلمحة عين !! ثم عادوا فضغطوا – كما روى أيضا رحمه الله – على الحكومة الباكستانية أو حاولوا ذلك على الأقل .. ليحملوها على دعم الإتحاد وحسب .. ومنع الدعم عن كل من رفض هذا الإتحاد .. وعادوا إلى ثالثة الأثافي فانتخبوا .. أو أقنعوا الآخرين – على أقل تقدير – بانتخاب الأستاذ سياف أميرا للمجاهدين لمدة سنتين ، وأكثر تشكيات الأحزاب وخلافات الزعماء خلال الفترة الماضية كانت – بحق أو بدون حق – من سياف ! بل إنه – أي الأستاذ سياف نفسه – عمد في المؤتمر الصحفي الذي عُقد عقب قيام الإتحاد الجديد إلى التلميح بوجود نوع من الإرادة الخارجية فرضت قيامه وقال [٣] : « إن هذا القرار قد اتخذ بناء على النصائح التي قدمها وفد من العرب والباكستانيين والمسلمين .. » ! ومضى قادة الأحزاب إلى ضياء الحق – كما أضاف د. عبدالله – فأفهموه أن الأمر كأنما لا يعنيهم .. وأن « الإتحاد غير حقيقي » بل إنه « يضر الأحزاب الجهادية داخل أفغانستان .. وما على الحكومة الباكستانية الا أن تعتبره ما حدث .. ولو ضغطت على الأحزاب لتقبل به فستغادر هذه الأحزاب باكستان .. » ولذلك التهديد المبطن مدلولاته التي تمس المصلحة الباكستانية بشكل أو بآخر .. وتعرفها أكثر ما تعرفها حكومة الباكستان ! وفي نفس الوقت ولأن الزعماء في بشاور لا يحبون أن يقطعوا حبل المودة مع إخوانهم العرب الذين تتدفق عن طريقهم الملايين ! ولأنهم خبروا كيف ينصرف الإخوة العرب – من أهل الحل والعقد – فور أن يطمئنوا إلي توقيع معاهدات الوحدة .. على الورق ! لذلك لم يصارح أي من زعماء بشاور إخوانهم بالحقيقة .. فمضى العرب فرحين مستبشرين ، وأصبح الأستاذ سياف مرة أخرى الأمير الشرعي لا للأفغان وحسب .. وإنما العرب الذين بات عليهم اذا أرادوا دخول الساحة أن يقدموا البيعة الرسمية له ويؤدوا أمامه فروض الولاء ، وهو أمر شهده – ممن شهده – الدكتور عبدالرحمن أحمد مدير الوكالة الإسلامية للإغاثة (إسراء) الذي قدم الساحة صيف ٨٣ ونزل – كالعادة – في مضافة الشيخ سياف وحدثني فقال[٤] : « كان سياف أمير الإتحاد وقتها ، وكان حتى على العرب الذين يأتون بشاور أن يبايعوه ، وكنت أجلس في مضافته حيث نزلنا والناس يأتون يبايعونه وأنا جالس .. » أما بقية الزعماء الأفغان .. فما أن غادر العرب الطيبون الساحة حتى عادوا كما بدأوا ، وانهمك كل طرف في تحقيق قناعاته وتكريس مصلحته : الأحزاب

والمنظمات في تحزبها وتعصبها وتنافسها .. والعرب في التهليل بالإتحاد الذي قام والترويج له .. فكتبت مجلة « البلاغ » الكويتية تقول [٥] : « لقد أثبت المجاهدون الأفغان بالإنضمام إلى كتلة موحدة والمبايعة على أمير واحد ودمج كافة الجماعات المجاهدة في صف واحد ، وتسليم المعدات وجميع ما عندهم من الوسائل والأموال لقائدهم الوحيد ، أن جهاد أفغانستان لا يقاس بالحركات الثورية المعاصرة التي تتحدث تحت شعارات زائفة وتنتهي بدون أن تحقق أهدافها .. » وأضافت : « إن تنازل رؤساء المنظمات المجاهدة عن زعاماتهم لهدف أسمى دليل على إخلاصهم وتمسكهم بالمبادىء والأهداف ، حيث أنهم يدركون تمام الإدراك أن الزعامات الباطله تزعزعها الأعاصير ولا تكون إلا نصب أعين الذين يريدون علواً في الأرض وفساداً ، أما الذين يجاهدون في سبيل الله فيكون الموت والشهادة أسمى أمانيهم ، ويكون رضى الله غاية مبتغاهم ..» ومثلما فعلت مجلة « الأخبار » صنعت مجلة « البلاغ » أيضاً فأرفقت بمقالها المبشر المستبشر ذاك صورة عن الإستقالة الجماعية لزعماء المنظمات السبع بتوقيعاتهم الشخصية ، وتنازل كل منهم عن جميع ما يخص منظمته للإتحاد .. وحتى الدكتور عبدالله نفسه كتب وقتذاك بروح تطفح بالبشر والمسرة يقول [٦] : « تم في يوم .... انتخاب الأستاذ سياف أميراً وقائداً عاماً للجهاد لمدة سنتين قابلة للتجديد .... وكان هذا فتحاً عظيماً في تاريخ الجهاد الأفغاني إن شاء الله » .. لكن الفرحة لم تكتمل ، والبشائر والفتوحات « التوحيدية » لم تتحقق ، وآمال الاندماج في كتلة واحدة ظلت معلقة على حبل الرجا .. والخلافات التي اطمأنت اللجنة إلى وأدها من خلال الإتحاد ، عادت لتطفو على السطح ، تلحظها عين الخبير وتتلمسها أيدي الذين يعايشون القضية عن كثب ، وليس بينهم من العرب أصحاب الحل والعقد إلا أقل القليل ! يقول د. عبدالله رحمه الله : « فرح المجاهدون في الداخل بهذه البيعة وبهذا الإتحاد وأعلن بعضهم ولاءه للإتحاد وتخليه عن حزبه ، فكان أن أصيبت الأحزاب هنا بضربتين : الضربة المالية ، والضربة البشرية التنظيمية ! لأنهم لما أعلنوا ذلك كان طبيعياً أن تقطع أحزابهم عنهم السلاح والمساعدات ، فجاءوا للشيخ سياف وقالوا له : نحن الآن أمام مفترق طرق ، فإما أن نترك الجهاد أو تمدنا بالمال والسلاح ، فاختار الثانية ، وانضموا للشيخ سياف فصارت جماعته تنمو تدريجياً وقادة الأحزاب يرون بأم أعينهم الإتحاديمتص قادتهم تدريجياً وينمو مالياً .. فكانوا يتمزقون في أعماقهم حزناً على تنظيماتهم التي تعبوا عليها ، وزادت الحدة واتسعت الهوة بين الشيخ سياف وبين حكمتيار ورباني بالذات ، لأن الحزب والجمعية هما العمود الفقري للجهاد الأفغاني .. وكنت أنا أكتب في مجلة المجتمع : ادعموا الإتحاد ، ادفعو للإتحاد .. وكل مقالة أكتبها كانت عبارة عن خنجر ينزل على قلب حكمتيار ورباني ، وأنا لا أدري أنني بعملي هذا أعمل على إضعاف أحزابهم .. وأن العرب يقرأون من خلال الصورة التي يسمعونها عني .. وزاد الطين بلة أن مجلس الشورى في الإتحاد اتخذ قراراً بعدم إرسال المساعدات إلى داخل أفغانستان ريثما يتم توحيد الجبهات وتكوين مجلس شورى لها ، فصارت الأموال تنفق على المهاجرين في بشاور ، والحق أن ٣ ملايين مهاجر لو فتحت عليهم ميازيب الذهب فلن تسد حاجتهم ، وفي ذلك الوقت وصل للشيخ سياف حوالي ٤٨٠ مليون روبية باكستانية ، أي ما يعادل وقتذاك قرابة ٣٠ مليون دولار أمريكي أتى نصفها من السعودية ، خمسة ملايين من الأمير عبدالله بن عبد العزيز ، تبرع بها يوم أن زار بشاور [٧] إضافة إلى ١١٥ سيارة ، وعندما رجع أقنع إخوانه بأن يرسلوا عشرة ملايين دولار

أخرى سلمها السفير علمدار للإتحاد ، وأتى النصف الآخر من التبرعات الإسلامية الشعبية ، فقام الإتحاد بدفع ٢٦٠ مليون روبية منها للجنة العسكرية الـتي تولاها رباني ، وكان الإتحاد قد تولى دفع كراية السلاح إلى الـداخل فقط (أي أجرة نقله) أما للجبهات فلم يرسلوا سوى ١٥٠ أو ٢٠٠ ألف روبية في ٢٢ إبريل ٨٤ لأحمد شاه مسعود عند الهجوم التاسع على (بنشير) أي ما يعادل ١٠ آلاف دولار ، وأعطوا الشيخ جلال الدين حقاني مليون روبية أو أقل حيث شن الروس عليه هجوما مكثفاً وقتذاك . وهكذا لم تصل الأموال إلى الجبهات ، وبقيت تُنفق على المهاجرين . طبعا القادة وبخاصة الشيخ سياف كانوا يعيشون عيشة زاهدة في بيوتهم الطينية ولكنهم ما استطاعوا حقيقة أن ينوبوا في الإتحاد ولا حلوا قضايا الجبهات ومشاكلها .. وذات مرة أتت لجنة الـ ١٧ العربية لتتابع أمر الإتحاد فقلت لهم : يا إخوة ، أنتم تريدون الإتحاد أم تريدون الجهاد ؟ الجهاد الآن ينوب ويضعف ، لأن هذا الرجل - وأشرت إلى حكمتيار وكان حاضراً وكان سياف موجوداً أيضا - هذا الرجل لا يجد الآن طعاماً لجبهاته ، فأنتم ادعموا الإتحاد وادعموا الجهاد أيضا . فلا يموت الذيب ولا يفنى الغنم ! لابد أن ننتبه إلى المعركة داخل أفغانستان لا أن نقيم الإتحاد وحسب ثم تضمحل المعركة بالتدريج ! لكن الإخوة كانوا مصرين على الإتحاد مهما كان الأمر [٨] .. لا يمكن أن نعطي إلا للإتحاد .. فيدفعون ملايين الدولارات للإتحاد ويرجعون .. ولا يبقى في فوهة المدفع إلا عبد الله ! أنا مع القادة طيلة الليل والنهار ، وأولئك يأتون في السنة مرة أو اثنتين أو ثلاث مرات .. يجلسون في فندق (انتركنتنتال) أو في الهلال الكويتي بضعة أيام ويرجعون ، والقادة أمامهم يستحون أن يتكلموا ، والشيخ عبدالله يتلقى من بعد ذلك النتائج لأنه في نظر القادة بوابة السعودية وبوابة العرب وبوابة التجار وبوابة الحركة الإسلامية .. وهذه هي المصيبة الكبرى !! وهكذا وجدت نفسي عام ٨٤ لم أستطع التوفيق بين حكمتيار وبين سياف كما أملت ، ووجدت أن الإتحاد القائم إتحاد شكلي لم ينل ولاء الأحزاب ذات الثقل العسكري ولم ترتح بدورها لوجوده [٩] ورأيت المساعدات والأموال تنفق على المهاجرين ، والمجاهدون في الداخل لا يكاد يصلهم شيء منها ، ثم ان العرب الذين كانوا يأتون متحمسين للجهاد بدأوا يعودون منقبضين يائسين من الجهاد لأنهم إذا جاءوا إلى الإتحاد شكى إليهم مواقف إخوانهم تجاه الإتحاد ، واذا وصلوا إلى حزب حكمتيار شكى رليهم استئثار الشيخ سياف بالأموال ، وإذا قابلوا الشيخ رباني شكى إليهم عن حكمتيار وعن سياف وعن حاجة الجبهات .. وهكذا فالشاب العربي يضيق صدره ولا ينطلق لسانه ، فيمكث أسبوعاً أو أسبوعين ليعود يائساً من الجهاد والمجاهدين » ويضيف د. عبدالله رحمه الله : «.. كل هذه الأمور جعلتني أفكر بالتوجه إلى داخل أفغانستان ، وبإيجاد محضن للقادمين العرب بعيداً عن التأثيرات السلبية ، ومحجراً صحياً بعيداً عن جراثيم الإشاعات .. وهـكذا كـانت فكرة إنشـاء مكتب الخدمات » .

هوامش

[١] مجلة « الدعوة » - العدد ٨٤ - رمضان ١٤٠٣ - يونيو ١٩٨٣ - النمسا .

[٢] مجلة « الأخبار » - العدد ١٦ - السنة ١٧ - رمضان ١٤٠٣- ١٣ يونيو ١٩٨٣ .

(٣) الوكالات – صحيفة « الخليج » – ٢٧ / ٥ / ٨٣

(٤) في حديثه معي بتاريخ ٩٠/٣/٢٢ أثناء زيارته إلى أبو ظبي .

(٥) مجلة « البلاغ » – ١٩ / ٦ / ٨٣

(٦) « آيات الرحمن في جهاد الأفغان » – صـ ١٢٨ – ١٢٩

(٧) في ابريل ٨٤ وذكرت (كونا) وقتها أن الأمير عبدالله ولي العهد قدم منحة للاجئين الأفغان أثناء زيارته لمخيماتهم قرب بشاور عبارة عن ٥٠ مليون ريال سعودي وألف خيمة . أنظر :صحيفة « الإتحاد » ٨٤/٤/٢٤ وقالت صحيفة « أخبار العالم الإسلامي » بتاريخ ٨٤/٤/٣٠ أنه تبرع بمبلغ ٥ ملايين دولار وألفي خيمة جيشية و ١٠٠ سيارة وانيت و ١٥ سيارة للمحروقات والمياه و ١٠ سيارات اسعاف دعما لصمود المجاهدين .

(٨) في لقائي مع الشيخ صقر المري وسؤاله عن هذا الموضوع أكد لي وجهة نظر الدكتور عبدالله عزام هذه وقال : « نعم ، كان عبدالله عزام ينادي بهذا الأمر ، بأن نترك الجالسين في الخيام وفي البيوت وفي بشاور أرض السلام ، ومن أراد أن يقاتل فليذهب للجبهات وفي الداخل نعطي المال والمساعدة ، فمن هم في المعارك وعلى جبهات القتال أولى » .. وأضاف الشيخ صقر : « ويهيأ لي أن هذا الرأي أتى بعدما استنفذ الشيخ عبدالله أغراضه من النصيحة والإرشاد للقادة الأفغان وللجالسين في مكاتبهم ببشاور ، لأنهم عندما لم يتحدوا على قلب رجل واحد والرمى عن قوس واحدة لا شك أن الإنسان يؤيد هذا القول »

(٩) في مقابلة مع صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٤/٦/٢٣ كشف الشيخ جلال الدين حقاني نائب رئيس اللجنة العسكرية للإتحاد وقتها عن استمرار الخلافات بين تنظيمات المجاهدين .. و إلى درجة خطيرة ، وقال : «الحرب يمكن أن تحسم فوراً لصالح المجاهدين إذا قام بينهم إتحاد حقيقي ليس فيه مجال للخلافات الحالية التي تؤدي أحياناً إلى القتال بين المجاهدين أنفسهم ..» وأرجع الشيخ جلال هذه الخلافات إلى أن الإنقلاب الشيوعي على حكومة حفيظ الله أمين وفرض حكومة كارمل العميلة جاء مفاجأة ، بينما لم يكن المجاهدون تحت تنظيم واحد .. ولذا فقد اتجه كل تيار إلى تشكيل جماعة مستقلة .. وللأسف كان زعماء هذه التنظيمات يقيمون حالياً في بشاور بدون اتفاق بسبب اختلافات نظرية حول المقاومة والتخطيط لها وتنفيذها .. » وكشف الشيخ جلال أحد أبرز القادة الميدانيين عن أنه « تجري حالياً إتصالات هامة بين الفصائل المختلفة داخل أفغانستان للعمل على توحيد صفوفها وإنشاء إتحاد بينها حتى لو رفض زعماء المنظمات ذلك » ومن جانب آخر أشار الشيخ جلال الدين إلى خطورة التوجه بالتبرعات والمساعدات إلى المهاجرين وحسب وقال : « صحيح أن هؤلاء يعيشون ظروفا صعبة وغير إنسانية ، لكن الأبطال الحقيقيين الصامدين حالياً داخل القرى (حوالي ٥ ملايين مدافع) يحتاجون إلى اهتمام مماثل .. وهؤلاء جميعا يمثلون التحدي للمخطط السوفييتي لإفراغ أفغانستان من أهلها ودفعهم للهجرة في إطار سياسة الأرض المحروقة حتى يمكن فرض سيطرتهم عليها دون مقاومة .. » .

الأنصار العرب (٩)

آيات الرحمن

مع انتصاف عام ٨٤ وقت أن بدأت فكرة إنشاء مكتب خاص للعرب القادمين إلى الجهاد الأفغاني والمساهمين فيه تراود الدكتور عبدالله رحمه الله ، كانت القضية الأفغانية قد بلغت على صعيد الإستقطاب الإقليمي والدولي شأناً واسعاً .. وكان أمراً بدهيا أن تشد أنباء الجهاد المتنامي وجدان الشعوب المسلمة وأن تؤجج معاني الإستبشار والتفاؤل والاعتزاز لديها .

كان سهلاً على أبسط المهتمين أن يعي دلالات الإجماع الدولي مرتين خلال أقل من عام ، ولخامس مرة منذ ابتداء الإحتلال على إدانة الغزو والمطالبة الملحة بانسحاب فوري لقوات السوفييت من أفغانستان [١] وكان مبهجاً لكل مؤيد أو متعاطف مع هذا الجهاد الإطلاع على أرقام الخسائر المريعة التي منيت بها قوات الروس وعملائهم أمام ضربات المجاهدين [٢] .. وأتى الحديث الصاخب عن مساعي الحل السلمي عبر الأمم المتحدة ، والدعاية النشطة التي أطلقها الجانبان : الأمريكي والغربي من جهة ، والسوفييتي والأفغاني الحكومي من جهة ثانية .. أتى ليزيد في استنفار الحس الإسلامي نحو تعاطف أوثق مع المجاهدين الذين اعتبروا هذه المساعي مؤامرة جديدة وغادرة يشترك الأمريكان مع السوفييت لحبك أحابيلها عبر صفقة مقايضة تكشفت تفاصيلها المخزية فيما بعد ، وزاد من هذا الإستنفار المواقف الإستفزازية التي اتخذها تجمع المنظمات الموالية أو الميالة لظاهر شاه وللحلول الوطنية ، عبر اتخاذها إتحاداً منفصلاً في بشاور ضم صبغة الله مجددي ، ومحمد نبي محمدي ، وسيد أحمد جيلاني ، تبلور وجوده منذ عام ٨٢ وأعلن بعيد قيام « الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان » في مايو ٨٣ تأييده الرسمي وموافقته العلنية على إنشاء جبهة موحدة يقوم بالتنسيق لها ظاهر شاه في منفاه [٣] .. وكان قد كُشف قبل أقل من شهرين عن قيام السوفييت باتصال مباشر مع ظاهر شاه في روما دعوه فيها لتولي رئاسة دولة أفغانستان كحل وسط لتسوية القضية الأفغانية – على حد تعبير مصادر وثيقة الصلة بصاحب زاده يعقوب خان وزير الخارجية الباكستاني وقتذاك – على أن يتولى بابراك كارمل رئاسة الوزراء [٤] !! وبعد شهر واحد من هذه الإتصالات خرج ظاهر شاه عن صمته طوال السنوات الماضية ليدعو – عبر صفحات جريدة « لوموند » الفرنسية [٥] – الشعب الأفغاني إلى « إنشاء جبهة نموذجية موحدة تنسق بصورة أفضل نشاطات المقاومة وتمثلها في المؤتمرات والأنشطة الدولية .. وتفتح تدريجيا الحوار المحتوم مع السوفييت .. » لكن هذه التطورات الحساسة الموحية لم تكن لتترك وقتذاك في نفوس المتعاطفين مع الجهاد الأفغاني – والعرب منهم على وجه الخصوص – قدر ما تركته من أثر كتابات د. عبدالله عزام المتوالية في مجلة « المجتمع » عن كرامات الجهاد والمجاهدين [٦] والتي جمعها بعد ذلك في كتابه الشهير « آيات الرحمن في جهاد الأفغان » ولقد سمعت بنفسي إخوة عديدين ممن قرروا التفرغ للجهاد في أفغانستان مبكراً أو المشاركة فيه يُرجعون الفضل بقرارهم المصيري هذا إلى ما قرأوه في هذا الكتاب .. وواقع الأمر فإن الوجدان الإسلامي الذى تلقى أحاديث الجهاد الأفغاني وأنباءه بصورته المثالية الخالصة ، واعتاد طوال سنوات مضت أن يسمع المقارنة بين المجاهدين الأفغان وصحابة رسول الله : صدقاً

وشجاعة وإخلاصاً وتضحية وانتصاراً .. [٧] لم يكن ليحتاج أكثر من هذه الروايات المعجزة والإنتصارات الباهرة ليقرر أن دولة الإسلام لابد قائمة في أفغانستان من جديد .. وأن عهد الصحابة ها هو ذا يعود حياً على ذرى الهندوكوش !

* * *

يتضمن كتاب « آيات الرحمن ..» في طبعته الأولى سبعة فصول نُشر الكثير منها على حلقات في مجلة « المجتمع » – كما ذكرنا – قدّم له الأستاذ سياف مقدمة قال فيها : « .. أنا أدعو الذين يكذبون أن يزوروا أرض الجهاد ليروا بأم أعينهم أن رب العزة سبحانه هو الذي يدير المعركة .. [٨] » ثم مهد د. عبدالله لكتابه بالإشارة إلى أن « الذي يكتب هذا الكلام عن الكرامات في أفغانستان إنسان أمضى أكثر من ربع قرن يُدرس في دين الله ويحمل العقيدة السلفية ولا يؤمن بالخرافات ، يعيش من أجل محاربة البدع والإقرار دين الله في الأرض .. ولا يأخذ عقيدته من أوهام المبطلين ولا من رؤى الصالحين .. » وأضاف : « إن الروايات بلغت حد التواتر بعد أن أمضيتُ أكثر من نصف عام أتصل بالمجاهدين واستمع إلى أخبارهم ومعاركهم ، وليس الأمر قولاً واحداً قد يكون الوهم تطرق إلى رؤيته أو مشاهدته ، بل إن هذه الكرامات قد كثر رواتها الصادقون ..[٩] » ومن ثم وفي مسعى منه لتوثيق الموضوع شرعياً يسجل د. عبدالله عدداً من كرامات صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخصص الفصل الأول والثاني للحديث عن معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام وكرامات الصحابة .. ليفرد الفصل الثالث وعلى ما يقارب الأربعين صفحة للحديث عن « بشائر وكرامات الجهاد في أفغانستان » فينقل بالإسم عن رواة يوثقهم كرامات لشهيد يصافح أباه ، ولمجاهد تمر الدبابة على بدنه فيبقى حياً ، وآخرين يصيبهم الرصاص فلا يخترق أجسادهم ، ويتحدث الرواة عن العقارب تقاتل مع المجاهدين ، وعن الأفاعي تبيت في فراشهم أربع سنوات لم تلدغ واحداً منهم ، وعن الطيور تحوم تحت طائرات العدو لحماية المجاهدين من القذائف ... ثم يستعرض رحمه الله في الفصل الخامس « قضية الجهاد في سطور » من أيام الملك ظاهر شاه وحتى قيام إتحاد عام ٨٢ برئاسة سياف ، ويخصص الفصل السادس لأخطر وأهم ثنايا الكتاب ، حيث يفتي – وبمنتهى الوضوح – بأن الجهاد في أفغانستان على ثلاثة أحكام :

١ – فرض عين بالنفس والمال : على أهل أفغانستان وعلى من يقطنون على بُعْدٍ أقل من ٨٨ كم من الحدود الأفغانية (دون مسافة القصر كما نص معظم الفقهاء) سواء في باكستان أو في إيران أو غيرها .

٢ – فرض عين من جهة مدهم : بالسلاح والطعام والمال وتسهيلات الحدود وتأشيرات الدخول .

٣ – فرض كفاية بالنفس : على باقي المسلمين في الأرض (غير الأفغانيين وغير من يعيشون على قرب من حدودهم) وهذا كله إذا كفى أهل أفغانستان من جهة العدو ، أما إذا لم يكف عددهم فإن فرض العين بالنفس يتوسع حتى يعم المسلمين جميعاً [١٠] .. وفي الفصل السابع والأخير ، وتحت عنوان « حتى لا نعض أصابع الندم » يؤكد د. عبدالله « أن الفرصة الآن ذهبية وسانحة لإقامة

دولة إسلامية في أفغانستان بعد انتصار المجاهدين الذين يعدون المليون .. إنها الفرصة الذهبية السانحة الآن في الأرض كلها لإقامة حكم الله في الأرض [١١] » وفي موضع تال يضيف : « لقد آن لنا أن نفكر في أرض تكون قاعدة صلبة تنطلق منها الدعوة ، وحصناً حصيناً يأوي إليها الدعاة من جحيم الجاهلية المستعر ، ألم يأن لنا أن نفكر في إيجاد دار للإسلام يتمثل فوق أرضها دين الله سلوكاً وأنظمة وأحكاماً .. وأنا أرى أن أفغانستان أفضل أرض لهذا الدار بعد أن وصل الجهاد الأفغاني إلى مستوى أشبه بالأساطير وأبعد من الخيال فيما حققه في دنيا الواقع من انتصارات [١٢] .. » وبعد أن يؤكد في صفحات تالية على أن المجاهدين بحاجة إلى « الصحفي المسلم ، والطبيب المسلم ، والمهندس المسلم في الكهرباء والكيمياء والإلكترونيات ، والعالم الذي يقيم بينهم فيعلمهم أمور دينهم [١٣] .. » يختتم الكتاب فيقول : « فلينتبه أساتذة الجيل وليحذروا مغبة القعود .. وليعلم ذوو الكفاءة والطاقة التي يحتاج إليها الجهاد أن الجهاد بالنفس في حقهم فرض عين ، فإما المشاركة وإما الذاب ، وعلى كل مسلم أن يدلي بدلوه في هذا الميدان وأن يشارك في الجهاد على قدر طاقته ، ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها [١٤] » .

لقد تناول الدكتور عبدالله في كتابه قضيتين اثنتين مثيرتين ، أحدث انتشار الحديث عنهما صدى غير عادي في أوساط المهتمين والمتتبعين ، أولاهما : ولعلها القضية الأبسط والأسهل .. وهي قضية الكرامات التي تحققت - كما رواها د. عبدالله - للمجاهدين الأفغان ، ولكن طرحها بهذا التوسع والتفصيل أثار - كما تبدى - أقواماً عديدين اختلفت دوافعهم وتعددت أفهامهم .. فالبعض اعتبر مثل هذه الروايات نوعاً من الأوهام أو المبالغات أو حتى الخرافات .. وهو اعتبار لا يخص كرامات الأفغان المجاهدين وحدهم ، وإنما يطلقه أصحابه على كل حديث يتجاوز المألوف والمعروف ، فيُكذبون كل خارقة ويردون كل رواية عن معجزة ، ولقد أجاب د. عبدالله - ابتداء - على مثل هذه الدعاوي ، فسرد الأدلة الشرعية والمرويات التاريخية عن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعن كرامات أصحابه المرضيين .. وتابعيهم .. ومن نبغ في هذا الأمر من صالحي المسلمين ، كما وثّق - قدر استطاعته - أحاديث الكرامات التي سمعها عن المجاهدين ، وثبّت - غالب الأحيان - اسم راويها حتى قال : « كنت أجمع هذه الروايات من أفواه المجاهدين أنفسهم ولا أقبل رواية إلا ممن حصلت معه أو رآها بعينه ، وكنت أتتبع هذه الروايات ، وقد بلغت عندي حد التواتر ، ، وكثيراً ما كنت أستحلف المجاهد على القصة [١٥] .. » بعدئذ رأى د. عبدالله أن لا يلتفت إلى مظنة استهزاء أعداء الإسلام بمثل هذه القصص فقال : « إن أعداء الإسلام لا يؤمنون بالله ابتداء ولا بدينه كشريعة للحياة ومنهج للتعامل ، فهل نريد أن نقنعهم عن طريق إخفاء هذه القصص .. هل نتخلى عن الإيمان بعالم الغيب كله ، أم نفلسفه فلسفة مادية منطقية من أجل إرضائهم عنا ؟ [١٦] » .

ورأى بعض آخر من المسلمين الغيورين أن نشر مثل هذه الروايات قد يؤدي إلى التواكل .. أو إلى انتشار البدع والخرافات ، ورد رحمه الله في طبعة الكتاب الثانية على هذه المظان أيضاً .. وقال : « الكرامات

ربط الله بها على قلوب المؤمنين .. وكان لهذه الكرامات أثر كبير في حياة السلف من أئمتنا .. وإني لأعلم أن هذه الكرامات تفعل فعلاً عجيباً في إثارة حماس المجاهدين وتعطيهم دفعاً قوياً على الطريق [١٧] » وأضاف : « .. وقضية أخرى لابد من التنبيه إليها وهو أن الكرامات لا تتنزل على القاعدين وإنما تتنزل الكرامة في أحرج أوقات الضيق بعد أن تأخذ النفس أهبتها وتعد عدتها وتستنفذ كل إمكانياتها وتبذل كل طاقاتها . هنا تتدخل إرادة الله لإنفاذ وعده وإتمام قدره .. وليس الجهاد قائماً على الكرامات . ولكن الكرامة تأتي في وقت الشدة والضيق [١٨] .. » أما الخشية من أن يؤدي نشر هذ القصص إلى انتشار الخرافات والبدع فقال : « لا شك أن بعض المخرفين يتاجر بها ويجعلها قاعدة لتفكيره و محوراً لآرائه ، ولكن الصحابة رضوان الله عليهم وقد ظلوا إلى نهاية حياتهم يتكلمون عن ملائكة بدر لم يكن في عقيدتهم خرافة ولا إغلال .. فنحن متبعون لهؤلاء السلف ولسنا مبتدعين [١٩] .. » .

وتناول د. عبدالله بعد ذلك أهم قضية تخوف البعض من أن تثيرها أحاديثه ومروياته المكثفة عن الكرامات وقال : « ذكّرني الإخوة بأن الكتاب يعطي صورة أن الشعب الأفغاني شعب مثالي لا نظير له في عالم الواقع » ورد فقال : « أما أنه لا نظير له في الأرض كلها فهذه حقيقة لمن أنصف وعايش هذا الشعب عن كثب [٢٠] وأما المثالية فليس لبشر أو شعب في أن يدرك الكمال ، فهذا الشعب فيه الصالح وفيه من دون ذلك ، وفيه نقائص البشر وضعفهم ، فمنهم المبتدع ومنهم الكاذب والجاسوس والسارق والمدخن ، والمتعاطي بالحشيش والنسوار ، وتراقي ، وحفيظ الله أمين ، والشيوعيون ، ولكن الغالبية العظمى للشعب أنه شعب صادق عزيز شجاع أبي [٢١] » .

وواقع الأمر فإن أحاديث د. عبداله عزام عن كرامات المجاهدين لم تكن لتلقى مثل هذا الكم من الأخذ والرد لولا أن المنهجية العاطفية لا تزال تغلب قطاع الموضوعية والتعقل والشمولية الغائبة في مجمل الشخصية الإسلامية اليوم .. وأمام التعامل العاطفي بمجمله مع القضية الأفغانية عبر السنوات الماضية كان لابد وأن يُحدث هذا التضخم غير المتوازن طغياناً في المشاعر الحماسية على حساب العقل الواعي والإدراك المستبصر ، فتجد إشارات د. عبد الله ومثيلاتها عن قضية - كالكرامات - لا تدخل في عالم المحسوسات المباشرة والأسباب المرئية صدى غير اعتيادي في نفوس المسلمين غطّى حتى على منطلق هذه الكرامات وأسباب حدوثها .. وأشاح باندفاعة عاطفية بهؤلاء عن التمعن في حقيقة الجهاد ودلالاته وآثاره .. وهو الأمر الذي اختصره د . عبد الله رحمه الله بعبارة موجزة فقال في بدايات مقدمة الطبعة الأولى للكتاب : « إن وقوف شعب أعزل مدة أربع سنوات أمام أعتى قوى الأرض وأشرس الجيوش المزودة بأحدث الأسلحة .. هذه وحدها أكبر كرامة وأعظم بشرى وأغرب خارقة للسنن في العصر الحديث » .

هوامش

(١) بتاريخ ٨٢/١٢/١ أيدت ١١٤ دولة قراراً في الجمعية العامة للأمم المتحدة ضدّ ٢١ معارض وبامتناع

١٣ عن التصويت ، يقضي بانسحاب فوري لقوات السوفييت من أفغانستان ، وكان القرار الرابع منذ الغزو ، وفي ٢٥ /١١/ ٨٣ أتت خامس مطالبة من الأمم المتحدة بالإنسحاب بأكثرية ١٦٦ صوتاً ضد ٢٠ وامتناع ١٧ عن التصويت .

(٢) في بداية عام ٨٤ قدرت مجلة « تايم » الأمريكية خسائر السوفييت في أفغانستان خلال الأعوام الأربع الماضية بـ ٢٠ ألف رجل ، وذكرت أن الاحتفاظ بالجيش السوفييتي في أفغانستان يكلف موسكو حتى الآن ٨ ملايين دولار يومياً ، ولم تنسب المجلة معلوماتها هذه لمصدر محدد . أنظر : صحيفة « الخليج » - ٨٤/١/٣ ومن جهتها اعترفت صحيفة « برافدا » السوفييتية وقتذاك بأن ١٠٠٦ من أعضاء حزب الشعب الأفغاني الحاكم لقوا مصرعهم عام ١٩٨٣ أنظر : صحيفة « الإتحاد » - ٨٤/٧/١٥

(٣) بشاور - « ا.ف . ب » : نقلاً عن بيان للتحالف الثلاثي « المعتدل » نشر أمس ، أنظر : صحيفة «الوحدة » - ٨٣/٧/٢٢ وفي هذا الصدد أوضح د. ذبيح الله المجددي ابن الشيخ صبغة الله أن هذه الموافقة كانت لاحتواء تلك الخطوة خشية أن يؤول الأمر لغير حكم الإسلام في أفغانستان وقال (في حديثه لي بتاريخ ٩١/٦/٢٠ أثناء زيارته لأبي ظبي) بأن « دعوة ظاهر شاه تلك أتت في مرحلة كان الوضع فيها بين الإتحادين : السباعي والثلاثي سيئاً جداً ، وكانت معلوماتنا أن الدول الغربية تؤيد هذه الدعوة وأن باكستان تميل اليها ، ورأينا الشعب الأفغاني رحب بها كذلك لأنهم كانوا منزعجين ومستائين من سياسات الإتحادين ومن إنعدام الوفاق بينهم وحدوث المقاتلات بين المنظمات .. فشعرنا أن هذا الأمر قد ينجح ، ولو لم يكن للمجاهدين دور في إنشاء هذه الجبهة فسوف يخرج الأمر من أيديهم ، فقرر إتحادنا الثلاثي أن يشترك فيها » وتحدث د. ذبيح الله عن مشاركته مع جيلاني ومحمدي في تمثيل إتحادهم ولقائهم بظاهر شاه في روما ونقل عنه قوله بأنني لا أعتقد أن النظام الملكي سوف يرجع إلى أفغانستان ، وأنني لا أحب أن أرجع اليها كملك ولا أحب لأحد من عائلتي أن يفكر في ذلك لأن الأوضاع تغيرت .. ويخلص د. ذبيح الله إلى أن هذه الجبهة لم تأخذ خطوة أخرى عقب صياغة لوائحها التى حرص الإتحاد الثلاثي أن تكون على أساس الإسلام في كل شيء .. ويسجل اعتقاده بأن ذلك كان السبب في انتهائها لأن هذه الحركة أنشئت بواسطة طرق ومنابع لم يكونوا حريصين على انشاء حكومة لها سمعتها الإسلامية الحقيقية .. وأن هذا الاتصال كان الوحيد الذي حدث مباشرة بين المنظمات الثلاثة وبين ظاهر شاه .

(٤) صحيفة « البيان » - نيويورك - من « ماريان هوك » - ٨٣/٦/٤

(٥) نقلت صحيفة « الأخبار » المصرية بتاريخ ٨٣/٧/٥ نص المقابلة عن « لوموند » الفرنسية .

(٦) ابتداء من العدد ٥٦٩ - لسنة ١٣ بتاريخ ٤ مايو ١٩٨٢ تحت عنوان « آيات وبشائر وكرامات في الجهاد الأفغاني » ولكن دون الاشارة إلى اسم د. عبدالله كمسؤول عن كتابة هذه المادة ، وفي العدد ٥٨٤ من المجلة بتاريخ ٨٢/٨/٢٤ -ص ٣٨ - ١٩ ردّ د. عبدالله عزام على تهكمات « بعض الأقلام العلمانية واليسارية حول كرامات المجاهدين .. » ودافع عن موضوع « آيات وبشائر .. » وعن منهج كاتبه دون أن يشير لعلاقته بالموضوع الأول ، ثم جعل هذه المقالة الدفاعية فيما بعد جزءً رئيساً من تمهيده لكتاب «آيات الرحمن في جهاد الأفغان » .

(٧) بتاريخ ٨٣/٥/٣١ وفي عددها رقم ٦٢٣ قدمت مجلة « المجتمع » الأستاذ سياف – في لقائها معه – على أنه « رمز الجهاد وعنوان صموده في وجه المؤامرات الدولية .. أصبح اسم سياف يتردد على لسان أي مسلم صادق وأصبح مثالاً حياً للقائد الذي يقود الأمم المظلومة في وجه الطغيان .. وأصبح نموذجاً واقعياً لمن أراد أن يعرف كيف يستعلي الإيمان في نفوس الأفراد فيجعلها قمماً شاهقة وجبالاً راسية .. » وكتب الدكتور عبدالله رحمه الله في « آيات الرحمن » صـ ١٤٩ يقول : « .. كنت أقرأ عن زهد عمر رضي الله عنه فكأني أسمع ضرباً من الخيال ولكنني رأيته واقعاً عندما رأيت بيت الشيخ سياف الذي يسكنه طينياً وأرضه ترابية ومضافته لاستقبال الضيوف خيمة ونفقته ريال ونصف .. » .

(٨) « آيات الرحمن .. » – طبعة جامعة الامارات – صـ ٤

(٩) المصدر السابق صـ ١٧ – ١٨ – .

(١٠) المصدر السابق – صـ ١٤٠ – ١٤١ – ولقد فصّل د. عبدالله في الطبعة الثالثة من الكتاب – صـ ١٧٢ – ١٧٣ فاعتبر الدرجة الثالثة « فرض عين بالنفس : على باقي المسلمين من أصحاب الكفاءات التي يحتاجها الجهاد كالدعاة والأئمة والمهندسين والأطباء ... أما باقي المسلمين في الأرض فالجهاد فرض عين عليهم في بلادهم ليقيموا شرع الله ويطردوا الكفار ، ومن لم يستطع أن يجاهد بالنفس في بلاده وسنحت له الفرصة بالقدوم إلى أفغانستان فتبقى فرضية العين قائمة في حقه ، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وهذا الحكم بعينه يطبق في فلسطين وغيرها من بلدان المسلمين التي اغتصبت فيها شريعة الله وأرض الله مثل لبنان وكشمير وأريتريا والفلبين » .

(١١) المصدر السابق – صـ ١٤٦

(١٢) المصدر السابق – صـ ١٥٨

(١٣) المصدر السابق – صـ ١٦٥

(١٤) المصدر السابق – صـ ١٦٨

(١٥) المصدر السابق – الطبعة الثالثة – صـ ٣٦

(١٦) المصدر السابق – الطبعة الثالثة – صـ ٣٧ – ٣٨

(١٧) المصدر السابق – الطبعة الثالثة – صـ ٣٣ – ٣٤

(١٨) المصدر السابق – الطبعة الثالثة – صـ ٣٥

(١٩) المصدر السابق – الطبعة الثالثة – صـ ٣٧

(٢٠) قبل أكثر من نصف قرن سبق لأمير البيان شكيب أرسلان أن أشار إلى مثل هذا المعنى بعد زيارته لأفغانستان فكتب في « حاضر العالم الإسلامي » – المجلد الأول – الجزء الثاني صـ ١٩٧ يقول : «لعمري لو لم يبق للإسلام في الدنيا عرق ينبض لرأيت عرقه بين سكان جبال الهيملايا والهندكوش نابضاً وعزمه هناك ناهضاً .. » .

(٢١) « آيات الرحمن » – الطبعة الثالثة – صـ ٣٠

(٢٢) المصدر السابق – الطبعة الأولى – صـ ٢٤

الأنصار العرب (١٠)

فرض العين ..وفرض الكفاية

قضيـة الكرامات – إذاً – هي إحدى قضيتين أساسيتين أثار كتاب « آيات الرحمن .. » بهما الرأي العام المسلم وأطلق من خلالهما إشارة تحريض غير اعتيادية وقتذاك ، أما القضية الثانية والتي كانت في اعتبار الكثيرين الأهم والأبلغ في التأثير والتحريض فهي فتواه حول حكم الجهاد في أفغانستان .

فعلى مدار العقود المنصرمة ، ومع تتابع النكبات والإعتداءات والنوازل التي انصبّت على العالم الإسلامي من شتى جهاته ومن مختلف عدوّيه .. بلغت درجة الإستئناس والتدجين والتخدير من المسلمين مبلغاً جعل اعتياد النازلات والسكوت عنها هو الأصل الأصيل ! فإذا ارتفعت أصوات فئة منهم بالشكوى أو الإحتجاج أو التذمر اعتبرتهم مجتمعاتهم من فورها قد جاوزوا الحد المسموح وأرقّوا مسامع الآمنين واستنفروا عليهم الأعداء بلا مبرر وبلا نتيجة ! أما أن يمتشق المسلم سلاحاً فيدفع الظلم بما هو أولى ويثأر لحرمات الله وكرامة الأوطان وعزة المسلمين .. فذلك في نظر الأغلبية ضرب من التهوّر والتهلكة .. الفتاوى جاهزة بتحريمه .. والموروثات البيانية مهيّأة لتجريمه ! فـ « لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فاتحة الخطاب .. و« العين لا تقاوم المخرز » و« اليد التي لا تستطيع عضّها .. قبّلها وادعُ عليها بالكسر » و « كل من تزوج أمي .. فهو عمي » ! ! ! أسهل الإجابات الدارجة وأدناها تداولاً .. أما على الصعيد الرسمي ، وفي سجل الممارسات السلطوية ، فقد حُكمت غالبية البلاد الإسلامية – والعربية منها على وجه الخصوص – بقوانين الطوارىء وبالأحكام العرفية وبقبضة الحزب الواحد أو الفئة الحاكمة .. فكأنها النعاج في حظائر الجزّارين ! .. وفي زمن أكل المغتصبون اليهود قلب عالمنا الإسلامي ومهد مقدساتنا .. بات حمل السكين في بلاد العروبة مخالفة يُجَرّم صاحبها ويسجن عدة شهور !! أما المقاومة الوحيدة – ربما – التي أخذت موافقة ظاهرية على شرعية قيامها – وهي المقاومة الفلسطينية – فقد نالت من سهام الغدر وطعنات الأصدقاء اللدودين في الظهر ما أدمى شغاف القلوب وفتت فلذ الأكباد .. ثم ما لبثت ساعة الانهيار أن دنت .. فأسفر القوم عن مكامن الأحقاد .. وأشرعوا صفر النياب .. وانهالوا على شتات المنظمات الفلسطينية مسحاً بالسوق وبالأعناق ! وهكذا بات المواطن المسلم العربي إذا ضحك الدهر له فعرف الأحكام – نصاً مجرداً في كتب الفقه والحديث – وتلى آيات الجهاد – بالشفاه من كتاب الله – .. حَوْقَلَ وتحسر أنْ ولّتْ أيام التطبيق واستحالت إمكانية التحقيق والتنفيذ .. وصارت الفتوى على ألسنة العلماء قبل العوام – إلا من رحم المولى – أن مرحلتنا هذه « مرحلة مكية » .. نصبر فيها على الأذى ونغض عنه كما صبر رسول الله وغضوا أيام كانوا في مكة مستضعفين ! فلما امتشق الأفغان السلاح وأطلقوا نفير الجهاد في مواجهة السلطة المتمركسة ثم في مواجهة السوفييت أنفسهم .. بات أحسن الناس ظناً وأقواهم إيماناً يبارك هذا الجهاد بدعوات صالحات .. أو يمده بدريهمات ودنانير معدودات .. لكن فتوى تصدر من داعية عربي له من المعارف والتلامذة والمحبين المئات ،

تقرر أن الجهاد اليوم مع الأفغان – إن لم يكن فرض عين – فهو ليس بأقل من فرض الكفاية .. فذلك أمر عجيب .. وحدث مستغرب .. ومقولة تريد أن تعصف بركام من التخاذل ران على الأفئدة والبصائر والقلوب ! ومن خلال الرصد المتأني لآثار هذه الفتوى – التي لم تكن بدعاً من الفتاوي ولا جديداً على أصول الإسلام – تبين أن الذين تقبلوها كانوا أحد اثنين : واحد بلغت منه مرارة الواقع مبلغاً ما عاد يطيق معه إحتمال الأذى والسكوت على الهوان .. فوجدها منفساً ومنفذاً يُذهب غيظ فؤاده ويبرهن لنفسه على صدق الإيمان وحسن الإسلام .. وكان ضمن أولئك من اندفع بغير ما ترو كاف ودراسة واعية ، مثلما كان ثمة من أعد واستعد ، فأقبل فأبلى في الساح خير بلاء .. أما ثاني الإثنين فكان ممن قيدته « بيزنطية » البحث الفقهي ، وسمرته جدليات الخوض في الأدلة والبراهين .. أو كبلته مشاغل الدنيا وجواذب الأرض .. أو أبطأت به مهام للدعوة أخرى ، ومواقع للعطاء تحتاج اليه ؛ وبرغم التفصيل الواضح الذي بينه د. عبدالله رحمه الله في كتابه حول « حكم القتال في أفغانستان .. » وعلى الرغم من أنه أضاف إلى هذا العنوان عبارة : « .. وفي فلسطين » فقد فهم البعض أن الحكم إنما يُحمل كل المسلمين فرضية العين .. وقد تبين أثناء عرض الفتوى أن د. عبدالله جعل فرضية العين – استناداً إلى أقوال المتقدمين – على من يلي موضعا دهمه الكفار بمسافة القصر إضافة إلى أهل ذلك الموضع أو الموطن ، أو على أصحاب الكفاءات المتميزة التي يحتاجها المجاهدون ولا يجدونها متوفرة بينهم ، أو على من لم يستطع الجهاد بالنفس في بلده وسنحت له فرصة القدوم إلى أفغانستان .. ولقد عُنيت مجلة « الجهاد » من بعد بمحاورة أكثر من التقتهم في أعدادها المتتابعة حول هذا الموضوع ، فأتت إجاباتهم على تنوعها إثراء له وإحاطة أشمل بتفاصيله ، فالدكتور يوسف القرضاوي يجيب عن ذلك فيقول [1] : « الجهاد على الأفغانيين فرض عين وعلى الأقرب فالأقرب من غيرهم من المسلمين إلى أن تحصل الكفاية ، وما لم تحصل الكفاية تأثم الأمة الإسلامية جمعاء ، وأصحاب الخبرات العسكرية أو الطبية أو غيرها من مختلف التخصصات التي يحتاج إليها المجاهدون فرض عين على هؤلاء أن يساعدوا المجاهدين في مجال خبراتهم واختصاصاتهم التي تسد الحاجة ، وواجب على المسلمين عامة المساندة المادية والأدبية بحيث يعيش المسلم معهم بقلبه إن لم يعش معهم بجسده » .. وقال الشيخ عبدالمجيد الزنداني في مقابلة تالية [2] : « الجهاد في أصله من فروض الكفاية ويصبح فرض عين في حالات .. فإذا قام الأفغان بالواجب في هذا الميدان يسقط عنا وعن البعيدين عنهم لوجود من يكفي ، فإذا لم يوجد من يكفي يبقى الخطاب موجهاً إلينا ، ويبقى الإثم على من لا يتحركون قائماً ، ودفع الإثم عن النفس واجب وفرض عين ، ليس فقط في أفغانستان بل كذلك في فلسطين وفي كل مكان ، ولكنه يتوجب على الأقرب فالأقرب .. » وتنقل المجلة فتوى الشيخ عبد العزيز بن باز حول الموضوع نفسه حيث قال [3] : « .. فمساعدة إخواننا المجاهدين والمهاجرين الأفغان ومناصرتهم فرض عين على المسلمين اليوم بالمال والنفس أو بأحدهما حسب الإستطاعة ، وخاصة أصحاب الكفاءات والإمكانات من دعاة وأطباء ومهندسين ومعلمين .. » وفي نفس العدد نشرت المجلة نص الفتوى التي أصدرها ٤٣ من العلماء الكبار في باكستان حول حكم الجهاد في أفغانستان جاء فيها [4] : « .. إن المشاركة في هذا الجهاد والمساهمة فيه وفقاً لحكم الأقرب فالأقرب فرض عين على كل مسلم إبتداء من الشعوب الإسلامية في باكستان وإيران والهند ، ثم الشعوب الإسلامية في تركيا والبلدان

العربية ، ثم المسلمين في الدول الأخرى ، وفرض عين على جميع المسلمين في العالم أن يساعدوا هذا الجهاد بكل ما لديهم من الطاقات .. » ويتوقف الدكتور حسن الترابي عند صلاحية أفغانستان لتكون قاعدة الحركات الإسلامية المضطهدة وكيان المسلمين في العصر ليسجل خلافه مع د. عبدالله عزام حول تلك الجزئية ويقول [٥] : « لا يشترط ذلك كذلك ، وأحسب أن الأوضاع الدولية اليوم تحتم علينا جميعاً أن يقاتل كلٌ منا الذي يليه من الكفار فإن هذا أضمن من أن ندفع بكل الحركات الإسلامية إلى أفغانستان .. والحكمة أن يقوم الإسلام عبر الأرض جميعاً لا أن ينحصر في بقعة واحدة فيسهل العمل للقضاء عليه .. ولا أحسب أن الحكمة في أن نجتمع والحال هكذا لو أمكن ذلك .. » ومن جانبه يوافق الشيخ حسن أيوب فتوى د. عبد الله عزام حول فرضية الجهاد ودرجاتها ويقول [٦] : « الجهاد فرض عين على أقرب البلاد إلى مكان الإعتداء ، فإن لم يكن فإنه فرض عين على جميع المسلمين حتى يدرأوا هذا العدو ويحرموه من التسلط .. » ويؤكد من ثم على أن الأراضي التي هاجمها الأ عداء بالقوة في أفغانستان وفي فلسطين « فإ ن الواجب في هذا الوقت على جميع المسلمين في شتى أقطار الأرض أن يقوموا بواجب الجهاد في سبيل الله ، وليعلموا أن هذا الجهاد فرض عين على كل قادر منهم .. وكل من يخذل المسلمين عن الجهاد فإنه يُخشى أن يكون منافقاً يعمل لحساب أعداء الله ويساعد الكفار .. » وبصرامة واضحة يقرر الشيخ حسن أيوب : « أنه لعار كل العار أن تخرج أصوات في هذا الوقت الذي عبأ فيه الكفار كل إمكانياتهم للقضاء على البقية الباقية من المسلمين ، تخرج أصوات تُثبط عن الجهاد في سبيل الله وتدّعي أنه فرض كفاية ، بمعنى أن يتواكل كل مسلم منهم زاعماً أنه يوجد من يقوم مقامه ، مع أن هذا غير موجود ولم يوجد .. » وحول خشية بعض الدعا ة من أن يؤدي نفير الجهاد إلى تفريغ البلاد من الدعاة يرد فيقول : « هذا كلام مخرف ليس عنده دراية بأحوال أعدائه .. إن هذه الدعوة التي يقولونها قديمة وما كان يقولها إلا المتواكلون الذين يؤثرون الدعة والخمول والكسل على الجهاد الجاد .. ومع قبوعهم في بلادهم ومحاولتهم أن يردوا الشيوعية وغيرها بالكلمات ، فإن الشيوعية وغيرها اكتسحتهم وأذلتهم ودمرت مقوماتهم .. » .. وواقع الأمر ، فلا الفتوى التي عليها د. عبد الله ، ولا رأي الذين خالفوه في جزئياتها أو عارضوه وعارضوها .. هي بالحكم الأوحد الذي لا استثناء فيه .. وفي اعتقادي أن دراسة مستفيضة يقوم بها المعترضون والمخالفون تستوعب اختلاف حالات الفتوى التي سجلها د. عبد الله ، ستقترب – فيما لو تمت – بمواقفهم منه رحمه الله الشيء الكثير ، كذلك – وبحكم تعاقب الحالات القادمة للساحة وتنوع ظروف المستجيبين النافرين وتعددها – فقد ازداد دأب د. عبد الله فيما بعد للتفصيل و للتوضيح ، وأخذ في التأكيد على وجوب أن تتوفر شروط أساسية في القادمين تلجم اندفاعة متعجلة منهم أو غير مدروسة .. خاصة بعدما أصبح السفر إلى بشاور – عند البعض – والطواف على مواقع المجاهدين الحدودية لأسبوع أو لأسبوعين أيام العطل الصيفية أشبه مايكون برحلات الإستجمام والسياحة ! فلا إعداد ولا استعداد .. ولا خطة ولا دراسة .. ولا انضباط ولا التزام .. الأمر الذي جعل سلبيات مثل هذه العشوائية في مراحل متعددة – كما سنرى لاحقاً – أمراً لا يمكن التغاضي عنه .. غير أننا ما دمنا في مرحلة ماقبل تأسيس مكتب الخدمات فإن التروي والمضي مع تسلسل الأحداث هو الأولى .. وخلاصة الأمر فإن فتوى د. عبد الله والدعاية المدوية التي رافقت قيام الإتحاد بين المجاهدين .. علاوة على الزخم الإعلامي الذي حظيت به قضية أفغانستان ، كل ذلك كان أبرز الحيثيات التي هيأت للمتشوقين إلى الجهاد من العرب – وسواهم – مناخاً نفسياً مشجعاً ، وفتحت لـشرات منهم باب المشاركة المباشرة تباعاً في الجهاد بالنفس وبالمال .. على ثرى أفغانستان .

هوامش

(١) مجلة « الجهاد » – العدد ٥ – ١ شعبان ١٤٠٥ / ٢١ ابريل ١٩٨٥ – صـ ٢١
(٢) مجلة « الجهاد » – العدد ٢١– نوالحجة ١٤٠٦ / أغسطس ١٩٨٦ – صـ٢١
(٣) مجلة « الجهاد » – العدد ٢٢ – ٢٢ محرم ١٤٠٧ / سبتمبر ١٩٨٦ – صـ ٢٥
(٤) المصدر السابق – صـ ٣٢
(٥) مجلة « الجهاد » – العدد ٣٧– ربيع الثاني ١٤٠٨ /ديسمبر ١٩٨٧ – صـ١٢
(٦) مجلة « الجهاد » – العدد ٤٠ – رجب ١٤٠٨ / مارس ١٩٨٨ – صـ ١٨

الأنصار العرب (١١)

أول شهداء العرب

كان التواجد الحيي المتواضع للعرب على ثرى أفغانستان وفي خنادق القتال فيها قد بدأ يتضح عام ٨٣ ولو على نطاق أفراد قلائل ربما لم يجاوزوا في العدد أصابع اليدين ! فطوال السنوات الماضية من عمر الجهاد الأ فغاني كانت النسبة الأعظم من علاقة المسلمين بأفغانستان لا تتعدى الجهود الاعلامية أو التمويلية أو السياسية (إن صح اطلاق التسمية على مساعي التوحيد والتنسيق كما رأينا) أما في الميادين والجبهات فلم يكن ثمة من شارك من العرب وخاض إلا أقل القليل . وفي الوقت الذي نشرت الأطراف الدولية والإقليمية – على اختلافها – العيون والآذان والجواسيس المحترفين على امتداد أفغانستان ، كان ابتعاد العرب من أبناء الحركات الإسلامية عن ساحات القتال واكتفائهم باستقاء المعلومات من بشاور أو من أفواه الزعماء الزائرين أمراً واقعا ومنهجاً يكاد يكون متأصلاً ! ولقد سجل أحد التقارير الميدانية المتميزة التي كتبت عن أسباب فشل المجهودات العربية وقتذاك أن العرب « أظهروا حساسية من زرع عناصر لهم في الجبهات على الأ قل بغرض جمع معلومات عن الصورة الحقيقية لما يدور على أرض الواقع ، واعتبروا هذا التصرف نوعاً من المجازفة غير المسموح بها ، كما تصوروا عراقيل وهمية أمام تنفيذ ذلك ، وشجعهم على هذا الإتجاه قادة الأ حزاب في بشاور الذين هم معظمهم قاعدون أصلاً عن القتال ، ولم يبدوا أي استعداد لممارسة القيادة الحقيقية على أرض المعارك » ويرى كاتب هذا التقرير [١] « أن محاولات المسلمين العرب تقوية الجهاد الأفغاني وتصحيح مساره لم تؤد – رغم إخلاصها وضخامة الأموال والمجهودات المبذولة – إلى الغاية المرجوة منها ، بل على العكس فقد أدت أحياناً إلى إتساع رقعة السلبيات ، كما أهدرت كثيراً من الطاقات التي كان يمكن إستغلالها بشكل أفضل في الجهاد إلى الأمام .. » ولقد أقرّ الأستاذ سياف بضآلة المشاركة العربية حتى بعد إتحاد ٨٣ فقـال [٢] : إ اذا اعتبرنا اشتراك اثنين أو ثلاثة في كل سنة ، ممكن أنهم يشتركون ، أما إذا كان هذا العدد لايحسب له حساب فإنهم لا يشتركون » ولقد أشار د. عبدالله في كتابه « آيات الرحمن » إلى ندرة التواجد العربي الميداني في هذه المرحلة فقال [٣] : « لم يدخل ساح القتال من غير الأفغانيين سوى النذر القليل الذي لايذكر ، وأما الذين استمروا معهم من المسلمين في المعركة فهم دون أصابع اليدين » وتحدث في صفحات تالية عن وجه هذه المشاركة فقال [٤] : « لقد شاهد بعض الشباب العرب خلال رمضان وشوال ١٤٠٣ هـ المعارك في وسط كابل ، فقال لي أحدهم معبراً عن شعوره : رأيت أن الله هو الذي يقاتل في أفغانستان . ثم قال : لقد اشتركت في معركة قصفنا فيها معسكر (يخدر) في وسط كابل وكنا مائة وعشرين مجاهداً هاجمتنا طائرات الهيليوكبتر وصبت علينا وابلاً من الرصاص والقذائف .. » وواقع الأمر فان عدداً من العرب – على قلته – دخل جبهات القتال بالفعل قبل عدة سنوات .. بل قبل أن يدخل السوفييت أفغانستان ويجتاحونها ، ففي صيف عام ٧٩ وفي شهر يونيو بالتحديد سجل « مصطفى حامد » أحد العرب القلائل الذين خبروا الساحة الأ فغانية مبكراً وتعرفوا على خفاياها وخلفياتها بوعي وبصيرة .. سجل أول زيارة له إلى الباكستان مع إثنين من زملائه برفقة « شيخ » من الأفغانيين يقيم في أبو ظبي كإمام مسجد تطوع أن يرافق هؤلاء الشبان في زيارتهم المستغربة وقتذاك إلى « مجاهيل » الثورة المتنامية في

أفغانستان .. وبالفعل تمكنت المجموعة بعد مفارقات ومفاجآت عديدة من الوصول إلى جبهة الشيخ جلال الدين حقاني في « سرانا » بولاية « بكتيا » بعد زيارة لمواقع المجاهدين في «الأورغون » عاصمة ولاية «باكتيكا » المجاورة ، والتعرف على واقع الجهاد خلال أكثر من شهر أمضوها فوق أرضه لا من ساحة بشاور على بعد مئات الأميال ! وقد شارك أفراد من المجموعة في سرايا استطلاعية للمجاهدين أول الأمر ، ثم في مناوشات مع العدو من بعيد .. وعادت المجموعة ، ولكن الأخ مصطفى « أبو الوليد » لم يلبث أن داوم على الذهاب والإياب وعلى المشاركة المتزايدة والمتميزة مع المجاهدين الأفغان إلى يومنا هذا .. الأمر الذي جعل منه مدرسة متميزة على الساحة .. أغضبت الكثيرين ، واستعدت عليه الأكثرية ! .. وأضافت إلى رصيد خبرته الواعية رصيداً من المعاناة والإضطهاد كان لابد أن يلقاه حينذاك ثمن المنطقية التي ولج القضية عبرها ، والمنهجية البصيرة والعقلية النقدية المتحررة التي حاكم واقع الساحة من خلالها ، وتمكن بواسطتها من فرز المعطيات المتنوعة .. والرموز والبنود والعناصر المتداخلة تحت راية الجهاد وعباءته ، فيعطي لكل ذي حق حقه .. وينأى بنفسه وعقله وقلمه عن أن تجرفه اللافتات والعناوين .. فتحرفه عن رؤية السلبيات ، أو التنبيه على النقائص والإشارة إلى التقصير والمقصرين . والذي يبدو أن تحرر « أبي الوليد » من الإنتماء لأي من الجماعات أو التنظيمات الإسلامية من قبل ساعده إلى حد كبير في التحرر الفكري وفي التفوق من ناحية إدراك خفايا الساحة وخلفياتها بسرعة .. وفي الجرأة على التصريح بسلبياتها وتوجيه النقد إليها من ناحية أخرى .. الأمر الذي أكسبه من الخبرات المبكرة والمتميزة ما جعله مدرسة قائمة بحق ظلت طوال السنوات المتتالية مستقلة عن أن تنضم لأي من الجهات العربية العاملة أوأن تذوب فيها ، في الوقت الذي لم تنقطع فيها هذه المدرسة – وقد انضم إليها أفراد قلا ئل آخرون – عن معايشة مستجدات الساحة وتطوراتها .. والتفاعل مع إفرازاتها ومعطياتها .. والإستمرار في تأدية دور جهادي عسكري متميز أيضاً ... على قدر الإستطاعة .. والإمكانيات .. والظروف .

* * *

. . . وعلى مدار السنوات التي تلت الغزو وحتى تأسيس « مكتب الخدمات » كأول شكل من أشكال التجمع العربي الجهادي في أفغانستان ، استمر تعاقب الأفراد العرب إلى ساحة الجهاد .. علاوة على زوار مكاتب التنظيمات ومخيمات المهاجرين ومستشفياتهم في أرض المهجر بباكستان ، ويصف الأخ « عبد الله عبد الرحمن » أحد العرب الذين وصلوا إلى الساحة مبكرين « في شوال ١٤٠١ –يوليو ١٩٨١ » طبيعة القادمين وقتها فيقول (٥) : « كان مجيئي وقتها على الإتحاد برئاسة الشيخ سياف ، كانت هناك دار ضيافة واحدة أيضاً فجئت إليها ، وأرسلت منها مع الشيخ جلال الدين حقاني ومولوي أرسلا وكانوا ذلك الوقت في هيكل واحد .. أما العرب فكان عددهم وقتها قليل جداً جداً ... جاء بعض الإخوة السوريين والعراقيين للجهاد واشتركوا مع الشيخ جلال الدين في معارك وذهبوا مرة أخرى .. إضافة لبعض الطلبة في جامعة بشاور ، لكن مشاركتهم كانت فردية .. شباب متطوعون يأتون للجهاد .. يذهبون في معسكرات تدريب تابعة للشيخ سياف أو للأستاذ رباني أو المهندس حكمتيار .. يتدربون فترة استعداداً للقتال ثم يذهبون إلى الجبهات

مباشرة ويشاركون مشاركة فعلية .. وفي هذا الوقت استشهد أول شهيد عربي هو الأخ نور الدين الجزائـري »

« كان نور الدين طالباً في المدينة المنورة يأتي في العطلة ويذهب ، يرسله الشيخ أبو بكر الجزائري كل سنة ليدخل مع المجاهدين .. » هكذا يتذكر د. عبد الله عزام أولَ شهداء العرب « نور الدين » ويضيف : « ولقد استشهد نور الدين الجزائري قبل تكوين المكتب ولكن أثناء وجودي في باكستان ، استشهد ودفن في (بغمان) لكن أبا عبد الله « أسامة بن لادن » يذكر لي أن استشهاد نور الدين كان في « جاجي » و « ما كان للعرب إلا رجل واحد قُـتل في سبيل الله ونرجو أن يكون شهيداً هو نور الدين الجزائري .. » ويؤكد ذلك أبو الرضا – الذي وصل بعد الحادثة بسنة – ويقول : « أول شهداء العرب نور الدين الجزائري ، استشهد في (جاجي) قبل أن نأتي ، كان يعمل على اللاسلكي وذات يوم قال : أريد أن أنفذ عملية بالـ (آر. بي . جي) مـــــع الأفغان . في تلك الأيام كان المجاهدون يهاجمون قلعة (تشاوني) بشكل مكثف ، ووصلوا مراراً إلى بوابتها دون أن يستطيعوا اقتحامها .. فرجعوا ، فالأخ نور الدين نزل بعملية من العمليات واستشهد رحمه الله .. » ويضيف أبو الرضا بأن « قبره معروف إلى الآن أمام (زيكوياك) الشيخ سياف في جاجي » أما الشيخ تميم العدناني رحمه الله فقد أشار في حديثه لي عن تواجد نور الدين في جبهة في كابل فترة من الزمن ، ثم أورد رواية جديدة عن حادثة استشهاده فقال [٦] : « حدثني محمد صديق شكري – وهو قائد من قادة الشيخ سياف سابقاً ومن قادة رباني حالياً في جبهة كابل – عن أثر العرب في التأثير على الأفغان أكثر من أي أفغاني ، وضرب لي مثلاً بأول شهيد عربي اسمه نور الدين الجزائري وكان معه قبل ذلك أن يستشهد في جبهة كابل ، فكان محمد صديق شكري يشكو لنور الدين أن سبعين من الـ ٥٠٠ مجاهد الذين عنده يدخنون الدخان والنسوار .. وكان ينصحهم دائماً بأن هذا حرام فيتركونه أمامه ولكنهم يقعون فيه مرة ثانية بعيداً عنه ، فلما كلم نور الدين جمعهم وقال لهم : ياأيها الإخوة الدخان والنسوار حرام فتوبوا إلى الله . فاذا بهم يُخْرجون ما في جيوبهم من دخان ونسوار ويدوسون عليها ويتوبون إلى الله ، فاستغرب محمد صديق وقال : لي سنتان وأنا أقول لكم ولا تستجيبون .. فلماذا الآن ؟ ! فقالوا : لأنه عربي ، وهو يقول حرام ، وإذا قال العربي حرام فهو حرام » أما عن استشهاده – رحمه الله وتقبله – فيقول الشيخ تميم : « أبلغني الشيخ سياف أنه استشهد في ١٣ شوال وأنا رأيته في رمضان ١٤٠٣ قبل أقل من شهر ، وبعد أن غادرت ورجعت علمت باستشهاده ، والذي فهمته أنه كان راكباً سيارة فحصل إطلاق نار بالخطأ فاستشهد .. كأنهم ظنوا أن السيارة للعدو أو شيئا من هذا ، ولكنني فهمت أن هناك قتل خطأ » ويُرَجّح الأخ عبد الله عبد الرحمن هذه الرواية أيضاً فيقول : « على ماأذكر أنه كان متوجهاً للجبهة وكان يركب فوق الباص أثناء الطريق فيما أظن ، فحدث إطلاق نار بالخطأ من داخل الباص للخارج أو من الخارج على الباص فجاءته طلقة فاستشهد رحمه الله ، وهذه رواية القائد الذي كان معه في (بغمان) وكان ذلك تقريباً شهر ذي القعدة سنة ١٤٠٣ إن لم أكن مخطئاً .. » ومن جهتها تورد مجلة « البنيان المرصوص » [٧] عن نور الدين أنه « التقى بالشيخ سياف في المدينة المنورة ، وهناك كان الإتفاق على القدوم .. جاء في صيف ٨٢ ثم عاد للحج ، وفي صيف ٨٣ – ١٤٠٣ هـ جاء إلى هنا مرةً أخرى ، وبعد أن

اتفق مع الشيخ سياف على أنه سوف يعود من الجبهة قبل موعد الحج تحرك نور الدين باتجاه مدينة كابل - جبهة بغمان - وفي ولاية (ميدان) المتاخمة لحدود كابل استشهد نور الدين ودفن هناك وأصبح أول شهيد عربي وأول شهيد جزائري .. » ومن جهته أشار د. عبد الرحمن أحمد مدير الوكالة الإسلامية للإغاثة (إسراء) إلى طرف آخر له أهميته في قصة استشهاد نور الدين فقال : « يبدو لي أنه استشهد خطأ ، وهو خطأ نتج - والله أعلم - عن مسألة التعنت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب قضية النسوار فيما أظن ! ولقد قيل بأن الذي قتله قصد ذلك لأنه شعر أنه أسيء إليه .. والبعض يقول أنه كان قتلاً خطأً .. » والذي يبدو أن ثمة أمر غامض في كيفية استشهاد نور الدين ، مثلما يبدو أن أبا عبد الله وأبا الرضا - من جانب آخر - قد التبست عليهما معاً حادثة نور الدين قرب كابل عام ١٤٠٣ واستشهاد نور الدين العراقي في منطقة «جاجي » صيف العام التالي مع الأخ أبي عبد القادر الجزائري في نفس الموقع . تقول مجلة « البنيان » [٨] : « نورالدين العراقي : سمي نفسه نور الدين تيمناً بالشهيد نور الدين الجزائري ، وبالفعل في ليلة عيد الفطر من صيف ٨٤ استشهد نور الدين العراقي في موقع (بدله) في منطقة (جاجي) المشرفة على إحدى قلاع الشيوعين نتيجة لإصابته بقذيفة هاون انفجرت بجواره ، وقد كان يعمل على إحدى أجهزة المخابرة .. » أما أبو عبد القادر الجزائري فتقول المجلة عن حادثة استشهاده : « كان يعرف أن الجهاد واجب والشهادة أمنية ، فوصل مع بعض الإخوة ثم توجه إلى جبهة (جاجي) وفي موقع (بدلة) المطل على القلعة (تشاوني) التي كانت محاصرة في ذلك الوقت ، استشهد أبو عبد القادر في نفس موقع نور الدين العراقي وأيضاً بقذيفة هاون .. » .. وباستشهاد نور الدين الجزائري - رحمه الله - ومع التطورات المتلاحقة التي شهدتها القضية الأفغانية منذ ذاك ، فتُح باب المشاركة العربية في الجهاد الميداني أكثر فأكثر .. وأخذ الوجود العربي على الساحة في التطور يوماً بعد يوم .. نحو مزيد من الفاعلية والتعلق والتعمق .. وعلى مزيج من الإيجابيات والسلبيات !

الهوامش

(١) تقرير خاص كتبه « مصطفى حامد » في نوفمبر ٨٢

(٢) في مقابلة مع مجلة « الدعوة » السعودية بتاريخ ٨٣/١٠/١٠

(٣) « آيات الرحمن .. » طبعة جامعة الإمارات - صـ ١٥٣

(٤) المصدر السابق - صـ٦٠

(٥) في حديثه المسجل معي بتاريخ ١٩٩٠/٥/٩ في بشاور .

(٦) في حديثه المسجل معي بتاريخ ١٩٨٩/٤/٥ في دبي أثناء زيارته للإمارات .

(٧) مجلة « البنيان المرصوص » - العدد ١٧/١٦ - ربيع الأول والثاني ١٤٠٨ هـ . - صـ ٣٠

(٨) المصدر السابق .

الأنصار العرب (١٢)

(جاجي) نافذة على بعض الحقيقة!

حتى الربع الأول من عام ٨٤ كان تردد أبي عبد الله (أسامة بن لادن) على الجماعة الإسلامية في لاهور لتسليم التبرعات دورياً .. وحثيثاً .. ومتواصلاً ، لكن أسامة ظل متهيباً من دخول الجبهات أو حتى مجاوزة لاهور وإسلام أباد إلى بشاور .. وعندما تطوف ذكريات هاتيك الأيام في ذاكرة أبي عبدالله يستعرضها بمرارة كبيرة ويقول : « حتى عام ١٤٠٤ظل التهيب من المشاركة الجسدية ماثلاً أمامي بشتى السبل والوسائل ، والأعذار كثيرة في هذا للمثبطين وإن كان تثبيطهم بحسن ظن ، حيث أنهم ما ألفوا هذا الجو في العالم الإسلامي .. وعلى هذ الحال استمرينا للأسف ، وأقول للأسف الشديد إلى رجب من عام ١٤٠٤ هـ. حيث دخلنا لأول مرة معسكرات القتال والجهاد في الداخل .. » وعن نفس هذه المثبطات يتحدث د. عبدالله عزام فيقول : « كان الأخ أسامة بن لادن قد جاء إلى إسلام آباد عام ٨٤ يحمل مساعدات ، وكان متهيباً من أن يصل بشاور ، فبعض العقلاء كانوا يوصونه بذلك حتى لا تتفتح عليه العيون وحتى وحتى .. فقلت له : لا تسمع لأحد واذهب إلى (جاجي) فالشيخ سياف هناك .. » .

في جاجي ، وعلى مقربة من خط الحدود الدولية الفاصل بين باكستان وأفغانستان ، كان الشيخ سياف أمير الإتحاد حتى ذلك التاريخ قد أقام معسكراً على الأرض المحررة التي تشرف من جهة على سهول « ترمنجل » و « برَجنار » وعشرات القرى والمدن الباكستانية في « إقليم سرحد » الحدودي ، ومن الجهة الأخرى كانت أشجار الصنوبر السامقة التي تغطي جبال « جاجي » تظلل الطريق الاستراتيجي الذي يبلغ من هذه النقطة بضعة عشر ولاية أفغانية هامة .. هناك أقام الأستاذ سياف عدة خيام متقاربة استضافت أحداها أسامة بن لادن في أول مرة تطأ فيها قدماه أرض أفغانستان وتصافح عيناه حالة الجهاد والمجاهدين عن كثب . يقول أبو عبدالله : « فوجئت بالوضع متدنيا جداً جداً من ناحية الإمكانيات وفي جميع الأشياء : الأسلحة والطرق والخنادق .. واستغفرت الله سبحانه وتعالى العلي العظيم ، وشعرت أنني أذنبت بسبب سماعي لبعض الإخوة والمشايخ والأحباب فلم أدخل إلى الداخل خشية أن يسبب لي ذلك حرجاً أمنياً ، وشعرت أن هذا التأخير لأربع سنوات لا تكفره إلا شهادة في سبيل الله .. » ويضيف أبو عبدالله : « في الساعة السابعة صباح السابع والعشرين من رمضان ١٤٠٤ كان معظم الناس نياماً في المعسكر .. فالدنيا رمضان .. والناس قاموا ليلة القدر قبلها – في الغالب – لأنها من ليالي الوتر ، فما استيقظنا إلا على أزيز الطائرات وصوت الأسلحة الثقيلة للمجاهدين مثل (الدشكا) و (الزيكوياك) وهي تقصف من رؤوس الجبال ونحن أسفل منها في الوادي . كان معسكر جاجي هذا عبارة عن عدة خيام فقط ، إحداها للشيخ سياف ، وحولها عدة خيام للمجاهدين ، وهناك خيمة واحدة خاصة للضيوف العرب ، أما الغرف فلم تكن هناك أية واحدة منهن ! » ويتابع أسامة : « أحسسنا الجبال تهتز من القصف ، وبسرعة خرجنا مهرولين . كانت هناك ٣ خنادق تقريباً إلى منتصف الجسم مكشوفة من الأعلى فدخلنا فيها ، كان معي الأخ عادل فرحات (مدير الرابطة فيما بعد) وصهري الأخ هشام الجيلاني وأحد الإخوة الذين يساعدوننا اسمه عبدالرحمن المخلاف ،

وكان هناك أيضاً ستة أو سبعة إخوة من الشرقية منهم الأخ سالم الغامدي .. بدأ قصف الطائرات وكان ملفتاً للنظر جداً أن تهبط الطائرة إلى مستوى غير طبيعي وغير منطقي وهي تقصف .. ومن فضل الله كانت القذائف التي تأتي خارج المعسكر تحدث ضجيجاً شديداً جداً جداً يضيع معه صوت مدافع المجاهدين فكأنها لا شيء .. علماً بأنك إذا سمعت هذه الأصوات وحدها تقول أن لا صوت أشد من هذا ! أما القذائف التي تأتي وسط المعسكر فكانت من فضل الله لا تنفجر . كتل حديدية وحسب تأتي فترتطم بالأرض . في ذلك الوقت شعرت بتضرع وقرب إلى الله سبحانه وتعالى ما شعرت بمثله . الأسلحة التي معنا خفيفة فلا نملك إلا الدعاء .. وفجأة انقضت طائرة مبرقعة (ميغ /٢١) فيما أعتقد ، انقضت على الجهة المقابلة لنا حيث تجمع عدد من الإخوة المجاهدين الأفغان .. إنخفضت الطائرة جداً جداً حتى أصبحت على مستوى أعيننا ، عند ذاك قصفت الإخوة وتقدمت قليلاً .. ومن فضل الله أنهم ضربوها ضرباً شديداً بأسلحتهم فسقطت أمامهم وما أصاب أحداً منهم مكروه ، كذلك أسقط المجاهدون طائرة ثانية (سوخوي / ٢٦) كما ذكروا – لأني لم أكن أعلم أنواع الطائرات وقتها – ورأيت بأم عيني أشلاء الطيار . جاء يريد أن يمزق المجاهدين فمزقه الله شر ممزق ، ولم نجد منه إلا ثلاثة أصابع مع جزء من الأعصاب وجلدة خد الوجه مع الأذن إلى شعر الرأس والرقبة مع جلدة الظهر ، وجاء بعض الإخوة الأفغان وصوروه وقتها فكأنما هو كبش مسلوخ ! وكان التكبير .. وارتفعت معنويات المجاهدين بشكل غير طبيعي . الشيخ سياف كان موجوداً يومها في المعسكر فجاء المجاهدون بباب طائرة هليوكبتر وبعض أدوات من طائرة هليوكوبتر أخرى يقولون أنها أسقطت في منطقة لا تبعد عنا كثيراً ، فصارت أربع طائرات .. ووالله العظيم لو جُرح منكم أحد فقد جرح منا أحد !! علماً بأن العرب وحدهم نزلوا في الخنادق أما الأفغان فما نزل منهم أحد ، وبعد ثلاث ساعات من المعركة انجلت بسقوط الطائرات الأربع انتهى كل شيء وما أصيب من إخواننا بفضل الله تعالى أحد ، وهذه المعركة أعطتني في الحقيقة دفعة شديدة في الإستمرار بهذا الأمر ، وازداد المرء اطمئناناً بأن لن يصيبه إلا ما كتب الله » .

انتهى الهجوم الجوي لكن برنامج زيارة أبي عبدالله إلى المنطقة لم ينته ، فعلى مسافة بضعة عشر كيلو متراً من المعسكر حيث وقع الهجوم تتمركز حامية حكومية في قلعة « تشاوني » التي ترتفع على تلة طبيعية تكشف الوادي الممتد بين سلسلة الجبال المتوازية أميالاً عديدة ..

كانت « تشاوني » الهدف الرئيسي للمجاهدين في المنطقة ، وكان علي أبي عبدالله – هذا الضيف الهام – أن يزور الموقع عن كثب كجزء من طقوس زيارات أمثاله من الضيوف المهمين الذين لم يكونوا قد خبروا الدخول إلى جبهات العمق ولا عرفوا المعارك الفعلية بعد . يقول أبو عبدالله : « بعد المعـركة ذهبـنا إلى (تشاوني) وعلى بعد ١٢٠٠ متر منها . كانت تلك المناطق كلها مع المجاهدين ولكن قلة السلاح معهم كانت لا تسمح إلا لمجموعة طليعة منهم بالمشاركة في العمليات حيث ضربوا ٦ قذائف هاون فقط ، يحملونها مع مدفع الهاون على بغل يصل بهم إلى المكان البعيد عن المركز ، والأقرب إلى العدو ، ثم يرجعون .. » ويضيف :

« .. في ذلك التاريخ جاءنا السيد عمر سيف وهو شيخ من أهل اليمن جاوز السبعين . وقتها كان قد وصل للمجاهدين ٦ صواريخ (بي. ام) ولندرة هذا السلاح وقتها كان احتفاء الشيخ سياف والمجاهدين بها كثيراً وظاهراً جداً .. فاصطحبنا معه حتى نحضر إطلاقها على القلعة . طبعاً من قلة الامكانيات كان الإطلاق يتم على الأرض مباشرة ، وكان لنا أخ عراقي هو محمد حسن ربض في منطقة قريبة من (تشاوني) حتى يحدد الهدف ، وكنا نسمعه على الجهاز يقول : واحدة راحت بعد (تشاوني) بنصف كيلو ، واحدة قبلها بنصف كيلو .. فرغم ضخامة الهدف إلا أن عدم وجود إمكانيات تحديد الصاروخ حال دون إصابته ، والحمد لله على كل حال .. المهم كان التكبير ، وكان المجاهدون مسرورين جداً بهذه الصواريخ مع قلة الأسلحة وندرتها في ذلك التاريخ .. حتى قذائف (الآر. بي. جي) أذكر أن مجموعة من الإخوة جاؤوا من (لوكر) ومن مناطق أخرى فوجدوا في كل منطقة (جاجي) ١٠٠ صاروخ (آر. بي. جي) فلاموا الإخوة فيها وأبدوا تذمرهم قائلين : عندكم هنا ١٠٠ قذيفة ونحن في (لوكر) ماعندنا إلا ثلاثة أو أربعة ؟ ! » وهكذا وضع أبو عبدالله يده على الجرح الحقيقي أو على مقربة منه .. وبات على قناعة كافية بأن أسلوب المساعدات الماضية التي لا تكاد تبلغ الجبهات غير صحيح .. وبحكم خبرته المتخصصة وتجربته مع إخوانه في حفر أنفاق مكة الشهيرة بدأت فكرة نقل هذه التجربة إلى جبال « جاجي » تداعب مخيلته ، ولم تأخذ وقتاً طويلاً لتتبلور لديه ، ولتتحول من مجرد فكرة طموحه إلى حقيقة واقعية نفذها بنفسه . يقول أبو عبد الله : «ازدادت قناعتي بعدما رجعت من زيارة أفغانستان بأهمية الطرق والأنفاق للمجاهدين هناك .. الطرق نظراً لقلتها ولضيقها إن وجد منها شيء .. والأنفاق حتى يضع المجاهدون أسلحتهم ومستشفياتهم وأماكن راحتهم في الجبال بعيداً عن قصف الطائرات ، لكن - وبكل أسف - لم أبدأ بهذه الفكرة حتى عارضني الكثير من الناس .. وأ قصد هنا بالناس الطيبين المحبين للجهاد والإسلام ، وذلك لشدة الهالات الملقاة على عقول المسلمين عن الكفار والروس والأمريكان أنهم قوى عظمى وأنهم لايقهرون ، وأن لديهم من الأجهزة والإستخبارات وما شابه ذلك ... وأكثرها مضخم كثيراً عن حقيقته ، ولو آمن الإنسان بهذا التضخيم لما تحرك ! فقيل لي أولاً : كيف ستخرجها من المملكة ؟ ثانياً : كيف ستدخلها باكستان وبأي صفة ؟ ثالثاً : المنطقة التي ستعمل بها (جاجي) المشهور أن فيها عدد من غير الموالين للمجاهدين الذين ينقلون الأسرار للأعداء ، وأنت لاتحمل دراجة عادية .. هذه الآليات أشبه بالمدرعة .. فأول مايدخلوا ستأتي الطائرات وتضربها .. قلت : والله إذا حدث أعذرنا الله سبحانه وتعالى وإلا فنشتغل . ومن فضل الله يسّر سبحانه وتعالى هذا الأمر كله ، من خروجها إلي دخولها وحتى وصولها إلى هنا . أدخلناها باسم المجاهدين عن طريق الهلال الأحمر السعودي ، وساعدنا السفير جزاه الله الخير أبو محمد (توفيق علمدار) [1] ساعدنا جداً في إدخالها .. وبدأ العمل » .

* * *

لم يكن أبو عبد الله بالشخص الذي يحب التحدث عن نفسه وبذله أمام أحد .. واولا إلحاحي على ضرورة توثيق هذه المرحلة لما حدثني - ربما - حتي عن هذا الذي رواه ، لكن الدكتور عبدالله رحمه الله

وهو الذي عايش الأحداث ساعة بساعة زادني في الحديث عن دور أبي عبدالله وفضله المتميز منذذاك ،، وقال : « رجع الأخ أسامة من (جاجي) متفاعلاً جداً بقضية الجهاد وبدأ يعطي جهده لها ، وكانت الدنيا رمضان فجمع ما بين ٥ و ١٠ ملايين دولار - لا أدري بالتحديد الآن - ورجع إلى الشيخ سياف وسلمه إياها للإتحاد .. » ويضيف د. عبد الله : « ذهب أسامة إلى إحدى شقيقتيه في مكة وقرأ لها فتوى ابن تيمية حينما سُئل عن قوم جياع وعن جهاد ، إذا أطعم الجياع تضرر الجهاد .. فقال : أعطوا الجهاد وليمت الجياع [٢] فأ خرجت أخته شيكاً وكتبت : ثمانية ملايين ريال .. وجاءت العاقلات والعاقلون يلومون ويعتبون ! كيف تدفعين ٨ ملايين وأنت ليس لك بيت تسكنين فيه ؟ لو أبقيت مليون ريال حتى تبنين بيتاً .. وما زالوا يفتلون لها بين الحبل والغارب حتى جاءت إلى أسامة وقالت له : يا أخي لو أعطيتني مليون ريال حتى أبني لي بيتاً في المدينة فقال : لن تأخذي ريالاً واحداً لأنك تملكين أجرة البيت وهم لايملكون الخيمة التي تؤويهم » ويضيف د. عبد الله : « الحقيقة أن الأخ أسامة نموذج رفيع من النماذج التي قدمها الله عز وجل للناس وللتجار .. شخص في منزلته الإجتماعية ضحى بكل شيء وجاء بنفسه وبماله في سبيل الله .. استحوذ الحقيقة على حب الشباب وعلى اهتمامهم ، نرجو الله أن يحفظه وأن يبارك له .. » .

* * *

في موسم حج هذا العام ١٤٠٤ هـ - سبتمبر ٨٤ كانت قناعة كل من الدكتور عبد الله عزام والأخ أسامة بن لادن بإمكانية تحقيق دور أكثر إيجابية للعرب في أفغانستان قد تبلورت تماماً ... فلما اجتمعنا في تلك الأيام المباركة مع الشيخ سياف - الذي قدم إلى الحج أيضاً - لم يلبث أسامة أن طرح الفكرة وأبدى حماساً غير محدود لتحقيقها . يقول د. عبد الله : « حججنا في ذلك العام وجلسنا مع الشيخ سياف ، وطرح الأخ أسامة فكرة تجميع العرب في تجمع واحد لحمايتهم وتربيتهم وحتى يأنسوا بإخوانهم ، وقال الأخ أسامة : أنا متكفل بكل عربي يأتي سكناً وتذكرة ومصروفاً وأسرة .. منذ خروجه من بلده وحتى يعود إليها ، وحددنا مع الشيخ سياف راتب الأخ العربي وزوجته وماذا يكفيه مع البيت وما إلى ذلك . كانت الفكرة قائمة في ذهني لكن الله عز وجل ساق الأخ أبا عبد الله فدعمها مالياً .. » ويتحدث أبو عبد الله عن ذلك الإتفاق فيقول : « ذكرت للشيخ سياف وبوجود الشيخ عبدالله عزام أن العرب بدأت أعدادهم ترتفع تدريجياً وياحبذا لو تأذن لنا - بحكم أنه أمير المجاهدين ورئيس الإتحاد يومها - في إنشاء مكتب أو بيت نستقبل فيه هؤلاء الإخوة العرب ونستفيد من طاقاتهم ، فأذن لنا في ذلك .. وفعلاً تأسس المكتب بعد الحج مباشرة ومضى العمل تدريجياً » .. « .. ووقتذاك - يضيف د. عبد الله رحمه الله - كنت قد أخرجت فتوى (الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان) واستنفرت الإخوة العرب والمسلمين من كل مكان أن يأتوا ، وذكرت لهم على أنه إذا وطئ العدو شبراً من أراضي المسلمين أصبح الجهاد فرض عين كل مسلم ومسلمة ، حتى تخرج المرأة دون إذن زوجها ، والعبد دون إذن سيده ، والولد دون إذن والده ، والمدين دون إذن دائنه ، والتلميذ دون السؤال عن شيخه ، وابن الحركة الإسلامية دون أن يستشير حركته وقادته .. ونقلت نصوصاً

للفقهاء في هذا ووزعتها ، وغضب من غضب ، ورضي من رضي ، وعتب من عتب ، إخواننا عتبوا علينا وأقاموا زوبعة في وجوهنا بأنك تغري الشباب بالتمرد علينا .. فقلت لهم :الشرع فوق الجميع ، فوق الحركة وفوق كل شيء .. » .

هوامش

(١) يقول د. عبدالله عزام رحمه الله : « إن السفير السعودي الجديد توفيق خالد علمدار غيّر الموازين - حقيقة - وأعطى صورة صادقة للمجاهدين لدى بلاده ، وأفهمهم ضخامة هذا الجهاد وأ هميته للسعودية وللخليج ، وأنه إذا سقط الجهاد الأفغاني فسيحتل الروس الخليج خلال سنة .. وهو عسكري برتبة لواء وكان قائد الحدود الشمالية في تبوك .. وكان يطلب الدخول إلى أفغانستان دون أن تعلم الحكومة الباكستانية ، فيتخفى ويلبس اللباس الأفغاني ويدخل ، ولقد طلب ذلك مني أكثر من مرة كاتبه ومدير مكتبه الأخ محمد سالم الحمود (أبو مازن) وكان من خيار الناس أيضاً .. » .

(٢) في الجزء الرابع من « الفتاوي الكبرى » - صـ ٥٠٧ قال ابن تيمية رحمه الله : « لو ضاق المال عن إطعام جياع والجهاد الذي يتضرر بتركه قدمنا الجهاد وإن مات الجياع .. فإنا هنا نقتلهم بفعلنا وهنا يموتون بفعل الله .. » .

الأنصار العرب (١٣)

تساؤلات على الطريق

في كتابه « الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان » عاد الدكتور عبد الله فأكد وألح على ماسبق وكتبه في كتاب « آيات الرحمن .. » حول حكم الجهاد في أفغانستان وفي بقية البلدان الإسلامية إذا وطأها العدو .. لكنه توسع في هذا الكتاب حينما استهله بتقاريظ عدد من العلماء المعاصرين الثقات الذين أكدوا صحة ما أفتى به وكتب ، وقال في المقدمة [1] : « هذه الفتوى كتبتها وكانت أكبر من هذا الحجم ، ثم عرضتها على فضيلة شيخنا الكبير سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز وقرأتْ عليه واستحسنها وقال : إنها طيبة ووافق عليها ، إلا أنه اقترح عليّ أن أختصرها حتى يكتب لها مقدمة ننشرها بها ، ثم اختصرتها ، ولكن وقت الشيخ كان مزدحماً أيام الحج ولم يتسع المجال لعرضها عليه مرة أخرى ، ثم أفتى الشيخ حفظه الله ورعاه في مسجد ابن لادن بجدة وفي الجامع الكبير بالرياض أن الجهاد بالنفس اليوم فرض عين .. » ويضيف د.عبدالله : « .. ثم عرضت هذه الفتوى بحالها – دون الأسئلة الستة الأخيرة – على أصحاب الفضيلة : الشيخ عبدالله علوان ، وسعيد حوى ، ومحمد نجيب المطيعي ، و د. حسين حامد حسان ، وعمر سيف وقرأتها عليهم ووافقوا عليها ووقع معظمهم عليها ، وكذلك الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين قرأتها عليه ووقع عليها ، ثم عرضت فحواها في خطبة منى في مركز التوعية العامة في الحج حيث يجتمع فيها أكثر من مئة عالم من جميع أنحاء العالم الإسلامي فلم يعترض أحد ، ومن أجل هذا طبعت هذه الفتوى .. » .

بعد المقدمة .. والتقاريظ استفاض د. عبدالله رحمه الله في استعراض أقوال أئمة الفقه بشأن الجهاد .. وبعد أن بيّن أنه نوعان : « جهاد الطلب أي طلب الكفار في بلادهم ، فتجب إقامته بقدر الإمكان حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم .. وجهاد الدفع أي دفع الكفار من بلادنا ؛ فحكم الأول أنه فرض كفاية ، والثاني فرض عين بل أهم فروض الأعيان وذلك في حالات :

ا – إذا دخل الكفار بلدة من بلاد المسلمين .

ب – إذا التقى الصفان وتقابل الزحفان .

ج – إذا استنفر الامام أفرادا أو قوماً وجب عليهم النفير .

د – إذا أسر الكفار مجموعة من المسلمين [2] .. » وبعد أن نقل د. عبد الله أقوال الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة في تأكيد ذلك ، ثم عرّج على أدلة النفير العام ومبرراته ، أسقط ما سبق على « حكم القتال الآن في فلسطين وأفغانستان » وأكد من ثم على ما يلي :

١ – « أن الإثم باق في رقاب المسلمين جميعا ما دامت أي بقعة كانت إسلامية في أيدي الكفار .

٢ – يزداد الإثم طردياً حسب القدرة والإمكانية والطاقة ، فإثم العلماء والقادة والدعاة البارزين في مجتمعاتهم أشد من إثم الدهماء والعامة .

٣ – إن إثم من تقاعس من جيلنا عن النفير في القضايا المعاصرة كأفغانستان وفلسطين والفلبين وكشمير ولبنان وتشاد وأريتيريا أشد من إثم سقوط الأراضي الإسلامية السابقة والتي عاصرتها أجيال

مضت [٣] .. » وفي الصفحات التالية تناول رحمه الله فرض العين وفرض الكفاية ، وبعد أن أورد ما عليه جمهور الأصوليين من أن « فرض الكفاية يجب على الكل ويسقط بفعل البعض » [٤] ذكر أن « بعض الناس الآن يجادلون في حكم الجهاد فيعتبرونه فرض كفاية » ورد عليهم بقوله : « فالفرض يجب على الجميع ولكن يسقط بفعل البعض » ففرض الجهاد في أفغانستان على هذا الرأي (أنه فرض كفاية) واجب على جميع المسلمين في الأرض كلها حتى يتم القيام بالفرض وهو طرد الروس والشيوعيين من أفغانستان .. » أما ما يردده البعض من أن الجهاد في أفغانستان بحاجة إلى مال وليس بحاجة إلى رجال فيراه د. عبدالله بأنه «مقالة عارية عن الصحة ، اذ أن مرور قرابة خمس سنوات [٥] على الروس في أفغانستان وهجرة خمسة ملايين مسلم خارجها وسبعة ملايين في داخلها مشردين في الجبال والأدغال .. يكفي للرد على هذه المقالة » وينقل عن الأستاذ سياف قوله بهذا الصدد : « إن أربع عشرة دولة في مقدمتها الإتحاد السوفييتي وحلف وارسو والشيوعية الدولية ترمينا كلها عن قوس واحدة ، بينما المسلمون في العالم الإسلامي لا زالوا يتناقشون : هل الجهاد في أفغانستان فرض عين أم فرض كفاية ؟ فلينتظر المسلمون حتى يستشهد آخر رجل في أفغانستان وعندها يصدقون أن الجهاد فرض عين ! » ومن جانب آخر ينقل عن الأفغانيين قولهم : «إن وجود عربي واحد بيننا أحب الينا من مليون دولار »[٦] .

الإضافة الهامة التي أدخلها الدكتور عبدالله على كتابه هذا مقارنة بكتاب « آيات الرحمن » كانت مجموعة من الأسئلة أو التساؤلات استتبعت ابتداء التقاطر العربي على الجهاد الأفغاني خلال العام السابق ٨٤ والإشكالات العملية التي رافقت هذا التقاطر الميداني فقادت إلى مثل هذه الأسئلة :

* هل نستطيع تطبيق هذه الفتوى اليوم ؟ هذا السؤال الكبير فاتحة لأسئلة مهمة ستة تجيب عليه إذا أجيب عليها :

١ – هل يمكن تطبيق النفير عمليا في هذه الأيام ؟

٢ – هل نجاهد وليس هناك أمير واحد ؟

٣ – هل نقاتل في أفغانستان والقادة مختلفون ومتفرقون ؟

٤ – هل يقاتل المسلم وحده إذا قعد الناس ؟

٥ – هل نستعين بالكفار إذا كنا ضعافاً ؟

٦ – هل نقاتل مع مسلمين ليسوا على مستوى مقبول من التربية الإسلامية ؟ [٧]

.. ولعل أوضح ما توضحه هذه الأسئلة – ابتداء – أنها تعكس نمطية التفكير الذي يحكم العقلية الإسلامية في هذه المرحلة ، والتشتت الذي أصاب الأمة فنخر وجدانها وانعكس حتى على ألسنة الراغبين في الجهاد منها .. أسئلة تنبي – على مشروعيتها – عن قلق السائلين وتشتتهم ! ومن جانب آخرتعكس هذه الأسئلة بوضوح حالة اللاوضوح التي سادت ساحة أفغانستان الجهادية منذ ذاك : الإختلاف والتفرقة ، التباين التربوي ، الأيدي غير الإسلامية التي تقدم المساعدات ... ولقد أجاب د. عبدالله على جميع هذه الأسئلة تباعاً فقال رداً على أولها [٨] : « لو طبق المسلمون أمر ربهم ونفذوا حكم شريعتهم في النفير أسبوعا

واحداً لفلسطين فإنها ستتطهر نهائيا من اليهود ، وكذلك في أفغانستان لا يطول الأمر لو نفرت الأمة .. ولكننا ننظر في كل مرة ونبقى ننظر إلى الإقليم الإسلامي الذي وقع تحت سيطرة الكفار حتى يُبتلع ، ثم نؤبنه بخطب رنانة ودموع هتانة إننا نفكر بالإسلام تفكيراً إسلامياً قومياً ، فلا تتعدى نظرتنا الحدود الجغرافية التي رسمتها لنا معاهدة سايكس بيكو !! » .

وعن سؤال : الجهاد وليس لنا أمير واحد أجاب رحمه الله [٩] : « نعم نجاهد وليس لنا أمير ، ولم يقل أحد أن عدم إتحاد المسلمين على أمير يُسقط فرضية الجهاد .. وقد تخلو المعركة من قائد شرعي معه الولاية من الأمير العام كما حدث يوم مؤته فقام خالد بن الوليد وأستلم الراية .. وقد يكون الإمام أو أمير المؤمنين غير موجود وهذا لا يُسقط فرضية القتال .. ولا ننتظر حتى تقوم الولاية الكبرى وتستأنف الخلافة ، لأن الولاية العامة والخلافة لا تأتي نظرياً ، بل الجهاد أسلم طريقة لكي تصبح الولاية الخاصة أي إمارة القتال ولاية عامة وخلافة .. » .

وحول اختلاف القادة وتفرقهم في أفغانستان أجاب د. عبدالله فقال [١٠] « يجب القتال في أفغانستان مع أن القادة مختلفون ومتفرقون ، لأن القتال دفاع عن المسلمين المعتدى عليهم من قِبَل الملحدين ، والقتال مع مجموعات إسلامية ضد الكفار الملحدين ، ويعتبر قائد كل حزب أمير القتال لذلك الحزب » .

وهل يقاتل الانسان وحده إذا قعد الناس ؟ أجاب د. عبدالله [١١] : « نعم يقاتل ، لأن الله عز وجل يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم قائلا : (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين) .. » .

وعن القتال مع مسلمين ليسوا على مستوى مقبول في التربية السلامية ردّ د. عبدالله يقول[١٢] :« يجب القتال ، لأن القتال مبني على دفع أعظم الضررين ، وإذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما ، فلا بد من اختيار أهون الشرين : إستيلاء الروس على أفغانستان وتحويلها إلى بلاد الكفر .. أم الجهاد مع قوم فيهم ذنوب وأخطاء ؟ » .

أما الإستعانة بالمشركين إذا كنا في حالة ضعف « كالاستعانة بأمريكا وبالدول الغربية في الجهاد الأفغاني ، والاستعانة بروسيا ضد اليهود في فلسطين » فقد ذكر د. عبدالله أن « في المسألة أحاديث متعارضة اختلف الفقهاء في الجمع بينها على أقوال منها : أن الاستعانة بالمشركين كانت ممنوعة ثم رُخص فيها وهذا أقربها [١٣] » وأضاف : « وقد اتفق الفقهاء الأربعة على جواز الإستعانة بالكفار بشروط :

١- أن يكون حكم الإسلام هو الظاهر ، أي أن يكون المسلمون أقوى من مجموع المشركين الذين استعانوا بهم والمشركين الذين يقاتلونهم ، بحيث لو اتفق الكفار جميعاً غلبهم المسلمون .

٢- أن يكون الكافر عند حسن الظن بالمسلمين وتؤمن خيانتهم ويعرف ذلك من خلال معاملته .

٣- أن يكون المسلمون بحاجة إلى الكافر أو الكفار المستعان بهم .. » .

ويختتم الدكتور عبد الله رحمه الله كتابه بمبحث أخير حول جواز السلم أو عدم جوازه ، وعن شروط المعاهدة مع الكفار .. وبعد استعراض الأدلة والنصوص يقرر « أنه لا تجوز المفاوضات السياسية في مراحل الدعوة الأولى قبل أن يكون للدعوة كيان وسلطان يحمي مبادئها .. وأنه يجوز للمسلمين عقد معاهدة مع الكفار إذا كان ذلك مصلحة للمسلمين ولكن بشرط ألا تتضمن المعاهدة شرطاً يُبطِل المعاهدة أو يفسدها .. » ويخلص من بعد مراجعة أقوال الفقهاء في هذه الشروط إلى أن « الحل السياسي والمفاوضات في فلسطين باطلة بطلاناً أصلياً لا يلحقها الإجازة ولا التصحيح ، أما في أفغانستان فتجوز بشروط :

١- أن ينسحب الروس من أرض المسلمين جميعاً .

٢- أن تقوم دولة الإسلام في أفغانستان بعد خروجهم ، وألا يتدخلوا في نظام الحكم المقبل .

٣- أن يكون الإنسحاب دون قيد أو شرط .

٤- أن يعترف الروس بالمجاهدين وأن يطلبوا منهم الصلح .

٥- أن يطمئن المجاهدون أن الروس صادقون في طلب السلم وليسوا مخادعين .. [١٤] » .

هوامش

(١) « الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان » - د. عبد الله عزام - صـ ١-٢

(٢) المصدر السابق - صـ ٩ - ١٠

(٣) المصدر السابق - صـ ٢١ - ٢٢

(٤) كما نقل عن الإمام الشافعي وابن الحاجب الآمدي وابن عبدالشكور - المصدر السابق - صـ ٢٦

(٥) حتى تاريخ كتابة الكتاب وهو عام ١٤٠٥ / ١٩٨٥

(٦) «الدفاع عن أراض المسلمين .. » - صـ ٢٦ - ٢٧

(٧) المصدر السابق - صـ ٤٥

(٨) المصدر السابق - صـ ٤٦

(٩) المصدر السابق - صـ ٤٧

(١٠) المصدر السابق - صـ ٥٠

(١١) المصدر السابق - صـ ٥٢

(١٢) المصدر السابق - صـ ٥٢

(١٣) المصدر السابق - صـ ٥٤ - ٥٥

(١٤) المصدر السابق - صـ ٥٨ - ٦٦

الأنصار العرب (١٤)

مكتب الخدمات

في شهر المحرم ١٤٠٥ - أكتوبر ١٩٨٤ كان تأسيس « مكتب الخدمات » [١] في بشاور. كان الدكتور عبد الله قد أطلق نداء الإستنفار عبر مقالاته وتسجيلاته وخطبه .. وكتابيه : « آيات الرحمن .. » و «الدفاع عن أراضي المسلمين .. » وكان بدهياً أن يستقبل هذا النداء - أول من يستقبله - المحبون والمقربون .. يقول د. عبدالله : « بدأ مكتب الخدمات بمجموعة من الأردنيين والفلسطينيين الذين ربيناهم في الأردن من جيراننا ومعارفنا ومن أبناء الجامعة الأردنية ومن المسجد الذي كنا فيه .. وهكذا بدأت المسيرة فجاء (أبو أكرم) من الأردن ، والأخَوا ن (أبو حذيفة) و (أبو عمار) من الأردن أيضا ، وكانا قد تخرجا من كلية الطب في الباكستان . وجاءني زوج ابنتي (أبو الحسن المقدسي) وهو مهندس من الأردن ، ثم (عبدالله أنس) من الجزائر ، و (أبو حمزة - ماهر شلبك) الفلسطيني » ويضيف رحمه الله : « كان (أبو أكرم) ممن جاهدوا مع (فتح) فترة طويلة ، وكان مسؤولاً فيها ، ومن تحت يديه تخرج حوالي ١٣ من قادة القطاعات ، ثم استلم آخر الأمر قيادة الأعمال الطبية بالنسبة للمنظمة في سوريا ولبنان ، ليتركهم بعد ذلك ويعود إلى الأردن يعيش على الكفاف ، فلما أتى للجهاد وضعته نائباً لي ، فكان له جزاه الله خيراً الفضل الكبير في ترتيب نشأة المكتب .. » أما (عبدالله أنس) ذلك الشاب الجزائري الذي احتل موقعاً متميزاً بين الإخوة العرب في الداخل بعد ذاك ، فتلك كانت بداية قصته .. يقول د. عبدالله : « في حجة عام ١٤٠٤ كنت على مقربة من الكعبة المشرفة ومعي ابناي إبراهيم وحذيفة حينما استوقفني شاب جزائري لا أعرفه وسألني: أنت الشيخ عبدالله عزام ؟ قلت نعم . ففي ذلك الوقت كانت صورتي قد نشرت في مجلة المجتمع وتكررت فيها أحاديثي عن الجهاد . قال : كيف الجهاد في أفغانستان ؟ قلت له : بخير ، ما بالك لا تأتينا ؟ ماذا تصنع .. ألا تأتي معنا ؟ قال : أنا مطوّف للحجاج ومرشد لهم ، وعندما تعود القافلة أنا آتيك فأعطني العنوان .. ولم يكد يمر شهر واحد على عودتي إلى إسلام آباد حتى رن الهاتف في منزلي ، واذ بعبدالله أنس في المطار يحدثني .. » ويتحدث عبدالله أنس - من جانبه - عن تلك الأيام فيعود بالذاكرة إلى حرم الله في مكة في حج ١٤٠٤ ويقول [٢] : « كنت أشتغل مرشد للحجاج في مؤسسة حجاج أوربا .. ومرة من المرات دخلت زمزم فرأيت رجلا يجذبك إليه ببسمته كالمغناطيس دون أن يكلمك .. فانجذبت نحوه واقتربت وسلمت عليه فرد السلام ثم قلت : هل أنت الشيخ عبدالله عزام ؟ وما كنت رأيته من قبل إلا مرة واحدة قبل سنة ، أشار عليه أحدهم من بعيد للحظة واحدة وكان الوقت ليلاً فيما استطعت التركيز في وجهه ، لكنني كنت قد سمعت له أشرطة مسجلة وقرأت عن فتواه بفرضية العين .. قال لي : نعم أنا الشيخ عبدالله عزام . وكان معه حذيفة ومحمد وإبراهيم رحمهما الله . قلت : أريد أن ألتحق بالجهاد فهل هذا ممكن ؟ قال : نعم . وكتب لي عنوان الشيخ سياف ورقم هاتفه في بشاور ورقم هاتفه هو في بيته بإسلام آباد » وبعد انتهاء موسم الحج ، وبعد جهد جهيد بذله عبدالله أنس ليحصل على تأشيرة الدخول إلى الباكستان ، وعناء لقيه حتى وصل مطار كراتشي .. فإسلام آباد ، هرع إلى أقرب هاتف صادفه هناك ، وأدار القرص على بيت الشيخ عبدالله . يقول عبد أنس : « إتصلت بالشيخ رحمه الله وقلت له : أنا إسمي أنس .. الشاب الجزائري الذي التقى بك في زمزم وأعطيتني العنوان حتى آتي إلى الجهاد ، فتذكرني فورا وسألني : هل تعشيت أم نوقف العشاء حتى تأتي ؟ فقلت : ما تعشيت ، فسمعته قال : أوقفوا العشاء حتى يأتي أنس .. فسبحان الله بدأت أول يوم في

دار الشيخ وكأنها دارنا .. » ويضيف : « في بيت الشيخ رحمه الله وجدت الأخ أبا أكرم والأخ أبا معاذ السعدي والأخ أبا الحسن المقدسي ، وفي اليوم الثاني جاء الأخ أبو عبدالله من جدة ثم عاد ثانية بعدما أنهى مهمته في إسلام آباد ، وتحركنا نحن في اليوم الرابع لوصولي بالطائرة إلى بشاور .. وفي تلك الليلة التقينا بالشيخ سياف في (أرباب رود) وفي اليوم الثاني أرسلونا إلى معسكر بدر في (بابي) [٣] .. » ومن جهته يتابع د. عبد الله عزام فيقول : « وهكذا شكلنا أول مجموعة عربية للتدريب : أبو حمزة (ماهر شلبك) وأبو الحسن المقدسي ، وعبدالله أنس ، وعصام الليبي ، وسلمنا هؤلاء الأربعة لكتيبة بدر التي كان الشيخ صالح كامل – أحد التجار السعوديين – قد تكفل بمصاريفها وقال : أريد كتيبة بدرية من ٣١٣ رجلاً تربي على الإسلام ، وكان موقع الكتيبة في (بابي) وكان المسؤول عنها الشيخ محمد ياسر ، ومن هؤلاء الأربعة بدأت المسيرة » .

* * *

كان بضعة عشر عربياً تجمعوا وقتها على الساحة والتقوا على التدريب في « بابي » يتذكر عبدالله أنس من أسمائهم : أبا الجود ، عصام الدين الليبي ، أسامة الفلسطيني ، وزيد الأردني ، وأبا حذيفة الأردني ، ومحمد أنور الكردي ، وأبا بكر وأبا اصطيف وأبا العز السوريين .. ويضيف : « كان هؤلاء العشرة أو الخمس عشر كل الموجودين في الجهاد الأفغاني وقتها ، وكان الإخوة الأقدم منا قليلاً متل أبي بكر وأبي العز وأبي اصطيف يذهبون من حين لآخر إلى (جاجي) فكانوا بالنسبة لنا أساتذة ونحن نحفظ لهم هذا إلى الآن ، وكان عصام الدين يدربنا في المعسكر بعض الأوقات .. وأحيانا يتولى تدريبنا بعض الشباب الأفغان ، وبعد شهرين من التدريب البدائي انتهت الدورة فذهبنا لزيارة (جاجي) لثلاثة أو أربعة أيام ، ثم عدنا ثانية إلى (بابي) .. » .

لم يكن هؤلاء الإخوة هم أول من نزل كتيبة بدر من العرب بالضرورة .. فعدم انتظام القادمين العرب في تنظيم أو تجمع محدد وقتها كان يتسبب تلقائياً في تشتتهم وفي توزعهم على الأحزاب والتنظيمات الأفغانية حسبما اتفق ودونما أي تخطيط مسبق ، وعلى اعتبار أن الإتحاد السباعي الذي قام في مايو من العام السابق ٨٣ ما تزال صورته المثالية قائمة في أذهان القادمين كان طبيعياً أن يتجه أكثر هؤلاء إليه بادىء الأمر ، ليقوم الأستاذ سياف بدوره فيحولهم إلى كتيبة بدر التي تقرر إنشاؤها في تلك المرحلة ، وفي الوقت الذي يذكر فيه أحد الإخوة العرب الذين وصلوا الساحة مبكرين – وهو أبو طلحة السوري [٤] – أن تأسيس بدر كان مع بداية ٨٤ بحضور أبي اصطيف وأبي بكر السوريين وأبي أكرم الفلسطيني إضافة لشخص اسمه شاهد من الإمارات ، وآخر اسمه عبدالرحيم من السعودية وعصام الليبي ومسلم أمريكي اسمه صديق .. علاوة على وجوده هو نفسه ، يذكر لي أبو حفص المصري [٥] أن أول العرب الذين دخلوا كتيبة بدر كانوا ثلاثة : رجب المصري ، وصالح اليمني (عدو الطواغيت) وهو .. كانوا في اليمن معاً وأتوا من هناك سوياً في نهاية ٨٣ ويقول إن أبا طلحة وأبا اصطيف وأبا بكر وهذه المجموعة كلها أتت بعد ذلك ..

وبعدما أمضوا فترة في التدريب على بعض الأسلحة الخفيفة حضر الدكتور عبدالله عزام إليهم – وكان قد سبق وتردد على كتيبة بدر قبلها مرات قليلة – ومعه أبو أكرم ، ثم أتى الأخ أبو جهاد المصري والأخ عصام الدين الليبي ومجموعة أخرى من الإخوة قدموا من جبهة (أورغون) .. أما الأخ صالح اليمني (عدو الطواغيت) فيتذكر بدقة أكثر من أبي حفص أنهم حضروا في الشهر الثاني من عام ٨٤ – هو وأبو حفص ورجب الذي عاد سريعا – وأن أول من قابل من العرب هناك في (بابي) محمد صديق القطري الذي جاء من أمريكا ، ثم الأخ علي عثمان من اليمن وكان قد حضر لزيارة أخيه الطالب في الجامعة فلما علم بالجهاد هنا اشترك فيه ، وقد أصيب سنة ٨٨ في خوست بشظية في ظهره سببت له الشلل [٦] كذلك التقى الأخ صالح بعصام الليبي وبأبي أنيس حفيد الشيخ أبي بكر الجزائري لإبنته والأخ حسين باعيسى والأخ بلال ، وكان الثلاثة هؤلاء قد أتوا من أمريكا ، والأخ منقذ الأردني وكان يدرس في لاهور ، والأخ ماجد من المدينة .. ويقول الأخ صالح [٧] أنهم ذهبوا من ثم ليشاركوا بأول عملية في (خوست) بعد ما تدربوا ١٥ يوماً في بدر ، فيما لم يتدرب بعض الإخوة إلا أياماً قليلة وحسب . ومن جهته يضيف الدكتور عبد الله –رحمه الله – إلى أسماء القادمين وقتذاك وأحوالهم فيقول : « .. ثم توافد عدد آخر من الإخوة ، فانضم إلينا أخ اسمه عامر المصري ، وجاءنا أبو طارق المصري وكانا طيارين وكلاهما يدرس في الباكستان ، ومن الأردن جاءنا أبو سياف وأبو عمران ، الأول فني إلكتروني والآخر مصور . كذلك جاءنا أبو حمزة العراقي وكان يحضّر للدكتوراة في لندن ومتعاقد مع شركة سعودية براتب عالي ونسبة ٥٪ من الأرباح ، فعندما رأى حال المجاهدين وحاجتهم إلى مهندس الكتروني كهربائي وفق تخصصه ترك العقد وتفرغ جزاه الله خيراً ، ونقل أسرته من لندن إلى بشاور ، وكانت نقلة بعيدة وثقيلة خاصة على النساء ، فوقتذاك لم يكن في باكستان من النساء إلا أهلي وأهل أبي أكرم وأبي طارق وأهل أبي حذيفة وأبي عمر الأردني » .

* * *

حتى هذا التاريخ لم يكن للعرب القادمين للمشاركة في الجهاد برنامج واضح متبلور ، أما دخولهم إلى الجبهات فكان مقتصراً على منطقة « جاجي» الحدودية أغلب الحالات ، اللهم إلا بضع أنفار تجاوزوا برنامج الأستاذ سياف الجاهز للعرب ، فاتصلوا بأحزاب أخرى أو وصلوا إلى قادة ميدانين بارزين ، كان الشيخ جلال الدين حقاني أكثرهم ملاءمة وقتها ، لما عرف به من سبق في الجهاد ومن جدية في العمل ، ومن إيجابية في التعامل مع الراغبين في دخول الميدان بحق ، علاوة على قرب جبهاته من الأراضي الباكستانية إلى حد ما ، لكن الذين اكتشفوا الفارق بين جبهة « جاجي » الحدودية المحدودة وبين الجبهات الأخرى الساخنة لم يكونوا كثراً حينها ، وأما القليل من هؤلاء فكان لا يعود ثانية إلى « جاجي » غالب الأوقات ، مثلما فعل أبو حفص – على سبيل المثال – حين التقط بداية الخيط الموصل إلى حقيقة الوضع على الساحة ، من خلال خطبة للشيخ عبد الله في معسكر بدر . يقول أبو حفص : « جلست قرابة ٤٥ يوماً في بدر حدث أن أتى الدكتور عبد الله خلالها وألقى خطبة أمامنا بكي فيها بكاءً شديداً ، ففي تلك الأيام كانت

منطقة (ميدان) قد شهدت مشاكل بين الحزب الإسلامي وبين تنظيم الأستاذ سياف ، قتل فيها ٤٠٠ مجاهد من جميع الأحزاب ، فلما ألقى د. عبد الله خطبته وبدأ يدعو أن يؤلف الله بين القلوب .. ثم قام محمد ياسر وتحدث أيضاً اتضحت الصورة لي شيئاً فشيئاً .. وشعرت أن الوضع مختلف تماماً عما كنا نتصوره . بعدها التقيت الأخ عبد الرحمن المصري رحمه الله [٨] وكان موجوداً قبلي بأشهر .. فحدثني عن جبهات الشيخ جلال الدين وعن معاملته للعرب ، فوجدت اختلافاً حقيقياً في المعاملة . فجماعة الأستاذ سياف يشعرونك انك ضيف فقط .. لا تتعدى اهتماماتك وعملك ذلك ثم تعود إلى بلدك . فلما سمعت من عبد الرحمن عن الشيخ جلال الدين ومعاملته للإخوة وإشراكهم في التدريب والعمليات قلت له : سأذهب معك إن شاء الله .. » وشاء الله أن يمضي الإثنان إلى « جاور » يأتيهما أبو عبيدة العراقي حيناً ، وأبو الوليد « مصطفى حامد» حيناً آخر ، فتشكلت بذلك مجموعة عمل متناغمة متفاهمة ، عمادها المصريون الثلاثة : عبد الرحمن وأبو حفص وأبو الوليد ، وأبو عبيدةالعراقي زائراً بين آونة وأخرى ، وأبو عبيدة البنشيري المصري فيما بعد .. وعلى مدى سنوات تالية استمرت المجموعة تؤدي أعمالاً نوعية في جبهات الشيخ جلال الدين بعيداً عن دوامة بشاور وعن إشكاليات الوجود العربي هناك .. فيما مضت غالبية العرب القادمين تلج الساحة الأفغانية عبر بوابة « جاجي » حيث «ا لشرعية » لاتزال تضفي على توجيهات الأستاذ سياف مهابتها .. وتلقي على بصائر الشبان المتحمسين غلالة كثيفة تحجب عنهم الكثير مما يدور ! يقول أبو عبد الله : « في تلك الفترة كانت (جاجي) أقرب مكان يذهب إليه الإخوة بحكم اعتيادهم الذهاب إليها من قبل ، وباعتبار الشيخ سياف أميراً للإتحاد على مسمع العالم الإسلامي ، ولهذا كان القادمون للجهاد يأتون إليه مباشرة ليرسلهم بدوره إلى (جاجي) .. وعلى هذه الحال استمرينا بعض الشيء .. ثم بدأنا نفكر بإرسال إخوة إلي مناطق أخرى من ولايات أفغانستان ، نتحرى أعداد المجاهدين واحتياجاتهم وأنشطتهم .. وبدأ المهمة أخونا أبو أكرم ومعه اثنان من الإخوة : أحدهما اسمه أسامة والآخر أبو زيد من الأردن .. » ويفصل د. عبد الله تطورات هذه المرحلة فيقول : « ذهب أبو أكرم إلى سياف وحكمتيار ورباني وقال لهم : نريد أن ندخل أفغانستان فهل تسمحون ؟ قالوا : بلى ، وكتب كل منهم إذنا بذلك ووقع عليه ، فقلنا لهم : لكم علينا بعد ذلك ألا ندخل جبهة من جبهاتكم إلا بإذن منكم ، وتحت حراستكم ، وألا ندفع درهماً في بشاور وألا نفرق أحداً عن أحد ماداموا في جبهات القتال وفي خنادق النزال ؛ ومضت المسيرة على بركة الله فجمعت الشباب وكانوا ١٠ أو ١٢ تقريباً وقلت لهم : نحن نلتقي هنا في مكتب الخدمات على قاعدة واحدة وهي خدمة الجهاد الأفغاني ، ليس لنا لون معين ولسنا تابعين لحزب معين ، من أراد من الإخوان أن يجاهد فليتفضل ، ومن أراد من التبليغ أو من السلفين أو الجهاديين فالباب مفتوح ، المهم مكتب الخدمات جماعة الجماعات ، ومن أراد أن يجاهد فليتفضل مشكوراً .. تعالوا نعش بدون التعصبات الحزبية ، ودعونا نذب الفوارق والحواجز الإقليمية ، فهناك في بلداننا كنا نختلف على الكتاب الذي نقرأ فيه ، فهذه الحركة تقرأ في هذا الكتاب وتلك الجماعة تقرأ في كتاب آخر ، وينتهي الأمر بأن يقسموا المسجد بينهم أربعة أقسام لأن المؤلف الفلاني خير من المؤلف الآخر ! نحن هنا في جهاد ، وليس أمامنا إلا اطلاق النار ، فكلنا متساوون ، الإنسان وشجاعته ، الإنسان وبلاؤه .. بعد ذلك قلت لهم : أرأيتم إلى جماعة التبليغ كيف تعقد مؤتمراً سنوياً يقفون في نهايته ويسجلون من يريد

الخروج ٤٠ يوماً ، أربعة أشهر ، ستة .. قالوا : نعم . قلت : كذلك نريد أن نرسل جماعات من بيننا للتبليغ .. ولكنه تبليغ بالرصاص ومن فوهات البنادق . الذين مدتهم قليلة نرسلهم إلى الحدود ، والذين مدتهم متوسطة نرسلهم إلى المناطق الوسطى ، والذين مدتهم طويلة نرسلهم إلى المناطق البعيدة ، وهكذا شكلنا أربع جماعات : جماعة إلى مزار شريف (بلخ) على حدود روسيا ، ويشترك فيها عبد الله أنس أميراً عليها ومحمد أمين من سوريا (يعيش في الكويت وأخته زوجة أبي بدر المطوع) والثالث أبو أسيد عزتيار من دمشق ولكن من حاضري عمان .. والجماعة الأخرى توجهت إلى (هيرات) وفيها أبو حمزة الفلسطيني (ماهر شلبك) وأبو عثمان الكويتي (عبد الله الفيلكاوي) .. والجماعة الثالثة ذهبت إلى (زابل) ومنطقة الحدود [٩] .. والرابعة ذهبت بعدهم بقليل إلى (بروان) في الوسط .. وفي ديسمبر عام ٨٤ تحركت قافلة عبد الله أنس مع مجاهدي الجمعية ، ومكثوا ٤٦ يوماً في الطريق بين الثلوج حتى وصلوا (مزار شريف) بعد عناء يشبه الأساطير [١٠] .. » هذا العناء .. وهذه الأيام التي لاتنسى يتذكرها عبد الله أنس ولم يكن قد مضى على وجوده في الساحة قرابة الثلاثة أشهر أمضى غالبيتها في التدريب بكتيبة بدر .. وفي الترقب والمراقبة بمخيم « بابي » .. ويقول : « .. بعد أسبوعين أو ثلاثة على عودتنا من زيارة (جاجي)جاءنا الشيخ عبد الله في بيت المسلمين – مقر إتحاد الطلبة – وكنا بين ١٥ و ٢٥ هم كل العرب وقال لنا : نريد أن نوزعكم داخل أفغانستان على شكل جماعة التبليغ .. خروج في سبيل الله ، ولكن خروجكم سيكون إلى خنادق القتال .. وهكذا فمن أراد ان يخرج لثلاثة أشهر فليسجل اسمه ، ومن أراد لستة أشهر أو لسنة فهذا اختياره .. فكنت أنا والأخ أبو أسيد والأخ محمد أمين ممن انتخبوا .. فقلت للشيخ : أريد أبعد منطقة في أفغانستان .. ماهي ؟ فنادى على رجل اسمه مولوي عبد العزيز مندوب ذبيح الله الشهيد وسأله : أين تقع منطقتكم ؟ قال : في (بلخ) على حدود روسيا . قلنا له : كم المسافة إلى هناك ؟ قال : ممكن تتصلوا في ٢٢ يوماً . فاتفقنا أن نمشي إلى هناك .. وأن تكون مدتنا مفتوحة .. وعينني الشيخ رحمه الله أميراً على المجموعة .. وبعد أن أخذنا رسالة للحزب وأخرى للجمعية تحركنا في قافلة بمائة مجاهد تقريباً من الجمعية لنستمر أربعين يوماً من المعاناة بين الثلوج .. مرض أبو أسيد خلالها حتى خفنا عليه من الموت .. وسقطت أظافري أنا من الثلوج .. ورأينا من مكر الشيعة وأفعالهم بنا خلال ١٢ يوماً عبرناها في مناطقهم ما لايفعله الا اليهود !» ويضيف عبد الله أنس « .. وهكذا .. وبعد عناء وصلنا منطقة اسمها (داري سوف) بينها وبين (مزار شريف) مسيرة يوم ونصف أويومين على الأرجل .. وفجأة رأينا المجاهدين معنا أخذ كل واحد منهم ركناً وبدأوا با لبكاء ! لم نكن وقتها نعرف الفارسية ، ولم يخبرنا أحد بما حدث .. وبعد ثلاثة أيام أو أربعة تحركنا إلى (شوليكار) مركز ذبيح الله رحمه الله فوصلناها بعد منتصف الليل بساعة ونصف أوساعتين ، وبمجرد أن اقتربنا من القرية اشتغلت (الدوشكات) و (الزيكو ياك) و (الكلاشنات) و (الفشنك) .. حتى ظننا أننا وقعنا في كمين ! كان الناس على رصيفي الشارع في انتظارنا : الأطفال والشيوخ .. والنساء فوق أسطح البيوت .. كان الرجل يود لو يحظى منا أن نضع يدنا على رأس ابنه لتباركه ! وعلى هذه الحالة كنا في اليوم الثاني .. وفي اليوم الثالث .. » ويعود الشيخ عبد الله رحمه الله يسجل انطباعات المجموعة عن تلك الساعات المثيرة ورؤياتهم التي سمعها منهم عن هذا الاستقبال المهيب فيقول : « بدأت المساجد تفتح أبوابها

لتجتمع ثلاث أو أربع قرى في المسجد برغم قصف الطيران الذي يتهددها ، وعلى ظهرها وضعوا مضادات الطائرات .. ويبقى عبد الله أنس يخطب فيهم من الظهر إلى العصر ، لا يقطع الخطبة سوى النشيج والبكاء وأصوات التكبير .. وفي بعض الأحيان كانت الدروس تستمر حتى الحادية عشر ليلاً ، فاذا فرغوا قام أناس حاضرون في المسجد قائلين : إن أهل قريتنا ينتظرونكم منذ ساعات .. فيضطر أنس والأخوة أن يذهبوا إلى المكان الآخر ليمتد الكلام حتى الواحدة بعد منتصف الليل .. » ويضيف د . عبد الله [١١] : « لقد جاء كبار القادة الذين زلزلوا الأرض تحت أقدام روسيا يقولون لهؤلاء الشباب : نحن طوع أمركم ورهن إشارتكم فمرونا بأمركم . ولقد عرضوا على أنس أن يبقى بين ظهرانيهم ويزوجونه من بناتهم ويهبونه داراً للسكن رغم حساسية هذا الموضوع عند شعب قبلي كالشعب الأفغاني .. وفي الحقيقة فقد وصل الإخوة العرب على قدر من الله عز وجل وقتذاك ، حيث كان وصولهم بعد استشهاد ذبيح الله أمير المنطقة ومؤسس الجهاد فيها بأربعة أيام ، وقد أخفوا عنهم استشهاده بادىء الأمر .. وكان ذبيح الله روح الجبهة ومحورها ومحركها وبانيها وعقلها المفكر وقلبها النابض ، وبمقتله حدث فراغ كبير ، وكادت الجبهة تتمزق لولا الله ثم وصول العرب ، حتى أن قاضي عبد الله قاضى الجبهة فكر أن يهاجر ويترك ١٢ ألف مجاهد لولا أن ثبته الله بوصول الإخوة ومنعه بهم من الهجرة ، وحفظ هذه الجبهات من التمزق والشتات .. » يقول عبد الله أنس : « .. في اليوم الثالث سألنا عن مولوي ذبيح الله .. كنا حينما نسأل قاضي عبد الله والمسؤولين الآخرين لا يتمالكون أنفسهم فينهمرون بالبكاء ، وعندما نلح بالسؤال يقولون انه جريح في منطقة أخرى وسيعود بعد أيام .. لكننا انتظرنا ١٠- ١٥ يوما وما جاء الرجل ، فأبو أسيد كأنما أدرك الأمر فقال لي : أظن الرجل قد استشهد .. وبالفعل لم يلبث الأستاذ رباني أن أعلن في الراديو بعد ذلك عن استشهاد ذبيح الله ، ولم يعد هناك مجال لإخفاء الأمر فأعلنه أمير الجماعة .. وقامت القيامة في (شوليكار) وفي (مزار شريف) وفي بقية المناطق : نياح النساء في البيوت .. عويل الأطفال .. المجاهدون كأنما قامت عليهم القيامة .. ما رأينا أحداً تأثر بأحد آخر مثلما كان الناس متأثرين بهذه الشخصية ، ولذلك بدأت الجبهة من بعد ذلك بالتعثر نوعاً ما .. وكاد قاضي عبد الله أن يهاجر ، ولكن بتثبيت الله لنا استطعنا أن نلعب دورا في تثبيته وكثير من المجاهدين في المنطقة .. وبعد أربعة أشهر أو خمسة قضيناها في الإصلاح بين الحزب والجمعية والمشاركة في الفتوحات عدت أنا ومحمد أمين إلى بشاور ، وبقي أبو أسيد .. » .

* * *

كانت مجموعة عبد الله أنس أوفر المجموعات التي شكلها الشيخ عبد الله حظاً وأكثرها توفيقاً في مهمتها .. أما الجماعة الأخرى التي يممت شطر (هيرات) حيث الجانب الآخر من الحدود إلى جهة الغرب فكانت الشهادة في منتصف الطريق قدرها من الله تعالى . يقول د . عبد الله : « بعد أن ودعنا الإخوة أباحمزة (ماهر شلبك)[١٢] وأبا عثمان (عبد الله الفيلكاوي)[١٣] في (كويتا) سارا في قافلة سيارات كان عليها أن تعبر صحراء (قندهار) ، (هلمند) ثم (أورزكان) ثم (غور) حتى تصل إلى (هيرات) وهي

مسافة طويلة تستغرق بضعة عشر يوماً بالسيارات .. لكن الله عز وجل قدر أن يقعوا في كمين من طائرات الهليوكبتر بـ (هلمند) ودارت معركة حامية الوطيس ، وكان أبو حمزة قد أتقن استخدام الأسلحة جيداً في بدر ، فاستمرت المقاومة حتى قضى الله عز وجل لهما بالشهادة .. وتطايرت جثثهما في الهواء من القذائف والقصف [١٤] واستحى الأفغان أن يخبرونا بالنبأ وأخفوه فما علمنا به الا بعد شهرين ونصف أوثلاثة أشهر .

كان استشهاد أبي عثمان وأبي حمزة مع نهايات عام ٨٤ وقد سبقهما على درب الشهادة أربعة من الأخوة العرب قضوا على ثرى أفغانستان : نور الدين العراقي [١٥] وأبو عبدالقادر الجزائري [١٦] وحسين الجزائري [١٧] وأحمد سعيد الفلسطيني [١٨] إضافة إلى نور الدين الجزائري أول شهداء العرب في أفغانستان .. « لكن استشهاد أبي حمزة وأبي عثمان كان له أثر كبير في النفوس – كما يقول د. عبد الله – وبقيت تكِنُّ حبها العميق لهما ، لأنهما عاشا معنا في مكتب الخدمات أياماً ليست قليلة ، بينما لم يعش الإخوة الآخرون كذلك مع أنهم استشهدوا بعد تكوين المكتب ، ولذلك أطلقنا إسميهما على المكتبين اللذين استأجرناهما وقتذاك ، فقبل ذلك كنا نستخدم بيت إتحاد الطلبة المسلمين في (تاكال) لاجتماعاتنا ، ثم وجدنا أن الشباب المشرفين على الإتحاد يخرجون كل يوم قرار : ممنوع استقبال القادمين للجهاد .. لانستقبل إلا الطلاب .. فاستأجرنا بيتا خاصاً بالمكتب في بشاور » .

* * *

في ربيع الثاني ١٤٠٥ – أواخر ديسمبر ٨٤ صدر عن « مكتب الخدمات » في بشاور العدد الأول من مجلة « الجهاد » بهيئة أقرب ما تكون إلى النشرة الأخبارية ، ومن غير إشارة واضحة إلى جهة الإصدار .. فالعدد الذي تضمن ١٨ صفحة ، وقدم له الدكتور عبد الله عزام بحديث عن الجهاد والصبر .. خرج إلى القراء باسم « دار الجهاد – خاصة بالجهاد الأفغاني » وعلى عنوان بريدي في جامعة بشاور ، أما العدد الثاني الذي صدر في جمادى الأولى ١٤٠٥ – فبراير ٨٥ فقد استمر على نفس الهيئة المتواضعة في إخراجه وطباعته ، لكن مقدمة د. عبد الله تناولت قضية المشاركة في الجهاد بصورة واضحة ومباشرة هذه المرة ، فتحت عنوان « إلى المتثاقلين عن الجهاد » قال رحمه الله : « إن الجهاد الأفغاني فريضة على المسلمين حتى لو كان عدد أعدائهم من الروس وغيرهم أضعاف عددهم .. وفريضة الجهاد لا تنتظر تكافؤ القوى الظاهري بين المؤمنين وعدوهم .. ذلك بأنهم يملكون قوة أخرى غير القوى المادية الظاهرة .. وما يحجم ذو عقيدة عن النفرة للجهاد في سبيله إلا وفي العقيدة دَخَن .. فيا أنصار هذا الدين سارعوا إلى أرض الرباط أرض الجهاد ، إلى جانب إخوانكم المهاجرين ، قدموا مااستطعتم من جهد في سبيل الله بالنفس والمال ..» وعلى الغلاف الأخير للعدد ظهر إعلان على كامل الصفحة بصدور الطبعة الثالثة من كتاب « آيات الرحمن » أما الإشارة إلى دور العرب ومشاركتهم الميدانية في الجهاد فلم تأت إلا في العدد الرابع من المجلة في شهر رجب ١٤٠٥ – مارس ١٩٨٥ حينما تحدث د. عبد الله عن استشهاد أبي عثمان وأبي حمزة في الطريق إلى (هيرات) مع نشرصورة لكل منهما . ومضت أعداد «الجهاد » بعد ذلك تتطور في شكلها وإخراجها ،

وتفسح لجهاد العرب وشهدائهم المتتابعين صفحات أكثر في صدارتها .. وتجهد في معالجة إشكاليات هذا التواجد العربي المتزايد والمتنوع على الساحة الأفغانية ، وترشيد آثار هذا الإختلاط غير المسبوق بين الإسلاميين العرب من مختلف المشارب وبين المهاجرين والمجاهدين الأفغان من شتى الأصناف والألوان ..

هوامش

(١) يذكر د. عبد الله رحمه الله في إحدى النشرات التي أصدرها تحت عنوان « مسيرة مكتب خدمات المجاهدين » : « أن الاسم كان إلهاماً من الله انطلق على لسان أبي أكرم الذي شاركنا وضع حجر الأساس لهذا البناء الشامخ المبارك » .

(٢) في حديثه المسجل معي بتاريخ ١٩٩٠/٥/٤ في بشاور .

(٣) « بابي » : قرية باكستانية على مسيرة عشرين ميلاً من بشاور على وجه التقريب وباتجاه إسلام أباد . قدمت الحكومة الباكستانية جانباً من أراضيها لإتحاد المجاهدين ليقيم عليها واحداً من أكبر مخيمات المهاجرين الأفغان ، انتقلت تبعيته تلقائياً إلى تنظيم الأستاذ سياف بعد حل الإتحاد .

(٤) في حديثه لي بتاريخ ٩٠/٤/٣ بمدينة الشارقة .

(٥) في حديثه المسجل بتاريخ ٩٠/٥/٣ في بشاور .

(٦) وقد توفي رحمه الله في جدة فجر يوم الجمعة ٩١/٥/١٧ حينما دهمته سيارة أثناء رياضته الصباحية المعتادة على عكازيه ..

(٧) في حديثه المسجل بتاريخ ٩٠/٥/٢٦ في بشاور .

(٨) الشهيد عبد الرحمن المصري « عادل .. » : من مواليد الإسكندرية عام ١٩٥٧ - متوسط الطول ، مربوع القامة ،مفتول العضلات ، حاز على الدبلوم الفني في ميكانيك السيارات ثم قدم للجهاد أواخر عام ٨٣ وآثر العمل مع الشيخ جلال الدين حقاني وسكن في « ميران شاه » وعاش حياة زاهدة وتزوج من مهاجرة أفغانية أنجبت له ولدين اثنين ، وخلال وجوده في ساحة الجهاد هذه السنوات تمّرس على جميع أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة وأتقن طرق إصلاحها ، ويُعَدُّ - كما يقول الأخ أسامة - أول من فك ورسم مجموعة الزناد لسلاح الكلاشنكوف في أفغانستان ، وكان له دور كبير في تطوير العمل بأجهزة التحكم عن بعد وفي صواريخ أرض - أرض . شارك في أول عمليات إغلاق مطار « خوست » كما شارك في عمليات « شهرناو » .. وقد أتمّ حفظ كتاب الله قبل استشهاده ، وفي شهر يونيو ١٩٨٨ وفي أحدى المهام الإستطلاعية ليلاً على جبل « تورغار » الإستراتيجي المطل على خوست (قبل تحرير الجبل وفتح المدينة) وبعدما وصل مع الشهيد صخري الطائفي « الذي استشهد في معارك جلال أباد » إلى ١٠ أمتار من الحارس تعثرت قدم الأخير بصخرة في ظلمة الليل فسمع الحارس الصوت وبدأ بإطلاق النار ، فلما أرادا الإنسحاب أخطأ الطريق ، ولم يلبث عبد الرحمن أن داس على لغم قذف به في الهواء ومزق جسده تمزيقاً ، فحمله صخري ومعه الخال البحريني ونزلا به تحت الجبل ، لكنه لم يلبث أن أسلم الروح

بعد ثلاث ساعات وكانت آخر كلماته « أحبك في الله ياصخري .. اللهم اجعله في سبيلك » .. نُقل إلى « ميران شاه » ودفن هناك بحضور الشيخ جلال الدين وجمع غفير من أهل القرية . أنظر : مجلة «الجهاد» – العدد ٤٤ – يوليو ١٩٨٨ – ص ٣٦ إضافة إلى أحاديث إخوانه في بشاور .

(٩) ذكر د. عبد الله في افتتاحية « الجهاد » – العدد ٧ – رمضان ١٤٠٥ – يونيو ١٩٨٥– « أنهما ضرار وإسماعيل ، وهما شابان صغار حول العشرين فقط ، قال لهما كبار قادة المجاهدين : نحن لا نملك شيئاً نقدمه لكم عنواناً لفرحتنا واحتفاء بقدومكم ، ولو جاز لنا أن نذبح أولادنا تحية لكم لذبحناهم ! » .

(١٠) قرابة ٦٠٠ كلم و نيف يقطعها المجاهد في رحلة « بلخ » . أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ٣٠ – صـ ٤

(١٢) أنظر أيضاً حديث د. عبدالله عزام عن هذه التفاصيل في مجلة « الجهاد » – العدد ٧– رمضان ١٤٠٥– يونيو ٨٥

(١٣) الشهيد ماهر شلبك « أبو حمزة » : من مدينة رام الله بفلسطين المحتلة . حدث السن .. أسمر يميل إلى الطول .. نحيف وفي عينيه بريق . حفظ كتاب الله عن شيخه في رام الله محمد قاسم شاور . كان يدرس الهندسة في يوغسلافيا عندما قدم للجهاد . أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ٤ – صـ ٣٧

(١٣) الشهيد عبد الله الفيلكاوي « أبو عثمان » : أول شهيد كويتي في أفغانستان . متزوج وله ٣ أبناء . درس الماجستير في المدينة المنورة وجاء مبعوثاً من وزارة الأوقاف الكويتية لنيل الدكتوراة في جامعة السند بالباكستان .. ثم استشار د. عبدالله عزام أن يسجل للدكتوراة في ندوة العلماء بالهند ليتلقى العلم على يد الشيخ أبي الحسن الندوي ، فشد مئزره وحزم أمتعته ، ولكن رحلة الأبد إلى الله سبقت رحلة الهند . أنظر : مجلة « الجهاد » العدد ٤ – صـ ٣٣ – ومجلة « البنيان » – العدد ١٧/١٦ – صـ ٣١– إضافة لحديث د. عبدالله معي . ومن « هيرات » حيث كان يقصد الشهيدان ، أرسل العقيد محمداسماعيل أمير الأمارة العامة لجمعية أفغانستان الإسلامية هناك تحية وفاء وتهنئة نشرت في العدد ٨ من مجلة «الجهاد» – صـ ٢٣

(١٤) ذكرت مجلة «الجهاد » في العدد ٦– شعبان ٤٠٥ –مايو ٨٥ نقلاً عن « حفيظ الله خـان » أحد قادة « هـلمند » أن الروس بعد انتهاء المعركة جمعوا أشلاء الشهداء وصبوا عليها البتـرول وأحرقوها ! ومن جانبها نقلت صحيفة « السياسة » الكويتية بتاريخ ١٣/٥/ ٨٥ عن مجلة « المجتمع » الكويتية في عددها الأخير أنه مسـاء ١٣/١٢/١٩٨٤ شـــهدت محافظة « هـلمند » الصحراوية استشهاد عبد الله رجب درويش الفيلكاوي « أبو عثمان » و « أبو أسامة » فلسطيني ، كانا يقطعان الصحراء متجهين إلى أحد مراكز المجاهدين في « هزار جفت » قرب مدينة (نوزاد) وكانوا ١٤ مجاهداً ، عندما اصدموا بكمين ودارت معركة ٤ ساعات استشهد خلالها ١٠ من بينهم الأخوان .. وقد سيطرت القوات الشيوعية على المنطقة لمدة أسبوع ثم استردها المجاهدون ودفنوا شهداءهم . وأضافت الصحيفة أن الشهيد من مواليد ١٩٥٤ تخرج من جامعة الكويت /كلية الآداب سنة ٧٨/٧٧ . التحق بشركة النفط لمدة سنتين ثم استقال وأكمل دراسته في المدينة المنورة بالماجستير في المعهد العالي للدعوة بجامعة محمد بن سعود الإسلامية سنة ٨٣ ثم ذهب لدراسة الدكتوراة في باكستان ، ومن هناك التحق بالمجاهدين .

(١٥) الشهيد نور الدين العراقي : أول شهداء العراق في أفغانستان ، سمى نفسه نور الدين تيمناً بالشهيد نور الدين الجزائري ، وبالفعل ففي ليلة عيد الفطر من عام ١٤٠٤ - ١٩٨٤ استشهد في موقع « بدلة » بمنطقة « جاجي » نتيجة إصابته بقذيفة هاون انفجرت بجواره ، وكان يعمل على أجهزة اللاسلكي .. وكان قد رأى رؤية في الليلة التي استشهد فيها أنه حليق الرأس .. وعندما أمر الشيخ سياف بنقل جثمانه من « بدلة » إلى المركز الرئيسي مخافة أن يأخذه المنافقون .. فإذا بجسده لم يتغير ، بل كان مستمراً في النزف بعد ثلاثة أيام من دفنه . وينقل د. عبد الله عزام عن أبي عبادة مدير معهد الأنصار العالي قوله : « حملته في البطانية فكانت رائحتها عجيبة من ناحية الطيب والشذى والعطر » . أنظر : مجلة «البنيان» - العدد ١٦/١٧/ -صـ ٣٠ - والعدد ٢٦ - صـ ٤٨ إضافة إلى د. عبد الله عزام وأسامة بن لادن في حديثهما إلي .

(١٦) الشهيد أبو عبد القادر الجزائري : جزائري الموطن ، يبلغ من العمر ٣٥ عاماً ، طيب القلب على الفطرة السليمة ويتحدث العربية بصعوبة ، لكنه كان يعرف أن الجهاد واجب والشهادة أمنية . فوصل مع بعض الإخوة إلى الساحة ثم توجه إلى « جاجي » وفي موقع « بدلة » المطل على قلعة « تشاوني » التي كانت محاصرة وقتذاك استشهد في نفس موقع نور الدين العراقي وأيضاً بقذيفة هاون . أنظر : مجلة : « البنيان » - العدد ١٦/١٧ - صـ٣٠

(١٧) الشهيد حسين الجزائري :أحد زملاء الشهيد أبي عبد القادر الجزائري ، وصل متأخراً عنه عدة أيام ثم لحق به في الجبهة ، وبعد استشهاد أبي عبد القادر بفترة قصيرة جداً لحق به حيث أصيب في نفس الموقع في صيف ٨٤ -٤٠٤ ودفن مع الشهيدين عبد القادر ونور الدين العراقي . أنظر : مجلة « البنيان » - العدد ١٦/١٧ - صـ ٣٠

(١٨) الشهيد أحمد سعيد : فلسطيني المولد ويحمل الجنسية الأمريكية ، قدم من أمريكا للحج ثم جاء إلى الجهاد وقد أراد أن يمكث فترة ثم يذهب لزيارة أهله في فلسطين لكن الشهادة كانت أسبق . في آخر ليلة له في بشاور قال لأخ معه في البيت : إنني أشعر أني سوف استشهد ، وخرج بعدها ولم يعد . كان ذلك في نهاية صيف ٨٤ - ١٤٠٤ عندما ذهب إلى « جاجي » حيث تدور المعركة .. وعاد بعد ٤ أيام مصاباً بشظايا مزقت أمعاءه ، فبقي طريح الفراش لمدة أسبوع أسلم الروح بعدها ودفن في قرية « بابي » فكان أول شهيد فلسطيني . أنظر : مجلة « البنيان » - العدد ١٦/ ١٧ / -صـ ٣١ إضافة إلى حديث د. عبد الله معي .

الأنصار العرب (١٥)

في معسكرات التدريب

في تلك الفترة ، ومع ازدياد الإقبال العربي على ساحة أفغانستان .. كان لابد من استيعاب القادمين في دورات تدريبية تسمح لهم بتعلّم أبجديات الحياة الجديدة التي أقبلوا عليها ، وتنسم أجواء الجهاد والمعارك التي قطعوا ألوف الأميال ليتنشقوا عبيرها .. ويومذاك كانت خيام الشيخ سياف التي نصبها في (جاجي) على مقربة من حدود باكستان بمثابة الجبهة الأولى وخط المواجهة مع العدو في اعتبارات العرب المتحمسين .. يُمَنّى واحدهم كثيراً بزيارتها قبل أن يُسمح له بمغادرة (بابي) إلى هناك .. وهناك كان لا بد وأن يبدأ هؤلاء بالتفكير في استخلاص ركن مستقل لهم ، خاصة وقد بلغ عددهم العشرات . يقول الشهيد شفيق رحمه الله عن مشاهداته المبكرة وتدريبه الأول في (جاجي) -عام ٨٥ - رمضان ١٤٠٥ [١] : « بعد أكثر من ١٠ أيام على وصولي أمضيتها في بيت الخدمات ذهبت إلى (جاجي) لزيارة غُنْد الشيخ سياف[٢] وقتها كانوا يريدون إعداد مكان يجتمع فيه الشباب العرب يتدربون فيه ، وكانوا قد نصبوا خيمتين بجانب الشيخ سياف جلسنا نتدرب فيهما على مايمكن من الأسلحة ، وبعد أيام حاولنا أن ننتقل إلى الوراء - مكان المخابرة حالياً - وبدأنا نؤسس هناك معسكراً مستقلاً أو شبه مستقل ، وهناك تعرفنا على أبي محمد السوداني الذي كان يدربنا ، وأبي البراء أيضاً وكان قد طلع معنا .. وكان عدد العرب الموجودين أكثر من ثلاثين غالبيتهم من الجزائريين .. » ويضيف الأخ علي غزلان الذي رافق شفيقاً رحمه الله في رحلة القدوم الأولى هذه وكان رفيقه في أول مخيم تدريب مستقل للعرب في « جاجي » .. فيقول [٣] : « ذهبنا إلى (جاجي) أنا وشفيق مع الشيخ عبد الله رحمه الله وإخوة آخرين لا أذكرهم الآن .. ونزلنا على خيمةالشيخ سياف ولم يكن مركز العرب قد أسس بعد فنحن اشتركنا بتأسيسه وكان أول مركز للعرب يقام في (جاجي) .. ووقتها كان الشيخ عبد الله حاضراً بالطبع وأبو عبدالله كان موجوداً أيضاً وكذلك جمال خليفة (أبو البراء) وأبو الحسن السوري وهو محام جاوز الستين ولكنه شاعر - ماشاء الله- ألهب المعسكر بحماسه .. فكان يؤلف لنا أهازيج جميلة يرددها الشباب أثناء التدريب الذي بدأ في نفس شهر رمضان .. وكان من أبرز الموجودين أيضاً الشهيد أبو دجانة المصري ، وكان المدرب أبو محمد السوداني ، كما شارك في تدريبنا أفغاني فهمنا أنه نائب مسعود ، لكن الذي أرجحه أنه كان قائداً من قواده الصغار ، واعتقد أنه كان ماراً في المنطقة أو أنه أتى برسالة للشيخ سياف ، لكنه كان أول من أخذت تدريباً علي يديه في نفس خيمة الشيخ سياف .. أرانا مثلاً كيف يكون الإنبطاح ، وأظنه أرانا كيف يكون فك (الكلاشنكوف) وتركيبه .. » .

لم يكن هذا التدريب البدائي ولا هذا المعسكر المتواضع ليعتبر تأهيلاً كافياً بالطبع ، مثلما لم يكن التدريب في كتيبة بدر كذلك ، ولعل أول مواقع التدريب التي جمعت العرب بشكل شبه مستقل ومنتظم كان قاعدة بيت المقدس في معسكر أبي بكر الصديق بقرية (بابي) أيضاً ، والذي استمر على بساطته وبدائيته مقراً لتدريباتهم زمناً غير قليل ، ويروي الأخ أسامة « أزمراي » جانباً من أيام قضاها في هذه القاعدة -

بيت المقدس – مع بداية عام ٨٦ فيقول [٤] : « كان الأخ أبو دجانة الشهيد رحمه الله [٥] ماسك دار ضيافة المجاهدين وقتذاك ، فصدر الأمر بمنع أي أخ عربي من التواجد في المكتب ، ومن أراد الإقامة فعليه أن يقيم داخل معسكر بيت المقدس في (بابي) وهناك كانت عدة غرف موجودة وعلى كل غرفة أمير ، كنا حوالي ٣٥ شخصاً وفي الغرفة التي كنت فيها كان الأخ الشهيد سعود البحري [٦] وعقبة الشهيد [٧] وعبد الوهاب الشهيد [٨] والأخ عبد الخالق الليبي الذي قطعت رجله بلغم ، والأخ إحسان من المدينة ، وكان يدربنا الأخ نور الدين والأخ أبو فراس ، كما كان الأخ أبو سيف السوري يلقي علينا بعض الدروس » لكن ازدياد الإخوة وتوسع التواجد العربي على الساحة دفع لتوسعة أعمال التدريب وتطويرها ، فتم الإتفاق مع الأستاذ سياف الذي كان أمير الإتحاد حتى ذلك الوقت « بدايات عام ٨٥ » على استخدام معسكر سلمان الفارسي على طريق (كونر) لتدريب العرب ، وفي ابريل من نفس العام عُقدت – كما يذكر أبو الرضا – أول دورة للعرب في المعسكر حيث اجتمع قرابة ٢٥ منهم توزعوا على ثلاثة خيام ، وأشرف على تدريبهم مدربون من الأفغان ، وكان في مقدمة الذين التحقوا بالمعسكر في دورته الأولي أبو الرضا السوري ، وأبو الحسن المدني « وائل جليدان » اللذان كانا قد وصلا لتوّهما من أمريكا بفارق أيام قليلة بينهما .. وقررا التفرغ للجهاد في أفغانستان . يقول أبو الرضا [٩] : « أمضينا أسبوعاً أو عشرة أيام في المعسكر أخذنا خلالها فكرة عامة وسريعة عن البندقية الانجليزية (المار) [١٠] وعن (الكلاشنكوف) [١١] و(الدشكا) [١٢] و(الزيكوياك) [١٣] والألغام ... وكان أبو الحسن قد التحق بنا بعد ثلاثة أيام ، فرأينا هذه الفترة من التدريب غير كافية ، فنزلنا معاً واشترينا بعض الرصاص والقنابل ورجعنا للمعسكر فأخذنا أسبوعاً آخر من التدريب .. » ويرجع أبو الحسن بذاكرته إلى هاتيك الأيام فيقول : « كان أول معسكر تدريب يُعقد للعرب في ذلك الوقت في معسكر سلمان .. ولم يكن عدد المشاركين يتجاوز العشرين إلى الثلاثين ، وكان المدرب ضابطاً أفغانياً ، وكان أميرنا في ذلك الوقت الأخ الدكتور أبو حذيفة .. » ويكمل أبو الرضا :« أخذنا أسبوعاً آخر في المعسكر ، ثم رجعنا إلى بشاور وكان معنا أ خ اسمه أبو العز السوري شاركنا الدورة الأولى من المعسكر فسألناه : أين تذهب ؟ قال : أنا أذهب إلى خوست .. ولأن دخول الجبهة يكون بإذن من الشيخ سياف فقد أخذنا موافقته ثم ذهبنا إلى مكتب الشيخ جلال الدين حقاني وسألنا عن أحد ينوي الذهاب إلى (ميران شاه) فوجدنا قائداً اسمه محمود يتكلم العربية أوصلنا إلى الشيخ جلال في (ميران شاه) ومن هناك دخلنا (ليجاه) في منطقة خلف (جاور) وأمام العدو مباشرة ، وخلال ثلاثة أسابيع تقريباً أمضيناها عندهم شاركنا في عملية بالهاون ، لكننا أحسسنا أنهم غير محتاجين إلينا فرجعنا إلى (جاور) وهناك تعرفنا على عبد الرحمن المصري رحمه الله ومعه أخ اسمه أبو عبيدة العراقي .. كانا أقدم اثنين تعرفنا عليهم ، وكان قد مضى على وجودهما في ذلك الزمن سنتان أو ثلاث ..» ويكمل أبو الحسن مرة أخرى فيقول : « كانت مشاركة ومساهمة كنا نتمنى أن ينهج كل من يأتي بعد ذلك نفس النهج الذي بدأنا العمل به أول مرة ، فكنا نحاول أول مانصل أن نجمع كل أفراد الأحزاب الموجودين داخل المنطقة حتى نلتقي على أمرين مع مطلع كل يوم : بعد صلاة الفجر نلتقي على درس التجويد ، وبعد صلاة العصر نلتقي على مجموعة من الأحاديث نقرؤها ونستفيد منها ، وبعد ذلك إذا كانت هناك عمليات نشاركهم فيها .. » ويضيف أبو الحسن : « في تلك الأيام كان عدد

الإخوة العرب لايتجاوز الخمسة إلى العشرة في أي منطقة من المناطق ، وكان ممن سبقنا في ذلك الوقت الأخ الشهيد عبد الرحمن المصري رحمه الله [١٤] والأخ أبو عبيدة العراقي ، وكان معنا الأخ أبو العز السوري ، وكان ممن سبقنا أيضاً الأخ أبوبكر الحموي ومجموعة أخرى ممن كانوا قد تدربوا سابقاً في معسكر بدر .. » .

الهوامش

(١) في حديثه المسجل بتاريخ ٢٨/ ٩/ ٨٨ في بشاور . وقد استشهد رحمه الله بتاريخ ٨٩/٧/٥ يوم انحياز المجاهدين العرب أمام هجوم العدو على موقع (سراقة) ومواقع أخرى لهم في جهة جلال آباد .

(٢) غُنْد : كلمة محلية تعني المعسكر أو الموقع .

(٣) في حديثه المسجل بتاريخ ٩٠/٥/٢ في بشاور .

(٤) في حديثه المسجل بتاريخ ٢٨/ ٩/ ٨٨ في بشاور . و« أزمراي » اسم من الفارسية يعني الأسد .. و « أسامة » كما هو معلوم أحد أسماء الأسد بالعربية ، ولذلك إختار أسامة هذا الإسم لينادى به في ساحة الجهاد ، خاصة وأنه نفسه من أصول أوزبكية .

(٥) الشهيد أبو دجانة المصري : من حفظة كتاب الله ، ندي التلاوة ، كثير الصيام ، دؤوب على القيام ، شديد في الحق ، متتبع للآثار والسنن ، ذو نكتة حاضرة ودعابة ، يحمل شهادة البكالوريوس في الرياضة وكان يجيد لعبة « الكراتيه » دخل الجيش في بلاده ورفض من بين أقرانه جميعاً أن يحلق لحيته خلافاً للأنظمة التي تسود الجيوش وتحكمها ، وقبل حضوره إلى ساح الجهاد عام ٨٣ سُجن عدة سنوات في مصر ؛ وفي أفغانستان تجول بين الجبهات وطاف على « لوغر » و« بكتيا » و« ننجرهار » حيث أقام في الأخيرة شهرين أو ثلاثة ألف الله على يديه خلالها القلوب وجمع الصفوف ، فشكلت الأحزاب الأربعة مجلس شورى وانتخبوا أميراً وأصبحوا وكأنهم منظمة واحدة ، ثم عاد إلى بشاور لألم في ظهره فأقام فيها ريثما يتم علاجه وكان يقول : سأطأ بعرجتي هذه الجنة إن شاء الله .. وخلال ذلك استلم إدارة ضيافة مكتب الخدمات فوضع لها نظاماً دقيقاً ولوائح للإنضباط .. وفي ذي الحجة من عام ١٤٠٦ لبى نداء البيت العتيق ليعود من هناك إلى « بنشير » ومنها تحرك مع أحمد شاه مسعود إلى محافظة « بغلان » واشترك في عملية « نهرين » الضارية حيث فتح المجاهدون مقاطعة بكاملها وغنموا الكثير من الغنائم ، وفي يوم ٨٦/١١/١٣ يوم استشهاده لم يتكلم أبو دجانة شيئاً ، وكان صائماً ، وقرأ سورة العصر ثم دخل العملية مع مجموعة الإقتحام ليصاب بشظية دبابة في جبهته داخل موقع العدو ، وساعة أن عثر المجاهدون عليه بعد المعركة وجدوه ساجداً على سلاحه .. وقريباً من قبر أخويه الشهيدين : أبي عاصم وذبيح الله « أبي حامد » ووري أبو دجانة الثرى .. في جبال الهندوكوش . أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ٢٥ – ربيع الآخر ١٤٠٧ – ديسمبر ٨٦ – صـ ١٧ ومجلة « البنيان » – العدد ١٧/١٦ – ربيع الأول والثاني ١٤٠٨ – صـ ٣٥ إضافة إلى أحاديث إخوانه عنه في بشاور .

(٦) الشهيد سعود البحري « سعد الرشود » : من المملكة العربية السعودية ، متزوج وله ثلاثة أولاد ، التحق

بالجيش قبل أن يأتي للجهاد في أفغانستان ، أسمر السحنة ، خفيف اللحية ، كثير الصمت ، كثير الصوم ، شديد الحرص على شعائر الدين ، مداوم على الذكر والبكاء وقيام الليل .. رحل إلى ولاية « جوزجان » المتاخمة للحدود مع الإتحاد السوفييتي وأمضى أكثر من ستة أشهر هناك ثم عاد ليعمل مع مجموعات الترحيل الأولى من العرب على الحدود قبل أن يشد الرحال من جديد إلى « ننجرهار » . يقول الاخ أسامة : « حين رجع من (جوزجان) كنت متلهفاً لمقابلته .. فوقتها كان من أوائل الذين ذهبوا إلى الشمال آنذاك ؛ فتشت عنه في مكتب الخدمات فلم أجده ، وعندما فتشت مرة أخرى رأيت شخصاً نحيلاً صامتاً ملتصقاً بالركن .. فإذا هو سعود .. » حضر شقيقه إلى بشاور وسعود في منطقة « شترال » يعمل بالترحيل ، فعاد إلى أبي الحسن المدني واستأذنه بالدخول مع أخيه إلى الجبهات ليعلمه مبادئ الجهاد وكيفية التعاون مع الأفغان .. ودخل مع الأخوين إلى «ننجرهار » عدد من الإخوة العرب .. وشاركوا المجاهدين الأفغان بالهجوم على مركز للروس في منطقة « شلمان » بتاريخ ٨٦/٢/١١ فكان سعود وعدد من الأنصار العرب في مجموعة الإقتحام ، ولم يلبث أن سقط ثلاثة منهم شهداء بانفجار قذيفة هاون نزلت قريباً منهم كان سعود أحدهم ، حيث نال الشهادة مع أخويه : عبد الوهاب الغامدي وعبد الصمد الجزائري وجرح عدد آخر من العرب ، وفيما تم دفن سعود وعبد الوهاب في أرض المعركة نقل عبد الصمد – وما زال به رمق – إلى بشاور ، لكنه أسلم الروح في الطريق ودفن في معسكر « ورسك » ويروي أحد الإخوة الجرحى أنه سمع الشهيدين عبد الوهاب وسعود قبل المعركة بنصف ساعة يقولان : ادفنونا في أرض المعركة .. ويقول أسامة : « لم يذهب سعود إلى بلاده منذ أن حضر إلى أفغانستان وأمضى قرابة السنة والثمانية أشهر في الجهاد حتى أنه نسي تقاسيم وجوه أولاده .. وكان يقول : إنها نعمة من الله أنْ أنساني وجوههم حتى لا أعود بشوقي إليهم » . وفي وصيته رحمه الله أوصى ألا يكتب أحد عنه في أي مجلة ولم بكلمة واحدة .. ولذلك جعلت مجلة الجهاد نقاطاً داخل قوسين كلما ورد مكان لاسمه في حديثها عن المعركة وعن بقية الشهداء . أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ١٦ – جمادى الآخر ١٤٠٦ – يناير ١٩٨٦ – صـ ١٠-١١ ومجلة « البنيان » – العدد ١٧/١٦– صـ ٣١ اضافة لأحاديث إخوانه عنه في بشاور.

(٧) الشهيد أبو عقبة « محمد بن إبراهيم » : أول شهيد تونسي في أفغانستان السادس عشر من شهداء العرب هناك ، من مواليد العاصمة التونسية ، ٢٥ عاماً ، متزوج ، قدم إلى أرض الجهاد قبل عشرة أشهر تقريباً وهو حديث عهد بالزواج ، صافي النفس ، صامت اللسان ، قليل الكلام ، هادئ الطباع ، كثير تلاوة القرآن ، تنقل بين الجبهات وكان ملازماً للشهيد حمدي البنا وحضر معه معركة « جاجي » في رمضان ١٤٠٦ وبعد هذه المعركة قرر أن يسافر إلى « باريس » لكي يحضر زوجته فتشاركه الأجر في الرباط وفي الجهاد .. لكن موعده مع الشهادة كان أسبق وأجلّ ، ففي منطقة « شناري » بولاية « قندهار » وبينما كان أبو عقبة يهم بالوضوء يوم ١٣ من شوال ١٤٠٦ اشتد القصف الجوي على المجاهدين لينتقل أبو عقبة إلى رحاب الحق شهيداً بإذن الله ، ويدفن – مثلما أراد في وصيته – داخل أفغانستان . أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ٢٠ – ذو العقدة ١٤٠٦ – يوليو ٨٦ – صـ ٢٠ –٢١ والعدد ٢٣ – صفر ١٤٠٧ – أكتوبر ٨٦ – مقابلة مع والده – صـ ٣٢ –٣٣ ومجلة « البنيان » – العدد ١٧/١٦ – صـ ٣٥ اضافة الى أحاديث إخوانه في بشاور .

(٨) الشهيد عبد الوهاب الردّة الغامدي « أبو سلمان » : من مواليد جدّه عام ١٣٨٢ هـ . حصل على الثانوية

العامة وعمل موظفاً وتزوج ، ثم توفيت زوجته بعدما أنجبت له ابنة واحدة قبل أن يترك ذلك كله ويأتي إلى الجهاد أواخر عام ١٤٠٤ . أسود الشعر ، مشرق الوجه ، كث اللحية ، كثير الذكر ، قليل المزاح ، عالي الثقافة ، كثير المطالعة ، مداوم على صيام الاثنين والخميس ، مصابر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يخشى في الله لومة لائم ولا يطلب من الدنيا إلا الشهادة . تنقل بين الجهات فدخل « جاجي » ثم أمضى في « لوغر » أربعة أشهر عاد بعدها بصحبة الأخ يعقوب الذي أصيب هناك بشظايا قذيفة دبابة .. ولم يلبث أن ارتحل إلى « كونر » ليتركها ويمضي إلى « خوست » يطلب العمليات الخطيرة والمعارك المحتدمة .. وبعد استشهاد يحيى سنيور كان يسارر أسامة « أزمراي » ويقول له : « سأصبر حتى أنال الشهادة والله كريم ، وكما رزق يحيى الشهادة وهو في الحدود فلن يبخل الله علينا بها إن شاء الله » وعندما أقيمت دورة في معسكر بيت المقدس في « بابي » التحق بها قرابة الشهر يمضي من هناك إلى « ننجرهار » مع عدد من الإخوة ويدخل معركة « شلمان » بتاريخ ٨٦/٢/١١ فيلقى ربه مع سعود وعبد الصمد وهم في مجموعة الاقتحام ؛ وكان رحمه الله في الليلة التي سبقت يوم شهادته قد رأى في المنام الشهيد يحيى سنيور مخاطباً إياه : حقا أرى أم ذاك حُلم خيال ؟ فهب في الصباح مستبشراً يقول : قد رأيت يحيى .يقول الدكتور عبد الله عزام : « حدثني المهندس حكمتيار قال : حدثني عبد المتين قائد الجبهة : أنني شهدت عبد الوهاب وسعداً بعد استشهادهما بساعات يرتعش أحدهما رعشات متواصلة ولمرات عديدة » ويروي أسامة عن ذكريات لهما معاً فيقول : « لكم أتذكر عبد الوهاب ونحن نمشي في جبال (كونر) الشاهقة وهو يكبّر ويهلل ولا يكلّ مع ضعف جسده يحمل رشاشه وجعبته علي ظهره وقد تورمت قدماه من المشي ، ولما وصلنا إلى مكان أردنا أن نصلي فيه والثلوج قد غطت المنطقة والماء متجمد إلا قليل منه يجري ببطء أخذ يتوضأ ويقول : وإسباغ الوضوء على المكاره .. يرددها كثيراً حتى انتهى ولم أستطع أنا الوضوء إلا بصعوبة ، ولعلي لو لم يتوضأ أمامي وهو يردد ذلك لما توضأت ولاكتفيت بالتيمم ! ومن زار جبال نورستان في الشتاء يعرف صعوبة ذلك » ويضيف أسامة : « وعندما عزم مرة على زيارة أمه وإخوانه وابنته الوحيدة طلب إلى الأخ حسان أن ينتظره شهراً ليعودا معاً من المملكة سوياً ، فأجابه حسان : وكيف أطيق أن أبقى شهراً ؟ فرد عبد الوهاب بأنه سيعود إذاً خلال أسبوعين ، فلما وصلا لم يطق عبد الوهاب المكوث ورجع بعد عشرة أيام وبقي حسان حوالي الشهر والنصف ، وفور وصوله أسرع عبد الوهاب بخلع ملابسه وارتداء الملابس الأفغانية استعداداً للذهاب إلى الجبهة » وفي وصيته رحمه الله كتب إلى ابنته يقول : « .. لقد عاش أبوك وحيداً وغريباً رغم كثرة المال والأهل والخلاّن ولكني كنت بفكر متميز وصاحب مبادئ وقيم لم أتنازل عنها أبداً ولذلك جَفَوْني الناس وجفاهم فكري ومن أفكاري وما أنا عليه ياعزيزتي :

- أن الاسلام دين ودولة ومصحف وسيف وأني لا أنلدغ من جحر مرتين .
- أنني أكره الطواغيت وأحاربهم بقلمي ولساني وقلبي هم وأتباعهم وألعنهم صبح ومساء وكل يوم لأنهم ...
- عزيزة نفسي من غير كبْر إن شاء الله .
- شاعر عنيد ومجاهد صنديد .. » أنظر : مجلة « الجهاد » - العدد ١٦ - صـ ١٠ - ١٥ ورسالة من د. عبد الله عزام إلى آل الردة معزياً بعبد الوهاب بتاريخ ١٩٨٦/٣/١ إضافة إلى أحاديث إخوانه عنه في بشاور .

(٩) في حديثه المسجل بتاريخ ٨٨/٩/٢٦ في بشاور .

(١٠) « البندقية الإنجليزية المار » : هي البندقية « لي انفيلد رقم ٤
العيار : ٣٠٣ ر. بوصة ولاحقاً ٧ر٦٢ ملم المعتمد من قبل دول حلف شمالي الأطلسي .
الوزن : ١ر٤ كغ .
المدى الموثر : ٥٠٠ متر .
السرعة الابتدائية : ٤٧٥ م/ثا .
مخزن الذخيرة : من نوع العلبة القابل للنزع سعة ١٥ أو ١٠ خرطوشة .
المصنّع : المصنع الملكي للأسلحة الصغيرة ومصانع أخرى موجودة في المملكة المتحدة وعبر البحار .
أنظر : الموسوعة المصورة لأسلحة المشاة في العالم ١٩٨٥ - جـ ١- صـ ١٥١ .

(١١) « الكلاشينكوف » : « إي . كي ٤٧ » AK ٤٧
العيار : ٧ر٦٢ × ٣٩ ملم .
المدى الموثر للسلاح : ٤٠٠ متر .
مخزن الذخيرة : من نوع العلبة القابل للنزع سعة ٣٠ خرطوشة .
المعدل النظري للرمي : ٦٠٠ طلقة في الدقيقة .
المصنّع : مصانع الدولة في الإتحاد السوفييتي . أنظر : المصدر السابق - جـ ١ - صـ ١٣٧

(١٢) « الدشكا » : المدفع الرشاش الثقيل DSHK ٣٨/٤٦
العيار : ١٢.٧ × ١٠٨ ملم .
المدى الؤثر : ٢٠٠٠ م / ١٠٠٠ م نمط المضاد للدبابات .
نظام التغذية : شريط مفصلي للذخيرة سعة ٥٠ خرطوشة .
المعدل النظري للرمي : ٥٤٠ - ٦٠٠ طلقة / د .
المصنّع : مصانع الدولة في الإتحاد السوفييتي .
يمكن تركيبه على عربة أو على ركيزة بعجلات يمكن استخدامها بعد نزع عجلاتها وبسط قوائمها في القتال ضد الطائرات . أنظر : المصدر السابق - جـ ١ - صـ ٢١٤

(١٣) « الزيكوياك » : المدفع الرشاش الثقيل KPV فلاديميروف .
العيار : ٥ر١٤ × ١١٤ ملم .
المدى المؤثر : ٢٥٠٠ م /١٥٠٠ م نمط المضاد للطائرات .
نظام التغذية : شريط معدني مفصلي للذخيرة سعة ١٠٠ خرطوشة .
المعدل النظري للرمي : ٦٠ ط/د .
المصنّع : مصانع الدولة في الإتحاد السوفييتي .
يصلح كمدفع أرضي أو مضاد للطائرات . أنظر : المصدر السابق - جـ ١ - صـ ٢١٥

(١٤) الشهيد عبد الرحمن المصري : الذي سبق والتقى مع أبي حفص قبل ذلك واصطحبه إلى « خوست »
أنظر : هوامش الفصل ١٥ « مكتب الخدمات » - رقم (٨)

الأنصار العرب (١٦)

لجان الخدمات

عاد أبو الحسن وأبو الرضا إلى بشاور فوجد هذان الشابان المتحمسان القادمان من أمريكا أن الفوضى التي تسود أوساط العرب هناك هي الأصل .. وأن النظام والانضباط هو الإستثناء ! « كان الإخوة يأتون – كما يروي أبو الرضا – فلا يجدون الإستقبال .. يدخل واحدهم إلى المكتب فلا يعرف أين سيذهب ، هل هناك تدريب ؟ هل سيتجه للجبهات ؟ لايعرف ! » وقتذاك كانت حوالي ستة أشهر قد انقضت على تأسيس مكتب الخدمات وعلى ابتداء مسيرته . يقول أبو الحسن : « في أواخر ٨٤ جاء أ بو عبدالله إلى بشاور واستأجر بيت أبي حمزة [1] سكناً له وبعد ذلك توسع البيت وأصبح بيت ضيافة ، ولم يكن هناك أي مقر آخر للمكتب ، فصارت كل الأمور تُدار من هذا البيت ، فهو الضيافة وهو المكتب وهو مقر اللجان وهو مقر مجلة الجهاد .. ومهما كان يكتظ بالإخوة كنا نقوم بأنشطتنا من خلاله .. » .

كانت أفرع التخصصات المطلوبة والمتنوعة تفترض قيام حد أدنى من توزيع ا لمهام وتشكيل اللجان .. لكن ذلك كان يحتاج بدوره إلى سلطة مركزية تتولى إصدار التعليمات وفرز الكفاءات ورسم خطة واضحة للعمل . يقول أبو الحسن : « في ذلك الوقت كان الأخ أبوعبد الله يأتي ويرجع ، وكان يقوم بجانب التمويل فقط ، وكان إذا جاء بشاور يدخل بنفسه إلى الجبهة ليقضي أياماً ثم يعود ، وقتذاك كان هناك مايُسمى لجنة المكتب وكانت عبارة عن الشيخ عبد الله ومن ينوبه ، ثم ثلاثة من الإخوة أي أنها لا تتجاوز ٥ أو ٦ أفراد ، وكان هناك أيضاً يجلس استشاري أو هيئة استشارية كانت تجمع كل الأخوة القدامى الموجودين في الساحة . وكان المكتب عبارة عن لجان : هناك اللجنة الاعلامية ، الفنية ، التعليمية ، ولجنة للتدريب أو بهذا المفهوم ، وبعد ذلك استُحدثت لجنة الترحيل لأن الشيخ عبد الله كان يعتني بنفسه بمفهوم التجهيز ، في ذلك الوقت لم يكن هناك شيء اسمه ترحيل ، كان فقط تجهيز القوافل وإرسال بعض الدعم للجبهات ..» ويضيف أبوالحسن : « كانت اللجنة في ذلك الوقت تؤدي الشيء الذي تستطيعه لخدمة الإخوة الأفغان أو العرب ، وكان الأمر كله يتم بدرجة من التعامل فيه الأدب وفي الحياء ... » ولكن أبا الحسن ينفي و جود صفة الإلزام للتعليمات وللأوامر الصادرة ويقول : « علاقتنا من ذلك الوقت مع لجنة المكتب هي علاقة بالشيخ عبد الله بالدرجة الأولى والذي كنا نأخذ منه أمر ديننا ونتعلم منه الكثير في ذلك . إضافة لمعرفته بما يجري داخل أفغانستان وعلى الساحة .. بعد ذلك كانت علاقتنا بالذي ينوبه في ذلك الوقت أياً كان ، والذي كان يقوم بالجانب التنفيذي » .

في تلك الفترة كان الشيخ عبد الله موزعاً بين مهام التدريس والمحاضرات بالجامعة الإسلامية في إسلام آباد وبين مخيمات التربية الإسلامية الخاصة بالمجاهدين الافغان ، إضافة إلى مهمة الإشراف على العرب المتوافدين على مكتب الخدمات والمعسكرات التي بدأت تتعدد وتتسع . يقول د. عبد الله : « أنشأنا قاعدة بيت المقدس في (بابي) وبدأنا التدريب فيها ، ثم بدأت أكوّن مخيمات التربية في معسكرات الأفغان ، فَحَول بشاور كانت هناك ٣ معسكرات : (ورسك) وهو أكبرها و يتبع للحزب الإسلامي ، وكان يقضي فيه

أيام الشتاء حوالي ٢٠ ألف مجاهد ، ثم (خالد بن الوليد) لرباني وفيه حوالي ١٢ ألف ، و (أبو بكر) لسياف وفيه حوالي ٨ آلاف تزيد أو تقل .. فكنا نستغل هذه الفرصة من أجل تربية القادة وتوجيههم وشحذ هممهم والإرتفاع بهم ورفع معنوياتهم وعزائمهم .. وأول مخيم عملناه في (بابي) حضره ٣٠٠ قائد تقريباً من كل الأحزاب استمر أسبوعين اثنين .. وأثناء المعسكر جاءنا أبو داود من الأردن وسررنا به كثيراً ، جاء به أبو عمر الذي كان قد تخرج من الهندسة في بشاور ، أما أبو داود فهو خريج المدينة المنورة . واستلم مديراً لمكتب الخدمات بعد أبي أكرم ..» ويتابع رحمه الله : « أنهينا المعسكر الأول ، وبعده تفرغت شبه تفرغ للجهاد ، وصرت أمكث في إسلام آباد يومين فقط للجامعة هما السبت والأحد ، أما بقية الأيام ففي بشاور والجبهات القريبة ... ثم بدأنا نقيم صلاة الجمعة في مكتب الخدمات » .

* * *

أدرك أبو الحسن وأبو الرضا أن الحِمْل أكبر من قدرة الحمّال ... وأن الحال لايحتمل الفرجة والإنتظار .. فكان الإتفاق بينهما – كما يروي أبو الرضا – : « أن نستلم التدريب في معسكر سلمان ، وهناك نتلقى أي شخص قادم لنفهمه الأوضاع ونعرّفه أحوال الجبهات ونشغله بالنشاطات المفيدة والمتنوعة .. وبدأ ا لمعسكر ، وكان الأخ أبو محمد السوداني أول مدرب عسكري فيه .. وكان معسكراً طيباً ، فيه أبو عاصم العراقي الذي استشهد في بانشير [٢] وعبد الصمد الجزائري [٣] .. وكنا أيضاً ٣ خيام ، وجاء الشيخ عبد الله وعبد الله أنس في المعسكر وتعرفنا على كثير من الإخوة هناك .. » ويسجل أبو الحسن ذكرياته عن تلك الدورة فيقول : « كان التركيز في التدريب خلال هذا المعسكر على الأخ أبي محمد السوداني والأخ عصام الليبي بالإضافة إلى الضابط الأفغاني . كان المشاركون أكثر من ٤٠ أخاً ولم يكن هناك مسؤول واحد كما في السابق ، بل وزعت المسؤولية فأصبح هناك نشاط ثقافي ، وأصبح كل أخ من الإخوة القدامى يتخصص بسلاح معيّن حتى يُدرب عليه بعد ذلك .. » .. وبانتهاء الدورة الثانية من معسكر سلمان الفارسي كان عبد الله أنس – وقد بدأ يتهيأ للعودة إلى « بلخ » مرة أخرى – قد حزم أمره على اختيار أبي الحسن المدني – الذي نبغ بنشاطه وحسن تنظيمه أيام المعسكر – مرافقاً له في مهمته القادمة نحو الشمال .. وقتها كان عبد الله أنس نجم الساحة العربية .. ومثار الإعجاب لدى الجميع .. « فلقد كنا – كما يروي عبد الله بنفسه – الوحيدين الذين ذهبوا للشمال .. وكان الشيخ عبد الله قد عمل لنا دعاية كبيرة جداً .. وكان حديثه في كل مجلس عن عبد الله أنس .. حتى أنني كنت عندما ألتقي بالشباب أحس أنهم واهمون فينا .. فكنا نصارحهم في أقرب وقت ونقول لهم : لا تظنوا هذا الشيء الذي في أذهانكم .. أنتم مخطؤون ، فالشيخ جزاه الله الخير يريد أن يشجع الشباب على مواصلة الجهاد ولذلك تراه يذكر أي حسنة يعملها الأخ حتى يتشجع » وواقع الأمر وكما يروي أبو الحسن : « كان كل أخ يطمع بمرافقة عبدالله أنس ، لكن الشيخ عبدالله أذن للبعض في ذلك الوقت ولم يأذن للبعض » يقول عبد الله أنس : « ذهبت إلى معسكر سلمان الفارسي ووجدت أبا الحسن المدني وأبا الرضا قد جاءا من أمريكا ، وكان الهدف من مجيئي أن آخذ مجموعة من الشباب يكونوا دعاة هناك ، فأول ما رأيت الأخ أبا الحسن قلت للشيخ عبدالله : أريد أن آخذ معي هذا الأخ ، لكن الشيخ لم يوافقني وقال لي بأن لأبي الحسن دور هناك في بشاور ونحن نريد أن نوظفه بشيء آخر لأنه أحسن من يسد هذا الباب .. ولكن خُذْ أبا الرضا .. فأخذته معي وأخذنا معنا ١٧ مليون روبية أفغاني مساعدات من المكتب وتحركنا مع قافلة المجاهدين وحدنا إلى (

مزار شريف) .. » يقول الدكتور عبدالله رحمه الله : « عاد إلينا عبد الله أنس بعد ٣ أشهر من (بلخ) وشرح لنا حالة الجهات وضرورة مدّها ، وكنت من قبل أسلم التبرعات التي تأتيني للشيخ سياف وأعطي بعضها لحكمتيار ، لكننا قررنا فيما بعد أن لا نُسلّم للقادة بأيديهم بسبب الحاجات الملحة حولهم والتي لا يمكن أن تغلق ، فصرنا نرسل بأيدي إخواننا إلى الجهات في الداخل .. وهكذا جمعنا ما بين أيدينا من مساعدات .. وكانت لجنة الإغاثة السعودية قد بدأت العمل في بشاور من جديد فقلت لرئيس اللجنة صالح الضيف : هؤلاء الشباب العرب قادمون للموت في سبيل الله وهم سيدخلون أفغانستان سواءً وجدوا ما يحملونه بأيديهم أم لم يجدوا .. أما نحن فسنضع الذي بين أيدينا بأيديهم وندخله ، فإن كان عندكم ما يحملونه أرسلوه معهم إلى حيث تضطرم النيران والحمم .. ففرحوا بذلك وقدموا بعض المساعدات لهؤلاء الشباب حملها عبدالله أنس بيده وعاد إلى الداخل ..[٤] وهناك وجد أن الجهة بحاجة إلى كثير من العناية والتربية والتوجيه والتنظيم والتدريب ، فصمم أن يذهب إلى أحمد شاه مسعود قائد (بتشير) وكان قد خرج ذلك العام إلى (اشكمش) وهي منطقة على مفرق (تخار – بغلان – قندز) جعلها مستقراً له في منطقة اسمها (شيرا) .. وبدأ يُقنع قادة الشمال بضرورة التنظيم والتدريب والإلتقاء في تنظيم واحد من أجل مقاومة الروس وتحصين المنطقة من أجل استمرار المعركة ، فذهب إليه عبدالله أنس وبدأ يشرح له أهمية (مزار شريف) وضرورة التنسيق بين مجاهدي هذه المناطق جميعاً ، فتعجب مسعود كيف يفكر هذا العربي بالذي أفكر فيه ! وقال له : لا ترجع أنت إلى (مزار شريف) فإنك لا تستطيع أن تغير هناك . إبق عندي هنا وستأتي بشباب من هناك ندربهم ونعيدهم . أما أنت فتبقى عندنا ، ولعل الله عز وجل أن ينفع بك . وهكذا بدأت العلاقة بين مسعود وأنس فما عاد يستطيع أن يفارقه .. » وبذلك فُتحت للعرب صفحة جديدة على الساحة الأفغانية في الشمال ، كانت لها من بعد آثار وأصداء بالغة الحساسية والتأثير ، لكن ساحة بشاور كانت أكثر تأهيلاً وقتذاك لتشهد التطورات السريعة فوقها ، وكانت أمراض التنظيمات الأفغانية المزمنة أكثر ملاءمة – كالعادة – لتدخل جديد في شؤون الجهاد الأفغاني من خلالها .. وفي إتاحة الفرصة للأيدي العابثة أن تمتد وقتما تشاء .. وحيثما تريد ! .

هوامش

(١) نسبة إلى الشهيد ماهر شلبك « أبو حمزة » .

(٢) الشهيد أبو عاصم « محمد عثمان » العراقي : الخامس عشر من شهداء العرب في أفغانستان . استشهد يوم ٢٤ رمضان ١٤٠٦ في معركة « أندراب » بولاية « بغلان » أثناء اقتحام المركز العاشر من مراكز العدو . يروي « أحمد مير » أحد علماء بانشير أن أبا عاصم طلع عليهم ليلة ٢٣ رمضان يخبرهم بما رأى في منامه عن استشهاده بلغة واثقة ، وفي الصباح قام ووزع ملابسه وساعته وأمتعته على إخوانه المجاهدين قائلاً لهم : أنا شهيد هذا اليوم . وساعة أن شرع المسؤول بتسجيل أسماء المشتركين في المعركة وكانوا ١١٠ من المجاهدين سجّل بجانب اسم أبي عاصم كلمة شـهيد ، قال عبد الله أنس : قلت للأخ صفي الله الذي سجّل الأسماء : أنت متسعجل على العرب ! نحن اثنان .. تريدون أن يذهب واحد إلى ربه ويبقى واحد ؟ قال صفي الله : أقسم أنه لن يرجع من هذه المعركة حياً . قال عبد الله أنس : أنت تتألّه على الله أو تعلم الغيب ؟ قال : أنا لاأعلم الغيب ولكني أقسم أنه لايرجع ، أولا ترى نور الشهادة بين عينيه ؟ أنظر إلى وجهه ، ثم أقسم ثالثة ورابعة أن أبا عاصم شهيد في هذه المعركة . وأفطر المجاهدون

جميعاً استعداداً للمعركة عدا أبي عاصم ومجاهد أفغاني آخر شاركه الشهادة بعد ساعات حينما تقدم أبو عاصم تحت النيران وزرع الألغام تحت باب القلعة وفجرها ، فانهار الباب وقسم من الجدار .. وتلقى الشـهيدان رصاصات العدو وشرف الشهادة . كان أبو عاصم قد حفظ كتاب الله في بشـاور إلا جزئين منه أتمهما في بانشير حيث أمضى عاماً كاملاً هناك .. وكان شجي التلاوة مهتماً بتعلم القراءات . ألّح عليه أهله بالزواج وكان خاطباً ، فكلم خطيبته بالهاتف وقال لها : تزوجي غيري فلا عودة إليكم ، هنا الحياة وهنا الممات . وفي « بنشير » شرع في إعداد الدورات التربوية للقادة والمجاهدين حتى باتوا يطلقون عليه « قاري سيب » أي القارىء المحترم ، ولكثرة تعلق المجاهدين به اضطر أحمد شاه مسعود أن ينقل مواقعهم بعيداً عن مكان استشهاده ثماني ساعات لينسيهم ذكريات إمامهم .. وعلى قمة جبل شامخ في « شيرا» بمديرية « اشكمش » حفر مسعود بنفسه لحد الشـهيد مع المجاهدين حيث مثواه الأخير رحمه الله . أنظر : مجلة « الجهاد » -العدد ٢٠ - صـ ٢٢ - والعدد ٢٣ - صـ ٢٩ ومجلة «البنيان » - العدد ١٧/١٦ - صـ ٣٤ .

(٣) الشهيد عبد الصمد مفتاح الجزائري : الحادي عشر من شـهداء العرب في أفغانستان . شاب في مقتبل العمر ، ترك مدرسته الثانوية والتحق بالمجاهدين وهو وحيد لأمه . سأل الدكتور عبد الله عزام : ماحكم الجهاد ؟ فأجابه فرض عين . فقال : إذاً نزول بلا رحيل ، هنا طاب المقام ، فالحياة حياتكم والممات مماتكم . شـارك في معركة « تشمكني » شمالي « خوست » أواخر ٨٥ ثم رجع إلى بشـاور وفي نيته الذهاب إلى بانشير ، لكن القدر مضى به إلى « ننجرهار » مع مجموعة من إخوانه ، وفي هجوم على ثلاثة مراكز للعدو في « شلمان » بتاريخ ٨٦/٢/١١ أصيب عبد الصمد بشظايا قذيفة هاون سقطت بين مجموعة من المجاهدين ، فاستشهد أخواه عبد الوهاب الغامدي « السعودي » و سعود البحري في نفس اللحظة وكان عبد الوهاب وعبد الصمد يرميان على « آر. بي. جي » وفي الطريق إلى بشاور حيث نُقل للعلاج أسلم عبد الصمد الروح ، وقد عرف مرافقه باستشهاده حينما شم رائحة طيبة فكشف عليه فوجده قد فارق الحياة . وفي معسكر « ورسك » شمال « بشاور » ودع المجاهدون الأفغان والعرب أخاهم عبد الصمد وكان في مقدمة مودعيه المهندس حكمتيار . أنظر : مجلة « الجهاد » - العدد ١٦ - صـ ٦ +١٠ + ١٥ ومجلة «البنيان المرصوص » - العدد ١٧/١٦ - صـ ٣٤ إضافة إلى الروايات المسجلة مع أبي الحسن المدني و شفيق أسامة في بشـاور .

(٤) يروي الأخ أبو ياسر العراقي « في حديثه المسجل بتاريخ ٢٩/ ٥/ ٩٠ في بشاور » أنه رافق - بُعيد وصوله أرض بشـاور مع بداية ٨٥ - قافلة مواد غذائية ومساعدات من خمس شاحنات ذهبت إلى «زابل» قدمها مكتب الخدمات والهلال الأحمر السعودي وبعض المحسنين ويضيف : « كانت أول تجربة من نوعها كمساعدات باسم الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان قبل حلّه ، وكانت أغلبيتها من مكتب الخدمات ومن المحسنين ، وكان الشيخ عبدالله هو الذي يشرف على انتقالها ، وكان معنا من كل تنظيم ٧ مجاهدين لحماية القافلة فكان العدد ٣٥ مجاهداً لأننا لم نأخذ إلا من خمسة تنظيمات ، أما العرب فكانوا ستة أذكر منهم الأخ سعود البحري رحمه الله وكان أميرنا في تلك المرحلة ، والأخ خالد الليبي .. وبعد يومين أمضيناهما تقريباً في الطريق وصلنا (زابل) وكانت أول مرة تدخل شاحنات كبيرة فيها بهذه الكمية إلى أفغانستان فجمعنا القادة أو مندوبيهم جميعاً في منطقة خصصناها ووزعنا عليهم كل الذخائر والمواد الغذائية والألبسة التي كانت معنا .. ثم رجعنا إلى بشاور والتقينا مع الشيخ عبد الله رحمه الله

فقال لي : هيىء نفســك لتذهب مع سعود البحري إلى (جوزجان) في قافلة مماثلة ، لكن قدّر الله وما شاء فعل حيث اتصل أحمد شاه مسعود وكان بحاجة إلى مساعدة كبيرة فأرسلني د. عبد الله إلى بانشـير أنا والأخ عبد الوهاب والأخ عمر وكلاهما عراقيان ، وكانت معنا مساعدة نقدية لمسعود ١٣ مليون روبية أفغانية تقريباً .. وبعد ١٧ يوما استغرقناها في الطريق .. تأخرنا خلالها بسبب تعرّضي لمرض شديد جداً وصلنا (بنشير) وكان هناك الشهيد محمد عثمان العراقي والأخ أبو بكر السوري ، وقام المسؤول المالي لمسعود بتوزيع هذه الأموال على المجاهدين وعلى المهاجرين وأسر الشـهداء والمعوقين » .

الأنصار العرب (١٧)

إنقلاب في خارطة التحالفات !

في منتصف مايو ١٩٨٥ أعلن رسمياً في بشاور عن إندماج « الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان » السباعي – والذي وصف طوال الفترة الماضية بالتشدد – مع الإتحاد الثلاثي الذي أطلق الغرب عليه صفة « الإعتدال » واعتبره التحالف الأول « مسجد الضرار » وصنفوه في خانة الملك .. وأتباع الغرب .

لم يكن الإعلان عن هذا الإندماج بالمفاجأة في أوساط المهتمين والمتابعين بمقدار ما كان صدمة للعرب الذين بذلوا جهداً مضنياً في صياغة إتحاد ٨٣ وللشباب العربي المجاهد على الساحة الأفغانية .. فلقد تقوّض حلم أولئك الذهبي بقيام إتحاد حقيقي بين التنظيمات والأحزاب « الأصولية » .. وتحطمت آمالهم التي علقوها على إتحاد ٨٣ الذي أتى ثمرة جهودهم ودأبهم وطول مساعيهم ؛ ولقد كان مثيراً بالفعل أن تنتهي مطالب العرب الحثيثة هذه بعد عامين من بلورتها في إتحاد ٨٣ لتلتقي – على غير موعد – بالمشروع الأمريكي الذي نشط علناً من أجل تنظيم فصائل المقاومة الأفغانية وفق ما يلائم التطورات السياسية الدولية والإقليمية المستجدة وقتذاك ! وبالطبع لم يكن هذا اللقاء مبرمجاً ولا مقصوداً – في حسابات العرب على أقل تقدير – مثلما لم يكن متطابقاً كذلك في جميع بنوده ، لكن إلحاح العرب المستمر على إلغاء الأحزاب الصغيرة للمجاهدين وعلى حل مجلس الشورى (٦٠ عضواً) أملاً منهم في تمتين أواصر الإتحاد وتسريع عملية الإندماج .. خدم إلى حد كبير رغبة الأمريكان في صياغة إتحاد جديد تجتمع فيه التنظيمات « المتشددة » و« المعتدلة » معاً تحت واجهة واحدة تكون أطوع لمسايرة مستجدات المرحلة !

لم تبدأ القصة من فراغ .. كما لم تنشأ ابنة ساعتها ، فمنذ إعلان إتحاد مايو ٨٣ ومع بدء المساعي السياسية الأمريكية – السوفييتية لإقرار حل يوافق مصلحة الدولتين تحت غطاء الأمم المتحدة وبجهودها ، أطلق ظاهر شاه أولى تصريحاته عبر صحيفة « لوموند » داعياً إلى توحيد جبهات المقاومة الأفغانية وتنظيماتها – كما مرّ معنا – ثم لم يلبث ما سُمي بالتحالف المعتدل (مجددي – محمدي – جيلاني) أن أعلن من بشاور ولأول مرة « تأييده الرسمي لجهود الملك ، وموافقته على إنشاء جبهة موحدة يقوم ظاهر شاه بالتنسيق لها في نضالها ضد الحكومة الشيوعية في كابل .. » (١) ولم يلبث قادة هذا التحالف الثلاثي أن التقوا بالملك ظاهر شاه في منفاه بروما في الشهر التالي (٢) ليعلن رئيس التحالف السباعي الأستاذ سياف في الأيام التالية عن رفضه أي عودة مطروحة للملك قائلا : « إنه حالما تطأ قدما الملك ظاهر شاه الأراضي الأفغانية فاننا سنقتله » (٣) وأضاف بأن تحالفه يريد إقامة حكومة إسلامية في أفغانستان ولن يقبل بظاهر شاه لأنه صاحب ميول غربية فرنسية ؛ وبرغم نفي ظاهر شاه بعدئذ عزمه على إعادة الملكية الى

أفغانستان [٤] إلا أن هذه التصريحات وما رافقها من تبلور أوضح لهذا التحالف الثلاثي كان سبباً كافياً لكي يدرك قادة التحالف الآخر أن اللعبة بدأت تدور عليهم .. وأن الأصدقاء الأمريكان والغربيين وأطراف بارزة في الحكومة الباكستانية تتجه لسحب البساط من تحت أرجل الجميع .. تمهيداً لمقايضة دولية بين الدولتين الكبيرتين (أمريكا وروسيا) سوف تكون الحكومة الإسلامية المنتظرة وسيكون المجاهدون الحقيقيون كبش الفداء فيها بالتأكيد ! غير أن الزعماء المتنافسين قدموا ذاتهم – وللأسف – على مصلحة الجميع ، وبادروا فأوقدوا نار الخصومة بدل أن يقدحوا نور البصيرة والتبصر .. وبرغم التصريحات المطمئنة التي أطلقها غير واحد منهم إيحاء بأن « الإتحاد » يمضي على مسيرة التحقيق الكامل إلى حد كبير ، إلا أن الحقيقة لم تكن كذلك للأسف ! ففي مجالسهم الخاصة .. وأمام المستمعين وثيقي الصلة بالساحة الأفغانية المطلعين على خفاياها كان هؤلاء ينطلقون على سجيتهم في توجيه النقد لسياسة « الإتحاد » والتشكي من سلبيات الممارسات غير العادلة التي تكرست تحت مظلته ، خاصة في موضوع توزيع الأموال والمساعدات والسلاح .. ولم يلبث الشيخ يونس خالص – الذي كان ولم يزل من أكثر الزعماء الأفغان صراحة وأقلهم اعتماداً على الأساليب الدبلوماسية في التعبير عن آرائه وقناعاته – أن أعلن في نهاية عام ٨٣ وخلال أحد المؤتمرات الإسلامية العالمية بإسلام آباد إنسحاب حزبه من التحالف ، واصفاً رئيسه سياف بأنه « محتال .. يستخدم أموال التحالف في محاربة مجموعات مقاومة أخرى داخل البلاد .. » [٥] وعندما سُئل عن هذا الإتهام بعد ذلك أصر على صحته وقال : « نعم ، أنا أتهمه وهذا صحيح ، وعندي سندات موقعة بقلمه .. » [٦] وبسؤاله عن إمكانية أن يحمل المجاهد السلاح في وجه مجاهد آخر بسبب الإنشقاقات الحاصلة بين المجاهدين أجاب : « لقد وقع هذا الأمر وحمل المجاهدون مع الأسف السلاح في وجه بعضهم ، ومؤخراً وقع خلاف ذهب ضحيته ١٢٦ مجاهداً في مقاطعة الأورغون » ! وحتى الأستاذ سياف وعلى غير عادته أشار في حوار أجرته معه مجلة « المسلم المجاهد » التي يصدرها « إتحاد الطلبة المسلمين بالباكستان إلى وجود عقبات في وجه « الإتحاد » بعد شهور قليلة من الإعلان عنه وقال : « .. إن الإتحاد قد اكتمل فعلاً ولكن تصدير هذا الإتحاد إلى الجبهات وتطبيق قراراته وتنفيذ ما قرر لأجل هذا الإتحاد يواجه بعض المشاكل وبعض العقبات .. هذه العقبات أنا ما أقدر أن أخوض في أعماقها لأن بعضها من النوعية التي لا نريد أن نتكلم عنها على مسمع من العالم ولكنها عقبات فعلاً توقف أو تبطئ عمل الإتحاد » [٧] وعلى هذه الحال مضت الأمور حتى بداية عام ٨٥ : إتهامات متواصلة ، ومنازعات تصل إلى حد الإقتتال ، ومصالحات أقرب ما تكون إلى الإستهلاك الإعلامي ، لا تؤكد أمراً كتأكيدها وجود الخلاف وحدوث الإقتتال ! [٨] ولم تلبث الأدوات الأمريكية أن أشعلت خلال هذه الفترة العصيبة فتيلاً جديداً للخلاف صعّد من حدة النزاع بين تنظيمات المقاومة على إختلافها ، ضمن خطة محكمة إنتهت بتفتيت الوضع القائم وإعادة بنائه وفق مقتضيات المرحلة الآخذة بالإتجاه نحو التسوية .. على حساب المجاهدين بالطبع ؛ فخلال الشهور التي سبقت إعلان دمج التحالفين

تدفقت عبر وسائل الإعلام الغربية موجات من التصريحات المعلنة والتقارير المتسربة تتحدث عن ضخامة الإنفاق السري الذي خصصته المخابرات المركزية الأمريكية باسم المجاهدين من جهة ، وعن ضياع نسبة كبيرة من هذا الإنفاق من جهة أخرى بسبب فساد الوسطاء أو بعض زعماء الأحزاب في بشاور .. الأمر الذي إنعكس على الأداء العسكري للمقاومة وزاد من هشاشة التمثيل السياسي للمجاهدين عبر تنظيماتهم « المتشددة » و « المعتدلة » معاً (٩) .. وهكذا غذّت أنباء هذا الدعم الكبير المزعوم للمجاهدين صفهم الداخلي بمزيد من عوامل التوتر والتشكك والإتهامات ، وضاعفت في الوقت نفسه من مخاوف الباكستانيين إلى درجة كانت كافية لتهيئة المناخ المناسب لتقبّل الطرح الجبهوي الجديد (١٠) ولقد ساهم التدخل العربي مرة أخرى – وبنية طيبة ككل مرة – في خلق مزيد من أسباب التفكك ، حينما حدثت آخر محاولة عربية للإبقاء على الإتحاد في نوفمبر ٨٤ بواسطة وفد ضم ممثلي السفارة السعودية في إسلام آباد ، وإمام الحرم المكي ، وأعضاء من قدامى الإخوان المسلمين (١١) وبعد جهد إتفقت اللجنة مع الزعماء الأربعة : سياف ، رباني ، حكمتيار ، يونس خالص على تكوين قيادة جماعية مشتركة بينهم أُطلق عليها « المجلس الأعلى للإتحاد العالمي لمجاهدي الأفغان » مهمته « دعم وتوجيه حركة المقاومة ضد الإمبريالية السوفييتية » .. وذكرت صحيفة « أخبار رابطة العالم الإسلامي » التي نقلت النبأ أن المجلس الأعلى قام « ليكون أكثر فاعلية ونفوذاً من لجنة العمل المركزية بالحلف ، ولتكون له حرية وضع خطة عمل مستقلة أثناء الطوارئ .. »(١٢) وبغض النظر عن غرابة بعض الكلمات التي وردت في النبأ مما لم تعتد التنظيمات أو الصحف الإسلامية إستخدامها كـ « الإمبريالية ، لجنة العمل المركزية ، الحلف .. » إلا أن الأمر الأغرب تجلى في مؤداه الذي كان إشتراطاً من اللجنة العربية بحل مجلس الشورى الحالي ، وفي حالة وجود خلاف بين الزعماء يُرفع إلى لجنة خاصة بذلك ، فإن استعصى على تلك اللجنة يعرض الأمر على لجنة إسلامية عليا ، يكون تشكيلها بالطبع مشابهاً لتلك اللجنة التي تقدمت بالإقتراح .. وكان واضحاً أن هذا الإتفاق سيُغضب – على الأقل – طرفين هامين على الساحة الأفغانية ، أولهما : أعضاء مجلس الشورى الذين يرون أنفسهم الجهة التي من حقها تقرير المسائل الهامة والبتّ بشأنها بما في ذلك تعديل دستور الإتحاد أو تبديل قيادته أو غير ذلك ؛ وثانيهما : رؤساء الأحزاب أو المجموعات الأخرى التي تشكل التحالف مثل نصر الله منصور ورفيع الله مؤذن وقاضي محمد أمين .. ولقد إعتبر هؤلاء أن الإتفاق الجديد قد حرمهم من الإشتراك في القيادة وقلل من أهميتهم رغم أن إنشقاقهم عن أحزابهم الأصلية كان من أجل إقامة هذا الإتحاد ! وهكذا إجتمع مجلس الشورى العالي للإتحاد بتاريخ ٨٥/٣/٢٧ وأصدر منشوراً عنه تحت رقم (١٢) أعلن فيه عدم موافقة المجلس على أي تحول عن الإتفاق على الإتحاد ، مذكراً بالعهد الذي قطعه القادة على استمراره في بيت الله الحرام ، وبالتعهدات المكتوبة بالإندماج في الإتحاد بعد حل جميع التنظيمات ، واعتبر المجلس أن إحياء هذه المنظمات مرة أخرى « خطيئة عظيمة وضرر للجهاد .. كما أن كل قرار يضر بالجهاد ومصالحه مردود ولا

يمكن القبول به .. وكل قرار لم يصدره مجلس الشورى العالي ولم يؤيده أعضاء المجلس المذكور غير قابل للموافقة ويتحمل مسؤوليته الأشخاص الذين اتخذوه .. » وطالب المجلس من جميع الدول الإسلامية سيما الباكستان الوقوف معهم والموافقة على طلباتهم منها (١٣) .. في ذلك الوقت كان الإعداد لإنقلاب تاريخي في خريطة التحالفات يتم ويكتمل ، وبدا أن الوقت قد حان لإزالة الخطوط الحمراء التي رسمتها الأحزاب « المتشددة » في علاقتها مع « المعتدلين » .. وبات ممكناً فتح صفحة جديدة بينهما وعفى الله عما مضى !

.. ففي بداية إبريل ٨٥ ذكر « ممثلو المقاومة الأفغانية في بشاور أن الكتلتين الرئيسيتين قررتا تنسيق نضالهما ضد الإحتلال السوفييتي .. » ونقلت وكالات الأنباء أن « زعماء تحالف سبعة أحزاب من الأصوليين المسلمين وتحالف ثلاث حركات معتدلة مشتركة من رجال المقاومة قد توصلوا إلى إتفاق من حيث المبدأ حول تطبيق إستراتيجية مشتركة .. » وأضافت « أن الإتفاق الذي لا ينص على أي دمج لشتى الأحزاب أبرم بين كل زعماء الأحزاب باستثناء إثنين من زعماء الأصوليين (لم تسمهما) تغيبا عن الإجتماع ، بيد أنهما سيوقعان على الإتفاق في وقت لاحق .. » (١٤) وقتذاك لم يكن من السهل على الكثيرين التسليم مرة واحدة بحدوث هذا الإعلان الإندماجي ، خاصة من الأستاذ سياف الذي ظل طوال السنوات الماضية رمزاً للأصوليين المتشددين ورمزاً للإتحاد – في نظر مؤيديه على أقل تقدير – ولم يكن ليليق به أن يترك هذه المنزلة وما حققتها له ولحزبه من سمعة وإيرادات .. وأن يفجع اللجان العربية على الأخص وأوراق إتفاقها الأخير بتأسيس « المجلس الأعلى .. » لم يجف مدادها بعد ! وبالمقابل لم يجد زعماء الأحزاب الأصولية الثلاثة الأخرى : حكمتيار ورباني وخالص فرصة أفضل من هذه يغتنمونها للتحرر من قيود الإتحاد الذي سلبهم أكثر بكثيرمما أعطاهم .. فأعلنوا خروجهم من هذا الإتحاد وانضمامهم إلى الإئتلاف الجديد مع محمدي – مجددي – جيلاني بعد أن وجهوا كلاماً قاسياً لسياف وأعلنوا « أن الإتحاد أصبح بسلبياته وتجاوزاته عقبة في طريق العمل العسكري » (١٥) ولما وجدت المنظمات الثلاث الصغيرة المتبقية أن فرص الإختيار أمامهم باتت ضئيلة ومحدودة – وهم الذين تخلوا عن أحزابهم الأصلية تأييداً للإتحاد – أعلنوا إنتخاب الأستاذ سياف رئيساً لمدة عامين جديدين إعتباراً من ٢٨ إبريل ، مؤكدين بأن الإتحاد لا يزال يمثل الشرعية (١٦) .. فيما شنّ نصر الله منصور – أقوى الثلاثة وقتذاك – حملة عنيفة على الإئتلاف الجديد واعتبره « أطروحة تخريبية للجهاد لا نستطيع أن نوافق عليها .. » (١٧) واتهم منصور الزعماء بنقض الإتفاق الذي أقسموا عليه في الكعبة ، وأدان أمريكا بأنها تحاول تخريب الجهاد الأفغاني ، طالباً من باكستان التوقف عن دعم هذه المحاولة وأن تستمر في تأييد الإتحاد السابق ؛ ولقد أشارت هيئة الإذاعة البريطانية وقتذاك إلى بصمات أمريكا في تشكيل هذا الإئتلاف ، وقالت على لسان مندوبها في إسلام آباد « اليكس برودي » : « إن المحرك الأصلي لهذا الإتحاد الجديد يجيئ من الدول التي تؤيد المجاهدين الأفغان بالإضافة إلى ضيق المجاهدين من إستمرار الخلافات منذ زمن طويل » وأضاف : « .. ووفقاً للوعود التي صدرت من الكونغرس بدعم

المجاهدين سراً ، تقول بعض وكالات الأنباء أن أمريكا قد حثت المجاهدين على الإتحاد لكي تسهل وصول المساعدات إليهم من خلال جبهة سياسية أفغانية متحدة » لكن مندوب الـ « بي . بي . سي » قالها بصراحة : « .. وهذا الإتحاد لا يستطيع أن يزيل الخلافات بين الأحزاب لأنه جاء تحت ضغط الإجبار والإكراه » (١٨) وفي إشارة مماثلة تغلفها الديبلوماسية المحترفة .. ذكرت وكالة الإعلام الأمريكية في نشرتها العربية : « أن فئات مساندة من داخل البلاد وخارجها مارست ضغطاً لتشكيل الإئتلاف الجديد وكذلك من الأحزاب نفسها .. » (١٩) ولقد كان أمراً عجباً أن يستعرض مندوب هيئة الإذاعة البريطانية الأحزاب والشخصيات التي سيشملها هذا الإتحاد فيذكر إسم « حزب عبد الرسول سياف » بينها ولما يمض على تجديد انتخابه رئيساً للإتحاد السابق أسبوع واحد ! لكن .. وبالفعل لم يكتمل الأسبوع التالي و « بعد عدة إجتماعات حاسمة في إسلام آباد وافق الأستاذ سياف على الإنضمام إلى ركب الائتلاف الذي ضغطت الحكومة الباكستانية من أجل إتمامه » (٢٠) وفي السادس عشر من مايو ٨٥ أعلن الشيخ يونس خالص في مؤتمر صحفي بنفسه إندماج الإتحاد السباعي مع الآخر الثلاثي في ائتلاف إحتفظ بنفس التسمية السابقة « الإتحاد الإسلامي لمجاهدي أفغانستان » وذلك « خروجاً من الورطة الفقهية وهي القسم في الكعبة والذي أداه الزعماء الأفغان على عدم حل الإتحاد .. » (٢١) وتقرر أيضاً « تشكيل مجلس الشورى المكوّن من أعضاء الأحزاب المشتركة في الإتحاد ، وأن يستمر رؤساء الأحزاب في إدارة الأمور المستجدة إلى أن يتم وضع الدستور الذي يسير عليه الإتحاد .. » (٢٢) ووقتذاك توقعت صحيفة « هيرالد تريبيون » أن تقدم المملكة العربية السعودية لفصائل الثوار مجتمعة وبصورة غير رسمية ما يزيد عن ٤٠٠ مليون دولار كمساعدات عسكرية هذا العام .. » (٢٣) وبات واضحاً أن ذلك يعني حل مجلس الشورى السابق ، والتوقف عن برنامج دمج الأحزاب ، والعودة الى صيغة العمل المستقل تنظيمياً أو حزبياً ، مع إستبعاد المنظمات التي تشكلت بالإنفصال عن أحد الأحزاب الرئيسية الكبيرة ، وإلغاء منصب رئيس الإتحاد ، والإستعاضة عنه بناطق رسمي من قادة الأحزاب التي دخلت الائتلاف يتم التعاقب على منصبه دورياً كل ثلاثة أشهر .. وأصبح جلياً للمراقبين أن أصحاب الطرح « المتشدد » قد أخلوا المكان عملياً ليتقدم إليه « المعتدلون » وقد كانوا حتى الأمس القريب « مسجداً للضرار .. وأذناً للغرب .. وأنصاراً مُدانين لظاهر شاه .. » في نظر هؤلاء « المتشددين » وتصريحاتهم على الأخص ! وكان أكثر ما يمكن الإحساس به وقتذاك أن العرب على الساحة الأفغانية قد تلقوا طعنة مؤلمة عصفت بمساعيهم الحثيثة .. وآمالهم المستبشرة .. ورؤاهم المفرطة في التفاؤل .. ولذلك لم يتردد واحد من أصحاب الجهد المباشر والتواجد الميداني على الساحة – هو الأخ أبو الحسن المدني – في أن يصف هذا الإئتلاف بأنه « إجهاض للجهاد وهدم له » وقال : « فوجئنا بحل الإتحاد ، فقد كان هزة عنيفة للأفغان ولكل من أحب هذا الجهاد وخاصة الذين كانوا يعيشون على الساحة هنا ، وكنا لا ، وكنا لا نتعدى بأن نقول أن هذا الإئتلاف صنيعة أمريكية جاءت لهدم الجهاد وإجهاضه .. » (٢٤) .

هوامش

(١) صحيفة « الوحدة » نقلاً عن وكالة الصحافة الفرنسية « ا . ف . ب » بتاريخ ٨٣/٧/٢٢

(٢) صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٣/٨/١٩ عن « ي . ب » من روما نقلاً عن « ياسين همايون - زعيم أفغاني معارض » في مقابلة مع وكالة الأنباء الإيطالية . أنظر أيضاً رواية د. ذبيح الله المجددي (في حديثه لي) خلال الفصول السابقة .

(٣) صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٣/٨/٢٢ عن « رويتر » من إسلام آباد .

(٤) صحيفة « الفجر » بتاريخ ٨٣/٩/٢٧ عن « و . ا . خ » من روما .

(٥) صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٣/١٢/١١ عن «رويتر » .

(٦) مجلة « المجلة » - العدد ٢١٠ - بتاريخ ٨٤/٢/٢٤ - صـ٣٤

(٧) مجلة « المسلم المجاهد » - العدد الثاني - السنة الأولى - أواخر عام ٨٣ (حيث لم تسجل المجلة تاريخاً محدداً لإصدارها) - صـ٢١

(٨) في شهر أغسطس ٨٤ أعلن « الحزب الإسلامي » الذي يرأسه المهندس حكمتيار و « الجمعية » برئاسة رباني عن مصالحة بينهما ، وناشد الزعيمان من بشاور مقاتلي كل تنظيم « القتال جنباً إلى جنب .. وتضافر الجهود ضد العدو السوفييتي .. » أنظر : صحيفة « الإتحاد » - بتاريخ ٨٤/٨/٢٨ نقلاً عن « ا . ف . ب » .

(٩) في تلك الفترة قدّر « صندوق التعليم الأمريكي الأفغاني » بأن وكالة المخابرات الأمريكية أنفقت ٣٢٥ مليون دولار باسم الثوار الأفغان خلال السنوات الأربع والنصف الماضية (صحيفة « البيان » - ٨٤/٨/١١) فيما قدرها « درو ميدلتون » المراسل العسكري لصحيفة « نيو يورك تايمز » بحوالي ٣٤٥ مليون دولار إضافة إلى ١٠٠ مليون أخرى ساهمت بها دول الخليج (صحيفة « الخليج » - ٨٤/١٢/٢٣) ومن جهتها قدرت صحيفة « نيو يورك تايمز » نقلاً عن مصادر حكومية أمريكية أن هذه المساعدات منذ الغزو السوفييتي عام ٧٩ قد بلغت ٦٣٥ مليون دولار ، وأضافت بأن الولايات المتحدة ستخصص ٢٨٠ مليوناً لعام ٨٥ (صحيفة « الإتحاد » - ٨٤/١١/٣٠) وتحدثت مصادر عديده عن موافقة الكونغرس الأمريكي على تخصيص ٢٨٠ مليون دولار للمجاهدين في عام ١٩٨٥ تمثل ٨٠٪ من الميزانية السنويةللعمليات السرية المساندة التي تقدمها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إضافة إلى

٢٠٠ مليون دولار من ثلاث دول من الشرق الأوسط وآسيا (صحيفة « الإتحاد » - ٨٥/١/١٤ نقلاً عن صحيفة « واشنطن بوست » الأمريكية) وفيما تنقل وكالة « ا . ف . ب » عن « لاجئ أفغاني أقام في بشاور منذ ديسمبر ٧٩ » قوله بأن « أكثر من نصف الأسلحة التي ترد من الخارج من أجل رجال المقاومة الأفغان لا تصل إلى هدفها » (صحيفة « الخليج » - ٨٤/٩/١٦) نقلت « كونا » عن « خبراء في واشنطن » قولهم : « إن الكونغرس الأمريكي وافق في العام الماضي على مساعدة سرية للثوار الأفغان بلغت ٢٨٠ مليون دولار لم يصل منها سوى حوالي ٢٠٪ » (صحيفة « الخليج » - ٨٥/١/١٦) وكان قد سبق لصحيفة « نيو يورك تايمز » أن نقلت عن مصادر وثيقة الصلة بأجهزة المخابرات الأمريكية أن نسبة تتراوح بين ١٥ و ٤٠٪ من المساعدات يتم اختلاسها من جانب المنفيين الأفغان والباكستانيين المكلفين بتوزيع الأسلحة .. (صحيفة « الإتحاد » - ٨٤/١١٣٠) .

(١٠) في تصريح للمهندس حكمتيار وقتذاك أعرب عن إعتقاده بأن التركيز الإعلامي على المساعدات العسكرية الأمريكية لرجال المقاومة يستهدف تصعيد العدوان ضد الشعب الأفغاني وتهديد أمن باكستان . (صحيفة « الإتحاد » - ٨٥/٦/٩ عن « ق . ن . ا » من لندن) ولقد أشارت إلى ذلك صحيفة « واشنطن بوست » فقالت : « إن مضاعفة حجم المساعدة الأمريكية المقدمة للثوار والتوصل لقرار يقضي بتقديم دعم فعال أكثر للمقاومة الأفغانية بناء على طلب من الكونغرس ، كل ذلك جعل باكستان لا تشعر بالراحة لدورها كطريق بري لإمداد الثوار الأفغان بالمساعدات .. (صحيفة « الأنباء » - ٨٥/٤/٢) .

(١١) عن تقرير خاص كتبه « مصطفى حامد » مراسل صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٥/٤/٨ وجرى توزيعه على عدد من المهتمين والمراقبين .

(١٢) صحيفة « أخبار العالم الإسلامي » - ٨٥/١/٢٨ وقد نقلت مجلة « الأخبار » الصادرة عن «الإتحاد العالمي للمنظمات الطلابية » نص الخبر بحرفيته في العدد ١٩/١١ بتاريخ ٨٥/٢/١٨ وفي نفس هذه الفترة سجلت مجلة « الأخبار » ما يمكن اعتباره آخر تصور لقناعات « الإخوان المسلمين » وموقفهم من أفغانستان وكتبت بتاريخ ٨٥/٢/٤ تحت عنوان « الموقف في أفغانستان » تؤكد « أن حركة المقاومة الأفغانية لم تكن متحدة منذ نشأتها وإنما كانت عدة فصائل تتفاوت في فهمها للإسلام ، كما يتفاوت قادتها في مدى ابتعادهم عن تأثير الدول المختلفة .. » ولذلك « تجمعت الفصائل الملتزمة بالخط الجهادي والبعيدة في أصل منشئها وتحركها عن هيمنة الدول المختلفة ، تجمعت في الإتحاد الإسلامي الذي يرأسه المجاهد عبد رب الرسول سياف ، وقد كان للإخوان دور بارز في جمع كلمة المجاهدين في ذلك الإتحاد » لكن كاتب المقال أعرب عن ألم كاتبه من « أن نلاحظ بأن الفرقة قد عادت تظهر بين فصائل الحركات الإسلامية التي تألف منها الإتحاد ، إلى الحد الذي وقعت معه بعض المواجهات وسقط

عدد من الضحايا ، كما أن بعض قادة المجاهدين هناك قد قادهم اجتهادهم الفردي وحبهم للظهور إلى الإستهانة بأهمية الوحدة ، وسلوك سبيل الفرقة ، وإثارة الإتهامات على إخوانه ، وهو أمر مؤسف ولا يخدم إلا أعداء الإسلام .. » ومع ذلك ، ومن غير ما دلالة على وجود شكل من أشكال المعالجة الواعية لأسباب ما جرى ، أو إشارة لدور جماعة الإخوان والجهات الإسلامية التي شاركتها في صياغة هذه الإتحادات وصناعة هذه الزعامات وتضخمها .. وعلى منهج دفن الرأس في الرمال !! « فإن جماعة الإخوان المسلمين ترى ضرورة الإستمرار في دعم المجاهدين مادياً ومعنوياً ، وعدم التركيز على خلافاتهم سيما في أوساط عامة المسلمين ، لما يحدثه ذلك من زرع لليأس وتثبيط للجهود .. وفي ذات الوقت فإن الجماعة تعمل ما وسعها الجهد للمحافظة على وحدة إخواننا في أفغانستان وإعانتهم للمحافظة على استمرار الخط الجهادي واستقلالية قرار المجاهدين .. » وزيادة في تعمية الموقف وتوجيه القراء إلى غير الوجهة الموصلة نحو حقيقة الزعامات وحقيقة الإتحادات الفاشلة باستمرار .. تقرر المجلة في الختام « أن المجاهدين يحتاجون إلى الدعم المادي لشراء السلاح والإنفاق على المشردين والمصابين ، وكذلك يحتاجون خبرات فنية في ميادين مختلفة .. » أموال بلا مساءلة ، وتبعية في مواقع محدودة الفاعلية والتأثير .. « وليسوا بحاجة إلى أعداد بشرية عادية ، وإن بإمكان أي أخ يرغب في تقديم العون في مثل هذه الميادين أن يوصل ذلك بالطرق التنظيمية المعروفة ، ولا يجوز .. » وهنا مربط الفرس « .. لا يجوز لأي أخ أن يتصرف باجتهادات فردية ، ولقد ذهب بعض الأفراد إلى هناك باجتهاداتهم الفردية فأصبحوا عالة على المجاهدين » أو قل – إذا شئت الحقيقة – إطلعوا على حالة المجاهدين ، وعرفوا الغث في الساحة من السمين !

(١٣) عن نسخة من البيان المذكور بدون تاريخ محدد .

(١٤) صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٥/٤/٣ عن « ا . ف . ب » إسلام آباد .

(١٥) صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٥/٥/١

(١٦) صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٥/٥/١ ومجلة « الدعوة » – « النمسا » نقلاً عن « و . ا . س » – مايو / ٨٥

(١٧) هيئة الإذاعة البريطانية مساء الخامس من إبريل /٨٥ نقلاً عن مؤتمر صحفي عقده نصر الله منصور في بشاور .

(١٨) المصدر السابق .

(١٩) وكالة الإعلام الأمريكية بتاريخ ٨٥/١٢/٢١ تحت عنوان « أفغانستان : ست سنوات من الإحتلال السوفييتي » وهو تقرير أعده « كريغ كارب » الخبير بشؤون أفغانستان بمساعدة من الخبراء الآخرين

في مكتب المخابرات والبحوث ومسؤولي وزارة الخارجية الأمريكية .

(٢٠) صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٥/٦/١٦ تحت عنوان « لوغاريتم السياسة الأفغانية » لمراسلها في بشاور « مصطفى حامد » .

(٢١) المصدر السابق .

(٢٢) مجلة « الإصلاح » – العدد ٩٠ – ذو القعدة ١٤٠٥ – أغسطس ٨٥ – صـ٣٦

(٢٣) صحيفة « البيان » بتاريخ ٨٥/٦/٣ – مقال مترجم عن صحيفة « هيرالد تريبيون » .

(٢٤) كل ذلك لم يحل دون أن تجسد مجلة « الإعتصام » في عددها الأول – رمضان وشوال ١٤٠٥ – يونيو ويوليو ٨٥ – السنة ٤٧ – صـ٣٤ حالة السطحية في الفهم والعاطفية في التقييم وفي التلقي .. السائدة لدى أغلب القطاعات المتعاطفة مع الجهاد الأفغاني .. فقالت : « لقد حاول النظام العميل في أفغانستان .. أن يوقع بين فصائل المقاومة الأفغانية وقيادة المجاهدين .. مما أشاع بعض البلبلة في صفوفهم .. ويشاء الله عز وجل وسط هذه البلبلة أن يحفظ المجاهدين بعنايته ، وأن يوحد صفوفهم ، وأن يلم شعثهم ، وأن يجمعهم على قلب رجل واحد .. » كيف .. ومتى .. وأين ؟! « .. وكانت كل قيادات فصائل المقاومة الأفغانية قد أجمعت على مبايعة البطل المجاهد الأخ عبد رب الرسول سياف أميراً للمجاهدين ، وقائداً للمقاومة ، وزعيماً مفوضاً في كل تحركاته السياسية والعسكرية .. فهنيئاً لهؤلاء المجاهدين بثباتهم وقوة وحدتهم ، وهنيئاً لهم بتماسكهم والتفافهم حول عقيدتهم ، وهنيئاً لهم بأميرهم وقائد مسيرتهم ..» !!

الأنصار العرب (١٨)

الترحيل

لم يكن حل « الإتحاد » هزة عنيفة لطموحات الذين أحبوا الجهاد وانتكاسة بآمالهم الورديـة وحسب ، وإنما انعكس بسلبيته على أحوال الجبهات إبتداء ، وزاد من تعثر قنوات الإمداد التي باتت عيون الإستقبال فيها أكثر تنافراً فيما بينها ، بينما اختنقت منافذ العطاء المنتظر وحل الجدب على الناحية الأخرى حيث تنتظر جبهات القتال ! يقول الدكتور عبد الله رحمه الله : « بحل الإتحاد في الشهر الخامس تقريباً من عام ٨٥ حدثت مشكلة دفع أجرة السلاح والذخيرة إلى الداخل ، لأن الإتحاد كان قائما بهذه المهمة من قبل ، ومضى شهر مايو ويونيو وأغسطس – وهذه أهم فترات الجهاد – والمجاهدون في معسكراتهم الشتوية ببشاور ينتظرون .. فسألتهم : ما بالكم ؟ قالوا : ليس معنا كراية لنقل أسلحتنا وأمتعتنا وذخائرنا .. » ويعود أبو عبد الله « أسامة بن لادن » بذاكرته إلى تلك الأيام فيقول : « في ذلك الوقت كان المجاهدون يشكون من تكدس أسلحتهم على الحدود قبل عدة شهور ، بل كان بعضها مكدساً من العام الماضي ولا يجدون قيمة كراية لإدخاله .. كان السلاح يأتي كمساعدة من الحكومة الباكستانية فيُسلم للمجاهدين على الحدود ، ليتولوا مسؤولية إدخاله بعد ذلك بأنفسهم .. وكانت لجنة الإغاثة السعودية التي كان مسؤولها الأخ صالح الضيف وقتذاك تقوم بدفع مساعدات عينية للمجاهدين إضافة للمساعدات المالية ، فاتضح لهم أن بعض هذه المساعدات كالتمور والملابس يباع في الأسواق ، وهذا أمر سيء لا يرضى به أحد ، إلا أن الناس يغفلون أحيانا عن طبيعة البشر ، فلقد إجتمع ٢٠ مليوناً من الأفغان بما فيهم البر والفاجر ، والمؤمن والمنافق ، والكاذب والمدعي وضعيف النفس ، فبعض ضعاف النفوس أخذوا هذه المعونات وباعوها في بشاور ، والكثرة من الصادقين بفضل الله أخذوها ودخلوا بها ، لكن الحادثة سببت رد فعل لدى مسؤول اللجنة ، وأحدثت نوعاً من الفتور في دعم المجاهدين ، فاهتزت الثقة بين اللجنة وقيادات المجاهدين وما عادوا يسلموا لا عيني ولا نقدي ، فتوقفت كثير من الأموال في تلك الفترة التي كان المجاهدون يشكون فيها من تكدس الأسلحة .. فأذكر من فضل الله سبحانه وتعالى عليّ ومن باب التحديث بالنعمة أنه سبحانه هداني لحل كان محل رضا الجميع ؛ كان الشيخ رباني قد جاء لزيارتي جزاه الله الخير مع الشيخ سيد نورالله عماد ، وأثناء الحديث جاءتني الفكرة فقلت لهما : نحن نرسل إلى معسكراتكم الرئيسية على الحدود حيث تدخل القوافل بالسلاح ثلاثة من إخواننا في كل مكان كمراقبين ، ليوثّقوا دخول السلاح وعدد الخيول والبغال والجمال التي تحمل السلاح ، ويكونون في حماية المجاهدين بإذن الله سبحانه وتعالى ، فقالا : ما عندنا مانع .. تفاهمنا أيضا مع اللجنة وتم الإتفاق على أن يكون الأخ أبو الحسن مسؤولاً عن ذلك العمل .. » . ومن جانبه يقول د. عبد الله عزام عن بداية المشروع : « ذهبت إلى رئيس لجنة الإغاثة الأخ صالح الضيف وقلت له : إن السلاح

مكدس على الحدود ينتظر منافقاً يطلق عليه طلقة فينفجر ، وكان قد حدث في شهر مايو على ما أظن أنْ جاء أحد المنافقين إلى مخزن من مخازن السلاح للشيخ رباني في « تري منجل » وأطلق طلقة من النار فتفجر المخزن وأحرق القرية بكاملها ، وذهب ما لا يقل عن ٢٠ مليون دولار من الأسلحة بهذه الطلقة [١] وسألت الأخ صالح : هذه الأموال التي بين أيديكم أموال الزكاة وأموال الجهاد فهل لكم أن تدفعوها لكراية هذا السلاح المكدس ؟ قال : ومن يضمن لي أن تُنْفَق الأموال في هذا الباب ؟ أجبته : أنا بإذن الله أضمن ذلك ، عندنا الشباب العرب الذين جاءوا للموت في سبيل الله ، هؤلاء مستعدون أن يُشرفوا على ترحيل الذخائر والسلاح ، فقال الشيخ صالح الضيف : دعنا نفكر ثلاثة أيام .. رجعت إليه بعد انقضائها وضمّنا اجتماع حضره السفير السعودي توفيق خالد علمدار ، وأبو مازن مسؤول مكتب أفغانستان في السفارة ، وصالح الضيف ، وحضر معنا أبو الحسن المدني ، وعدت فطرحت الموضوع مرة أخرى ، فاتفق الجميع على أنه لا بد للجنة الإغاثة السعودية أن تدعم هذا المشروع ، فقلت لهم : هذا ابنكم وائل جليدان معروف لديكم ، تعرفون أهله وهو شاب موثوق يكون صلة الوصل بين مكتب الخدمات ولجنة الإغاثة السعودية وهو المسؤول عن الترحيل فيه ، فأصغى القوم وسروا بذلك ، وبدأ وائل عملية الإشراف على الترحيل » ..

.. يقول أبو الحسن : « في شهر يوليو ٨٥ بدأنا عملية الكراية والترحيل ، و كان لنا في أول الأمر موقعان أساسيان وموقعان فرعيان :الأساسيان في (ميران شاه) و (تري منجل) والفرعيان في (طورخام – لاندي كوتل) وفي (وانا – أعظم ورسك) وبعد ذلك أصبحت كل المواقع بالنسبة لنا أساسية ، وأصبحت لنا لجنة دائمة مستقرة في (شترال) ولجنة في (طور خام) و (باجاور) ولجنة في (تري منجل) ولجنة في (ميران شاه) وفي (وانا – أعظم ورسك) ولجنة في (تشمكني) و (بادني) و (جردي جنكل) و (رباط) ؛ غطينا حوالي ١٠ مناطق حدودية والحمد لله ، ولم يمض علينا الخريف إلا وأدخلنا كل القوافل التي كانت موجودة على الحدود ، ولله الحمد وبشهادة حكمتيار قال : كان يوجد لدي عادة في فصل الشتاء بين ٢٢ إلى ٢٦ ألف مجاهد سنويا في (ورسك) .. وهذا عبء كبير يتحمل من أجله أمور كثيرة جداً .. بفضل الله ثم بفضل التسهيلات الموجودة في الترحيل دخل في تلك السنة ١٨٠ ألف مجاهد من معسكر واحد فقط هو معسكر (ورسك) .. وبشهادة سيد نور الله عماد نائب الشيخ رباني كان يعسكر في معسكر خالد بن الوليد في الشتاء ما لا يقل عن ١٢ – ١٥ ألف مجاهد ، لم يبق منهم إلا أربعة آلاف ، وهكذا قِسْ على بقية المعسكرات [٢] .. » ويضيف أبو الحسن : « .. ولقد صرفنا خلال الشهرين الأولين حوالي ٣٠ مليون روبية ، ثم ومن شهر ٩ وحتى شهر ١٢ أو بداية يناير صرفنا ٤٠ مليون روبية باكستانية في هذا المجال » وبدوره يقدم د. عبد الله رحمه الله من ذاكرته إحصاء إجمالياً عن نفقات قسم الترحيل فيقول : « حتى بداية عام ٨٩ كان وزن السلاح والمؤن التي أدخلناها ١٣,٥ مليون طن ، دفعت أجرة كرايتها ٣٥٤ مليون روبية أي حوالي

١٨ مليون دولار ، قدمت لجنة الإغاثة السعودية منها حوالي ٣٠٠ مليون روبية ، والباقي من المحسنين عن طريق مكتب الخدمات ، وإضافة لذلك إستلم أبو الحسن قسم تجهيز القوافل لأن لجنة الإغاثة التزمت بأجرة الكراية فقط ، أما شراء الطعام والأبواق للجبهات واحتياجات المجاهدين على الطريق فكان المكتب يقوم بهذا من ميزانيته ، وحتى بداية عام ٨٩ دفعنا لذلك ٢٤٦ مليون روبية [٣] أي ما يعادل ١٤ مليون دولار كلها من أموال المحسنين .. فلقد وثق الناس بالأخ أبي الحسن ، وصار تجار السعودية خاصة يدفعون إليه أموالهم لما وجدوا أنها تصرف بأحسن وجه .. » .

كان الإشراف على الترحيل – إذاً – من أبرز الإنجازات المبكرة التي حققها الوجود العربي على الساحة الأفغانية وفي مصلحة الجهاد ، ولعل هذا الإنجاز كان أنجح ما قدمه هذا النفر المؤمن من شباب العرب المجاهدين وقتذاك ، وكان عجباً أن غالبية من شارك في هذا الإنجاز العظيم لم يتعدوا عقدهم الثاني من الحياة .. ولقد رأى أبو عبد الله « أسامة بن لادن » في هذه الملاحظة عبرة توقف عندها .. وقال : « كان الترحيل من أهم أدوار المكتب ومن أهم الأعمال قاطبة بالنسبة لدور العرب في داخل أفغانستان ، والتي قامت – وهنا أسجل عبرة – على الشباب الصغار ، فهؤلاء الشباب – يشهد الله – كانوا طلاباً في الثانوية وبعضهم لم تنبت لحيته بعد ، لكن بعض الإخوة هنا لامهم وأسمعهم الكلام : كيف تأتون بأولاد غداً يبكون ويصيحون ؟ أما لقيتم إلا هؤلاء ؟! وتمر الأيام وإذا بالأخ الذي قال هذ ا الكلام قد ضعف وترك ساحة الجهاد وهو رجل في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً .. نرجو الله أن يغفر لنا وله وأن يثبتنا وإياه ، وإلى اليوم ما زال هؤلاء الشباب موجودين في ساحة الجهاد ، منهم من قضى نحبه ومنهم من ثبته الله وهو جالس معنا الآن .. » ويضيف أبو عبد الله : « .. وثمة أمر آخر جدير بالتوقف وهو أنهم شباب من عامة المسلمين ، فكثير من الناس يظنون أنه لا يمكن للعمل الإسلامي أن يقوم إلا بشباب درس الأمور الفقهية جيداً وتربى عشرات السنين على هذا الدين وعلى هذه الدعوة ويُزَهِدون في عامة المسلمين ، والواقع أن معظم هذا العمل الذي رأيتم وترون قام بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بفضل عامة المسلمين ، وأنا أحب أن أذكر هذا حتى لا يُهمَل سواد الأمة ، ففيهم خير عظيم ومعادن أصيلة .. » .

هوامش

(١) في نوفمبر من عام ٨٥ أعلن راديو كابل أن حريقاً دمّر مخزوناً كبيراً للأخشاب في بلدة « تري منجل » الواقعة على الحدود الباكستانية ، وأضاف بأن الحريق قد أدى إلى إنفجار ١٢ مخزناً تضم نحو ١٢ ألف قطعة سلاح ، وقد ألقى الراديو بمسؤولية نشوب الحريق على المجاهدين الأفغان ! . أنظر : صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٥/١٢/١

(٢) ذكر الدكتور عبد الله عزام أن القسم أشرف على ترحيل عشرين ألفاً ومائة وثلاثين قافلة . أنظر : « لهيب المعركة » – العدد ٣١ – ١٥ جمادى الأولى ١٤٠٩ – ٢٤ ديسمبر ١٩٨٨

(٣) في مجلة « الجهاد » – العدد ٥٣ – شعبان ١٤٠٩ – مارس/إبريل ٨٩ – صـ٥٢ – وضمن سلسلة مقالات مختصرة تعرّف بمكتب الخدمات ذكر أن المكتب دعم جبهات القتال عينياً ونقدياً بحوالي ٢٤٧ مليون روبية .

الأنصار العرب (١٩)

فرسان الترحيل

في أوائل شهر رمضان عام ١٤٠٥ كانت أول زيارة لشفيق رحمه الله إلى أرض الجهاد بأفغانستان ، وبعد أن أمضى أكثر من عشرة أيام في بيت الخدمات ببشاور مضى إلى « جاجي » حيث أقام الأستاذ سياف معسكراً منح الضيوف العرب فيه خيمتين اثنتين .. وفي أواخر أيام العيد وصلت مخابرة لاسلكية إلى « جاجي » تفيد بأن والد شفيق قد وصل بشاور .. فمضى إلى الشيخ عبد الله عزام يستفتيه .. واستأذن لإجابة والده .. والتقاه بالفعل في بشاور حيث أمضى معه أسبوعين في مكتب الخدمات ، كلمه خلالهما كثيراً .. وشرح له الوضع .. ورأى أن يذهب برفقته إلى المملكة ليُطمئن الأهل ويعود من جديد . وبالفعل وبعد أربعة أشهر فقط حزم شفيق حقائب الترحال من جديد وعاد إلى بشاور وقد سبقه إليهاأخواه في الله: أمين وأسامة « أزمراي » في بدايات ذي القعدة من العام الذي مضى .. يقول أمين (١) : « بدأ تفكيري بالجهاد الأفغاني أواخر عام ١٤٠٤ وبداية عام ١٤٠٥ هـ. بواسطة بعض الإخوة جزاهم الله خيراً ممن سبق وجاءوا إلى هذه المنطقة .. ومن بينهم كان أبو عبد الله جزاه الله خيراً فكان يُعَرّفنا على قضايا الجهاد ومشاكله واحتياجاته ، الوضع العسكري والوضع السياسي ، في داخل الجبهات وفي الخارج في بشاور .. وفي عام ١٤٠٥ عندما شكلوا مكتب الخدمات وكان الإتحاد قائماً بإمرة الشيخ سياف ، رأى أبو عبد الله أن الوضع ملائم جداً لقدوم الإخوة القريبين منه وقال: إن الذهاب إلى هناك ضروري للجهاد، وهناك عمل نستطيع أن نقدم من خلاله شيئاً للقضية الأفغانية وللمجاهدين ، لنا أولاً كأجر ، وإنهاء للمسؤولية التي على عاتقنا ، ثم لتقديم القدر المستطاع للمجاهدين » ويضيف أمين : « في ٦ ذي القعدة تقريباً من عام ١٤٠٥ هـ. وصلت أنا والأخ أبو عبد الله والأخ أسامة على طائرة واحدة ، وكان مجيؤنا بعد تعب وبعض المشاكل ، لكن الله عز وجل قدر وفرج الأمر بصعوبة بالغة في الأخير ..» ويمضي أمين يحدثني عن يوميات وصوله الأولى وأسامة وشفيق رحمه الله يشاركان في استرجاع الأحداث وتصحيح ما قد يفر من سجل الذكريات ويقول : « نزلنا إسلام أباد ومنها إلى بشاور مع أبي عبد الله . كان أبو الحسن المدني ينتظرنا في المطار ، وفي مكتب الخدمات نزلنا أيامنا الأولى وكنا ككل أخ عربي متحمسين نريد أن ندخل الجبهة بأسرع وقت .. وفي المكتب كان الموجودون كثر والحمد لله ، فالموسم هو الصيف ، ولم نلبث أن أُرسلنا إلى (جاجي) في أول زيارة لنا لأرض أفغانستان ، وهناك في معسكر الشيخ سياف أمضينا ثلاثة أو أربعة أيام مع أبي النور ، عدنا بعدها بشاور لنذهب من هناك إلى دورة كانت ستبدأ في معسكر سلمان الفارسي ، بينما أرسل أبو الحسن يطلب أبا النور ثانية إلى (جاجي) ومضينا نحن إلى سلمان الفارسي برفقة تشكيلة كبيرة من الإخوة الجدد ، حوالي ٢٠ – ٢٥ أخاً من شتى المناطق .. حتى كان بعضنا من جنوب إفريقيا ! » ويضيف أمين : « في

معسكر سلمان الفارسي بدأنا التدريب . كان أمير العرب أخ من مكة لقبه الخياط ، وكان المدرب من الأفغان ، ولم نكد نتدرب على (الكلاشينكوف) و (الماركول) و (البرنو) [٢] وبداية (الجرينوف) [٣] حتى جاءنا قريب عصر اليوم الثالث سيارة برسالة من أبي الحسن المدني تقول : الأخ أمين والأخ أسامة ضروري أن يرجعا مباشرة إلى بشاور ، وهناك وجدنا أبا الحسن ينتظرنا، قال : لدينا بعض الأعمال .. ترحيل بعض القوافل .. ولأننا نثق ببعضنا ونعرف بعضنا من زمن فسنبدأ هذا العمل سوياً ، وفي الصباح تحركنا مع بعض الأفغان إلى منطقة حدودية مع (كونر) إسمها (غنم شاه) أمضينا فيها يومين وليلة أشرفنا خلالها على الترحيل ، ولما عدنا إلى بشاور وجدنا أن العودة إلى دورة سلمان الفارسي صعبة ، لأنهم قطعوا أشواطاً عنا في التدريب ، وكنا أثناء قدومنا من السعودية قد اتفقنا ونحن في الطائرة أن نذهب نحن الأربعة : أبو عبد الله، وأنا ، والأخ أسامة ، وأخ معنا إسمه أحمد حسين (أبو حفص) من المدينة أيضاً .. نذهب إلى (بانشير) فوقتذاك كان إسم أحمد شاه مسعود قد اشتهر وخاصة عند الغرب ، فأحببنا أن نتأكد من شخصية الرجل ، وهل هو – كما يدعي الغربيون – موال لهم أم أنه قائد إسلامي بحق ، لكن أبا عبد الله قوبل هنا في بشاور بمعارضة بعض المشايخ .. قالوا له: لا تذهب فأنت هنا تفيد أكثر .. وهكذا تأجل سفر (بانشير) أيضاً ، فاضطررنا للبقاء في بشاور .. » ويتابع أمين : « .. ووقتذاك أتى أبو الحسن وقال لنا: ما رأيكم لو تذهبوا إلى (بدخشان) فتكونوا أول قافلة عربية تصلوا هناك ، وقال إن أميرها (آريان بور) شخصية ممتازة جداً فما رأيكم ؟ قلنا : ممتاز .. موافقين ، خاصة وأن الرجوع من هذه الرحلة صعب قبل سبعة أو ثمانية أشهر على الأقل ، وبالفعل جهزنا كل شيء تقريباً واستعدينا نحن الثلاثة : أنا وأسامة وأحمد حسين ولم يعد ينقصنا إلا التحرك ، لكن وفي آخر لحظة وقبل سفرنا بيومين إتصل الشيخ عبد الله عزام من إسلام آباد إلى أبي الحسن وقال له : الإخوة الثلاثة لا يذهبوا . حاول معه أبو الحسن لكن الشيخ صمم .. كررنا الإتصال مع الشيخ بأنفسنا لكنه كان مصمماً جداً .. وقدراً أتى اثنان من الإخوة الجدد من الجزائر في نفس الوقت فجعلهما أبو الحسن مكاننا، وقدر الله وما شاء فعل .. » ويضيف : « .. في تلك الأيام كان الإعداد لمشروع الترحيل قد إكتمل تقريباً ، وكان أبو الحسن قد بدأ يرسل بعض الإخوة ولكن ليسوا ثابتين ، فجاءنا وعرض الفكرة علينا وشرح لنا أهمية المشروع وتفاصيله وطريقة تنفيذه .. » ويتدخل الأخ أسامة هنا فيضيف : « في البداية كان الأخ يحيى سنيور رحمه الله والأخ أحمد حسين ومعهم الأخ أبو ذر يُعدّون ورقة مكتوبة باليد بأن القائد فلان من التنظيم الفلاني يريد إدخال قافلة كذا إلى الداخل ، وتكلفة الحمولة بهذا المبلغ ، وكنت أساعدهم في هذا الموضوع ، وبعد فترة أرسل أبو الحسن الأخ أبا النور العراقي بأول سيارة للعرب . إشتروا سيارة جيب بيضاء وكان أبو النور أول شخص شبه ثابت للترحيل في (جاجي).. » ويأخذ أمين دفة الحديث ثانية مستدركاً ويقول : « لكن إرسال أبي النور كان بعد ذهابنا إلى (شترال) لأننا كنا أول من ركب السيارة صباح اليوم الثاني لوصولها من المعرض ، وبعد ذهابنا إلى (شترال) بالطائرة مضت السيارة

إلى (جاجي) .. وأما (شترال) - يتابع أمين - فمنطقة في شمال باكستان تشرف على مناطق إدخال القوافل إلى أربع أو خمس ولايات شمال أفغانستان : (بانشير) و (بدخشان) و (تخار) وطريق (لغمان) وأجزاء من (كونر) وأحياناً بعض المناطق في ولاية (قندُز) .. وفي الطائرة كنا أنا وأسامة وأحمد حسين وأبو الحسن وسيد نور الله عماد الأمين العام للجمعية الإسلامية ، وفي (شترال) بقينا أربعة أيام تقريباً تعرفنا خلالها على المنطقة جيداً ، واستأجرنا بيتاً هناك ، ثم ذهبنا إلى منطقة إسمها (جرم ششمي) على الحدود الأفغانية ، فتعرفنا على الوضع أيضاً، وعلى ترحيل القوافل ، وعلى مسؤول المجاهدين الذي نستطيع أن نتعامل معه في (شترال) وبالذات كانت أكثر القوافل التي تذهب عن هذا الطريق تابعة للجمعية ، أما الحزب والإتحاد فنادر جداً أن يمروا من هذا الطريق » .

في هذه المرحلة كان غالب ما يحيط بهذه المجموعة غريباً .. وجديداً ، وكانت وسيلة التفاهم أول المشاكل اليومية وأكثرها إلحاحاً.. يقول أسامة: « كان هناك بعض الإخوة يتكلمون الأوزبكية فجعلت أتحدث معهم بها وأتعلم منهم الفارسية في نفس الوقت » ويضيف أمين : « والذي ساعدنا أصلاً أن منطقة (شترال) كلها يتحدث مجاهدوها بالفارسية مما سهل العملية ، وكان معنا أيضاً أخ يسمى خليل هدف هو مسؤول مجلة (المجاهدون) الآن [٤] ، أتى به أبو الحسن ليبقى معنا تسهيلاً للعمل في البداية ، كما ترك لنا الأخ سيد نور الدين عماد سيارته الجيب مع سائقها ، وبالطبع ترك لنا أبو الحسن رصيداً في البنك .. وهكذا بقينا قرابة شهر ونصف في (شترال) وكان المسؤول عنا الأخ أحمد حسين وهو من إخواننا المسلمين الذين بارك الله فيهم ؛ وخلال هذه الفترة كانت ٣٠٠ إلى ٤٠٠ خيل تدخل يومياً عن طريقنا، أما تكلفتها فتختلف حسب المناطق والولايات [٥] وأذكر أن جبهة (بانشير) وحدها دخلها خلال الفترة التي كنا فيها ٤ آلاف خيل تقريباً عدا الجبهات الأخرى .. » ويتدخل أسامة هنا فيقول : « أضيف فقط أننا قبل أن نسافر إلى (شترال) تركنا الأخ يعقوب في بشاور جريحاً ، وكان قد أصيب في (لوغر) بكتفه الأيسر وبكسر في الساعد تسبب في قطع العصب ، فودعناه ومضينا ، وفي عيد الأضحى جاءنا يعقوب مع الشهيد عبد الصمد والأخ إحسان من المدينة ..» ويعود أمين إلى شريط الذكريات فيقول : « كنا لا نزال في بداية الغربة ، بعيدين عن الإخوة العرب ، فأحسسنا ببعض الضيق ، لكن لما جاء الإخوة خفّت كثيراً .. جلسوا حوالي أسبوع أو عشرة أيام ورجع يعقوب وعبد الصمد وبقي حسان فقط ، وبقينا على حالنا إلى نهاية ذي الحجة تقريباً .. وإذ بالأخبار تصلنا أن الروس هجموا هجمة قوية جداً على (جاجي) استشهد فيها الأخ عبد الكريم العبيدي وكادت المنطقة تسقط بأيديهم .. أنا تأثرت نفسياً لأن هذه المنطقة قريبة جداً ، وأنا لم أشترك بعد بعملية فكيف فاتتني ؟ فقلت : لا بد وأن أدخل الجبهة ، وللأسف كان الطريق من (شترال) إلى أقرب جبهة للمجاهدين يأخذ أياماً طويلة مشياً بين الجبال ، لذلك استأذنت الإخوة ورجعت ومعي الأخ أسامة والأخ حسان إلى بشاور ، وكان الأخ

أبو حفص – الذي كان أميرنا – قد عاد قبلنا ببضعة أيام ولكنه رجع مرة أخرى إلى (شترال) ونحن في طريقنا إلى بشاور فلم نتقابل ، وهنا في بشاور استغرب أبو الحسن عودتنا، فقلت له : بصراحة ، تريد نفسي أن أرى عملية بسرعة أو أدخل جبهة ، فجزاه الله خيراً ما صدني ، وكان عنده – قدراً – عمل في منطقة (آزرا) في ولاية (لوغر) . كان يريد أن يرسل أحداً إلى هذه المنطقة ليتأكد من حال المجاهدين فيها بعد أن سمع أخباراً تقول بأنهم يبيعون الحشيش هناك ولا يجاهدون ! فأعطاني ٢٠٠ ألف روبية باكستانية تقريباً وقال لي : إذهب إلى هناك ، فإذا رأيت ما بلغنا فلا تعطهم شيئاً وارجع سراً دون أن يعرف أحد بوجود الفلوس معك ، وإن وجدتهم مجاهدين حقاً فأعطهم واجلس معهم لتجاهد ، وعندما تعود إبْقَ مع الأخ يحيى سنيور في (جاجي) .. » .

.. ويفتح أمين هاهنا نافذة تطل من قلبه على أيامه الأولى في بشاور حيث التقى الشهيد يحيى أول مرة ، لكنني أستميحه عذراً لأتوقف عن تسجيل شجونه اللحظة ، لأرتد بالزمن قليلاً مع أبي الحسن المدني إلى شهر ذي الحجة الذي سبق ، حيث دارت معركة « جاجي » القاسية ، وكانت لأبي الحسن مشاركة – مع بضعة عشر من إخوانه العرب – فيها. يقول أبو الحسن : « في الشهر التاسع من تلك السنة والذي وافق حج عام ١٤٠٥ كانت معركة من أكبر المعارك في ذلك الوقت في (جاجي) وقبلها في رمضان كان الإخوة العرب قد شاركوا في المعركة الكبيرة بـ (خوست) حينما هاجم المجاهدون العدو وذهب الإخوة بدباباتهم .. كانت هناك دبابتان صالحتان ، وكان الأخ أبو عبيدة والأخ الشهيد عبد الرحمن المصري هو الذي كان على المدفعية داخل ا لدبابة ، وقتذاك كنت مسافراً في المملكة ففاتتني المشاركة في هذه المعركة ، أما الذين شاركوا فلا يقلوا عن ١٢ أخاً عربياً ، وكانت بقيادة الشيخ جلال الدين حقاني ، وفيما أذكر أن الأخ بلال البحريني إحترقت نصف لحيته بلهيب الدبابة وبقي نصفها دون أن يصاب وجهه بأي سوء ، ولم يستشهد أحد من العرب وقتذاك .. » .

في تلك الفترة كان المجاهدون الأفغان في ولاية « باكتيا » الحدودية قد صعّدوا من هجماتهم على مدينة « خوست » المحاصرة حيث تتمركز القوات السوفييتية والحكومية ، وعلى المراكز الأمنية والعسكرية حولها « ولأول مرة في حرب أفغانستان يستخدم المجاهدون الدبابات في حرب متحركة وليس كقطع مدفعية ثابتة ، فلقد دفع حقاني عدة دبابات إلى وادي (خوست) واندفعت الدبابات إلى حصن (ليجاه) وأمطرته بالقذائف .. » (٦) واستمر القتال المتصاعد حول (خوست) ليتحول إلى هجوم دفاعي مكثف من قبل الحكومة على مواقع المجاهدين إستدعى « سحب قوات وأسلحة من ضواحي كابل – كما أكدت المصادر الديبلوماسية في إسلام آباد – وإرسالها إلى إقليم (باكتيا) .. » (٧) قدرتها وكالة الإعلام الأمريكية وقتذاك بـ ١٥ ألف جندي

سوفييتي [٨] .. وحتى شهر سبتمبر إتخذ الهجوم شكلاً شمولياً « كواحد من أشرس الحملات منذ الغزو السوفييتي أفغانستان قبل ست سنوات » [٩] و « اختار (شاه نواز) رئيس أركان قوات النظام الأفغاني يومذاك أن يضرب في (البطن الرخو) وهو المحور الممتد من (جارديز) حتى منطقة (جاجي) القريبة من الحدود ، ثم الإنعطاف جنوباً والإتجاه إلى (خوست) .. وبعدها تندفع القوات من (خوست) ومن (جارديز) في وقت واحد لكي تفتح الطريق المباشر بين المدينتين .. » [١٠] وهكذا امتدت شرارة المعارك التي بدأت في منتصف مايو حول (خوست) لتطال بعد قرابة أربعة أشهر منطقة (جاجي) حيث يتواجد عدد غير قليل من المجاهدين العرب ، يقول أبو الحسن : « كنا قد خرجنا يوم عرفة بعد أن تسحرنا في بشاور لنفطر في (جاجي) وفي تلك الليلة ذهبنا في الساعة الحادية عشر إلى نقاط متقدمة باتجاه (تشاوني) للمشاركة في معركة اقتحامية .. وصبيحة أول أيام العيد صعدنا إلى المرتفع الذي عليه الآن المأسدة [١١] وهناك كان للمجاهدين راجمة (بي. إم . دوازدا) [١٢] عليها القائد الكبير عبد الغني جكنكل ، وهو شهير جداً برمايته على هذه الصوريخ بين المجاهدين ، وبدأنا بقصف الأعداء ، واستمر القصف إلى العصر تقريباً ، رجعنا بعدها فنزلنا أسفل الوادي وبدأنا نذبح للمجاهدين بمناسبة أول أيام العيد ، وبعد العشاء سُمح لنا أن نذهب للراحة ، فذهب إخوتي كلهم وجلست أنا والقائد الدكتور إبراهيم من الحزب الإسلامي نعد لعملية إقتحام (تشاوني) ..» ويتابع أبو الحسن : « في ذلك الوقت كان معي الأخ أبو الخير العراقي وأبو ذر الليبي والأخ الشهيد يحيى سنيور رحمة الله عليه والأخ الشهيد عبد الوهاب الغامدي رحمة الله عليه والأخ أبو مجاهد المكي والقائد الأفغاني الكبير الداعية موحد رحمة الله عليه – من (بروان) – [١٣] .. وعند منتصف الليل فوجئنا بالدكتور إبراهيم القائد يأمرنا بالرجوع إلى معسكر الفتح [١٤] فرفضنا رفضاً شديداً خاصة عندما علمنا أنه خصنا نحن العرب بالرجوع ، وقلنا له : « وجه هذا الحديث إلى النساء والأطفال فأنتم ما فُضِّلْتُم علينا بشيء .. خرجتم لتدافعوا عن دين الله ونحن جئنا لندافع عن دين ، أنتم لستم عسكريين ونحن لسنا عسكريين .. واحتد النقاش بيننا ؛ كنا جميعاً في الوادي ، وفي تلك الأثناء كانت الطائرات المروحية تُنزل الكوماندز على رؤوس الجبال ونحن نسمع أصواتها ، وبدأت الدبابات والمدرعات تتقدم وتقصف ونحن وسط القصف ، بيننا وبين المعسكرات أربع ساعات ونحن أقرب إلى (تشاوني) منها إلى المعسكرات ، وبعد نقاش شديد قال : هل تعرف معنى الإمارة ؟ قلت : نعم قال : وهل تعرف معنى الطاعة ؟ قلت : نعم قال : أنت الآن بإمرتي وأنا أميرك هنا ، خذ إخوتك وارجعوا المعسكر ، فحرصاً مني حتى لا تنتشر الفوضى والبلبلة بين الإخوة وبين المجاهدين في ذلك الوقت أخذتهم ومضينا وأنا أسمع – واللهِ – أنين وأزيز بكاء الإخوة خلفي » ويضيف أبو الحسن : « .. كان الوادي – ونحن نمشي أربع ساعات في الليل – وكأننا نمشي في الضحى بعدما رُمِيَتْ بعض البالونات المضيئة من الساعة الحادية عشرة ولم تنطفئ حتى الساعة الرابعة ، وكانت نوعاً فريداً ما رأينا مثله من قبل ، فالعادة ألا تستغرق أكثر من ثلاث دقائق ، وكنا نظن في كل لحظة أنهم سوف ينزلون

علينا ، ولكن الله يسّر لنا وحفظنا حتى وصلنا إلى المعسكر ، وفي اليوم التالي أصبحنا وقد تقدم العدو وبدأت راجماته وطائراته بالقصف ، واستمر كذلك حتى الليل، واستشهد العديد من الأفغان وجرح آخرون ونحن تحت القصف في المعسكر ، وبعد منتصف الليل، وبرغم الإرهاق والتعب الشديدين ما استطعنا أن ننام فقمت أنا والأخ أبو ذر الليبي وذهبنا إلى المهندس حكمتيار وطلبنا منه أن يجلس مع قادة الشيخ سياف أو أن يرسل قادته إلى قادة الشيخ سياف حتى يجلسوا سوياً ويضعوا خطة دفاعية واحدة ، فالعدو اقترب إلى (المنجرة) أول الوادي [١٠] وسقوط أي معسكر من المعسكرين هو سقوط للآخر فلا مجال لأن يقاتل أي منهما منفرداً.. عندها قال الأخ حكمتيار : ومن يتحمل المسؤولية ؟ قلنا : نحن .. فجزاه الله خيراً أعطانا كل قادته تلك الليلة ، وخرجنا الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وكانت ليلة خطيرة ، كنتَ تتوقع أن تأتيك رصاصة خائن منافق كل لحظة.. أو أن تتعثر في كل خطوة تخطوها بلغم ، وفي معسكر سياف كان هناك القائد الكبير محمد صدّيق تشكري والسيد غريب شقيق الشيخ سياف ، جلسنا معهم وقرأنا آيات من سورة الصف ، وعندها استحضر الجميع معنى قوله سبحانه: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) واستجابوا واتفقوا على أن يكون هناك مكان يومي تجتمع فيه القيادتان ، وصار تشكري يجتمع مع حكمتيار يومياً بعد صلاة المغرب هنالك لتوزع الأدوار في دفع العدو إلى الخلف ، وفي البداية كان بعض الإخوة الكشافين عندما يرجعون من المقدمة يصرخون بأعلى أصواتهم – واللهِ ونحن نسمعهم – يقولون : إنزلوا إلى باكستان .. إنزلوا إلى باكستان .. العدو أصبح في كل مكان ! وما هي إلا ثلاثة أيام ، وبعد توفيق الله بهذا الدور الذي قمنا به في إيجاد الخطة الدفاعية الموحدة وتوزيع الأدوار .. لم يبق – ولله الحمد – للعدو من أثر ، وما تراه اليوم من كل الدبابات والمدرعات الموجودة في وادي (جاجي) كلها من تلك المعركة » .

هوامش

(١) في حديثه المسجل بتاريخ ٨٨/٩/٢٨ في بشاور .

(٢) « البرنو » :هو المدفع الرشاش الخفيف « برن » BREN – بريطانيا .

العيار : ٣٠٣ر. بوصة و ٧ر٦٢ ملم (العيار المعتمد من قبل دول حلف شمالي الأطلسي) .

الطول : ١٠٨ سم – طول السبطانة : ٥٦ ملم – الوزن : ٨ر٧ كغم .

المدى المؤثر للسلاح : ٦٤٠ م .

نظام التغذية : مخزن ذخيرة من نوع العلبة سعة ٣٠ خرطوشة أو مخزن ذخيرة أسطواني سعة ٥٠ أو ١٠٠ خرطوشة .

المعدل النظري للرمي : ٤٨٠ طلقة / د .

المصنّع : المصنع الملكي للأسلحة الصغيرة ومصنع « انجليس » في كندا ، وقد أنتج هذا المدفع إستناداً إلى تصميم مدفع « زد. بي » التشيكوسلوفاكي الذي وضعته مصانع الأسلحة في « برنو » أنظر : « الموسوعة المصورة لأسلحة المشاة في العالم – ١٩٨٥ » – جـ١ – صـ٢٢٦

(٣) « الجرينوف » : هو المدفع الرشاش الثقيل « غورينوف إس. جي ٤٣»

GORY- S.G. ٤٣

NOV

العيار : ٧٫٦٢ × ٥٤ ملم .

الطول : ١١٢ سم – طول السبطانة : ٧١٫٥ ملم – الوزن : ١٣٫٥ كغم .

المدى المؤثر للسلاح : ١٠٠٠ م .

نظام التغذية : شريط ذخيرة سعة ٥٠ خرطوشة .

المعدل النظري للرمي : ٦٠٠ – ٧٠٠ طلقة / د .

المصنّع : مصانع الدولة في الإتحاد السوفييتي ، وقد تم تصنيعه أيضاً في الصين والمجر وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا .. وينتج الإتحاد السوفييتي طرازين من مدفع « غورينوف » هما : « جي . إس . جي ٤٣ » و « إس . جي . إم » ويمكن تزويد الطرازين بركيزة ذات ثلاث قوائم أو يمكن تركيبهما على ركيزة ذات عجلات لتسهيل نقلهما ، كما يمكن قلب الركيزة ذات العجلات نحو الأعلى لاستعمالها كقاعدة لإطلاق المدفع عند إستخدامه كمدفع مضاد للطائرات . أنظر : المصدر السابق – جـ١ – صـ٢١٢ –٢١٣

(٤) « المجاهدون » : مجلة شهرية تصدرها « الجمعية الإسلامية » برئاسة الأستاذ رباني باللغة العربية .

(٥) يذكر الدكتور عبد الله عزام أن أجرة الكيلو غرام الواحد من الحدود إلى شمال كابل على البغل كانت عشرين روبية ، أما إلى « هيرات » وإلى « بادغيس » و « مزار شريف » فقد تصل أجرة الكيلو غرام الواحد من أربعين إلى خمسين روبية ، وإلى « بدخشان » ٤٢ روبية ، والحصان والبغل يحمل في المسافات البعيدة ١٤٠ كغم ، فأجرته حوالي ثلاثة آلاف روبية ، أي ما يعادل ٢٠٠ دولار إلى قرب كابل ، بينما تصل أجرته إلى « بدخشان » حوالي ٤٠٠ دولار . أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ١١ – ١٥ ذو الحجة ١٤٠٥ – ٣١ أغسطس ١٩٨٥ – صـ٤ .

(٦) أنظر : صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٥/٨/٤ عن تقرير خاص لمراسلها « مصطفى حامد » .

(٧) صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٥/٨/٢١ عن وكالات الأنباء .

(٨) في نشرتها اليومية بتاريخ ٨٥/١٢/١١ نقلاً عن صحيفة « واشنطن بوست » في عددها الصادر بتاريخ ٨٥/١١/٢٧ تحت عنوان : « الحرب في أفغانستان تدخل عامها السابع » .

(٩) « رويتر » بتاريخ ٨٥/٩/٢٠

(١٠) أنظر : صحيفة « الإتحاد » بتاريخ ٨٥/١١/٢٨ عن تقرير خاص لمراسلها « مصطفى حامد » .

(١١) « المأسدة » : هي الموقع الذي اتخذه العرب فيما بعد مركزاً ثابتاً وقاعدة متقدمة لهم في المنطقة .

(١٢) « راجمة الصواريخ بي . إم » : B.M.

العيار : ١٤٠ ملم .

الطول : ١٠ر٩٢ ملم - الوزن : ٦ر٣٩ كغم .

المدى المؤثر للسلاح : ١٠٦٠٠ م .

المصنّع : مصانع الدولة في الإتحاد السوفييتي . أنظر : « الموسوعة المصورة لأسلحة المشاة في العالم - جـ ٣ - صـ٥٥ وأما كلمة « دوازدا » فتعني الرقم (١٢) بالفارسية وذلك إشارة لعدد فوهات الإطلاق .

(١٣) يذكر الأخ أمين أن من بين الذين اشتركوا في هذه المعركة من العرب أيضاً : أبو النور ، وأبو الجود ، وأبو محمد السوداني .

(١٤) « معسكر الفتح » : أحد معسكرات « الحزب الإسلامي » برئاسة « حكمتيار » الرئيسية في المنطقة ، يبعد عن معسكر رئيسي لتنظيم الأستاذ « سياف » كيلو مترات قليلة ويحاذي مثله خط الحدود الباكستانية

(١٥) « المنجرة » : موقع كان قد أقيم عليه معمل لتصنيع الأخشاب أيام حكم الملك ظاهر شاه في هذه المنطقة نظراً لكثافة الأشجار الصنوبرية فيها وقتذاك ، وهو أمر لم يعد له وجود اليوم نتيجة احتراق غالبيتها بسبب القصف الجوي أو لقيام السكان المحليين بقطعها وبيعها في قرية « تري منجل » الباكستانية القريبة ، ولا تزال بقايا هذه « المنجرة » واضحة في بوابة الوادي الذي يمتد بين سلسلة مراكز الحكومة ومعسكرات « الفتح » و « سياف » ولا يبعد عنهما بضعة كيلو مترات قليلة .

الأنصار العرب (٢٠)

الشـــهيد
يحي ســـنيور

يرتدّ أمين بذكرياته وأشجانه إلى اليوم الذي التقى فيه الشهيد يحيى سنيور أول ما وطئت قدماه مكتب الخدمات في بشاور .. وما كان أحداً – سوى الله وحده – ليدري بأن أمين سيشهد آخر لحظة لحياة يحيى .. بعد أربعة أشهر وحسب من الزمان ! يقول أمين : « لما وصلنا مكتب الخدمات ومن اليوم الأول بدأنا نتعرف على بعض ، كنا قد رأينا بعضنا ولكن من بعيد .. لأنه كان صديق أبي عبد الله فكنا نلقاه هناك عندما نذهب لزيارته في جدة ، كذلك فإن يحيى صديقاً للأخ أحمد (أبو حسين) .. جاء أول مرة إلى الجهاد ورجعا مع بعض .. ولروحه المرحة – سبحان الله – تآلفنا من أول يوم التقينا ، فقد كان يحيى خفيف الدم جداً ، وكنا نمزح ونضحك مع بعضنا ونتساعد في بعض الكتابات والأعمال البسيطة التي كان يكلفني بها أبو الحسن المدني ، إلى أن أبقاه أبو الحسن مع الأخ الشهيد عبد الوهاب الغامدي في (جاجي) للعمل في مشروع الترحيل ، وأرسلني مع أخ إسمه أبو مصعب إلى (آزرا) .. وأما أزمراي فبقي في بشاور على أساس أن يرجع إلى (شترال) ليكمل العمل مع أبي حفص ، ووقتها قال لي أبو الحسن : أنت إسبق إلى الشهيد يحيى وابق معه حتى أرسل لك الأخ أبا مصعب بعد أن ينهي عملاً آخر مكلف به ، وأعطاني مفارش وخزنة ونقود وحاجيات أخرى لنؤسس مركز الترحيل في (جاجي) فحتى ذلك الوقت كان يحيى وعبد الوهاب يجلسان في غرفة بمعسكر الفتح لأنهما لا يزالان في بداية التكوين ، ولكنهما أرادا أن يغيرا من سياسة البقاء في معسكر الحزب الاسلامي ، لأن الكثير من القوافل تكون تابعة للجمعية أو للاتحاد أو بعض التنظيمات الأخرى فلا تمرّ عليهم .. فأخذنا أشياءنا من (الفتح) ونصبنا خيمة في (تري منجل) وهي البوابة الأخيرة للباكستان على الحدود .. وعلى مدرج زراعي يسار الطريق المتعرج الصاعد إلى أفغانستان نصبنا خيمتنا بحماية مجموعة من مجاهدي (تخار) بقيادة مولوي كفاية الله .. وكانوا جزاهم الله خيراً في منتهى اللطف ، أكرمونا وتولوا أمور تنظيف الخيمة والإعتناء بالطعام وكل شيء .. » ويتابع الأخ أمين : « وصل الأخ أبو مصعب بعد أسبوع تقريباً إلى (تري منجل) فودعت يحيى وعبد الوهاب ومضينا . كان الطريق إلى (آزرا) يستغرق حوالي ٣٥ ساعة على الأقدام والخيول ، أخذناه في يومين أو أكثر ومعنا ١٠ مجاهدين جاءوا مع الأخ أبي مصعب للحماية ، لكننا سرعان ما رجعنا خائبين لأن الوضع كان سلبياً .. وفي (تري منجل) كتبت تقريراً سريعاً سلمته للأخ أبي مصعب ومضيت إلى يحيى وعبد الوهاب فجلسنا عشرة أيام تقريبا مع بعضنا ، لكن عبد الوهاب رحمه الله كان متحمساً جداً للجبهة فلم يصبر على الاستمرار واستسمحنا بالذهاب إلى (ميران شاه) ليدخل منها إلى (خوست) .. وبعد أن ودعنا مضينا في ترحيل القوافل بالسلاح وبالعتاد ؛ كان القائد يأتينا بورقة من أبي الحسن عليها المعلومات والبيانات كاملة بالعدد

والأوزان والأسماء والجهة .. فيسلمنا إياها ويعود بعد يوم أو يومين لاستلام النقود ، وكنا متفقين مع مدير (حبيب بنك) في (برجنار) [1] على أن نأتي كل أسبوع أو عشرة أيام لنسحب مليون روبية من عنده ، وكان اشتراطه علينا أن نخبره قبل يومين من موعد السحب حتى يستطيع أن يجمع هذا المبلغ الضخم بالنسبة لهذه البلدة الصغيرة .. واستمر العمل على ذلك وسحبنا بالفعل مرتين أو ثلاثة ، وفي آخر مرة استأذن السائق منا ليذهب إلى بشاور فترة بسيطة ويعود ، فقلنا له : وأنت ذاهب أبلغ مدير البنك بأننا سنأتيه يوم السبت للسحب . في تلك الفترة كان الشهيد يحيى هو الذي يقود السيارة وأحياناً كنت أنا الذي أقودها ، وكان معنا دائماً ثلاثة مرافقين من الأفغان لأن المنطقة خطرة جداً وموبوءة بالمنافقين وبقوافل السلاح وبتجار الحشيش والمخدرات .. والشيعة هنا أيضاً ، وكمائن قطاع الطرق كثيرة .. وبعد أن ذهب السائق على أن يعود خلال ثلاثة أو أربعة أيام تأخر وما أتى .. واعتذر أحد المجاهدين الأفغان الثلاثة وهو الرئيسي فيهم بأن عنده عمل بسيط في بشاور وقال : أذهبُ وأرجع ، فاستلم ابن عمه مكانه إسمه عبد الكريم يرحمه الله .. وهكذا بقينا إثنان عرب وإثنان أفغان فقط .. وفي هذه المدة كان إسم العرب قد اشتهر .. وأذكر أننا كنا عائدين مرة من جبل (جاجي) إلى خيمتنا وإذْ بالأطفال الصغار يلحقون بنا ويصيحون كلهم : عبد الرحمن .. عبد الرحمن .. وكان إسم الشهيد يحيى أصلا عبد الرحمن عبد الكبير ، فتعجب وقال : يا الله .. على مستوى الأطفال صار إسمي مشهوراً لهذه الدرجة ! وهكذا أحسسنا بأن وضعنا بات غير طبيعي ، وصار وجود بعض النازحين الذين يحومون حول خيمتنا يدل على أن الوضع غير مستقيم ، فكتب الشهيد يحيى رحمه الله لأبي الحسن بذلك ، لكن أبا الحسن لم يرد ! استمرينا على هذا حتى صار أصحاب الخيول والجمال يأتون ليعرضوا علينا ويسألونا : ماذا تريدون أن تُرحّلوا ؟ وعاد يحيى ليكتب إلى أبي الحسن لكنه لم يجب . ماذا نفعل ؟ إستمرينا على حالنا ، وزادت علينا الطلبات حتى بلغت ٩٥٠ - ٩٦٠ ألف روبية ، فاضطررنا للذهاب إلى (برجنار) حتى نأتي بمليون روبية جديدة . طبعاً السائق لم يَعُدْ بعد ، فالشهيد قال لي : مارأيك .. ماذا نفعل ؟ قلت له : توكل . قال : قل للرواحل إذاً أن لدينا عمل غداً صباحاً فاستعدوا . وفي تلك الليلة فاجأني رحمه الله وقال لي : تعال يا أمين نجلس ونكتب وصايانا .. الواحد مايدري إيش القدر .. وكان في صباح ذلك اليوم -الجمعة- وبعد أن اغتسلنا قال لي : لازم نكتب رسائل للأهل . قلت له : ما الذي طرأ ببالك ؟ قال : خلينا نكتب رسائل للأهل . قلت : أكتب ياسيدي ! جلسنا وكتبنا ، وفي الليل كتبنا الوصايا [2] وبعدما انتهينا ، وكان قد اختفى من خيمتنا قبل ثلاثة أيام فقط حوالي ٥٠ - ٧٠ ألف روبية باكستانية ، إختفت بطريقة غامضة جداً ! الفلوس تكون عادة بين أيدينا وفجأة اختفت ! حتى شككنا أن هذه الذي أخذها ليس آدمياً ! فقال لي بعد إنتهاء الوصايا : لازم نكتب ورقة أن عليّ أنا يحيى بن فلان بن فلان دَين لمكتب الخدمات بالمبلغ الذي فُقِدَ منا لأنني أتحمل مسؤوليته . فأنا رفضت وقلت : لا يمكن أن تتحمل المسؤولية أنت . فأصرّ . فقلت : إذاً أنا نصف وأنت نصف .. فالمبلغ فُقد مني ومنك . بالقوة حتى وافق فكتبناه مناصفة ، وفي الصباح وبعد الفجر مباشرة

تحركنا إلى (برجنار) ولم يكن أحد إلانا يعرف بذهابنا » ويتابع أمين : « كانت المسافة إلى (برجنار) قرابة السابعة والنصف ، وصلناها فوجدنا البنك لا يزال مغلقاً ، ذهبنا إلى مطعم فأفطرنا .. أصلحنا بعض الحاجات بالسيارة ورجعنا للبنك مرة أخرى فوجدناه مغلقاً .. إنتظرنا إلى أن فتح فذهبنا إليه .. بقيتُ في السيارة ودخل الشهيد رحمه الله البنك ولم يكن المدير موجوداً .. تكلم نائبه وقال : إلى الآن ما جهزنا شيئاً ، إذهبوا وعودوا بعد ساعة . ذهبنا نلفّ في الأسواق .. إشتيرنا بعض المأكولات والمعلبات .. وكان لدى الشهيد بدلة واحدة فقط خلال وجوده كله ، وكان قد فصّلها تفصيلاً لأنه كان ضخماً جداً .. كان وزنه يزيد على مائة كغ .. وكانت بشاور حارة في تلك الأيام فقصّ أكمامها .. وفي السوق قال لي : ما رأيك أن نفصّل ملابس ؟ قلت له : طيب . فذهبنا للخياط وفصّلنا .. وبعد ساعة عدنا للبنك فوجدناه ما جمع المبلغ أيضاً .. إنتظرنا ساعة ونصف أخرى أمام البنك ونحن نترقب وصول المبلغ والموظف يتصل بالتلفون فيأتون له بعشرين ، ثلاثين ألف ! أخيراً جاءت سيارة الفلوس المصفحة لا أدري من أين ، دخل الشهيد رحمه الله وخرج بشنطة ضخمة جداً .. مليون روبية من فئة المئات ، فوقتذاك لم تكن فئة ٥٠٠ روبية قد طبعت بعد ! » ويتابع أمين : « كنت وطوال تجوالنا بالسيارة أركب في الأمام ، وعندما دخل إلى البنك كان أمامي كتاب بالفارسة عنوانه (جهاد وفضائل) أخذت أقرأ فيه إلى أن جاء . قال : أمين ، إرجع إلى الخلف ولا تبق في الأمام . قلت له : سأبقى هنا . قال : بل إرجع للخلف . لماذا ؟ قال : الآن سنمر على نقطة البوليس الباكستاني ، فإذا تكلم معنا بلغة البشتو لا أنا أعرف ولا أنت فيعرفنا عرب .. ومعنا الفلوس ، دع الأفغاني بجانبي حتى إذا سأل أستطاع أن يتكلم . حاولت من جديد لكنه أصر ، فتركت الكتيّب على (طبون) السيارة ورجعت . عندها سلمني الحقيبة الكبيرة وقال : خليها عندك . فوضعتها بين رجليّ ولففتها بـ (البتّو) فقال لي : جهز سلاحك . لماذا ؟ قال : إحتياط . أما السيارة فكانت (سوزوكي جيت) .. كرسيان متجاوران من الأمام والكراسي التي في الخلف من النوع الطويل ، بحيث يكون وجهك مقابل الشخص الآخر ، أما السقف فمن النوع البلاستيكي .. وهكذا تحركنا باسم الله ووضعت سلاحي بيدي علي وضع الاستعداد – وكان كلاشنكوف مصنزي – .. مررنا أمام البوليس الباكستاني فالحمد الله لم يكلمونا ، وفي هذه اللحظات كنت أريد أن أقول للشهيد : قف حتى أركب في الأمام بقية الطريق . سبحان الله ، هكذا لا شعورياً ما تكلمت . حاولت عدة مرات أن أتكلم فلم أستطع .. عجيب ! مشينا .. مشينا .. لاحظت أنه يسرع .. كلمته فقال : إحتياط ! كان الطريق مليئاً بالمنعطفات ، وفي إحدى المناطق كان الإسفلت قد نُزع عن الطريق فهدأ السرعة حتى دخل الإسفلت ثانية ، وفي منطقة متعرجة تحفّها الأشجار من اليمين ومن اليسار فلا ترى القادم وراء المنعطف أمامك ولا تستطيع أن ترى من هو خلفك خرج من خلف الأشجار فجأة على اليسار رجل متعمم بعمامة خضراء ومتلثم بها فما ترى إلا عينيه ، وبيده (كلاشنكوف) في حالة الرمي الأوتوماتيكي الصلي ، الخبيث لم يكن بعيداً خرج هكذا فجأة وبقي في وسط الخط ، ولحظة أن رآه الشهيد رحمه الله قال : خذوا .. فقط

قال : خذوا .. وبعدها ابتدأ الضرب ، والله أعلم أن أول ضربة أطلقها هذا القاتل قاتله الله ضربها على الشهيد يحيى ، لأنه ما أن بدأ حتى فقد الشهيد السيطرة على السيارة ، واستمر الإطلاق من كل مكان كأنه مطر أحمر وأخضر! صارت الدنيا حمراء أمامي ، والسيارة تلعب يميناً ويساراً .. أصيبت (الكفرات) فاختل التوازن .. والسلاح الذي بيدي طار ، وما عدت أرى إلا أحمر وأخضر يمرّ من أمامي ، وأصوات شديدة جداً من حولي .. فجأة أحسست بحرارة شديدة جداً في رجلي اليسرى ، لكن ومن هول الصدمة المفاجئة حتى التفكير بذلك كان صعباً ! لحظات وإذ بالسيارة تنقلب .. تنقلب .. ثم تصطدم بشجرة ضخمة جداً وتنقلب للمرة الأخيرة على الجهة اليسرى .. وتقف ! » ويلتقط أمين أنفاسه وقد بلغ الإنفعال منه مبلغاً ثم لا يلبث أن يعاود الحديث ويقول : « مقود السيارة كان على اليمين [٣] وكان الشهيد يحيى هو الذي يقود وبجانبه الأخ الأفغاني عبد الكريم رحمه الله عليه .. وكنت أنا خلف الشهيد عبد الكريم .. وعندما انقلبت السيارة هكذا على اليسار جاء الشهيد يحيى إلى الجهة اليسرى .. ولا أدري كيف انتبهتُ فوجدت رأسي على صدره رحمه الله ؛ في تلك اللحظات السريعة أدركت مر حدث لكنني بقيت في مكاني .. المفاجأة كانت شديدة جداً .. أردت أن أقوم .. لم أكن أرى جيداً لكنني كنت أسمع .. فتحت نصف عيني هكذا فبدأت أرى أشباح أشخاص ملثمين قادمين .. ثلاثة .. قادمين من الأمام .. طبعاً الزجاج تكسر .. كنت متيقناً بأن السلاح طار من يدي ، وأن الشهيد يحيى مضروب تحتي وأنا أراه الآن .. والحرارة شديدة في رجلي فلا أستطيع تحريكها .. وهؤلاء سيصلوا الآن ويعرفوا أنني حيّ .. فأكيد سيطخوا عليّ ! قلت خلاص .. لا إله إلا الله محمد رسول الله .. دعك على صدر الشهيد ! وَصَلَ هؤلاء .. تكلموا .. تكلموا وأنا لا أفهم شيئاً .. ومضوا يفتشوا في السيارة .. وقتها كنت لا أزال أضع رأسي على صدر الشهيد يحيى .. سمعت ثلاث شهقات .. كنت أحس وكأن شيئا يصعد – مثل دم أو هكذا – وينزل .. يطلع من تحت إلى فوق ، إلى جهة فمه أو صدره ، بعدها سكت سكتة مفاجئة فعرفت أنه أسلم الروح وقتذاك .. وأنا أنتظر الطلقة تأتيني في أي لحظة .. وقطاع الطريق لا يزالون يفتشون السيارة .. الفلوس أصلا كانت بين رجليّ .. فجاؤا يبحثون عنها هناك .. وفجأة انقطع صوتهم .. لكني قلت لنفسي أن أجلس على حالي فقد يعودون مرة أخرى ؛ مرت ثلاث أو خمس دقائق .. وسمعت أصوات أشخاص من جديد .. أشخاص كثيرين .. قلت ليسوا هم .. رفعت رأسي هكذا .. الدنيا لا تزال مغبشة جداً .. رأيت – أول مارأيت – السيارة تسبح كلها في بالدم .. وعلى (طبّون) السيارة رأيت – سبحان الله – مثل مادة بيضاء أمام المقود تماماً .. ورأيت في نفس اللحظة رأس الشهيد مصاباً فعرفت أنها أجزاء من دماغه ! ..السيارة مقلوبة على الأفغاني الذي كان تحتها .. وكانت لا تزال تخرّ بالدم .. وبالخلف كانت – سبحان الله – بركة من دم ! الأخ الأفغاني الذي كان أمام على المقعد الخلفي ظننته استشهد أيضاً ، لكنه كان قد أصيب بطلقتين وبعض الشظايا برجله وما زال حياً .. وصل المزارعون الباكستانيون وبدأوا يحملونني .. يريدون رفعي ، دخل أحدهم ورفعني خارج السيارة .. أخرجوني هكذا ..

فلما رأيت المنظر بكامله جاءتني – من هول الحادث – نوع من الهلوسة .. بدأت أتكلم .. أتكلم .. حديثاً كله عن الشهيد يحيى .. وهل استشهد ؟! قدراً وصلت سيارة – بيك آب – للمجاهدين كانت قادمة من (جاجي) رأت الحادث فوقفت ، ولما عرفوا أننا عرب بالذات أنزلوا بعض الركاب وحملوني وأنا لا أزال أهذي .. حتى أوصلوني (مستشفى الجهاد) في (برجنار) .. كان الشهيد يحيى هو الذي أسس هذا المستشفى وأتى بمعداته واشترى بعض حاجياته وأسرّته ! قابلني ممرض أفغاني أول الأمر فمددت يدي إلى جيبي وأعطيته كل الذي معي من نقود وقلت له : فقط أعطني مسكن ألم (بوينت) .. كان الألم شديداً في رجلي التي انتفخت حتى أصبحت كالكرة .. وكنت أحسّ فيها بحرارة شديدة جداً .. بعد ربع ساعة أو نصف ساعة جاء طبيب مصري هو الطبيب الجرّاح في المستشفى ، وكان قدر الله أنه موجود ذلك اليوم في (برجنار) .. عرف قصتي وبدأ يعالجني سريعاً .. حاول قدر استطاعته أن يوقف النزيف فلم يستطع .. قال : إذاً لا توجد إلا طريقة واحدة .. بدأ ينظف الجرح ثم يخيطه ، في تلك اللحظات جاءت الإستخبارات الباكستانية .. المنطقة عسكرية وحساسة فجاءوا مباشرة وراحوا يتحدثون على باب الغرفة .. وبسرعة قال لي الطبيب : إجعل نفسك وكأنك مغمى عليك .. دخلوا وطلبوا أن يأخذوني .. قالوا : لازم نأخذ هذا العربي .. ما الذي أتى به إلى مناطق القبائل الممنوعة ؟ استمروا قرابة ربع ساعة في الغرفة ينتظرون أن أصحو .. وأنا مغمض العينين ! بعدها ألح الطبيب عليهم أن ينتظروا في الخارج لأن حالتي خطيرة ولا تحتمل الإزعاج .. وبسرعة أكمل خياطة الجرح وقال لي : هيا تحرك إلى السيارة .. سألت عن الشهيد يحيى فقال : خلاص استشهد رحمة الله عليه والأفغاني الآخر يتداوى ولا يوجد إلا أنت فاهتم بقضيتك . ركبني سيارة الإسعاف وصعد جزاه الله خيراً معي .. وتحركنا إلى بشاور » ويتابع أمين : «لم تنفع كل المحاولات لإيقاف النزيف .. ولم نصل بشاور إلا الساعة الحادية عشر ليلاً .. وكان الحادث قد حصل حوالي العاشرة والنصف أو الحادية عشرة صباحاً .. وهناك في مستشفى بدر – وكان هو المستشفى الوحيد الموجود عند العرب وقتذاك – هناك استقبلوني .. فأجروا لي إسعافات سريعة في البداية ثم أدخلوني غرفة العمليات ..» .

في قرية المهاجرين (بابي) وعلى مقربة من بشاور ووري الشهيد يحى الثرى « وقد فاحت منه رائحة طيبة شمها جميع من حضر .. وبقي دمه ينزف إلى أن دفن بعد ٢٤ ساعة من استشهاده » [٤] يقول أبو الحسن المدني : « ذهبت إلى المستشفى بعدما دفن يحيى .. فما شهدت رائحة فوّاحة كتلك .. كنتَ إذا دخلتَ غرفة استقبال الطوارئ لا تشم – واللهِ – إلا هذه الرائحة ، برغم روائح العقاقير الطبية المركزة .. ذهبت في اليوم الثاني .. الثالث .. والرابع .. والرائحة لا تزال في المستشفى .. بعد ذلك ذهبت إلى (برجنار) لمتابعة التحقيق .. وهناك في السيارة التي كانت عبارة عن مسبح دم وجدت كتيباً بالفارسية (الجهاد فضائل ومسائل) ملئ كله بالدم .. كانت رائحته فواحة جلست فيه أكثر من ٣ أشهر ..» ويقول أبو الحسن المقدسي

(٥) : « لقد شممت أنا وأبو معاذ دم الشهيد على بعد خمسمائة متر وهو في بالسيارة التي تقلّه نحو مثواه الأخير .. » وحدّث أبو حمزة قائلاً (٦) : « لقد بادرتني زوجتي بعد عودتي من الجنازة : أي عطر هذا الذي نشمّه » ويقول أبو عبد الله : « بعد شهرين من استشهاد يحيى ظلت رائحة الكتاب الذي جاء دمه على جزء منه في السيارة تفوح مسكاً وأنا بنفسي – يشهد الله – شممت هذا .. وما من أخ مشى في جنازته إلا وشمّ رائحة المسك تفوح منه .. حتى الغرفة التي وضع فيها بالمستشفى ظلت لمدة أسبوع إذا دخلتها فكأنما تضربك رائحة المسك من شدته .. وهذه الكرامة طمأنت الناس – وكان رحمه الله قد قُتِل في فترة عصيبة ببشاور – ورفعت معنوياتهم – وكان بعضهم قد أتى بأبنائه وعائلته إلى بشاور – وازداوا إصراراً وحماساً على العمل .. » .

* * *

لقد كان مقدّراً للشهيد يحيى أن يتحسس الخطر حوله يتزايد فيكتب إلى أبي الحسن منبهاً ومستفسراً .. ثم لا يتلقى جواباً فيستمر في مهمته حتى يلاقي ربه .. أما أبو الحسن فوقتذاك لم يكن في بشاور حتى يجيب .. ويوم أن عاد من مهمة أخرى في (ننجرهار) كان الشهيد يحيى في مثواه الأخير .. وكان ثمة عدد من الرسائل بخط الشهيد ما عادت تنتظر الجواب (٧) ! يقول أبو الحسن : « كان الأخ يحيى قد كتب لنا رسالة تلو الرسالة عن خطورة الوضع في المنطقة .. في الوقت الذي كنت فيه أنا بـ (ننجرهار) ذهبت إلى هناك ولم يكن حتى ذلك الوقت أي نشاط للإخوة العرب فيها غير دخول الأخ عبد الله وسراج من السعودية .. وعدا ذلك لم يكن هناك أي عمل تجمعي للإخوة العرب ، دخلنا أنا والأخ أبو محمد السوداني والأخ أبو معاذ السوداني حتى نتعرف على المنطقة ونرصد إمكانية المساهمة فيها.. وكان يوم عودتي من (ننجرهار) هو اليوم الذي أحضر فيه يحيى ودُفن .. » .

كانت حادثة استشهاد يحيى في السابع من محرم ١٤٠٦ هـ ./الثالث والعشرين من أيلول ١٩٨٥ أولى التحديات المباشرة التي تواجه العرب على امتدادات الساحة الأفغانية ، وفي موقع جغرافي تتداخل فيه سلطات الدولة الباكستانية بقوانين القبائل شبه المستقلة ، وتحكمه شريعة الأقوى – أغلب الحالات – كان على الإخوة العرب البحث عن قَتَلة يحيى ومرافقه الأفغاني عبد الكريم ، وكان عليهم خلال السنوات التي تلت أن يستمروا في عبور نفس الطريق .. وأن يترحموا على الشهيدين كلما عبروا ذاك المنعطف الذي قُتلا فيه .. ثم يكملوا المهمة الأكبر التي أتوا من أجلها .. وأرخصوا في سبيلها النفس والنفيس . يقول أبوالحسن : « ذهبت إلى منطقة (برجنار) حتى أتابع التحقيق .. وعرفنا أن الذي كان خلف القضية هو نائب مدير (حبيب بنك) بالتنسيق مع بعض الشيعة في المنطقة .. وكان للجريمة هدفان : الأول منهما والأساسي هو محاولة إيقاف مثل هذا النشاط في تحريك قوافل المجاهدين إلى الداخل ، والهدف الثاني والذي يأتي عَرَضاً هو الطمع في

الأموال .. » ويؤكد أبوالحسن هنا على أن بعض الجناة مازال في السجن ، وأن بعضاً منهم قد خرج .. وأن نائب مديرالبنك الذي خطط للجريمة قد هرب إلى كابل ولا يزال فيها حتى الآن ! لكنه يؤكد أيضا على أن استشهاد يحيى « أشعر الإخوة بأن الشهادة لا تنحصر في المعارك والعمليات وحسب ، بل يمكن نوالها حتى في خدمة الجهاد ودعم المجاهدين .. ومن جهّز غازياً فقد غزا ، ولذلك أقدم كثير من الإخوة الذين لم يُقْدموا أصلاً على هذا النشاط ، وأصبح لدينا أعداد كبيرة فائضة عن حاجتنا في الإشراف على الحدود ، وبدل أن كانت لدينا لجنة واحدة هي التي تشرف على كل الحدود ، أصبح عندنا في كل منطقة لجنة .. ولجنة دائمة » .

هوامش

(١) « برجنار » : بلدة باكستانية تبعد عن « تري منجل » الحدودية قرابة الثلاثين كيلو متراً في طريق وعرة جداً ، وعن بشاور قرابة المئتي كم (حوالي خمس ساعات بالسيارة) يتقاسم سكناها قبائل من السنة والشيعة الباكستانيين إضافة إلى بعض مخيمات المهاجرين الأفغان .

(٢) إطلعتُ على وصية للشهيد يحيى ضمن مجموعة أخرى من رسائله التي لا يزال أبو الحسن المدني يحتفظ بها فوجدت الوصية كتبت يوم الأحد ١٤٠٥/١٢/٩ أي قبل استشهاده بشهر تقريباً .. وفيما يلي نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٠٥/١٢/٩ وصية الأحد

الحمد لله رب العالمين مالك يوم لدين . والصلاة والسلام على إمام المجاهدين محمد بن عبد الله

أما بعد

فإن الحياة والموت بيد الله تعالى وإنما نحن أمانة في الدنيا وخلفاء فيها فعلينا أن نكون كما يجب علينا أن نكون . ولقد جرت سنة الله في خلقه بعلمه تعالى السابق أن يقضي كل شيء في أجله . وإني شعرت في غزوتي هذه بأني سأكون شهيداً وأرجو من الله ذلك . لذلكم أوصي بكل شيء وبكل ما أملك للجهاد في سبيل الله في أي مكان أقصد بذلك الجهاد المسلح .

وإني قد أخذت أمانات من الناس ولكن لم أصرفها بعد وهي للأيتام من محمد عبد الصمد ومن فايزة عبد الرحيم سنيور وإن للوصية بقية مع الشيخ محمد علي .

وإني أوصيهما ورفقتي بإطاعة الله تعالى في السراء والضراء وأوصي والدتي بالصبر والصلاة وأوصي جميع إخواني بأن يعبدوا الله تعالى وأن يصلوا له ويخلصوا له تعالى وأن يكونوا دائماً مع المجاهدين في سبيل الله . وكنت أرغب في تقديم هدية لأخي في الله تعالى محمد .... الحربي بمناسبة زفافه ولكن لم أفعل فإن تدبر ذلك فافعلوا وجزا الله المحسنين خيراً .

يحيى علي سنيور

والواضح أنه – رحمه الله وتقبله – قد كتب وصية أخرى ليلة استشهاده تلك التي تحدث عنها الأخ أمين.

(٣) حسب نظام القيادة البريطاني الذي لا يزال سارياً في الباكستان وبقية شبه القارة الهندية إلى الآن !

(٤) أنظر : مجلة « البنيان » – العدد ١٧/١٦ – صـ٣١

(٥) أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ١٢ – صـ٣٢

(٦) المصدر السابق .

(٧) في آخر رسالة بعث بها الشهيد يحيى سنيور لأبي الحسن بتاريخ ٨٥/٩/١٩ قال له فيها :

« ... ١– أصبحنا نصرف المليون الواحد في ثلاثة أيام . هل نذهب إلى برشنار كل ثلاثة أيام علماً أننا عُرفنا في برشنار بأننا عرب . أو أننا نصرف مليونين دفعة واحدة ؟

٢ – بعض القوافل أصحابها يسبنا ويريد أن يتضارب معنا . ما العمل .

٣ – نسوق في السيارة وحدنا ، أنا والأخ أمين والأخ دين محمد ، علماً أن الطريق أصبح أخطر من السابق بعد أن انفجر لغم في طريق فتح في سيارة أمامنا .

٤ – الجميع هنا يطالبنا بالمال مثل سيد غريب وسيد عمر فماذا أقول لهم وأنا دائماً أقول لهم ضروري ورقة من أبو الحسن .

٥ – في فتح لا توجد حراسة على الخزنة إلا أن الغرفة التي فيها الخزنة أصبحت لنا وهي دائماً تغلق بالقفل.

٦ – الخيمة أصبح وضعها حرج من كثرة الذين يترددون عليها بحجة أن عندهم جمال وحصين وحمير يريدون أن يؤجروها ... أهم من هذا كله هي مشكلة البنك الذي لا يصرف لنا إلا بمكتوب مسبق بثلاثة أيام . أرجو إفادتنا إفادة سريعة .

أخوكم : يحيى عبد الرحمن

٩/١٩

الأنصار العرب (٢١)

تحت الحصار..في كونر

كان أسامة قد ودّع أمين يوم أن يمم هذا إلى « جاجي » ليعود بعدها مرة أخرى إلى « شترال » .. ويقول : « بقينا نعمل في الترحيل هناك حتى عدت في يوم من الأيام إلى بشاور وبداخلي شعور نفسي بأن هنالك شيء ما .. وعندما وصلت مكتب الخدمات ودخلت ، وجدت الأخ أبا الحسن فأخبرني عن استشهاد يحيى قبل يوم مضى .. وهكذا التقيت مرة أخرى بأمين وكان قد خرج من المستشفى وذهب إلى منزل أبي الحسن وكان معه الأخ عبد الوهاب يرحمه الله والأخ أبو ذر الليبي والأخ حسان .. وبعد فترة عدت إلى نفس الخيمة بغُند الفتح في (جاجي) لنستمر في ترحيل السلاح ، فكنت أجلس عشرة أيام أو ١٥ يوماً وأعود لأرجع مرة أخرى وهكذا .. وخلال هذه الفترة جاء أخ من البحرين أصيب في (لوغر) عندما حوصر منزل الشهيد د. ولي الأفغاني ، فقُتِل وجرح الأخ بطلقتين في يده ، فأتوا به إلى بشاور وكان معه أخ مرافق إسمه ابراهيم ، فالتقينا إثنان مرافقان وإثنان جرحى .. وعندما التأم جرح أمين ولم يبق عليه إلا إنتظار التئام الكسر إستأذنا أنا والأخ إبراهيم وذهبنا إلى (كونر) وتقابلنا مع الشهيد عبد الوهاب هناك ، وبعد ثلاثة أو أربعة أسابيع عدنا إلى بشاور .. وكان أمين لا يزال مجبّر الرجل .. وقتها التقيت بالأخ محمد جمال خليفة (أبو البراء) وكان مدرسنا في المدينة ، جاء لفتح مكتب الرابطة العالم الإسلامي فساعدته بعض الشيء في التأسيس .. ثم عاودت الذهاب إلى مناطق قريبة من الجبهات مثل (ننجرهار) و (تشمكني) .. » .

في تلك الفترة كان شفيق قد عاد من المملكة بتاريخ ١٥ شوال ١٤٠٥.. فاتجه أول قدومه إلى (ننجرهار) مع عبد الرحمن وأبي محمد السوداني .. يقول رحمه الله : « جلست قرابة الشهر هناك ثم عدت ثانية وكان الثلج قد بدأ بالنزول .. عدت ورأيت أمين مصاباً .. وأسامة كان قد ذهب إلى (كونر) .. ولما عاد طلعت مع يعقوب الذي جاد جريحاً وتعالج طلعنا إلى (لوغر) سوياً ، ولما عدت تقابلت مع أبي الحسن فجمعنا أنا وسعود وبعض الشباب الذين يعرفهم من قبل وطلب منا الإنضمام إلى عملية الترحيل ، وكان أن ذهبت أنا وحسان (صبري) إلى (ميران شاه) لنمسك نقطتي (ميران شاه) و (أعظم ورسك) .. وفي تلك الفترة كان أسامة قد عاد إلى (شترال) لمتابعة الترحيل مرة أخرى مع سعود ولمساعدة المهاجرين هناك .. » .

عاد أسامة إلى بشاور من « شترال » بعد أن عرّف سعود على المنطقة وسلمه رصيد البنك .. ولم يلبث سعود أن لحق به ساعة أن علم بوصول أخيه للباكستان ، ووقتذاك كان على كل المتواجدين من العرب في

بشاور أن يلتحقوا – بأمرٍ من أبي دجانة قيّم مكتب الخدمات حينذاك – بمعسكر التدريب – كما مرّ معنا – يقول أسامة : « وهكذا ذهبنا جميعاً .. حتى الأخ أمين ذهب معنا برجله المجبّسة وكذلك الأخ يعقوب برغم إصابته بيده .. لكنهما لما أحسا بالتعب هناك أعفوهما فعادا .. وبعد انتهاء التدريب إنطلق كل منا إلى عمله ، فارتبطتُ مع أبي البراء في الرابطة ، واستأذن سعود من أبي الحسن في الدخول مع أخيه إلى الجبهة ليعلم كيف يجاهد وكيف يتعاون مع الأفغان ، لأنه ذهب قبل ذلك إلى (جوزجان) وعرف عادات الأفغان جيداً .. وهكذا دخل سعود وأخوه وعبد الصمد وعبد الوهاب إلى (ننجرهار) وذهب معهم عدد من الإخوة منهم أبو سعيد السوري وأبو الوليد الشهيد يرحمه الله ، وأبو تقي وهو مصري أصيب برجله فيما بعد .. » .

كان شفيق رحمه الله يكمل خلال هذه الفترة مهمة الترحيل في « ميران شاه » مع حسان « صبري » عندما تلقى أمراً مفاجئاً من أبي الحسن المدني بالتوقف ! يقول رحمه الله : « كنت قد أمضيت شهراً وزيادة عندما جاءني أسامة ومعه صبري وقالا بأن أمراً جاء من أبي الحسن أن الترحيل توقف بعدما حدثت بعض المشاكل ، وصار بعض الأفغان يبيعون الأسلحة في (تري منجل) ومناطق حدودية أخرى .. ويأخذوا أثمانها لهم ! البعض بالطبع .. والحقيقة لم يحصل معنا هذا الأمر في (ميران شاه) أو ربما لم نره ، وكانت عندنا بعض القوافل تستعد للترحيل فرحّلنا الذين كنا نرى فيهم خيراً وأقفلنا العملية ، ووقتها رجع أسامة وصبري وبقيت أنا في (ميران شاه) حيث تعلمت دورة في التمريض بالمستشفى هناك إستعداداً للدخول بعد الشتاء .. وبعد شهر تقريباً عدت مع انتهاء الدورة إلى بشاور فذهبت في البداية إلى الرابطة لكنني لم أنسجم مع العمل هناك فذهبت مع الأخ أبي حنيفة إلى التدريب وكان وقتها في (ورسك) وبعد فترة وجيزة أكملنا تدريبنا وتوجهنا معاً إلى (كونر) وكان قد سبقنا إليها الأخ عمر المكي رحمه الله وأبو الحسن من ليبيا .. » .

كانت أيام عام ٨٥ قد انصرمت ودخل الجهاد الأفغاني عاماً جديداً في مواجهة الإحتلال السوفييتي واعتداءاته المتصاعدة .. يقول أبو الحسن المدني – وكان قد أصبح مديراً رسمياً للهلال الأحمر السعودي منذ نهاية العام السابق – : « في مطلع عام ٨٦ بدأت سلسلة معارك فريدة من نوعها ، إبتداء من الشمال وأنت نازل . بدأت أول ما بدأت في (ننجرهار) .. ثم امتدت إلى (كونر) .. بعدها انتقلت المعركة إلى (خوست) وهكذا .. ففي (ننجرهار) دخل الأخ عبد الوهاب الغامدي والأخ سعود رشود البحري وعبد الصمد الجزائري ، دخلوا معركة دفاعية هجومية مع المجاهدين واستشهدوا جميعاً عليهم رحمة الله بقذيفة هاون [1] .. وفي (كونر) حدث إنزال سريع والتفاف من الكوماندز الروسي عن طريق الأراضي الباكستانية صعوداً نحو معسكرات المجاهدين داخل أفغانستان ، وما هي إلا ليلة ويوم حتى أصبحت هذه المعسكرات كلها في أيديهم .. » .

كان شفيق قد وصل « كونر » مع أبي حنيفة والتقيا هناك بعمر المكي الذي استشهد في الساعات التالية ومعه أبو الحسن الليبي الذي نجا من طوق محكم للروس على معسكرات المجاهدين ! يقول شفيق رحمه الله : « كان الشهيد عمر المكي ينوي العودة إلى السعودية لجمع تبرعات للمجاهدين وكان يصوّر وقتها (الزيكوياك) والمجاهدين ويقول : سأذهب وأستخدم هذه الصور كدعوة للجهاد وسأجمع ما أستطيع من فلوس وأعود .. لكنني لما حدثته عن الجنة وعن الجهاد وعن متاع الدنيا الزائل تغير مقصده ، وأقسم أن لا يذهب وقال لي : خلاص .. إتفقنا ، إذهب أنت وفصِّلْ لي بدلة في بشاور وأنا أذهب إلى كابل ولا أرجع .. » ولم يرجع رحمه الله .. فدبابات السوفييت كانت في طريقها إلى « معسكر أسامة بن زيد » حيث يقيمون . يقول أسامة : « تمتاز (كونر) بجبالها العالية والمنتصبة بحيث تستطيع أن تشاهد كل شيء تحتك ؛ كانت القوة آتية من طريقين : نصفها آت من (جلال آباد) وفرقة أخرى آتية من (ساكاني) ولما رأيناها قلنا للأمير : هل نقصف ؟ قال : إنتظروا للغد حتى يصفى الجو .. فزعلنا من هذا الكلام ، وماجاء العصر إلا وأتى الترصد يخبرنا بأن الدبابات عبرت النهر وجاءت إلينا من الجهة الثانية ، فأخذ أبو حنيفة وعمر أمنيات الطريق في الخلف ، وتقدمت أنا وأبو الحسن الليبي مع المجاهدين وكانوا ١٧ مجاهداً ومعنا مدفع ٨٢ مم عديم الإرتداد وقاذفا دروع فقط ورشاشات خفيفة .. » وخاض الإخوة معركة عنيفة غير متكافئة .. « وانتهت الذخيرة .. ولم يبق إلا أنا وأبو الحسن واثنين من القومندانات وعدد من المجاهدين لا نجاوز السبعة جميعاً .. فرجعنا إلى آخر نقطة للتمركز ، ثم عاد الأربعة وبقينا هناك ثلاثة أنفار كامنين .. » ويتابع رحمه الله : « كان الوقت قبل الفجر بساعتين ، ولم يلبث أن وصل المجاهدون بكميات كبيرة وبدأوا يسدون الثغرات ، فقلت لنفسي : أذهب إلى المركز أملأ ذخيرتي – فوقتها لم يبق معي إلا ست طلقات – وإذا رأيت حاجة أرجع ، وفي المركز إطمأن المجاهدون وقالوا : خلاص ، لايوجد شيء ، فأخذنا (الميكروفونات) وبدأنا نكبّر ونشتم العدو حتى ينهزموا معنوياً على الأقل .. ولما عدنا هدأ الوضع .. وكان الفجر يؤذن حينذاك ، رأيت الأخوة منهكين ، كنا جميعاً متعبين .. نام القومندان ، ونام عمر المكي يرحمه الله وأبو حنيفة وأبو الحسن .. ونمت أنا أيضا ولكن على غير اطمئنان .. أحس أمراً سيحصل من ميسرة الجبهة .. قرابة الساعة ، وما أن بدأ النور يشق حتى دوى إنفجار شديد في الغرفة صحونا عليه .. فتحت عيني فوجدتني محاطاً بالدخان الأسود وبالغبار .. وبدأ إطلاق (الكلاشنكوفات) و (الدشكا) و (الزيكوياك) في الخارج وكلها تضرب .. خرج القائد ليستطلع الأمر .. كان يريد أن يقول للمجاهدين : لا تضربوا بدون إجازة .. خرج ورجع .. فقد كان جميع من في الخارج من الكوماندز الأعداء ! غضب غضبة شديدة حتى ما عاد يبالي بأي أحد أمامه .. دفعني وقال لي : روس .. روس .. وسحب أجزاء رشاشه وطلع .. كان فمه مفتوحاً على آخره من القهر ، وما كاد يطلع حتى سمعناه يكبر وخرّ مكانه .. » ويتابع شفيق : « .. بقي معنا سلاح واحد هو سلاح أبي الحسن وقنبلة

يدوية واحدة .. فقلنا ليس أمامنا إلا أن ننسحب . كان عمر في الغرفة الثانية قد استشهد مع عدد آخر من المجاهدين .. وبقيت أنا وأبو الحسن وأبو حنيفة وكان ماشاء الله مستصح .. ولم يكن أمامنا إلا أن ننزل منحدراً شديداً حتى نصعد بعدها إلى المركز الأعلى ؛ تسللنا من الغرفة وأعمى الله أبصارهم عنا ، وكانت مجموعة منهم أمامها يُعدّوا الخطة للهجوم ، سمعناهم وهم يتشاورون كيف يدخلون الغرفة ، وكانوا هم الذين قتلوا القائد .. قلت لأبي حنيفة : تلصّق بي لنجري مع بعض .. كنت أخاف أن يتعثر من سِمَنِه فأضطر للبقاء معه .. نزل أبو الحسن ونزلت وراءه ، لكنني لما نظرت خلفي لم أجد أبا حنيفة ! بدأت أصيح له والروس أمامنا فوق الجبل .. ولحظة أن رأونا وبدأوا يضربوا علينا سهّل الله على أبي حنيفة ونزل ، كيف ؟ لا أدري ! مشينا مع الأشجار وكانت كثيفة جداً وقررنا أن نصعد إلى المركز الرئيسي للقيادة في الأعلى .. بدأنا بالصعود قليلاً وإذ بالعدو يطلق (الفشنك) التنوير ليشير إلى المدفعية بأنهم استولوا على هذا الموقع ! قلت : خلاص ، المركز الذي فوقنا سقط وعلينا أن ننزل من جديد ونغيّر طريقنا! كان بيننا وبين الباكستان جبل ، والروس يحيطون بالمعسكر كله بعد أن دخوله ، في هذا الوقت وقبل أن تغلق الكماشة بالكامل كان المجاهدون قد خرجوا جميعاً ومن ضمنهم أبو الحسن ، فلم يبق إلا أنا وأبو حنيفة ، وجاءنا بعدها طفل أفغاني صغير وليس في المعسكر إلا الروس الذين بدأوا يطلقون صواريخ المجاهدين على معسكراتهم السفلى قبل أن يدخلوها .. وبين الظهر والعصر جاءت طائرات الهليكوبتر وبدأت تقصف قمة الجبل التي نحن تحتها فاستبشرتُ خيراً ! كنا نفكر بأن نبقى إلى الليل لنخترق الطوق خلاله وننزل باكستان ، فلما جاءت الطائرات وقصفت استبشرت بأن هذه المنطقة خَلَتْ من الروس وأن فيها مجاهدين ولذلك ضربتها الهليوكبتر .. فقررنا الصعود . كان الجبل صخرياً أبيض كله ، لا تنبت الأشجار في قمته ، وكان جميع من في المعسكر أسفل منا يروننا ونحن نراهم .. فإذا صحت لأبي حنيفة أطلقوا علينا من الأسفل بـ (الكلاكوفات) .. ومن فوقنا كان المجاهدون يطلقون علينا ويعتقون أننا أعداء ! خلاص .. بعناها ! تعدينا مرحلة الخوف وصرنا نتقبل أي شيء إلا الأسر .. وقرابة المغرب وصلنا القمة فوجدنا مجموعة من المجاهدين الباكستانيين يسمون أنفسهم (الأنصار) طالعين ببنادقهم الإنجليزية للمؤازرة ، فأنزلونا معهم إلى قريتهم أسفل الجبل ، ثم لم يلبث أن عاد المجاهدون وحشدوا حشودهم من جديد .. ولما عدت بعد يومين وجدت أن الروس قد انهزموا .. وتم فتح المعسكر من جديد ، فلم ألبث أن عدت إلى بشاور .. وعاد معي أبو حنيفة .. لنلتقي بأسامة هناك .. » .

في بشاور لم يكد أسامة يسمع من شفيق تفاصيل ما حدث في معسكر أسامة بن زيد حتى غلبته أشواقه للعودة إلى الجبهات وفاضت فغلبت معه شفيق أيضاً .. يقول أسامة : « عدت وشفيق مرة أخرى إلى (كونر) حتي نرى إذا كانت هناك عمليات فنشترك فيها .. لكن عيناً أصابتني (يضحك) ففي الطريق أصابني المرض .. وكان الجو غائماً .. والأمطار متواصلة .. ولما وصلنا الحدود سألنا :هل هناك عمليات ؟ فقالوا : لا يوجد .. عندئذ رجعنا بشاور من جديد ، وأردنا أن نذهب مباشرة إلى (ميران شاه) فندخل

الجبهة من هناك ، لكننا أخطأنا الطريق وركبنا (الأوتوبيس) الذاهب إلى (برجنار) فبتنا فيها ليلتنا وعدنا منها إلى (ميران شاه) لنجد القوة قد وصلت (جاور) واشتدت المعارك في تلك الأنحاء » .

هوامش

(١) وقعت المعركة بتاريخ ٨٦/٢/١١ وشارك فيها ٤٢٠ مجاهداً بينهم ١٢ من بلاد المسلمين .. وكان الشهداء العرب الثلاثة في مجموعة الإقتحام . أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ١٦ – جمادى الآخرة ١٤٠٦ – يناير ١٩٨٦ – صـ١٠

الأنصار العرب (٢٢)

كتيبة الغرباء

كان السوفييت بعد الفشل الذي مُنوا به في هجوم العام الماضي على ولاية « باكتيا » قد علموا – دون شك – أن إدارة الشيخ جلال الدين حقاني للمنطقة تحمل من ركائز الإستمرارية والثبات والنجاح قدر ما تحمل من دلالات الخطورة المتصاعدة ضد قوات الإحتلال وعملائها هناك .. ولم يكن خافياً على أحد أن هذه الولاية الحدودية تتحكم بالفعل في طرق إمداد المجاهدين لسبع عشرة ولاية أفغانية أخرى ، في الوقت الذي يُحكم المجاهدون فيه حصارهم لمدينتي « خوست » بمطارها العسكري الهام ، و« جارديز » عاصمة الولاية .. وهكذا عاد السوفييت ليجربوا مرة أخرى في « باكتيا » ودفعوا نحو قاعدة « جاور » الرئيسية التي يدير الشيخ جلال الدين منها مجاهديه ثلاثين ألف جندي أفغاني من مختلف الأسلحة البرية ، يساندهم خبراء سوفييت في قطاع المدفيعة والمعدات الإلكترونية ، بالإضافة إلى ستة آلاف من جنود الكوماندز السوفييت .. (١).

مهد السوفييت لهجومهم بقصف جوي مكثف ، بدأ منذ الثلاثين من مارس يأخذ طابعاً عنيفاً ، حيث تراوح عدد الطائرات المغيرة على « جاور » منذ ذلك التاريخ وحتى سقوطها ما بين ثمانين إلى مائة طائرة يومياً .. واستخدم الروس طائرات « توبولوف ٢٦ » القاذفة الإستراتيجية التي تنطلق من قواعد على الحدود السوفييتية ، لكن الدور البارز كان لطائرات « السوخوي » الحديثة خاصة « تي . يو ٢٢ » و« تي . يو ٥٢ » .. ويؤكد بعض العاملين على الرشاشات أن بعض هذه الأنواع من الطائرات مصفح من الأسفل بحيث لا تخترقها طلقات الرشاشات الثقيلة حتى عيار ١٤٫٥ مم وهو أكبر عيار متوفر لدى المجاهدين (٢) ولقد صرّح العسكريون الباكستانون الذين شهدوا المعركة من الحدود بأن القصف الذي صُبَّ على معسكر « جاور » الصغير هذا لم تشهده القارة الهندية طيلة تاريخها ، ولم يحصل في الحروب الهندية – الباكستانية مثل هذا (٣) ولقد استطاع المجاهدون – الذين علموا عن طريق مصادرهم الخاصة بساعة الصفر التي حددها العدو – أن ينصبوا كميناً ناجحاً للغاية إستقبلوا به عشرات طائرات الهليوكبتر كانت تقل أكثر من ٥٠٠ جندي كوماندز حكومي وتنفّذ بهم عملية إنزال سريّة خلف « جاور » .. ووقتذاك تعرضت هذه القوات إلى كارثة تاريخية في حرب أفغانستان ، وتمكن المجاهدون من تدمير ست من هذه الطائرات ، ثلاثة منها في مواضع الهبوط وثلاث أخرى تحطمت قبل وصولها إلى « خوست » أما أفراد القوة فلم ينج منهم أحد من القتل أو الأسر (٤) وبعد اشتداد القصف وإصابة الشيخ جلال الدين حقاني في « جاور » قرر المجاهدون الإنسحاب ،

وسقطت « جاور » يومين اثنين في أيدي العدو .. ليعود المجاهدون فيشنوا هجوماً مضاداً عليهم ويجبرونهم به على الإنسحاب والتقهقر حتى أسوار مدينة « خوست » من جديد . يقول أبوالحسن : « كنت أول من شهد تلك المعركة من الإخوة العرب ، فبعد أن سمعت بالهجوم ذهبت إلى هناك ووجدت الأخوين : أبا حنفي وأبا عبيدة اللحام المصري في (ميران شاه) فاصطحبتهما معي ودخلنا إلى هناك ومعنا د. عبد القدوس الأفغاني على أمل أن ننقل الجرحى من المعركة إلى المستشفيات .. » .

لم تكن « جاور » قد سقطت وقتذاك ، وكان القصف على أشده فوقها ، وبحكم التكوين الجيولوجي للمنطقة فقد أقام الشيخ جلال فيها قاعدته داخل أنفاق حفرها في جدارسيل عمودي ، تحوطه مراكز الدفاع الأرضي والجوي من كل مكان . ويضيف أبوالحسن : « لحظة أن وصلنا وجدنا ثلاثة من الكهوف دُمّرت على من فيها من المجاهدين ، كانت الساعة الخامسة عصراً ، حاولنا حفر منفذ للمحاصرين تحت الركام .. مضت نصف ساعة وإذ بأحد المجاهدين يصيح من أعلى الجبل : جاءت الطائرات .. فسألنا : أين نذهب ؟ قالوا : ادخلوا هذا الكهف فدخلنا .. وكان الرابع الذي يلي الثلاثة المنهدمة ، ومن هناك رأينا سلسلة طويلة متصلة على مدّ النظر من طائرات (سوخوي ٢٥) .. كانت الطائرة التي ترمي حمولتها لا ترجع .. تأتي ثانية غيرها وهكذا .. وبعد القذيفة الثالثة دُمّرَ نفس الكهف الذي دخلناه علينا .. كانت الساعة الخامسة والنصف ، وكنا داخل الكهف سبعة : أنا ، وأبو عبيدة اللحام ، ود. عبد القدوس الأفغاني ، والممرض سلطان الأفغاني ، وثلاثة إخوة آخرين من المجاهدين الأفغان . كنا مع كل قذيفة تنزل نُدْفَن تحت الأرض أكثر ، ولم أعرف معنى الظلام الدامس في حياتي إلا في هذا المكان ! في الساعة السادسة وعشر دقائق – أي بعد أربعين دقيقة من الإحتجاز – جاءت آخر طائرة على وجه التحديد وآخر قذيفة ، لتفتح لنا في بوابة الكهف كوّة .. فكانت لنا طريقاً إلى النور من جديد » ويتابع أبو الحسن : « كان أول ما فكرنا فيه بعد خروجنا هو الشيخ جلال الدين فقد كان معنا في الكهف الذي يلينا ، لكنه وقبل القذيفة الثالثة التي دفنتنا ذهب خلف جبل حجري صغير واحتمى هناك .. ذهبنا نبحث عنه فوجدناه محروقاً .. والأخوة الذين معه محروقين أيضاً ، والضابط الذي معهم مصاب إصابة بليغة جداً ، ظلوا أول نصف ساعة بعيدين جميعاً عن القصف ، لكن إحدى القنابل نزلت خلف هذا الجبل الصغير بالقرب منهم ، فدفعت الشيخ جلال بقوتها دفعة عالية ليسقط وسط النيران ، وسرعان ما رمى أحد المجاهدين نفسه داخل النار ليُخرج الشيخ جلال .. بينما استشهد الضابط الذي كان معه » .

* * *

في بشاور كان الإخوة العرب لا يزالون يتتبعون أخبار المعركة ويترقبون التفاصيل .. لكن مجموعة عبد الرحمن المصري رحمه الله : أبا حفص وأبا الوليد وأبا عبيدة البنشيري .. كانت تحاول أن تُقدّم للمجاهدين شيئاً مع بدايات الهجوم .. ولو بالنصيحة والرأي . يقول أبو حفص : « مع بداية الهجوم أرسل الشيخ جلال في طلبنا فذهبنا أنا وأبو الوليد ونصحناه أن يخلي (جاور) وأن يعمل كمائن خارج المنطقة تماماً لإيقاف القوة أو تأخيرها فهذا أفضل ، لكنه كان مصماً تماماً على الإحتفاظ بـ (جاور) .. أثناء ذلك مرض عبد الرحمن فبقي في (ميران شاه) ودخلت أنا وأبو عبيدة وأبوجهاد المصري إلى (جاور) .. وبعد يوم أو يومين كان أبو جهاد قد تبرع بكمية من الدم فجاءته حالة من الإرهاق ما استطاع الإستمرار بعدها فأنزلوه (ميران شاه) أيضا واستمريت أنا وأبو عبيدة .. » ويتابع أبو حفص : « في بداية المعركة كان القصف يستمر طوال اليوم لكنه أصبح بعد ذلك طوال النهار وطوال الليل .. فإذا توقفت الطائرات تبدأ المدفعية ! وكانوا راصدين المواقع كلها رصداً دقيقاً جداً جداً .. وكانت طائرات (السوخوي) والقنابل الباراشوتية تُستخدم لأول مرة .. وكانت الحكومة مصممة على وصول (جاور) بشكل عجيب .. وفي بداية المعركة أصيب الشيخ جلال .. ورُدم الكهف على أبي الحسن فنزل فيما أظن إلى (ميران شاه) ونحن أتينا بعده بخمسة أيام . وأثناء المعركة جاء أسامة وشفيق رحمه الله وكان بعض الإخوة الأفغان على موقع (دشكا) فحصل عليهم قصف شديد تركوا المدفع لسببه ، فطلع أسامة وشفيق واستلموه واشتبكوا مع الطيران ، لكن بقية الإخوة العرب الذين وُجِدوا لم تكن لهم مشاركة وظلوا داخل الأنفاق منهم أبو حنفي الونش والأخ عامر .. وكان الأفغان قد منعوا أحداً من الدخول لأن المعارك شديدة جداً ، ودُمّرت كل مواقع الأسلحة المضادة للطائرات تقريباً ، وأصيب أبو عبيدة بعد أيام من القتال إصابة لم تكن خطيرة .. فوقتها كان لدينا شبه خندق مفتوح الجانبين نختبئ فيه من الطيران والقصف .. وفي تلك المعركة كان الجيش الباكستاني يشارك مشاركة فعلية .. فأتى عقيد باكستاني ومعه نقيب مظلات وأربعة ضباط صف يريدون أن يجربوا صواريخ (بلوبايب) البريطانية لأول مرة ، فاختاروا موقعنا نفسه وجلسوا فيه .. وكانت أسوا تجربة .. ضربوا تسعة صواريخ تقريباً فما أصابوا أي طائرة ! لكن الموقع قصف بسبب ذلك قصفاً مركّزاً .. أصيب أبو عبيدة على إثره ، فحملته وأنزلته إلى المستشفى تحت ثم صعدت مرة أخرى ، واشتد القصف .. وحقيقة أنا لم أشاهد في كل أفغانستان قصف طائرات مثل ما شهدته في (جاور) في الدقة وفي الكثافة .. ففي يوم من الأيام جلست أعدّ الطائرات فبلغت في فترة وجيزة ٨٤ طائرة كانت تأتي وراء بعضها .. تقصف وتعود ! وكانت المشكلة التي تقابلنا في طائرات (السوخوي) التي كانت دقيقة جداً في الرمي وقادرة على الإنخفاض إلى مسافة قريبة جداً دون أن تتأثر بالمضادات .. حتى أصيب المجاهدون بحالة من اليأس .. وعلى هذه الحال إستمريت حتى قبل دخول القوات إلى (جاور) بيوم أو يومين ، ولم يُصَب موقعنا طوال ذلك

من فضل الله إلا في هذا اليوم .. حينما كان النقيب الباكستاني يصوّر طائرات (السوخوي) وهي تتحرك فوقنا .. وفجأة سقطت قذيفة في وسطنا تماماً كنت أقرب واحد منها ، فدخلتُ في الموجة الإنفجارية .. لكنني كنت مرتفعاً قليلاً عنها .. وأحسست وكأن خناجر دخلت في ظهري حتى ظننت أني قتلت حتماً .. لكنني وجدتُ نفسي بعد ذلك لا أزال أتنفس .. فتحاملت ونهضت وكان القصف لا يزال مستمراً ، ذهبت أبحث عن أحد يحملني .. دخلت الغرفة التي نحتمي فيها فوجدت كل من فيها أصيبوا إصابات أشد مني : واحداً قطعت رجله .. وآخر مصاب برقبته .. وكلهم بحالة إغماء : الأفغان والباكستانيين الأربعة الرقباء ، والنقيب الباكستاني أصيب أيضاً وطار مع بداية الإنفجار في الهواء ! ولم يكن غيري من يستطيع أن يتحرك .. ولا كان أحد يستطيع الصعود إلينا أصلاً .. مشيت إلى الخلف .. حيث كان لنا بغل نحمل عليه الذخائر فوجدته مقصوماً إلى نصفين هو أيضاً ! فقلت لنفسي : أتوكل على الله وأعتمد على قوتي الجسمانية .. وكنت وقتها قد أصبت بحالة شدية جداً من اللامبالاة .. فأثناء نزولي أتت بعض الطائرات وقصفت .. وكنا قد أصبحنا نتيجة الخبرة في المعارك نستطيع أن نعرف مكان سقوط القذائف وهي في الجو .. فلما رأيت الطائرة تقصف أحسست أن هذه القذائف ستأتي على نفس مكاني ، وسبحان الله كانوا ست قذائف .. فقلت : لا داعي أن أنبطح أو أتوارى فالموضوع انتهى خلاص ! لكن القذيفتين اللتين نزلتا أمامي مباشرة لم تنفجرا ، والأربعة الأخرى التي نزلت أعلى مني إنفجرت كلها ، ولكني لم أصب بأي شيء .. وتابعت النزول .. وكانت المشكلة أن تأتي سيارة لتأخذني ، لكن أخاً أفغانياً لما علم أنني أصبت وكان من أعزّ أصدقائنا جازف بنفسه ودخل (جاور) بسيارة تحت هذا القصف ونقلني إلى مستشفى (ميران شاه) .. » .

ويكمل أسامة مشاهداته وقتذاك .. ويقول : « في (ميران شاه) كان الأسرى الشيوعيون قد وصلوا .. وفي الطريق ونحن نتجه إلى (جاور) مررنا على حطام طائرتي هليوكبتر كان المجاهدون قد أسقطوهما .. وصلنا إلى مستشفى (جاور) فوجدنا الأخ أبا حفص المصري .. وأبا عبيدة الذي أصيب بشظية في ظهره .. وكان هناك أيضا أبو البراء محمد خليفة ، وأبو جهاد المصري وغيرهم .. وكان القصف شديداً جداً ، وكانت أكثر المناطق المهمة في المعسكر قد ضُربت .. وتحطمت أكثر مضادات الطيران .. وكان قد حصل الردم على أبي الحسن .. ومع إزدياد القصف إزداد تعب شفيق من إلتهاب اللوزتين الذي أصابه فنزل إلى المستشفى في نفس الوادي ، وعدت أنا إلى بشاور لأطمئن على أمين وأعود .. » ويتابع شفيق رواية الأحداث من جانبه ويقول : « لما ذهب أسامة وكان أكثر المجاهدين قد أصيب أو استشهد وخاصة أهل الأسلحة الثقيلة .. حتى لم يعد هناك إلا مدفعا (زيكوياك) فقط يشتغلان في منطقة (جاور) ! وحتى منطقة (الحزب الإسلامي) في (جهاد وال) قصفت قصفاً شديداً أيضاً ، فأمروا المجاهدين بالإنسحاب .. وانسحبت معهم إلى (ميران شاه) وصرنا نشاهد (الفشنك) يُطلق من (جاور) إلى وادي (خوست) .. وصارت الطائرات تستعرض في الجو احتفالاً بهذا النصر .. » .

* * *

كان الإخوة العرب قد استعدوا للتحرك نحو « ميران شاه » عندما وصل أسامة إلى بشاور فوجد أن النفير العام قد أعلن . يقول أبو عبد الله : « كسب العدو الجولة الأولى في (جاور) وكنت مسافراً وقتها - للأسف - وأتيت آخر أيام المعركة .. فجمعنا الإخوة الموجودين هنا ، فبلغو ا ٤٥ أخاً وذهبنا سوياً أنا والشيخ عبد الله معهم إلى (ميران شاه) وهناك كان الشيخ غلب الدين وكان القصف لا يزال مستمراً .. » ويتابع أسامة « أزمراي » من جهته فيقول : « وصلتُ بشاور فوجدت أمين قد سافر إلى اليمن ، وكان أبو عبد الله والشيخ عبد الله عزام يعدان العدة في الرابطة للذهاب إلى (جاور) فكلمت الأخ مهند وعدداً من الإخوة واستأجرنا (فلانكوج) وطلعنا وحدنا إلى (ميران شاه) وهناك وجدنا شفيق قد عاد فاتفقنا على أن ندخل ثانية مع المجاهدين الأفغان لمقابلة القوة . لكن أبا عبد الله كان قد وصل مع الإخوة وطلب منا البقاء معهم وأصرّ على ذلك .. ثم طلب منا أن نشتري بعض الأسلحة وكانت هذه أول عملية شراء سلاح للعرب ، فاشتريناعشرة قاذفات (آر . بي . جي ٧) و ٦ أو ٧ رشاشات (ديكتريوف) وكذا (بي . كي) (غرينوف خفيف) .. وأكملنا تجهيز (الكلاشنكوفات) الباقية من الشيخ جلال ومن الحزب الإسلامي .. وفي مقر الحزب بايع الجميع الشيخ عبد الله عزام على القتال ، فسمّانا وقتذاك بكتيبة الغرباء .. » .

« .. كانت معنويات الذين نفروا طيبة جداً ، وكان الإخوة في شوق لدخول الجبهات ، لكن الشيخ جلال لم يسمح لنا بذلك وكان يقول : الخطب جلل ، وأنتم لا تستطيعون تصوّر الحكاية .. » هكذا يفتتح أبو هاجر أمير مكتب الخدمات وقتذاك سجل ذكرياته المرهفة عن هاتيك الأيام ويقول (٦) : « أبقونا ثلاثة أيام جالسين هناك إستفدنا منها بتنظيم دروس للإخوة حتى نمتص إنتظارهم ! وفي ذلك اليوم سمّانا الشيخ عبد الله كتيبة الغرباء وقال : سميناكم كذلك لأنكم غرباء ، وهذه أول مرة نخرج فيها بهذه الكثافة ، وأول مرة يأتي العرب دفعة واحدة لمناصرة الأفغان ، فكان للكلمة وقع في نفوس الإخوة ، وأعطوا الشيخ عبد الله بيعة على الجهاد ، لكن بعض الناس فهمها بيعة على الموت ! فقلنا لهم : لا يا إخوة ، بيعة الموت معناها ألا ترجعوا أبداً ، فإما أن يظهركم الله على عدوكم أو تُقْتَلوا في سبيله . وفهم بعض الإخوة أنها بيعة للأبد ، وعندما رجع بعدها ظل يعتبر نفسه مبايعاً للشيخ عبد الله ، ثم تحرّج وأتى يستأذنني ويسأل .. قال لي : أنا نويتها أبدية ! قلت له : لم يطلب أحد منك ذلك ، البيعة كانت لظروفها وانتهت .. والمهم كان تفاعل الإخوة مختلفاً مع هذه البيعة لكنها كانت طيبة ، وما وجدت الشيخ عبد الله متحرجاً كمثل ذلك اليوم ، كان يشعر فعلاً بغلاوة الدماء وهو ينظر إلى الإخوة الذين سيقودهم إلى الموت .. » .

ويعود أسامة فيكمل ويقول : « أردنا أن نتحرك فقالوا لنا : إنتظروا .. نحن أرسلنا إخوة أقدر منكم وأعرف بالوضع وعندهم لياقة لاستكشاف الوضع بالداخل ، فأرسلوا الأخ نور الدين الفلسطيني والأخ عبد الأول أبا عمار الفلسطيني أيضاً لكنهما تأخرا ولم يعودا ونحن متأثرون نفسياً .. لماذا لا ندخل ؟ وأخيراً جاء الأمر بأن نتحرك . ركبنا السيارات حتى وصلنا آخر نقطة باكستانية فنزلنا ، كنا قرابة ستين شخصاً وليس معنا إلا أفغاني واحد هو السائق ، فالجندي الباكستاني إستغرب : بعضنا أسود .. ولا نعرف نتكلم .. وعددنا كبير .. ما هذا ؟ لكن أحداً لم يتكلم معه أو ينطق ! صعدنا باتجاه (جهاد وال) (٧) مشياً بعد أن وَزَّعَنا الأخوان أبو عمرو وأبو خالد الأردني على شكل أرتال ، وكانا هما اللذان يقودان المسيرة ، وعلى كل رتل عُيِّن أمير ، وأخذ البعض مهمات الترصد عن اليمين وعن الشمال .. وأخيراً وقرابة العاشرة ليلاً وصلنا (جهاد وال) وابتدأ الليل فيها ، وفي الصباح وصل حكمتيار وقال بأن القوات إنسحبت من المنطقة وتراجعت إلى الخلف ، وأن وجودكم هنا لم يعد له من داع وجزاكم الله خيراً وأحسن إليكم .. فارجعوا ! وبالفعل قرر الشيخ عبد الله عزام أن يرجع بنا وأعلن ذلك ، لكننا تضايقنا ، وتضايق أبو عبد الله وأبو البراء وكل الشباب وقالوا : المفروض حتى لو انسحبوا أن نطاردهم على الأقل أو أن نتقدم قليلاً .. لكن الشيخ عبد الله قال لهم : إن شاء الله تكونوا مأجورين .. وقفلة كفزوة .. ثم نصب لنا بعض العلامات وقال لنا : إرموا عليها .. فجعل كل منا يتدرب على الرمي .. عدنا بعدها تنفيذاً للأوامر ، ووصلنا إلى (ميران شاه) .. وانحلت كتيبة الغرباء ! » وهنا لا يفوت الأخ أبا هاجر أن يسجّل بعضاً من مشاهداته المتميزّة .. بدلالاتها المتميزة أيضاً .. فيقول : « بعد إصرار العرب على المشاركة تقسمت المجاميع ، وحمل كل واحد ما يشتهي من الأسلحة .. وملأ الإخوة جيوبهم بالزبيب والحمّص على أساس أننا مقبلون على معركة .. لكن الإخوة أكلوا ما في جيوبهم خلال الطريق حتى انتهى أكثره قبل أن نصل إلى العدو .. فسماها البعض كتيبة الحمّص ! ولما صدر الأمر بالعودة ، وما أن رجع الإخوة إلى (ميران شاه) حتى إنتهى الجهاد كفرض عين .. وسارع كل منهم نحو أقرب (فلانكوج) متجه إلى بشاور بعد أن رمى سلاحه كيفما اتفق في مضافة الشيخ حقاني .. الأمرالذي ضايق الأفغان جداً : هل هذا السلاح للإتحاد أم للحزب أم للشيخ حقاني ؟ تداخلت جميعاً .. وضاعت بعض قطع منها ، فاضطر حكمتيار إلى كتابة كتاب يتحمل فيه ما فُقد ويعفينا من المسؤولية ! » ويضيف أبو هاجر : « .. وهكذا، وللأفعال الظريفة التي فعلها إخواننا في تجربتهم الجماعية الأولى هذه سمينا كتيبة الغرباء بكتيبة الظرفاء ! » .

هوامش

(١) صحيفة « الإتحاد » – ٨٦/٦/١٥ عن تقرير لمراسلها « مصطفى حامد » .

(٢) المصدر السلبق .

(٣) أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ١٨ – ١٥ رمضان ١٤٠٦ – ٢٣ مايو ٨٦ – صـ٦ وقد ذكرت مجلة « الموقف » – العدد الثالث – رمضان وشوال ١٤٠٦ – صـ٢٥ « بأن شدة الهجوم الجوي في هذه المعركة كان بدرجة قال لنا من شارك في حرب الهند والباكستان بأنه لم يقع في كامل الحرب قصف بين الدولتين مثله » .

(٤) صحيفة « الإتحاد » – ٨٦/٦/١٥ عن تقرير لمراسلها « مصطفى حامد » .

(٥) قد تكون هذه « المجاورة » غير المقصودة بين ضباط وعسكريين باكستانيين وأفراد من الأنصار العرب هي الأولى من نوعها ، فقبل ذلك لم تُسجَل – لدي على الأقل – أية لقاءات من هذا النوع . ويقول أبو حفص إن النقيب الباكستاني عرف في النهاية أننا عرب ، وإن كانوا على علم – كما يعتقد أبـو حفص – بأن هناك تواجد عربي لمساعدة الأفغان ، ويضيف بأن النقيب عرض عليه أن يأخذه ليتدرب في الجيش الباكستاني .. فشكره أبو حفص معتذراً .. ولم يلتقيا بعد أن أصيب مرة أخرى .

(٦) في حديثه لي بتاريخ ١٩٨٨/١٠/٥ في بشاور .

(٧) « جهاد وال » : أحد أهم معسكرات حكمتيار في المنطقة .

الأنصار العرب (٢٣)

الشهيد
حمدي البنا

لم تكد سحب القتال الضاري الذي دار في جهات « خوست » تنقشع حتى اشتعلت نيران المعركة شمالاً في منطقة « جاجي » من جديد .. وسرعان ما عادت طائرات « السوخوي » المتطورة لتمارس لعبة القتل بتفوق لا يجارى .. تمهيداً للهجوم الذي استمر عشرين يوماً وشنه ثلاثة آلاف جندي من الروس وخمسة آلاف من الأفغان الحكوميين (١).

بدأ القصف الجوي على مواقع المجاهدين في معسكر سياف وغُنْد الفتح وعلى دفاعاتهم البارزة في جبال المنطقة صباح السادس والعشرين من شعبان ١٤٠٦ وبنفس التفوق الذي منحته الإضافات التصفيحية الجديدة لطائرات « السوخوي ٢٥ » أثناء غاراتها على مضادات المجاهدين ودفاعاتهم في « جاور » عاودت هذه الطائرات حملتها التدميرية فوق « جاجي » تمهيداً للهجوم البري ولعمليات الإنزال الجوي لفرق الكوماندز عالية التدريب .

كان التواجد العربي في معسكر « صدى » قد بدأ لتوّه ، حيث اتفق مكتب الخدمات مع الأستاذ سياف على إقامة مكان جديد لتدريب الإخوة العرب ضمن هذا المعسكر الواسع الذي منحته الحكومة الباكستانية إياه قبل مدة .. في تلك المنطقة الجبلية المحاذية لحدود أفغانستان، وكان عدد من الإخوة العرب الذين شاركوا في معارك « جاور » قد عادوا لتوهم إلى « صدى » وتكدسوا هناك في مكان لم يكتمل تجهيزه ابتداء .. ولم تتبلور نظم الإقامة فيه ، في الوقت الذي أُعلن فيه النفير من جديد ! يقول أبو هاجر : « ذهبتُ وعصام الدين الليبي وشخص ثالث إلى حكمتيار وقلت له : أرسلني اليك أبو عبد الله والشيخ عبد الله يخبرانك بأن الإخوة يريدون أن يشاركوا معكم .. قال لي : إئت بهم . قلت له : عندنا مستويات مختلفة من الخبرة والتدريب .. من الصفر إلى المائة ! فقال : إختاروا .. ثم قطع الحديث وراح يتحدث باللاسلكي ويتابع الخريطة أمامه ، فعرفت أنه مشغول جداً ، وأدركت أنه يجاملني ويقول لي : تعالوا ! » .. وهكذا جاء العرب بمثل ما جاءوا به معركة « جاور » من خبرات متفاوتة وتنسيق مفتقد .. وجهل بالمنطقة عند الغالبية منهم .. مع رغبة جامحة بالمشاركة وبإجابة النفير . يقول الأخ علي غزلان الذي عايش جانباً من هذه المعركة وهو في « صدى » ينتظر ويترقب : « كان القصف والقتال شديداً في (جاجي) وكان العرب راغبين في المشاركة ولكن لا يوجد تنظيم ! ذهبوا مرتين ورجعوا دون أن يوفقوا في إمساك موقع .. كنا قرابة ٦٠ - ٧٠ أخاً في

(صدى) .. وكانت فوضى عجيبة .. فكانوا يأخذون مجموعة من أربعين شخصاً إلى (جاجي) ويبقى حوالي العشرين في المعسكر ينتظرون » ويقول أبو عبد الله : « جاءت المعركة ونحن دون مستوى الإعداد لها .. كان الشباب جدداً ، معظمهم جاء من المملكة لا يعرفون السلاح ولا الرصاص ، وليس من المعقول أن نخوض بهم معارك شرسة بهذا الحجم ، فبعد إعتصار الخلاصة إستطعنا إنتقاء ٣٢ أخاً بما فيهم أربعة للأمور الطبية .. وذهبنا » ويضيف أسامة بن لادن : « كان القصف الجوي غير معقول .. كان جنونياً جداً .. كان المجاهد يرفع (الدشكا) أو (الزيكوياك) فيضرب ويضرب ويضرب .. والطائرة أمامه يراها رأي العين تنزل كالصقور ولا يؤثر المضاد شيئاً فيها .. وبلحظة خاطفة تنقض على الرشاش قذيفتان أو أربع فيتبخر هو والذي معه ! وهكذا فقد المجاهدون أكثر من أربعين مضاداً .. وما رأيت معنويات المجاهدين محطمة كتلك المعركة لكن الله ثبت بعضاً منهم ، وكان أحدهم لا يتجاوز الخامسة عشرة على آخر المضادات ، فجاء أخونا أبو عمرو الأردني ينصحه بعدم وجود فائدة من المضاد مع هذه الطائرات فيكفي الذي ذهب منا.. لكن الشاب رفض وأقسم بالله : لا أخرج من هذاالموقع إلا شهيداً أو جريحاً (قسماً بخداي يا زخمي يا شهيد) .. وفي الغارة التي تلت كان جريحاً بالفعل ، وأُخِذَ من فوق الجهاز مدمّى من الشظايا » ويسجل د. عبد الله عزام رحمه الله بعضاً من مشاهداته في تلك المعركة فيقول (٢) : « دخلت معسكر (جاجي) أثناء المعركة وكنت صائماً وكانت الشمس تلم أذيالها لتغيب وراء الأفق ، فتجمعنا قرابة ٦٠ شخصاً في أحد الكهوف وأغارت الطائرات ، وكان يكفي لقتل كل من في الغار قذيفة واحدة ذات وزن ألف كيلو غرام التي تخترق سبعة أمتار داخل الصخر ، وأما في التراب فلقد رأيت بعيْنَيْ رأسي النبع يخرج من جرّاء انفجارها . كان في جيبي بضعة تمرات بدأت أتحسسها وأخرجتها بيدي أنتظر الأذان ، وجاءت الأوامر بالتفرق ، وبدأت الصواريخ تنهال علينا من كل مكان .. فألقينا بأنفسنا على هذا السفح ننتظر القذيفة التي نودع بها الدنيا ، ولم أستطع خلال ساعتين أن أكمل حبّات التمر التي بين يدي ! » .. ويتابع أبو عبد الله من جديد : « استمر القصف بهذه الوحشية قرابة الأسبوعين دون أن تسقط أي طائرة للعدو .. وتقدمت قواته وبدأت عمليات الإنزال في ثلاث مواقع : أحدها في مكان (المأسدة) حالياً قبل أن تكون ، والثاني على (جبل الرماة) والثالث قبل غُنْد الفتح على اليسار إمتداد (خرشتل) باتجاه الحزب ، ولزيادة إرهاق المجاهدين استخدموا القنابل المضيئة ليلاً مع إطلاقٍ متتابع لقذائف تحمل قنابل كثيرة جداً أو ألغاماً تنتشر بلون العشب والأشجار .. وفي الساعة الحادية عشر ليلاً – والليالي ليالي رمضان – وأثناء قصف العدو مثل هذا النوع من الألغام ، أصابت بعضها خيامنا ، ولكننا من قلة الخبرة والدراية بهذه الأمور وقتذاك توقعنا أنها مجرد حجارة صغيرة تناثرت من أثر الإنفجار ! وحتى الحرس أحسوا بذلك لكن لم يتبين لهم حقيقة أنها ألغام ، وحتى عندما غلب ظن أحدهم أنها كذلك لم يخبر الإخوة مبكراً حتى يتيقن !! وفي الساعة الثانية أو الثالثة ليلاً .. وعندما قام بعض الإخوة لإعداد السحور دوّى إنفجار شديد ، واستيقظت على صوت أخينا أبي الهدى اليمني يصيح :

الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. رجلي .. رجلي .. وقتها كان المسؤولون عن المعسكر أخونا أبو خالد الأردني و أبو عمرو الأردني وأبو محمد السوداني ، فمنعوا أي أخ من الخروج مطلقاً .. وتحركوا وحدهم بالكشافات إلى الأخ المصاب فربطوا رجله ، وكنت يومها أحمل احتياطاً حبلاً إضافياً (الدكة) تحسباً لمثل هذه الحالات ، فنفع الله به وربطوا له النزيف ونُقل الأخ إلى بشاور [٣] وفي الصباح قررنا أن نغيّر مكاننا لأن المنطقة كانت مقصودة بشكل غير طبيعي ، فقد كنا جوار غُند الشيخ سياف ، حاولنا أن نتحرك الفجر لكن قلّة الضوء جعلتنا نتريث خشية أن يقع أحد آخر في الألغام وأن ننتظر إسفارالصبح ، لكن الطائرات ما أمهلتنا .. وعاجلتنا قبل الإشراق بالقصف ، فاقترحتُ على الإخوة أن نتحرك ثلاثة ثلاثة حتى تسهل حركتهم بين هذه الألغام الخضراء .. وعندما ابتعدنا عن مركز القصف إلى مكان ظننا أنه آمن ، طلبت من الإخوة أن يتأكدوا هل يوجد في رأس الجبل الذي أصبحنا في سفحه مضاد للطائرات .. لأن المضاد كان هوالمقصود بالقصف ، وكان من السهل على الطيران اكتشافه ، فقال الإخوة : لا يوجد . سألت مجموعة أخرى قالوا : لا يوجد . سألت مجموعة ثالثة ومازال في نفسي شك بأن شكل هذاالجبل يوحي بأن مضاداً على رأسه غالباً .. فقالوا : لا يوجد . لم ترتح نفسي وعزمت أن أصعد وأتأكد .. وأنا أهم بالصعود ناداني نائب الأمير وكان أخونا أبو عمرو وصاح بي من منطقة بعيدة أن آتي إليه .. فذهبت ، وكان لنا إخوة هناك فقلت لهم : تأتوا معنا أيضا ، وكان في ذلك خير ، فما كادوا يتحركوا حتى أتت طائرة فوقنا بالضبط وكانوا على مقربة من جهاز الإتصال ، ولهذا الجهاز بطارية حراية شمسية تلمع بانعكاس الشمس ، ومن فوقنا أرسلت الطائرة صاروخاً موجهاً فما كان بيننا وبين مكان سقوطه إلا عدة أمتار .. فطارت الحجارة والأتربة التي حملها الإنفجار وارتفعت كلها ثم انهمرت عليهم فدفنوا تحت الأنقاض ولكن الله سلّم فما أصابتهم إلا الرضوض والخدوش ، واستمر القصف بهذه الحالة حتى جاء دورنا .. كنت والإخوة منهمكين في حفر خندق سريع ، وإذْ بانفجار يدوّي على رأس الجبل الذي كنا في سفحه ، واتضح فيما بعد أن مضاداً كان هناك بالفعل ، وأنه أصيب إصابة مباشرة فقتل خمسة من المجاهدين الأفغان عليه فيما أظن ، وتناثرت علينا كتل حجرية كبيرة وضخمة جداً مع بعض الشظايا فقتلت واحداً من إخواننا هو حمدي البنا رحمه الله أول شهيد من مصر [٤] وأصيب ثلاثة إخوة آخرين » [٥] ويتابع أبو عبد الله : « خلّينا الأخ القتيل ونحن نرجو الله أن يغفر له ويرحمه وأخذنا الجرحى .. كان اثنان منهم قادران على المشي ، أما الثالث فأصيب بكسر في العضد وكان لا بد من حمله ، لكن كثرة الغارات وصعوبة التحرك في الجبل وعدم الخبرة الكافية حينذاك جعلتنا نمضي أكثر من ساعة لنقطع به ١٥٠ متراً فقط ، وللجهد الشديد والإرهاق الذي أصابنا رأينا أن نفطر رغم أن الدنيا رمضان .

ثم عدنا لندفن أخانا حمدي فلم ننته حتى الساعة الخامسة تقريباً بعد العصر ، والطائرات والغارات مستمرة .. » .

لم تعد مشاركة الإخوة العرب في المعركة مجدية .. وبات وجود عدد كبير منهم دونما عمل يؤدونه عبئاً على المجاهدين وعليهم .. ولهذا قرر أبو عبد الله إعادة غالبية من حضر .. وقدكان . يقول الأخ أسامة بن لادن : « كانت مهمتنا أن نزرع الألغام في الطريق المؤدية إلى معسكرات المجاهدين بحكم خبرة بعض الإخوة لدينا وتخصصهم بذلك ، لكن القصف المركّز أذهل المجاهدين عنا وصارت الإجابة على أي طلب : غير موجود ! عندها لم تعد هناك أية جدوى من السلاح الخفيف ، وصار واضحاً أن المكان غير مهيأ لحفظ الإخوة وحمايتهم .. ومع شدة القصف التي أربكت المجاهدين كثيراً فإن دخول طاقات جديدة إلى الميدان غير معروفة للقائد تربكه أكثر مما تفيده .. لذلك قررنا أن نُرَحِّل الإخوة جميعاً ، ومابقي إلاسبعة ، ثم رأينا أن نذهب إلى منطقة أخرى في غُند معسكر الفتح حيث كان الضغط أخف هناك من عند الشيخ سياف . وقلنا نأخذ المنطقة التي بين المعسكرين ونغطيها بالمجموعات البسيطة التي عندنا ، وبالفعل أرسلنا طليعة منا لنتفاهم مع الشيخ غُلب الدين حول مدى إمكانية إيجاد مكان بهذه المنطقة يكون بعيداً عن قصف الطائرات قريباً من مواقع الإلتحام .. لكن قوات العدو كانت قد تقدمت واقتربت من مواقع المجاهدين كثيراً ، في الوقت الذي كانت تحوم ١٦ طائرة هليوكوبتر أحياناً في ساحة (جاجي) لمقاومة المجاهدين إذا تعرضوا للكوماندز المتقدمين .. » ويتابع أبو عبد الله : « وهكذا اشتد الكرب ، ودمرّ القصف معظم المضادات ، واستيأس الناس بعدما بذلوا أقصى الذي يستطيعونه .. عندها أرسل الله سبحانه وتعالى قوة قوية من الريح الباردة ، ما مرّ عليّ مثلها قوة وبرودة خلال عدة فصول شتوية لي في المنطقة ، علماً بأننا كنا في عزّ الصيف ! لدرجة أن بعض الإخوة في رؤوس الجبال كادت الريح من قوتها أن تزيحه فعلاً عن مكان مسيره .. ومن شدة الهول كان لنا عشرة من الإخوة يشاركون مع مجموعة طليعة تصدي للمجاهدين ، إجتمع عليهم الليل والبرد والخوف والجوع فعادوا جميعاً، وما ثبت منهم إلا أخونا محمد حسن العراقي .. وهكذا فعلت الريح الأعاجيب – سبحان الله – وذكّرتنا بغزوة الأحزاب [٦] ومع بضعة صواريخ أطلقت من غُند الفتح يشاء الله أن تأتي في مقتل القوة المتقدمة ، أنزل الله الرعب في قلوب الأعداء وقد ظنوا أن مقاومة المجاهدين انتهت جميعاً فبدأوا بالتراجع .. في الوقت الذي وصلت فيه بعض مجموعات الشيخ سياف والشيخ غُلب الدين من المشاة يقودهم قومندان اسمه طوفان واشتبكوا مع مجموعات الكوماندز المتقدمة ، الأمرالذي أثّر مع تراجع القوة المدرعة على نفسيتهم .. وجعلهم يبادرون بالإنسحاب لايلوون على شيء .. » .

ويسجل أبوالرضا جانباً آخر من أحداث تلك المعركة شهدها بنفسه .. ويقول : « أتيت من بشاور مع أبي الحسن وأبي البراء نقصد (صدى).. لكننا ولعدم معرفتنا بالمكان بأعتباره كان جديداً أكملنا إلى (برجنار) وهناك كانت سيارات إسعاف الهلال السعودي التي أرسلها أبو الحسن تنتظر في مستشفى الجهاد التابع للجنة الدعوة ، فأكمل معهم أبو الحسن إلى الفتح بثلاث سيارات ورجعت مع أبي البراء إلى (صدى)

حيث كان يجتمع قرابة الثمانين عربياً على رأسهم أبو عبد الله والشيخ عبد الله وأبو محمد السوداني وأبو هاجر وأبو خالد الأردني وأبو عمرو الأردني - باعتبار الأخيرين مسؤولان عن (صدى) - يخططون لإرسال مشاركة من العرب في المعركة .. وبالفعل ذهب قرابة ١٥ من الإخوة .. لكنهم عادوا ومعنويات بعضهم منهارة وقد ترك سلاحه ! وفي هذه الرحلة طلب الأفغان منهم ترك الكهف الذي يحتمون فيه بعدما لم يستطيعوا معرفة مكان العدو أو المشاركة المجدية وذلك لعدم معرفتهم بالمنطقة ، ومرة أخرى ذهب الشيخ عبدالله وأبوعبد الله إلى الفتح وأرسلا رسالة من هناك لإمدادهم بإخوة مسلحين بأسلحة خفيفة ومضادة للدبابات . فتشاور المسؤولون في (صدى) وقررنا عدم إرسال أحد ! وبعد يومين حدثت الريح .. وهزم العدو »

صبيحة ذلك اليوم الذي وصل فيه أبو الحسن المدني « جاجي » كان أكثر الإخوة العرب قد عادوا .. فاتجه إلى معسكر الفتح الذي خَبِرَ مسالكه وعرف خلال السنوات الماضية تضاريس الجبال والوديان والدفاعات حوله .. يقول أبو الحسن : « صعدت إلى أعلى قمة في المعسكر فوجدت الأخ حكمتيار داخل أحد الخنادق فدخلت إليه وبقينا في موقعنا حتى المغرب حيث نزلنا للإفطار .. وعندما بدأ يصلي القيام بالمجاهدين استأذنت لأن الإنزال يبدأ عادة بعد القصف ، وكنت أحب أن أكون في جملة المرابطين أعلى الجبل لاستقبال الكوماندز ، فقد كنا في خط الدفاع الأخير ولم يكن أمامنا إلا الإنسحاب أو الخروج لاستقبالهم بصدورنا .. وما أن جاء منتصف الليل حتى هبّت ريح شديدة جعلتني كقطعة الثلج ، ووالله لقد كانت عليّ أربعة لحف إثنان تحتي وإثنان فوقي ! وفي تلك الليلة التي كانت أشبه ما تكون - والله - بليلة الأحزاب كنتَ ترى الأشجار التي وقفت صامدة طيلة عشرات السنين تكاد أن تنكسر من شدة الريح .. وقتها نزل في نفسي أن الله سبحانه وتعالى ردّهم عنا ، وأن هذه الريح قد شتتتهم ومزقتهم بما فيه الكفاية .. ووالله أصبح الصباح فلا نجد إلا قدورهم .. وظهر اليوم التالي رأينا المجاهدين يأتون محملين بالسلاح والذخيرة فرحين بالغنائم التي جمعوها دون أي عناء .. فقد انسحب العدو واشتبك المجاهدون مع بقايا الجنود بين الشجر فقتلوا معظمهم » .. ويختتم أبو عبد الله حديثه عن تلك المعركة فيقول : « كانت المعركة درساً هاماً للمجاهدين عامة وللإخوة العرب خاصة عن أهمية الإستعداد والتدريب .. إلا أنها لم تكن كافية لأخذ الخبرة والدروس المطلوبة ، ونتيجة الأثر الذي تركته المعركة على المجاهدين الأفغان فقد بدأوا يفكرون جدياً في تعزيز مواقعهم ومواقفهم ، وبدأنا نحن نساهم معهم في هذا الأمر .. حيث تعتبر هذه القاعدة من أهم القواعد التي تحمي طرق الإمداد » .. وهكذا إنتهت معركة « جاجي » وقد زودت العرب والأفغان المجاهدين معاً برصيد جديد من الخبرة والتجربة .. لكن الوجود العربي كان على موعد مع تجارب عديدة خلال الشهورالقادمة .. لها من الأهمية والحساسية معاً قدراً غير قليل !

هوامش

(١) : مجلة « الجهاد » – العدد ١٩ – ١٥ شوال ١٤٠٦ – ٢١ حزيران ٨٦ – صـ١٩

(٢) : المصدر السابق – صـه

(٣) : يقول الأخ حمزة الغامدي الذي شهد المعركة (في حديثه المسجل بتاريخ ٩٠/٥/٢٥ في بشاور) إن جزءاً من مشط قدم أبي الهدى اليمني قد بُتر نتيجة هذه الإصابة .

(٤) : الشهيد حمدي البنا « عبد الرحمن عبد الله » : أول شهيد مصري في أفغانستان ، ٢٧ سنة تقريباً ، تخرج مهندساً في المساحة الجيولوجية من مصر وحصل بعدها على بعثة لمتابعة دراسته للماجستير في لندن ، لكنه رجع قبل إكمالها وأتى عام ٨٥ للمشاركة في الجهاد . عُرِف بالهدوء .. وبالصمت .. وبكثرة تلاوة القرآن الكريم وبالمداومة على الصيام – حتى أنه صام شعبان الأخير كله – وبالترنم بالأناشيد الإسلامية .. تجول بين الجبهات فدخل « كونر » و « قندهار » ثم عاد إلى « جاجي » لينال شرف الشهادة صباح الأربعاء السادس من رمضان ١٤٠٦ – الموافق ١٥ مايو ٨٦ ويؤكد إخوانه الذين كانوا وقتها أنه جلس يتلو من كتاب الله ثم نام ليأتي القصف أثناء نومه وتكون شهادته . تقول والدته إنها عرضت عليه الزواج من أي فتاة يريدها وحدثته عن مكانته وعن المال والشهرة التي تنتظره – بعد أن عاد من بعثته – فرفض ذلك وقال لها : متاع الدنيا قليل ، الجهاد أولاً ، والجهاد يا أمي سياحة المؤمن . وفي ختام رسالة بعث بها لأهله قبيل استشهاده كتب – رحمه الله – الأبيات التالية :

قولوا لأمي لاتنوحي واصبري ... أنا عند خالقي الذي يهديني

أنا إن حُرمتُ وداعكم لجنازتي ... فملائك الرحمن لم يَدَعوني

إن لم يُصَلّ عليّ في الأرض امرؤ ... حسبي صلاتهم بعليين

أنا في ربى الفردوس أقفز شادياً ... جزلان كالعصفور بين غصون

أنا في جوار المصطفى وصحبه ... أحيا حياة الحرّ لا المسجون

أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ١٩ – صـ١٦ والعدد ٢٤ – صـ٤٠ « رسالة من أم الشهيد » و مجلة « البنيان » – العدد ١٧/١٦ – صـ٣٤ إضافة لأحاديث إخوانه عنه في بشاور .

(٥) يذكر الأخ حمزة الغامدي أن أحد الذين جرحوا هو الشهيد عبد الرحمن الجمّاز من السعودية ، والذي استشهد بعد ذلك في « بروان » .. كما كان حاضراً وقتها الأخ نجم الدين العتيبي ..

(٦) إضافة إلى هذه القوة الربانية التي ساهمت في دحر العدو فقد تحدث الدكتور عبد الله عزام في مجلة « الجهاد » – العدد ١٩ – صـ١٨ فقال : « .. بينما كنا نفرّ من شجرة إلى شجرة لاتقاء القذائف قال لي سياف : أنظر أإلى سرب الطيور ذاك الذي يسبق الطائرات . وفي اليوم التالي نظرت إلى الطائرات المغيرة فرأيت شيئاً أسود ينزل من الطائرة فقلت للإخوة معي : إختبؤوا فقد ألقت الطائرة قذيفة . قالوا : إنها طائر أسود تحت الطائرة » ويضيف رحمه الله : « حدثنا سيد عمر أمير معسكر (جاجي) وموسى خان القائد العسكري ، ووكيل إخلاص قائد إحدى الجبهات قالوا : فرّ من قوات الجيش الأفغاني إلينا مجموعة ، وحدّث أحدهم قصة عجيبة كالخيال فقال : بينما كانت دبابات الروس متجمعة ونحن فيها وحولها إذ أقبل رجل شديد بياض الثياب واقترب منها يحمل (آر . بي . جي) وأحرق خمسة أو ستة أمامنا ومضى بسكينة واطمئنان . وقال : أقبل رجل آخر يلبس الثياب البيضاء وبيده سكّين ودخل المكان الذي يتجمع فيه الروس وذبح ثلاثة بيده ثم مضى وعليه السكينة والوقار .. » .

الأنصار العرب (٢٤)

من سجلات النقد الذاتي

مع انتهاء عام ١٩٨٥ كانت غالبية لجان مكتب الخدمات قد تبلورت وبدأت في العطاء . يقول أبو هاجر : « بالنسبة للجنة التعليمية : كانت هناك مشاريع لإحصاء عدد المدارس التابعة للتنظيمات وتوفير إحتياجاتها من المعلمين والمعلمات ، سواء بدفع رواتبهم أو بمشاركة بعض العرب ذكوراً وإناثاً في مهمة التدريس .. بعد ذاك بدأت اللجنة بمحاولة معرفة حالة التعليم في الداخل ، وبعد الإعتماد على الآخرين لإحصاء المدارس والتلاميذ والمعلمين بدأ العرب بالتواجد الشخصي هناك : بإنشاء المدارس ، وبإرسال المشرفين العرب للرصد والإحصاء والمتابعة بدل الإكتفاء بتقييم الأفغان من بعيد .. » وفي هذا الصدد يذكر أبو الرضا « أن الأخ جمال خليفة (أبوالبراء) هو الذي بدأ بمشروع التعليم في الداخل والخارج ، واستطاع بمساع من الدكتور عبد الله عزام الحصول على موافقة من رابطة العالم الإسلامي بفتح مكتب لها في بشاور كمظلة من أجل أن يعمل الإخوة تحت اسمها ويتحركوا في الباكستان بحرية .. وفي البداية كان تمويل هذا المكتب من أبي عبد الله ، ثم بدأت التبرعات تأتيهم من المملكة » وفيما بعد ، وكما ذكرت مجلة «الجهاد » (١) فقد « تم التنسيق والإتفاق على أن تكون أعمال التربية والتعليم في المكتب منوطة بمؤسسة العون الإسلامي في بشاور وتحت إشراف الدكتور عبد الله عزام ، وذلك ليكون العمل تحت غطاء رسمي بالنسبة لأعمال الإغاثة التي يقوم بها المكتب داخل باكستان وأفغانستان ، وقد توزعت أنشطة العون الإسلامي في هذا المجال على النحو التالي :

١- التعليم داخل مخيمات الهجرة-٢- إنشاء المدارس والمعاهد داخل أفغانستان -٣- إنشاء معاهد الأنصار في مدينتي بشاور وكويتا -٤- طباعة المناهج الدراسية وترحيلها إلى داخل أفغانستان »(٢) .. ويتابع أبو هاجر : « وقتذاك ، وعلى مستوى اللجنة الطبية كانت هناك عيادة العلاج الطبيعي التي كانت تستقبل الجرحى الأفغان ، لكن المعروف أنها كانت تستقبل الجرحى الأفغان الذين أنهوا علاجهم لاستكمال العلاج الطبيعي حتى لا تفسد أعضاؤهم أو لتركيب الأطراف الصناعية لهم .. »

وبعد تطور عمل اللجنة الطبية تذكر مجلة « الجهاد » (٣) أن مساهمات المكتب توسعت لتشمل في المجال الصحي مايلي :

١- إنشاء المختبر المركزي الوحيد في ولاية (سرحد) الذي يقدم خدماته لجميع المستشفيات الإسلامية التي تقوم على خدمة المهاجرين والمجاهدين -٢- إنشاء مستشفى مكة المكرمة الجراحي في بلوشستان والذي أعطي بعد ذلك للجنة الإغاثة السعودية لتركيز المكتب على دعم الجبهات داخل أفغانستان -٣- إنشاء عيادة الطب الطبيعي بالإشتراك مع لجنة الإغاثة السعودية ثم إعطاؤها بعد أربع سنوات إلى الهلال الأحمر السعودي لنفس السبب السابق -٤- إنشاء دار رعاية الأبطال للمعوقين من القادة الأفغان ، ثم حوّل لتتم كفالة هؤلاء المعوقين عند ذويهم وأسرهم في الداخل وذلك أجدر وأقل كلفة وأعباء بعد اتساع دائرة

أعمال المكتب داخل أفغانستان -٥- تفريغ أطباء وممرضين للعمل داخل جبهات القتال -٦- مشروع التحدي الطبي التربوي داخل أفغانستان والذي أعطي للجنة البرّ لتموله وتشرف عليه » .. « .. أما لجنة الترحيل - يتابع أبو هاجر - فقد قطعت شوطاً طيباً ودخل عشرات الآلاف من المجاهدين إلى الداخل ، وكان أبو الحسن هو المسؤول عن هذه اللجنة .. وبالنسبة للجنة الفنية فقد اهتمت بتصليح أو تصميم بعض الأجهزة الإلكترونية واللاسلكية التي يتداولها المجاهدون ، وكانت فائدتها الأعم تعليم الأفغان على خوض هذا المضمار بعدما كانوا يتهيبون من الأجهزة المعقدة .. وكنتُ في بداية قدومي - والكلام لا يزال لأبي هاجر مدير المكتب وقتئذ - قد استلمتُ قسم الصيانة مع اللجنة الفنية ، بينما كان أبو عبد الحق الجزائري رحمه الله مسؤولاً عن قسم التصميم (٤) وخلال الأشهر الثلاثة التي أمضيتها في اللجنة قبل أن أحمل مسؤولية إدارة المكتب إنشغلنا في صيانة الأجهزة وفي تدريب الإخوة الأفغان على هذا العمل .. » .

وينتقل أبو هاجر للحديث عن إنجازات اللجنة الإعلامية التي كانت تشمل مجلة « الجهاد » و مرآة الجهاد الأفغاني « ماج » فيقول : « أما المجلة فكانت في تحسن نوعي وكانت في سباق مع (البنيان المرصوص) .. وأما (ماج) فكانت قد أصدرت في حينها ثلاثة أفلام : تشاوني ١ و تشاوني ٢ ومرآة الجهاد ، وكان أبو عمران الأخ المسؤول عنها يبذل جهداً متواصلاً لتنظيم وصول الصور واللقطات الجهادية إليه من الداخل . أما لجنة الخدمات وأقصد بها لجنة الإستقبال فقد بدأ الأخَوَان : أبو دجانة المصري رحمه الله وأبو السعيد السوري بترتيب تواجد الإخوة وتعليمهم النظام ، لكن غالبية الإخوة كانوا يرفضونه ! وكان أبو دجانة قد نظم سجلاً للخروج والعودة من المكتب ووضعه على الباب ، لكن بعض الإخوة تضايقوا وكتبوا أمام عبارة (أين تذهب) : لا أدري ! (وقت الرجوع) : الله أعلم !! وكان عبد المنان رحمه الله ينفجر من هذا الأسلوب ويصيح : دي ماسونية ! فالإخوة كانوا غير متفاعلين مع النظام .. وأخيراً إستأذن أبو دجانة في الذهاب إلى (ننجرهار) لثلاثة أو أربعة أيام .. فذهب وغاب حوالي ٧ - ٩ أشهر وترك العمل ، وأول ما رجع من الجبهة توجه إلى الحج ، ثم عاد إلى الجبهة ، ومنها نسأل الله عز وجل أن يكون قد أوصله إلى جنات النعيم (٥) .. ومن بعد أبي دجانة رحمه الله استلم أبو الرضا هذه المهمة ، ثم جاء أبو السعيد وبعده أبو دعاء اليمني .. » .

ويتابع أبو هاجر : « أما اللجنة العسكرية ، فقد بدأ الإخوة ولله الحمد يسجلون مَن يدخل أفغانستان وأماكن تواجده في الولايات ، بعدما اعتاد الإخوة على عدم الإنضباط في هذا الأمر ، فكان واحدهم يُرسَلُ إلى (بغلان) فنستلمه في (هيرات) مثلاً ! وبدأوا في هذه اللجنة يعطون الذي يذهب إلى الداخل مسجلاً وكاميرا ليقابل القادة هناك ويلتقط بعض الصور من الجبهات ويعود بثروة إعلامية ومعلوماتية قيمة يمكن أن يستفيدوا منها في توزيع المساعدات .. وبالنسبة لمسألة التدريب فقد أصبح للإخوة عناية بذلك إلى حد ما ،

وبدأت اللجنة العسكرية بقراءة الكتب المتخصصة ومحاولة كتابة كرّاسات صغيرة عن الأسلحة والعلوم العسكرية .. واهتم المكتب أيضاً بإقامة مخيمات للأفغان ، من القادة أو من المجاهدين ، لأسبوعين أو ثلاثة ، تضم برامج تربوية وعسكرية .. تستهدف – إضافة إلى تنمية هذين الجانبين – توحيد القلوب ، وإماتة الحزبية بين الأفغان ، فكانوا يأتون بعدد من مجاهدي الحزب الإسلامي ومن الجمعية ومن الإتحاد ويضمونهم في مخيم واحد ، وضمن برنامج واحد .. لكن الأفغان لم يتفاعلوا – للأسف – مع هذا النهج ، وأصروا أن تكون مخيماتهم منفصلة .. فرأى العرب أن ما لا يدرك كله لا يترك كله .. وقالوا : لا بأس .. وفُتحت المخيمات التربوية في بابي وعُيّن عليها أمراء من الإخوة العرب ..» .

* * *

تبلورت لجان مكتب الخدمات – إذاً – في بداية عام ٨٦ وتشكلت وبدأت مرحلة الإنجاز ، لكن الإدارة العامة للجان وللمكتب لم تكن قد وجدت حظها الكامل من البلورة والإستقرار .. فالدكتور عبد الله عزام كان لا يزال يتردد بين بشاور وإسلام آباد حيث يدرس في الجامعة مع بداية الأسبوع ، ليعود إلى بشاور يوم الثلاثاء ثم يرجع مرة أخرى إلى العاصمة صباح السبت .. وأبو عبد الله « أسامة بن لادن » كان لا يزال يتردد بين المملكة والباكستان ، والباكستان وأفغانستان ، على غير ما استقرار أو انتظام ، وداخل إدارة المكتب وفي مجلس الشورى كانت الحالة دائمة القلق والإضطراب .. وكان عدم الإنسجام يتبدى ليتوارى .. ثم لا يلبث أن يطفو على السطح من جديد ! يقول أبو عبد الله : « كان لقلة وجود الإخوة الواعين الذين تربوا على هذا الدين وعلى أخلاق الإسلام والذين دخلوا معركة الحياة وخبروها أثر سلبي على وجود العرب عموماً تسبب في تعثر الإدارة وقتذاك .. إلا أننا نعتقد أن ما قدمه الإخوة في هذا المجال أكبر بكثير إن شاء الله من السلبيات التي ظهرت .. » وإذا كان من المبكر الإشارة هنا إلى أسباب هذا التعثر بالتفصيل ، إلا أن عبارة أبي عبد الله تحيط بأساسيات هذه الأسباب وتجملها تحت بندين اثنين رئيسين هما : الأخلاق .. والخبرة ، أو التقوى والكفاءة .. ففي الوقت الذي شهدت بشاور إقبالاً متزايداً من المتعاطفين مع الجهاد والمتفاعلين مع أخبار البطولات والإنتصارات والكرامات في أفغانستان .. لم يكن هؤلاء جميعاً على درجة واحدة من التربية أو الإعداد أو الإلتزام ، ومن جانب آخر كانت غالبية الملتزمين الخلوقين الأتقياء على غير ما خبرة كافية بمقتضيات الظرف واحتياجاته الإدارية والتنظيمية .. وعندما استلم أبو هاجر إدارة مكتب الخدمات مع بداية عام ٨٦ كان على هذا الشخص المشبع بروح النظام والجدية والإنضباط الذاتي أن يخوض لستة أشهر تالية غمار المعاناة والصراعات .. في إتجاه الآخرين وفي إتجاه النفس والمثُل والأعراف معاً .. إنتهت باستقالته إستقالة بائنة لا عودة عنها ، في مرحلة أخذت المشاركة العربية على الساحة تتخذ فيها منعطفاً متميزاً .. يقول أبو هاجر : « بدأتُ العمل في قسم صيانة الأجهزة الفنية واستمريت على ذلك لثلاثة أشهر تقريباً »

ويضيف : « كنت مع بداية وصولي – في أواخر أكتوبر ٨٥ أسمع لغطاً وتذمراً وشكايات هنا وهناك ، فأُعْرِض عنها وأستغرق أكثر في عملي . كان جميع العرب الموجودون آنذاك حوالي سبعين شخصاً ، يمكن القول بأن نصفهم كانوا في أفغانستان ونصفهم الآخر في باكستان ؛ ومع ارتفاع الشكاوي أخذ الإخوة يقحمونني في جلساتهم تدريجياً والشيخ عبد الله يقدمني للإمامة وهكذا .. وأخيراً اضطر الإخوة إلى تبديل الطاقم الإداري ورست الإقتراحات بهذا الصدد على عمل انتخابات لمجلس الشورى ولإدارة مكتب الخدمات »

في تلك الفترة كانت إدارة المكتب قد انتقلت لأبي حذيفة الأردني يساعده أبو داود ، وذلك بعدما ترك أبو أكرم – الذي اختاره الشيخ عبد الله مع بداية تأسيس مكتب الخدمات مساعداً له في إدارة شؤونه – الساحة وعاد إلى الأردن ، لكن إدارة أبي حذيفة شهدت إعتراضات شديدة عليه من كثير من الإخوة الموجودين ، الأمرالذي قاد في النهاية إلى إجراء انتخابات جديدة لإدارة المكتب ولمجلس الشورى في محاولة لتدارك الخلل وتصحيح المسار . يقول أبو هاجر : « كان عجيباً أن القول رسى على أن يتشكل المجلس من ١٥ شخصاً يُنتخبوا من بين الإخوة الخمسة والثلاثين الحاضرين ، فقلت لهم : سبحان الله ! خمسة عشر من ٣٥ يكاد يكون النصف ! تخيلوا مثلاً أننا أعطينا إدارة العالم لنصف الكرة الأرضية ليحكم النصف الآخر ! لكنهم أصروا على العدد ، وكان الأعجب أن تأتي غالبية الأصوات للأخ أبي محمد السوداني ، ثم للعبد الفقير ! كانت مفاجأة .. ما هذا ؟ أنا لم يمض على وجودي ثلاثة أشهر ولا أكاد أعرف الساحة كما ينبغي ، لكن مفهوم الناس يتجه نحو الذي يؤم الناس أو يخطب فيهم .. لا يسألوا : هل هذا يفهم .. هل لديه خبرة ؟ ولو سألوا لكان المفروض أن أظل أبعد الناس عن هذه الأمور .. لكنني فوجئت بانتخابي : فعندما قررنا أن يكون أبو محمد السوداني المدير إعتذر من الجلسة الأولى ، وقام هو وأبو صهيب معاً ، فأصبحنا نتلفت في وجوه القوم : من سيخلفه ؟ وفي الجلسة التالية إجتمعنا لننتخب المدير الجديد الذي ينوب عن الشيخ عبدالله في فترة غيابه وبدأ فرز الأصوات ؛ سحبتُ الورقة الأولى : أبو الحسن ، الثانية : أبو سياف أو أبو عبدالرحمن المصري. الثالثة : أبو الحسن . وبعدها بدأ الورق يتتابع : أبوهاجر.. أبو هاجر .. أبوهاجر ! عندما قرأت أول ورقة منهن ضحكت . قالوا : لماذا تضحك ؟ قلت لهم : تصوروا .. هناك أحد الإخوة كتب إسمي ! سحبت الثانية : ماهذا ؟ الثالثة : إحمرّ وجهي وقلت : يبدوا أنها مزحة .. وتركتهم ليبدأوا في الحديث عن واجبات المديرالعام ! » .. لكن أبا هاجر لم يجد بُدّاً في النهاية من تحمّل مسؤولية هذا المنصب الذي استمر يرفضه من بعد باستمرار .. ولعل من أهم مبادرات النقد الذاتي التي شهدتها مسيرة الوجود العربي على الساحة ومن أندرها أيضاً ، ذاك الذي سجله أبو هاجر خلال هاتيك الشهور الستة من إدارته لمكتب الخدمات ، والتي تكرم بإطلاعي عليه إضافة لماحدثني به في معرض توثيق هذاالوجود بإيجابياته وسلبياته .. يقول أبو هاجر : « وجدت نفسي أمام ركام هائل من الأخطاء .. بدءاً من طريقة استدعاء الناس للجهاد وما خلفته من مشاكل

صعبة العلاج » ويضيف : « حاولنا جهد الإمكان أن نعالج الإخوة ، لكني أعترف بأن اختياري كان خاطئاً مثلما كنت أنا مخطئاً في الإدارة . كنت أظن الناس كما قرأت في بالكتب .. تقول لواحدهم : إتق الله . خلاص : يتق الله ! إفعل هذا .. فيفعل . وكنت أعتقد أنني مثلما أتعامل مع (السويتش) فألفُ به إلى اليمين : ينير المصباح ، إلى اليسار : ينطفىء .. هكذا سيكون الناس معي ! وظننت أنني كما في تصليح الأجهزة : إذا رأيت هذا (البورد) لا يعمل بسبب هذا (الترانزيستور) لا أهتم .. أقلب (البورد) وبالكاوي أذيب أرجل (الترانزيستور) وأرميه وأضع آخر .. ثم إلى الزبالة .. وأضع آخر جديد بدلاً عنه ! لكني تبينت أن تولية الإخوة الجدد عملاً ما أمر خاطئ ، وأن عدم مراعاة الإختصاص خطأ أكبر » ويضيف أبو هاجر : « كان التعامل مع العرب أصعب ما يكون ، ومردّ ذلك يعود إلى أننا عشنا تحت التسلط في بلداننا مراحل حياتنا السابقة فخلّف ذلك فينا صفتين إثنتين ، الأولى : تظهر على الأشخاص حينما يتولون القيادة ، فبعدما كان واحدنا محكوماً بالقهر والضغط والحديد .. تجده لما يتولى عملاً يبدأ بالتسلط وكأنه يُفْرِغ هذا الغيظ ! وبالمقابل إذا أصبحنا أفراداً ، وبما أنه كان يصعب علينا التمرد على قهر الكفار ، يسهل علينا التمرد على المسلمين ! فهؤلاء ما عندهم سجون ولا مخابرات ولا تعذيب .. ولذلك لا تجد تفاعلاً بين القادة وبين الرأس .. » ويتابع أبو هاجر : « وكانت المفاجأة التي صادفتها بعد قدومي أن واحدنا كان عنده تصور ملائكي عن المجاهدين .. وعندما يقرأ أن ذروة سنام الإسلام هو الجهاد في سبيل الله ، يتصور أنه سيلقى الإخوة جميعاً في ذروة السنام هذه .. وكنت قد كتبت ملاحظة من قبل قلت فيها : يُفترض بكل القادمين هنا أنهم أتوا للجهاد لا للدنيا ، لأنهم لو أرادوها لما أتوا ، ولكنني علّقت على هذه العبارة فقلت : ولكن هل من ضمان لبقاء صلاح النية ؟ وهل يمكن أن يُقْطَع بثبات القلب على طريق الحق ، أم أن القلوب بيد الرحمن يقلّبها كيف يشاء ؟ وإذاً فالفوضى وعدم مراقبة الأشخاص ومحاسبتهم ستعين الشيطان على الأخ لتنسيه الغاية التي جاء من أجلها تدريجياً .. ولذلك كان التصرف الشرعي والصحيح ان نحسن اختيار المكان المناسب في الوقت المناسب للشخص المناسب من أجل المشروع المناسب .. وهذا يحتاج منا إلى عقليات تكون شرعية أولاً ، وتكون إدارية أيضاً ، ولا حرج في ذلك فالإدارة من جنس ديننا ، أما أن أقول عن الفوضى بركة ، فهذا استخدام لقدسية المسميات في غير مجالها .. لنلجم الأفواه ونبرر فوضانا ! وصفوة القول أن المكتب حاول أن يسير بوجهة ، وكانت هناك تيارات أقوى .. لذلك أيقنت أواخر الأيام أن عملي هذا لا يمكن أن يستمر بهذه الطريقة .. ولقد شبّه لي أبو البراء السعودي الأمر فقال : أنت تأتي إلى واقع كالجدار الكبير تريد أن تهدمه .. فتلكمه بيديك وتشدد عليه في الضرب .. ولا تدري أيقع عليك أم على رجل يعبر خلفه ولا علاقة له بالموضوع ! فأمام ركام كهذا يصعب الإصلاح مالم يكن تدريجياً ، ويحتاج إلى رجل واع يعرف كيف يزيل الجدار طوبة طوبة .. لذلك وفي أواخر أيامي بمجلس الشورى قلت للشيخ عبد الله : يا شيخ ، مهما كان من أمر فإن منزلتك تبقى عندنا عظيمة في قلوبنا وفضلك عليّ لا ينسى . أنا تعلمت الجهاد

النظري من الكتب وقرأته في الكتاب والسنة ، لكن الجهاد العملي تعلمته منك .. وما أتيت هنا إلا لما قرأتُ كتابك .. وبعد ما سردتُ للشيخ سيلاً من المخالفات الواقعة ، أعلمته أن شهر رمضان هذا الذي نحن على مشارفه سيشهد في نهايته استقالتي القطعية .. وبين إصراري على الإستقالة وإلحاح الشيخ على بقائي عُقِدَ مجلس الشورى في شهر شوال بعد عودتنا من صدى ومن معركة « جاجي » للتصويت على الموضوع ، فقلت لهم : يا إخوة ، نحن الآن أطباء وبين أيدينا جريح يلفظ أنفاسه ويكاد يموت .. من مصلحتكم في ساعتكم هذه ألا تناقشوني هل أنا صادق في تشخيصي أم لا ، إنصرفوا معي وضعوا يدي في أيديكم لنعالج هذا الذي يموت ، لأنكم لو ذهبتم لتثبتوا لي أنه معافى من الأمراض أخشى عليه أن يموت بين أيدينا ! وبعد أخذ وردّ .. سألوني : وما الحل ؟ قلت لهم : الإجابة صعبة جداً .. الحل : هو الحل ! فقالوا : كيف تقول ذلك ؟ قلت : أن نحلّ هذا العمل ونكون قد ملكنا القرار خير من أن يحلّ نفسه .. وبعد ذلك نرتب العمل من جديد على أسس سليمة وخطة مدروسة واضحة .. »

.. وهكذا تبدى أن تغيير الإدارة لم يغير من الواقع السلبي كثيراً ولم يشكل تصحيحاً للمسار كما تمنى المطالبون بالتغيير .. ويردّ أبو أحمد السوري – الذي عاصر هذه الفترة عن كثب وشارك في انتخابات الإدارة والمجلس – يردّ أسباب هذا التعثر إلى ازدواج حدث في إدارة شؤون العرب .. بدل أن تتجه الغييرات لتلافي أخطاء الماضي .. ويقول (٦) : « من بين ١٥ صوتاً هم أعضاء مجلس الشورى (٧) حصل أبو حذيفة على ٤ أصوات فقط رغم أنه لم يحضر الإنتخابات وتشاغل عنها .. بينما حاز أبو محمد السوداني على الأكثرية وتم انتخابه .. لكنه ومن أول اجتماع بعدها قال للشيخ عبد الله : أستحلفك بالله أن تقبل استقالتي وألا تسألني لماذا أستقيل .. فعدنا وانتخبنا أبا هاجر .. لكن الحقيقة أن أبا حذيفة بقي على وضعه بشكل طبيعي وما شعر الشيخ أن شيئاً تغير .. وظل يقدمه للناس على أنه نائبه ، فلما راجعوه في ذلك قال : هذا نائبي الشخصي وهو أمر يختلف عن إدارة المكتب ، وبذلك صار هناك – في حقيقة الأمر – مكتبان بكل معنى الكلمة : مكتب هو أبو حذيفة وآخر هو إدارة المكتب ! وللأسف بدأ أبو حذيفة يحارب اللجنة محاربة شعواء ويحارب أبا هاجر على وجه الخصوص .. » .

في تلك الفترة كان أبو عبد الله « أسامة بن لادن » قد كثف من زياراته لباكستان وأفغانستان واستقر على التفرغ للساحة والتخلي عن مسؤولياته المهنية في المملكة . يقول أبو الرضا : « في شهر مارس ٨٦ طرح أبو عبد الله فكرة قدومه وتفرغه في الباكستان لأعمال تجارية .. خاصة بعدما وصلته شكايات عن مشكلات مستمرة في إدارة أمواله بمكتب الخدمات .. » وبرغم هذه الشكايات .. ومع تلمس أبي عبد الله حالة عدم الإنضباط السائدة في المكتب .. وقد بدأ يعايش واقعه على نفس الساحة ويطّلع على خفايا ما يدور فيه عن قرب ، إلا أنه استمر يتولى كافة مصاريف الإخوة العرب (كما أكد لي ذلك الدكتور عبد الله رحمه الله وقدّر ميزانية هذه المصاريف بـ ٣٠٠ ألف دولار سنوياً تتضمن معيشة الإخوة العرب فقط حتى لا يلجأوا للأخذ من

التبرعات الخاصة بالمجاهدين الأفغان) وكأنما وجد أبو عبد الله في منهج أبي هاجر وإصراره المستمر على النظام والضبط والجد قدراً كافياً من الإقتناع جعله يستمر في دعمه وتشجيعه وفي تخفيف حالات الإحباط عنه . يقول أبوهاجر : « كان أبو عبد الله يحاول أن يسندني في مجلس الشورى وأن يساند الإتجاه الذي كان يريده .. وكان يؤملني ويعدني بنتائج أفضل ، لكني كنت أقول له بأن الوضع أكبر مما تفعل أنت ، خاصة وأنك غير متفرغ لهذا العمل .. وعندما علم باستقالتي حاول جاهداً أن يثنيني .. كان كلما يأتيني في فترة أكون فيها مجروحاً يعالج جراحاتي ويضمدها ويبعث فيّ الثقة والنشاط للعمل ويؤملني بالمستقبل .. وفي نهاية أيام إدارتي للمكتب قررنا أنا وأبو عبد الله وإخوة آخرون أن نسعى لإقرار عمل صحيح .. كان ذلك في رمضان على وجه التقريب ، ووقتها قررنا أن نختار مكاناً مستقلاً نستقبل فيه الإخوة وندربهم بعيداً عن مشاكل بيت الخدمات ، واتفقنا على سياسة متكاملة لاستقبال الإخوة بعد انتخابهم وتدريبهم ، وحاولنا أن نبقي الأمر مكتوماً .. ووقتها إتفقنا على ثلاثة أمكنة فيما أذكر : إحداها (صدى) والثانية (جلال آباد) والثالثة (خوست) .. في (جاور) أو (جهاد وال) .. وبالفعل كانت لنا في (جلال آباد) سابقاً مجموعة من حوالي ٢٠-٣٠ شخص وضع أبو أنيس أميراً عليهم وكانت تسمى مجموعة أبي أنيس ، وقد شاركت المجموعة بالفعل في عمليات مع المجاهدين الأفغان ومع طلاب المعهد الشرعي التابع للجنة الدعوة .. وكانت عمليات موفقة فتحوا خلالها ١٨ بوسطة تقريباً ، وقال لي مهند أنهم ظلوا ٤٥ يوماً ينقلون الغنائم .. بعد ذلك فكرنا في نقل المجموعة إلى (خوست) لكن الأمر استقر أخيراً على (صدى) فذهبنا أنا وأبو عبد الله ومجموعة قليلة من الإخوة وبدأنا نضرب هناك بالمعاول في رمضان ونصبنا ثلاث خيام تقريباً .. لكن (صدى) كانت تابعة للشيخ سياف ، وإن هي إلا أيام حتى اكتشف الشيخ عبد الله المكان فقلنا : لا بأس إن شاء الله نستكتمه ، فوقتذاك كان الإخوة حتى خارج باكستان يقولون لك : إذهب إلى معسكر (ورسك) مثلاً !! لذلك أردنا أن تظل (صدى) بعيداً عن هذا اللغط ، واستطاع أبو عبد الله إقناع الشيخ عبد الله بأن هذا العمل خاص وسري .. وعندما اعترض بأن اللجنة العسكرية موجودة ضمن لجان المكتب أقنعه أبوعبد الله بأن اللجنة لها شغلها ونحن لدينا شغلنا ، فاقتنع الشيخ أخيراً وقال لي : خلاص ، أنت تصير في اللجنة العسكرية وتستلم التوجيه المعنوي .. لكن لابأس أن نُشرك إخوانكم في اللجنة العسكرية ، فأتوا بنور الدين الفلسطيني ، واعتُبِر معسكر (صدى) أمراً واقعاً تعترف اللجنة العسكرية والقيادات به ، ووقتها إختاروني بالقرعة أيضاً أميراً على معسكر (صدى) وكانت معركة (جاجي) قد بدأت تشتعل فانصرفوا للجهاد .. وفوجئت عصر أحد الأيام بسيارتين أو ثلاث (فلانكوج) مليئة بالإخوة القادمين من بشاور وأحدهم يقول لنا : أتيت لكم بالإخوة كما طلبتم ! قلت له : ماهذا ؟ قال : ياأخي أنتم إستنفرتمونا فأتينا . قلت : سبحان الله ، والله لم نستنفر أحداً ولا أرسلنا إليكم بشيء . قال لي : كيف ؟ وأخرج لي خطاباً من الشيخ عبد الله يستنفر فيه المتزوج وغير المتزوج .. العامل والعاطل .. الطبيب والمعلم والمهندس .. يستنفرهم جميعاً إلى معارك (

جاجي) .. ليلتها ابتُليتُ بلاءاً شديداً !! كيف ينام هؤلاء الإخوة ؟ من أين يأكلون ؟! أرسلنا للشيخ سياف وأخذنا مخزن المخبز عنده .. وحتى البطانيات أخذناها من الغرفة التي ينام فيها جزاه الله ألف خير ، والإخوة الذين جاءوا يقولون : كيف لا تراعونا ؟ أين الخيام .. أين ؟! ثم كان ذهاب الإخـوة إلى (جاجي) .. وكانت عودتـهم المعروفـة ، وكان موقفهم تخذيلاً للأفغان بدل أن يكون نصرة ! وهكذا إجتمعنا مرة أخرى وقلنا : لا بدّ وأن نرحل إلى مكان جديد .. وبالفعل فتح أبو عبد الله معسكراً آخر في (صدى) لكنه اكتُشِفَ بدوره .. وعندما علم الإخوة بذلك أبدوا إعتراضهم وزعلهم .. فغضب أبو عبد الله حينذاك وقال لهم : أنا حتى الآن لم أتكلم .. ساكت عنكم .. وفضائحكم مسجلة عند أبي هاجر وأنا ساكت .. أنا الذي ينبغي أن أحاسبكم ؛ ومن حينها بدأ أبو عبد الله يتجه للإنفصال بعمله والمضيّ في اتجاه جديد .. » .

أتت كلمة «الإنفصال » شديدة الوقع ثقيلة الوطء .. في عمل لم يكد يبلغ السنة الثانية من عمره .. وفي موقع تُبذل فيه المهج والأرواح والدماء ، وفي الواقع لم يكن لمثل هذه التطلعات ولهذا التوافق المفتقد أن يؤثر على أخوية العلاقة بين الجميع وقتذاك ، وكان أبوعبد الله حريصاً مقدار حرص الدكتور عبد الله رحمه الله على التنسيق المستمر والتعاون المتصل في كل الأحوال (٨) .. يقول أبو هاجر : « لم يعلن أبو عبد الله هذا الإنفصال لأنه لا يحب الفرقة ، ويوم كنت أقول له : لنحلّ العمل ونبدأ من جديد كان يرفض ويقول لي : بعد أن يصبح حجمنا بنفس حجمنا الآن سننقسم مرة أخرى على أنفسنا .. وكان كلما التقى بي لامني على تركي للعمل ، وبقي يلومني من ذلك الوقت وحتى ساعتي هذه .. » لكن أبا هاجر يرى أن الإستمرار ما كان يمكن أن يدوم ، ومن وجهة نظره فإن « أبا عبد الله يميل إلى سياسة التمركز .. يحب أن يجمع العرب في مكان يدربهم فيه ويُعِدّهم ليكونوا كتيبة جهادية جاهزة ، أما الشيخ عبد الله فكانت سياسته الإنتشار ، فإذا جُمع الإختلاف في المنهجية على الإختلاف في الطريق ، مع اختلاف أساليب التنفيذ وأساليب اختيار العناصر للتنفيذ ، كانت النتيجة أن الواحد يريد عنصراً معيناً والآخر يريد عنصراً آخر . هذا عنده أسلوب للوصول وذاك لديه أسلوب آخر ، وبالتالي فالهدف لدى الأول غير الهدف لدى الآخر ، وهكذا اتجه كل منهما باتجاه .. » ولقد أشارالشيخ تميم العدناني رحمه الله إلى مثل هذا المعنى فقال : « كنت أنا والشيخ عبد الله نرى أن يكون تجميع الشباب مباشرة مع الأفغان وفي خدمة الأفغان ، ولعل أبا عبد الله رأى أن القضية الأفغانية قد تفيدنا في التدريب أكثر مما قد نفيدها نحن في الأفراد ، فكأنه يريد أن يجعلنا نستفيد من الجهاد أكثر مما نفيده نحن ، ونحن نريد إفادة الجهاد أكثر من الإستفادة منه ، فهو خلاف شعرة بسيطة بالمفهوم ، وإن كان هنا جهاد وهنا جهاد .. » .

هوامش

(١) مجلة « الجهاد » – العدد ٥١ – جمادى الثانية ١٤٠٩– يناير/فبراير ٨٩– صفحة الغلاف الأخيرة .

(٢) يذكر أبو الرضا أن أبا معاذ الشركسي كان وقتها المختص بالتعليم في الداخل ، بينما كان أبو الرضا نفسه مسؤول التعليم في الباكستان ، ويعدد أبو الرضا إنجازات اللجنة التعليمية حينذاك بأنها: « ١– إحصاء مدارس الداخل والخارج التابعة للأحزاب –٢– العمل على إيجاد مناهج للتعليم ، وقد تم توحيد المناهج من قبل الأحزاب السبعة وشكلت هيئة منهم جميعاً تحت إشراف الشيخ فتحي الرفاعي (المصري) لذلك ، وطبع كتاب المرحلة الإبتدائية بحوالي ٢ مليون روبية باكستانية –٣– مشروع تدريب المعلمين بالتعاون مع الوكالة الإسلامية للإغاثة (إسراء) –٤– شراء قرطاسية متنوعة للداخل والخارج ، والمساعدة في بناء غرف في المدارس .. » ويضيف أبو الرضا بأن أبا البراء « جمال خليفة » إستقال في نهاية أغسطس ٨٦ وسلّم المسؤولية لأبي معاذ الشركسي ، وفي الوقت نفسه ترك أبو الرضا الرابطة وانضم إلى برامج أبي عبد الله « أسامة بن لادن » الذي كان قد بدأ يستقل بأعماله في ذلك الوقت ، وبعد شهور استلم الرابطة عادل فرحات وانتقل أبو معاذ إلى مؤسسة العون الإسلامي التي كانت قد أُسست حينذاك ونقلت نشاطات اللجنة التعليمية من الرابطة إليها .

(٣) مجلة « الجهاد » – العدد ٥٢ – جمادى الثانية ورجب ١٤٠٩ – فبراير ومارس ٨٩ – صفحة الغلاف الأخير و « لهيب المعركة » – العدد ٢١ – ١٩٨٨/١٠/١٥ ويذكر الشيخ تميم العدناني رحمه الله في العدد ٢٨ من « لهيب المعركة » بتاريخ ١٩٨٨/١٢/٣ أن عدد الفحوصات الطبية المخبرية التي يقوم بها المختبر المركزي تزيد عن ستة آلاف فحص شهرياً ، متوقعاً إزدياد هذا العدد إلى الضعف في الأشهر القليلة القادمة ، أما عيادة الطب الطبيعي فقد أصبح عدد المراجعين – كما كتب الشيخ تميم أيضاً – يزيد عن ٢٢٠ مراجع يومياً أي ما يقارب سبعة آلاف مريض شهرياً ، متوقعاً أن تغطي خدمة هذه العيادة مثلي الرقم المذكور مستقبلاً . أنظر : « لهيب المعركة » – العدد ٢٧ – ١٩٨٨/١١/٢٦

(٤) توفي الأخ أبو عبد الحق الجزائري رحمه الله في مستشفى الفوزان ببشاور أواخر عام ٨٦ نتيجة إلتهاب في الكبد – كما روى ذلك الأخ أبو محمد عبد السلام السوري في حديثه لي بتاريخ ٩٠/٥/٩ في بشاور – وكان رحمه الله قد حضر من أمريكا مهندساً كهربائياً إلكترونياً لنصرة المجاهدين ، ودخل « باكتيا » و « لوغر » يعمل في تركيب الأجهزة اللاسلكية ، ثم عاد إلى بشاور حيث مقر اللجنة الفنية وبقي عاماً كاملاً منكباً على عمله مُنِعَتْ زوجته خلال ذلك عن اللحاق به ، فلما منّ الله عليه بقدومها ومعها طفلتهما التي ولدت دون أن يراها بات يوزع لياليه : ليلة لزاويته في اللجنة حيث المهام المتراكمة ، وليلة لزوجته .. وكان

غاية في الزهد والتقشف ، وعندما داهمه المرض رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرؤيا ناوله ورقة وإذا بها الشهادة مع اسمه الصريح ، فنادى أخاً له كان بجواره وقال : أكتب وصيتي جاءت الشهادة يا أخي .. وأذعن الأخ لرغبته بعد إلحاح وسطّر الوصية التي جاء فيها : « .. وقد نذرت روحي ومعرفتي وجسمي لله حتى كلفني ذلك ترك فلذة كبدي وزوجتي الودود لمدة سنة كاملة كانت سنة تمحيص .. بعدها أمرت بالرباط الطويل في نفس المكان .. كنا نعمل ليل نهار ، فكنت أركّب وأجمع وأدرس وأتعلم ، لا أعطي لأهلي إلا القليل من وقتي وذلك لقلة المهندسين المسلمين في أفغانستان ، ولم يمنعني هذا أنْ أجد لذة إنفاق بدني في سبيل الله ، وكانت الأخبار تمسح عنا التعب إذا هبت ريح مسك لشهيد قرآني ، فكانوا غذاءنا وشرابنا وعطرنا ، وكلنا يلهج ليأخذه معهم .. وإذا توفيتُ فأخبروا الشيخ عبد الله عزام ليخبر زوجتي .. » واختتم وصيته بقول الله تبارك وتعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » .. وفاضت روحه – رحمه الله – وسارت جنازته إلى « بابي » حيث دفن بجوار الشهيد يحيى سنيور .

أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ٢٤ – ربيع الأول ١٤٠٧ – نوفمبر ٨٦ – صـ٢٢ – ٢٣

(٥) أنظر لمحة عن حياة الشهيد أبي دجانة في هوامش الفصل ١٦ – رقم (٤) .

(٦) في حديثه المسجل بتاريخ ٩٠/٨/٣١ في بشاور ، وقد انتخب أبو أحمد نائباً لأبي داود الذي خلف أبا هاجر في إدارة المكتب ، كما عمل نائباً لرئيس تحرير مجلة « الجهاد » فترة طويلة .

(٧) إضافة إلى أبي عبد الله « أسامة بن لادن » كان من جملة أعضاء مجلس الشورى وقتذاك – كما ذكر لي أبو الرضا – كل من : أبو الحسن المدني ، أبو البراء ، أبو حذيفة الأردني ، نور الدين ، أبو داود الأردني ، أبو معاذ الشركسي ، وأبو هاجر العراقي بالطبع .

(٨) يؤكد الأخ أبو أحمد السوري – وكان من المقربين إلى الشيخ عبد الله ومن محبيه – أن العلاقة بين د. عبد الله رحمه الله وبين أبي عبد الله كانت طيبة ومتينة ، لكن البطانات بدأت تفسد بينهما ويقول : « أنا أعتقد بأن هناك جهات إستخباراتية كانت تغذي ذلك ، ومع هذا ما كان أبو عبد الله يتكلم عن الشيخ عبد الله إلا كلاماً طيباً ، مثلما استمر الشيخ عبد الله في حبه لأبي عبد الله ، وكلما حاول البعض أن يوغروا صدره عليه يبادرهم بذكر محاسنه وجهاده وتضحيته بنفسه وبماله في سبيل الله ، وفي إحدى المرات حاول بعض الإخوة أن يتكلموا على الأخ أبي عبد الله فقال الشيخ رحمه الله : لو لم يكن أبو عبد الله بن لادن ولياً من أولياء الله فليس لله ولي على ظهر الأرض » .

الأنصار العرب (٢٥)

الإستقلال.. والإستقرار

استمر أبو عبد الله في الإتجاه لتأسيس عمل جديد دون أن يعني ذلك انفصالاً كاملاً في البداية ولا انعداماً في التنسيق والتعاون والإحترام حتى النهاية .. وكان لحضور أبي عبد الله معركة « جاجي » في رمضان ١٤٠٦ وتلمسه المباشر لمشاكل الجبهات الملحّة من جديد أثره الواضح الذي دفعه نحو التوجه للداخل والتواجد هناك بشكل أخص .. يقول أبو الرضا : « كان أبو عبد الله قد بدأ يتردد أكثر فأكثر .. وكان الأخ أبو معاذ المهندس موجوداً أيضاً من قبل ، وكان قد اشتغل في فتح أنفاق مكة مع المهندسين الأتراك ، فقرروا من بعد معركة (جاجي) في رمضان أن لا بدّ وأن تكون هناك مراكز آمنة وأنفاق يختبئ فيها المجاهدون أثناء القصف .. وقتها حدّث أبو عبد الله إخوانه في الأمر وكان المشروع الذي قدمه أن يعملوا حزاماً من الأنفاق والطرق على طول الحدود [1] فوافقوا أن يعطوه بعض المعدات : بلدوزرات ، لودرات ، حفارات .. وخلال الأشهر التي تلت رمضان بدأ العمل ، لكن المعدات بدأت في الوصول خلال أشهر أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر من ذلك العام ، وشيئاً فشيئاً بدأ أبو عبد الله يسحب يده من مكتب الخدمات ويركز وجوده في جبهة (جاجي) حيث تعمل معداته في حفر الأنفاق ، حتى خرج بالكامل من بيت الخدمات في النهاية .. » .

يقول أبو عبد الله : « في ذلك الوقت (بعد معركة جاجي) لم يكن عدد الإخوة العرب كثيراً ، وزاد من صعوبة الموقف أن الإخوة في بشاور شعروا أن هناك مضايقات مستمرة ومتابعة من أجهزة الأمن الباكستانية ، لذلك ارتأوا أن يقفلوا بيت الضيافة في بشاور ، وكنت وقتها قد تفرغت للعمل في المعدات الثقيلة والأنفاق لصالح موقع المجاهدين في منطقة (جاجي) .. ومن فضل الله تفرغ معي عدد من الإخوة كنا جميعاً أحد عشر أخاً ، وقدّر الله أن يكون انطلاق هؤلاء الأحد عشر من المدينة النورة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعظمهم يسكنون فيها بصفة دائمة باستثناء الأخ المهندس أبي معاذ والأخ أبي عبد الرزاق اللذين كانا يسكنان فيها بحكم عملهم ؛ ومن هؤلاء الإخوة : أسامة الملا ، وشفيق إبراهيم ، وعلي صالح بنان ، وأحمد حسين بخش ، وأمين ، وأبو أنيس ، وعلي السوداني ، وعبد الرحمن ، وأخوكم تسعة ، وأبو معاذ وأبو عبد الرزاق أحد عشر ، وكان معنا أيضاً إحسان فكنا نعدّه الثاني عشر » .. ويتذكر الدكتور عبد الله رحمه الله ملامح تلك المرحلة ويقول : « .. حصلت بعض الأخطاء من إخوانا الإداريين في المكتب ، وجلسوا مع الأخ أسامة فعتبوا عليه وعتب عليهم ، وكان الأخ أسامة قد عزم أن يُدخل إلى أفغانستان ويستقر فيها .. وقرر أن يعمل معسكراً في (جاجي) حيث كانت جراراته تشتغل هناك منذ عام ١٩٨٥ وكان عليها الأخ أبو معاذ الفلسطيني .. » .

* * *

كان معسكر صدى للعرب قد تأسس صيف عام ٨٦ بعدما أقام الأستاذ سياف هناك معسكراً ومدرسة حربية خاصة بتنظيمه ، وبينما يذكر د. عبد الله « أن الشيخ سياف هو الذي عرض علينا اتخاذ موقع في المعسكر وقال لنا : أنا أنشأت معسكراً هناك فلو اخترتم مكاناً فيه .. فاخترنا مكاناً وفتحنا في رمضان معسكراً للتدريب باسم مكتب الخدمات .. » يذكر أبو عبد الله « أن الشيخ سياف أخذ منطقة (صدى) للمجاهدين ، فاستأذناه في منطقة فيها للإخوة العرب أنشأنا عليها عدة خيام ، وكان الشيخ سياف موجود يومها والشيخ عبد الله كذلك .. على أساس أن نعطي الإخوة قسطاً أفضل من التدريب عن ذي قبل .. » لكن اكتشاف الدكتور عبد الله رحمه الله للموقع واستنفاره الإخوة إليه دونما إتفاق مسبق - مثلما مرّ معنا - جعل أبا عبد الله يتجه مرة أخرى للبحث عن موقع مستقل جديدا يبدأ التأسيس منه .. وفي الوقت الذي لفتت معركة (جاجي) أنظاره نحو المكان فاستقر في نفسه التمركز هناك .. في هذا الوقت كانت بشاور تشهد تطورات جديدة لحالة الوجود العربي ميّزتها حالتان غير إعتياديتين في تلك المرحلة ، أتت إحداهما من داخل الصف العربي نفسه عبر استقلال مجموعة من العرب القادمين للجهاد في شكل تنظيمي جديد .. ومتميز ، كان البادرة الأولى من نوعها خلال السنوات التي سبقت من تواجد العرب على ساحة الجهاد ؛ وأما الحالة الثانية فكانت في إنكشاف هذه المشاركة العربية الميدانية وإشتهارها ، والحساسيات المختلفة والآثار التي ترتبت على ذلك ، لا ضمن الساحة الباكستانية وحسب ، وإنما على نطاق الدول العربية التي ينتمي إليها هؤلاء الأنصار وفق مناظيرها المختلفة .. والدول والجهات الأجنبية أيضاً .. والتي تعهد في مثل هذه الحالات إلى أجهزتها الإعلامية مهمة المتابعة الأولى ، سواء للتشويه أو للمتاجرة أو الإستغلال .. وهو أمر لم تكن طبيعة الموقف الغربي في تلك المرحلة ومصلحته تقتضي تصعيده أو تأزيمه كثيراً .. لكن ثلاثة أعوام أخرى تلت كانت كافية لتغيير الموقف من جذوره .. ولقلب المِجَن للعرب كما قلبه الغربيون للمجاهدين أيضاً .. حينما أصبح الجهاد خطراً على أفغانستان ذاتها وعلى مساعي التسويات التآمرية فيها ! وأصبح العرب الذين يصرّون على إستمرار هذا الجهاد ومقاومة هذه المؤامرات .. أعداءاً للإعتدال .. وللسلام .. ولأفغانستان أيضاً !!

هوامش

(١) كانت فكرة أبي عبد الله في البداية الإنتشار - كما يبدو - على طول الحدود الباكستانية - الأفغانية لإقامة سلسلة من المواقع الحصينة المتطورة لحماية المجاهدين وتأمين خطوط إمداداتهم التقليدية ، خاصة بعدما راجت أنباء وتوقعات وقتذاك عن عزم الحكومة الباكستانية منع المساعدات عن المجاهدين . ومن

إشاراتٍ عابرة موجزة لم يشأ الإخوة الذين ذكروها لي الإسهاب فيها تبين أن أبا عبد الله فكر في تلك المرحلة بأن يجهز طريقاً للإمداد يبدأ من سواحل باكستان على بحر العرب وحتى أفغانستان مروراً ببلوشستان ، وكأنما فكر وقتذاك بإقامة مشروع على الساحل لتعليب الأسماك كغطاء لإمداد السلاح عبر البحر فيما لو انقطع عن طريق باكستان .. وحدثني الأخ أبو الرضا أن أبا عبد الله بدأ في عملية مسح لإقليم بلوشستان بسريّة شديدة شارك فيها إضافة لأبي الرضا أبو أنيس وأبو حفص المدني ، كما تعرّف على بعض الناس هناك وأقام صلات معهم وأرسل بعضهم للتدريب . وقد ذكر لي الأخ البتّال – في حديثه بتاريخ ٩٠/٥/٢ في بشاور – أن أبا عبد الله أرسله في نهاية شوال ١٤٠٦ إلى « كويتا » على الحدود بين بلوشستان الباكستانية وقندهار – وكان ذلك ابتداء تعرف البتال على الوجود العربي في الساحة – بصحبة أبي حفص المدني وأبي أنيس وأبي أحمد المدني ونجم الدين من الشرقية .. وأن النيّة كانت وقتها بناء مأسدة في مدينة قندهار ، ولكن أموراً لا أعرف سببها الرئيسي – كما يقول البتال – منعت من ذلك . كذلك أشار أبو الرضا إلى أن أبا عبد الله قام في شهر ٨٦/٨ بجولة في بلوشستان رافقه فيها الأخ الشهيد أبو قتيبة رحمه الله ، لكنه وجد أن الحالة الأمنية لا تسمح بهذا العمل فكان التوجه لتجميع الإخوة الخلّص .. وكان اختيار « صدى » .

الأنصار العرب (٢٦)

من العرين .. الى المأســـدة

يقول د. عبد الله رحمه الله : « بدأت مسيرة (صدى) أواخر ٨٦ بأربعة : بي ، وبأبي برهان ، وأبي الحارث إبن أخي وحارسي وسائقي ، وكان يأتي معنا أحيانا عبد المجيد الجزائري الذي استلم اللاسلكي في (صدى) .. وصار الشباب يتجمعون حولي شيئاً فشيئاً في (صدى) في الوقت الذي كان تجمع الشباب حول أبي عبد الله في المأسدة قد بدأ .. » ويسجل أبو برهان السوري ذكريات تلك الأيام التي كانت فاتحة قدومه إلى الساحة فيقول [١] : « وصلتُ بشاور بعد عيد الفطر في شهر ٨٦/٦ والتقيت في بيت الخدمات بالدكتور عبد الله الذي عرّفني بالأخ نور الدين الأردني فاصطحبني إلى (صدى) وكان القائد العسكري هناك .. وكان المعسكر عبارة عن ٥ – ٦ خيام بالإضافة إلى خيمة المسجد وفيه من ١٥ إلى ٢٥ أخاً متدرباً .. ثم لقلة العدد ولحلول الشتاء أُغلق المعسكر نهائياً لمدة شهر ونصف تقريباً ، وبعد ذلك وفي شهر ٨٦/١٠ وبعد ملاحقة الشيخ عبد الله في بشاور عاد إلى هناك للإستقرار وكنت معه .. ولم يكن عبد المجيد وقتها في بالمعسكر تحديداً ، وإنما كان مسؤول المخابرة عند الشيخ سياف في (صدى) لكن أبا الحارث كان يرافق الشيخ بعض الأحيان ، وبقي نور الدين يدرب مجموعات منفصلة عن المعسكر العام تدريباً خاصاً » ويتابع أبو برهان : « خلال فترة الشتاء لم يكن لدينا أكثر من ٢٠ – ٢٥ شخصاً يأتون تباعاً .. بقينا ندربهم حتى نهاية الشتاء وكانت الدورة أحياناً لخمسة أو ستة أشخاص ، بعد ذلك بدأ العدد يتزايد ، وفي ذلك الوقت عرف أبو عبد الله مكان المأسدة فذهبنا إليه أنا والشيخ عبد الله .. » ويبادر أبو عبد الله فيسجل ذكريات تلك المرحلة الجديدة له .. وللعرب على ساحة أفغانستان ويقول : « بدأنا العمل في شق الطرق والأنفاق للمجاهدين في العرين ، وصار الإخوة يتابعون الأعمال في نفس المنطقة ، وكانت أعمار معظمهم لا تزيد على ١٨ سنة فكانوا متحمسين للقتال وغير مرتاحين للعمل الإعدادي هذا ، لكن بفضل الله وبحكم الصلات التي بيننا وبينهم طلبنا منهم المكوث على العمل ووعدناهم في نفس الوقت بالعمل العسكري ، ولذا فرّغنا أسامة وشفيق لمتابعة الأمور العسكرية عند المجاهدين في المنطقة وترقب أي الأيام وفي أي الأوقات يكون عند المجاهدين عملية حتى نسمح لإخواننا بالمشاركة معهم ، وليطوروا في نفس الوقت بعض الألغام بطرق خداعية مبتكرة غير الضغط ، وطلبت منهما أن يذهبا إلى أبعد مسافة يصلها المجاهدون قرب العدو للإطمئنان على المناطق التي لا ألغام فيها [٢] .. وفي إحدى المرات عادا ليخبراننا بأن هناك منطقة متقدمة مشرفة على العدو مباشرة من جبل ولا يوجد فيها أحد ، فاستغربت من كلامهم جداً ، كيف لا يوجد أحد على مثل هذا الموقع المهم ؟ وعندما رجعا أعطيناهما كاميرا فيدو لتصوير المنطقة ، وذهب معهما أخونا عبد الاول ، فكانت هذه بداية الذهاب إلى الموقع الذي سمي فيما بعد بالمأسدة ، وكان ذلك في شهر ٩ من عام ١٩٨٦ » .

ونعود إلى تفصيل أوفى لهذه المستجدات على لسان أسامة وشفيق رحمه الله .. يقول أسامة : « كنت في (قندهار) من شوال إلى ذي الحجة عندما أصبت بالملاريا فرجعت مع بعض الإخوة للعلاج ، وفي (كوتيا) قابلت أبا عبد الله الذي طلب مني أن أعمل في (بلوشستان) لكني اعتذرت وأكملت إلى بشاور ، وهناك إلتقيت به من جديد فأخبرني أن أذهب إلى (جاجي) ١٥ يوما أتعلم خلالها تشغيل المعدات وبعض طرق حفر الأنفاق والخنادق ، حتى أرجع إلى قندهار وأعمل للمجاهدين مثلها .. » ويكمل شفيق رحمه الله : « تقابلنا جميعاً في بشاور : أنا ، وأسامة ، وأمين ، واجتمعنا مع أبي عبد الله وكان معنا أبو أنيس ، وعلي السوداني ، وسالم ، فعرض علينا موضوع العرين .. » ويأخذ أسامة زمام الحديث ثانية ليقول : « كان العرين مؤسساً من قبل ، كان أبو معاذ موجوداً وكان عنده (كمبريسر) وأكثر من (دريل) وجرافة صغيرة من جرافات المزارع الترابية .. وعند وصولنا كان في بداية التهيئة للنفق الكبير، فبدأنا نشتغل معهم في قص الصخور لهذا النفق ، وفي التفجير عند نفق الشيخ سياف في الأعلى ، وكان أبو عبد الله قد قال لنا : إجلسوا ١٥ يوماً تعلموا وأنا الحق بكم ، لكننا بقينا ٢٠ يوما ولم يحدث شيء . أثناء ذلك قابلنا القائد الذي اشتركنا معه في عملية (ننجرهار) في (مارو) وكان في طريقه من (جاجي) عبر الجبل الأبيض باتجاه (جلال آباد) لضرب المطار .. فقال أبو أنيس : أنا أريد الذهاب معه ، ونحن أحببنا ذلك أيضا على أساس أن أبا عبد الله وعدنا ١٥ يوماً وتأخر عن ذلك ، لكننا ما عزمنا العزم الصحيح ، فتأخرنا وذهب هو ، وبدأ القصف فجأة على (جاجي) .. وكانت عندنا (دشكا) لكنها معطلة ، إذا أطلقت لا تقف ، وإذا وقفت لا تطلق ! فصرنا نضع كل ٥ - ٦ طلقات ونسحب واحدة ، بعد ذلك صارت لها مشكلة ثانية فتخربت نهائياً ، وجلسنا نراقب القصف فقط ونحاول الضرب عليهم بـ (الكلاشنات) وبـ (الآر . بي . جي) إلى أن عاد أبو عبد الله وعدنا نشتغل وكان بداية موسم الثلج ، وكنا قد ذهبنا بعملية مع المجاهدين للقصف على البوستات بـ (البي . إم . دوازدا) ووصلنا للترصد إلى موقع (بدر) الحالي . وكان الشيخ عبد الله عزام يزور العرين ، فلما عدنا وحدثناهم بما رأينا طلب أبو عبد الله منا أن نذهب إلى أقرب مكان للعدو ونصوره بالفيديو ونعود ، فذهبت أنا وشفيق وكان معنا عبد الأول مع مجموعة عبد السميع الشيعي (٣) الذين أوصلونا لنفس موقع المأسدة حالياً ، ولم يكن فيها أحد بالطبع .. فصورنا المنطقة بالفيديو ورجعنا .. » .

ويعود أبو عبد الله يكمل فيقول : « رجع الإخوة بالكاميرا وإذ بالأمر كما وصفوه : مواقع العدو ظاهرة بدباباته وخنادقه ، وحتى الأفراد يستطيع الذي يدقق النظر أن يلحظهم يذهبون ويعودون ، فعزمت بعدها أن أذهب وأرى الوقع بنفسي .. » يقول أسامة : « رجعنا فلقينا الشيخ عبد الله عزام وأبا عبد الله أمام النفق في العرين يتغدون ، أريناهم الصور وأخبرناهم بما شاهدنا ، فقرر أبو عبد الله أن يطلع معنا مرة ثانية

ليرى الموقع ، وكان الشيخ عبد الله عزام قد عاد .. » ويكمل أبو عبد الله : « ذهبنا .. وفوجئت بالموقع فعلاً : موقع متقدم يكشف ويرصد جميع تحركات العدو للأفراد أو الدبابات أو الإمداد ، وهو أقرب على العدو وخالي ، فسألت : لماذا لا يجلس المجاهدون في هذه المنطقة ؟ فقيل لي : لأنها منطقة بعيدة قُصفت كثيراً في العام الماضي وكانت بأيدي الروس قبل أن يجليهم الله سبحانه وتعالى بالريح العاتية الشديدة ، ثم إن الطرق إلى المنطقة تُقفل في الشتاء من شدة الثلج فيتعذر إمدادها .. ولأن عددنا لم يكن يسمح لنا أن نفكر بالتعسكر هناك ، إضافة إلى التزامنا بأعمال أخرى في (صدى) حيث كان أحد الإخوة يعمل على إنهاء ورشة إصلاح لمعدات الحفر وقطع الغيار ، وأخ آخر كلفناه بمهمة جهة (كويتا) وثالث مريض .. فبدا العدد أقل من أن يسمح بالتعسكر القتالي هناك .. عند ذلك ، ولأن المنطقة تابعة للشيخ سياف ، كتبت له رسالة وصفت له فيها المكان وعرّفته به ، وقلت له : هذا مهم جداً وحساس وخطير ، وإذا كان المجاهدون يشتكون من قصف الطائرات وانقطاع الطرق في الشتاء إليه ، فلو تأذنوا إن شاء الله خلال أشهر قليلة نكون قد عملنا طريقاً واسعاً لا ينقطع بإذن الله في الشتاء ، إضافة إلى خنادق للمجاهدين تقيهم الطائرات ، فكانت من أسعد الأيام عندي لحظة موافقة الشيخ أن ننتقل للعمل في ذلك المكان .. لأهميته العسكرية من وجهة نظري (٤) » .

* * *

هل كان إقتناع أبي عبد الله بأهمية المكان العسكرية هو السبب الحقيقي للإصرار على التواجد فيه ، أم ان الرغبة التي كانت لا تزال تتنامى لديه بالإستقلال في عمل جديد أكثر تنظيماً وضبطاً هي السبب ؟ وإذا كان أبو عبد الله قد أحاط بأهمية الموقع العسكرية .. فهل اتخذ قراره بالتحول للعسكرة فيه لبارقة حماس وإنفعال لحظي وحسب ، أم أنه الإحساس بتدني إنضباطية المجاهدين في المنطقة ، واستمرار إتخاذهم موقف المُدافع خلال الهجمات العديدة التي شهدتها من قبل .. في الوقت الذي تنشط قوات العدو في تقدمها وانتشارها على طول الوادي المتصل بين قلعة « تشاوني » ومركز « الإتحاد » و « الحزب » على محاذاة خط الحدود ؟ وبعبارة أوضح : هل كانت المأسدة – ساعة أن أراد أبو عبد الله التأسيس فيها – مأسدة للأفغان وموقعاً متقدماً يسوقهم إليه ، أم كانت معسكر العرب المأمول في المستقبل .. خاصة وقد أدرك أن مشكلة الموقع الأولى ستكون في عدم وجود المجاهدين ؟!

لم يكن من السهل الخلوص إلى إجابة شافية تحدد دوافع أبي عبد الله حينئذ وتفرزها بدقة .. لا من أبي عبد الله نفسه ، ولا من أقرب الذين كانوا حوله وقتذاك ، لكن مجموع الإجابات التي سمعتُها منه ..

ومنهم تُقَرِّب السائل والمتسائل من حقيقة الموضوع إلى حد كبير . يقول أبو عبد الله : « حتى ذلك الوقت لم تكن هناك فكرة للإستقلال بالعرب في مكان ما . كانت الفكرة فقط عمل معسكر للمجاهدين ، إلا أنني كنت أنوي في نفسي أننا إذا أنهينا كامل المعسكر والغرف والخنادق والطرق ، وأُعِدّ إعداداً جيداً أن نستأذنهم بغرفة تتسع لسبعة أشخاص من إخواننا ، بحيث إذا كان للمجاهدين عملية أو إشتباك مع العدو ساهمنا بجزء منه .. » ومن جانبه يقول أبو الحسن : « عندما أتى أبو عبد الله إلى منطقة (العرين) كان يركز بالدرجة الأولى على المساهمة في مشروع الأنفاق ، ولم يكن في حسابه أي نشاط عسكري ، وكان يعمل على الحفارة و (البلدوزر) .. وعندما بدأ القيام بجولات إستطلاع لحركة العدو ، ووصل إلى مركز المأسدة حالياً ، قدّر أنهم بنهاية الشتاء سوف يصلون مواقع المجاهدين بمراكز ثابتة محمية ، ولن تكون عملية ردهم سهلة ، وعلى هذا الأساس إتصل بقادة الجهاد الأفغاني وشرح لهم كيفية التصدي لهذا الزحف البطيء ، وأن يفرُغوا له بعض المجاهدين وهو على استعداد للمساهمة بما يستطيع .. » أما أبو هاجر فقد قال : « بدأ أبو عبد الله العمل للمأسدة فما لقي موافقة من حوله ، وقالوا له : أنت أتيت تحفر الأنفاق للأفغان وقاية لهم من القصف فمالك والأعمال العسكرية ؟! فبقي يحاول أن يغطي موقفه بأن المأسدة لنقل الأفغان إلى الأمام بدل أن يبقوا في الخلف ، وأنني ما أزال في خدمتهم أحفر لهم الأنفاق في الأماكن التي يهابون أن يصلوا إليها وأقول لهم : تعالوا تفضلوا إليها .. وحتى أشجعهم أيضاً بكون العرب أسبق منهم ؛ وبدأت الإعتراضات عليه .. فكان مُصراً على رأيه في الإستمرار دون أن يوضح لهم بأنه يأمل في أن تكون هذه في المستقبل قاعدة أو مقراً للتدريب .. » ولعل إجابة أبي الرضا على هذا السؤال كانت الأكثر توفيقاً وواقعية حيث قال : « كان الرأي بعد إكتشاف الموقع أننا إذا نزلنا للأمام وفتحنا غرفاً للمجاهدين تحت الأرض يتمركزوا فيها فستظل مراكزهم متقدمة ويتوقفوا عن التراجع للخلف .. وعندما ذهب الإخوة وحفروا لم يأت الأفغان ، فجاء العرب وبدأت الفكرة .. وفي الأصل لم تكن هناك فكرة ولم يكن هناك هدف بعيد نمشي إليه ، فالأفكار ما زالت إلى الآن هي التي تمشي .. ثم تتبلور حسب الظروف ! » وبالنتيجة ، ومع مجموعة من الدوافع والأهداف والآمال متداخلة بلورتها مع الأيام الظروف والمستجدات .. خطا أبو عبد الله ومجموعة الإخوة الذين معه أولى خطواتهم لتأسيس المأسدة ، وذلك في الشهر العاشرمن عام ١٩٨٦(محرم ١٤٠٧) .. وكان على هؤلاء النفر الذين وهبوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله ، أن يجاهدوا على أكثر من جبهة ، وأن يكابدوا أصناف من المكابدة عديدة .. لتقف مأسدة الأنصار بعد أشهر قليلة على قدميها ، وفي كل منعرج فيها وخندق وضربة معول ذكرى .. وأشجان .. وكَبَد .

يقول أبو عبد الله : « يوم أن جاءتنا الموافقة من الشيخ سياف أعددنا أنفسنا بفضل الله وأخذنا خيمتنا ولوازمنا ووضعناها في سيارة تويوتا (حجرتين وحوض) وذهبنا .. » ويضيف : « كنا نحن العازمون على هذا الأمر خمسة ، يوم أن عزمت كنا ثلاثة : أنا وأسامة وشفيق على أن نذهب من أجل العمل ، وكان معنا

(بلدوزر) فطلبنا من المجاهدين الأفغان مجموعة من أجل حماية المعدات والأفراد ، فقدراً جاء معنا في اليوم الأول ثلاثة من الأفغان فقط ، ونحن ثلاثة ، وبينما كنا نُعدّ أنفسنا للذهاب في اليوم الثاني صباحاً نحن الثلاثة ، جاء أحد الإخوة وكان له فضل على أسامة وشفيق لأنه كان مدرساً لهم ، فحاول أن يثنيني عن الذهاب لخطورة الموقع ولعدم ذهاب الناس إليه فما انشرح صدري لما قال ، فرجع وحاول مع أسامة وشفيق ، وبحضوري في الفترة الأخيرة ، فقلت له : لو لم يبق إلا أسامة وشفيق معنا في هذا المكان فأنا إن شاء الله أذهب ونثبت هناك حتى يأتي المجاهدون ، وكنا يوم أن أتت الموافقة وقبل أن نتحرك في اليوم التالي وبينما كانت سياراتنا تصعد من (برجنار) قابلها أخونا أبو الذهب (نبيل) رحمه الله وهو من خيرة إخواننا (٥) والأخ محمد المباركي والذي يسمى هنا ذبيح الله ، كانا عابرا سبيل ولم يقصدا المجيء إلينا ، ولكنهما صعدا فيها على أساس أن يذهبا للجبهة – وكانا عائدين لتوهما من الشمال – فلما وصل الأخ الذي يقود السيارة إلينا (في العرين) قالا له : لا ، أوصلنا جبهة أخرى فنحن ما جئنا للعمل هنا .. فأنا حرصت لقلتنا أن يطلب منهما المكوث معنا نحن الثلاثة ، وقلت لأحد الإخوة : إنزل واطلب منهما أن يرتاحا عندنا وغداً نوصلهم .. وأنا أطمع في الكلام معهما إذا جلسا معنا فيستمرا ، ومن فضل الله ما صلينا العصر حتى قال لي الأخ أبو الذهب : أبا عبد الله ، نحن انبسطنا هنا وإذا ممكن نجلس معكم .. فقلت له : حياك الله .. » ويتابع أبوعبد الله : « وهكذا أصبحنا خمسة بفضل الله سبحانه وتعالى ، وفي اليوم الثاني ذهبنا عبر طريق مكشوف للعدو لم يكن هناك غيره ، وكنت قد أرسلت (البلدوزر) ليتقدمنا في الصباح الباكر ، فلما مشينا رآنا العدو وقصف علينا عدة قذائف ونحن في السيارة (الوانيت) البيضاء ، فجعلناها وراء تلة مجاورة ثم توزعنا وانتظرنا ربع ساعة أو ثلث ساعة ، سرنا بعدها بسرعة إلى أن تجاوزنا بفضل الله مرحلة الخطر ، فوصلنا ونصبنا الخيمة نحن الخمسة (٦) وكانت ولا شك أجمل أيام حياتي إلى الآن .. كنا نصلي الفجر سوياً ، نفطر سوياً ، نقرأ القرآن سوياً ، نذهب فترة ما بعد الإفطار إلى الظهر أربعة لإستكشاف المنطقة حولنا خشية أن تكون للعدو مواقع قريبة لا نعرفها ، ويبقى أحد الإخوة في الخيمة لحراستها ولإعداد الطعام لنا ، كنا عادة نذهب أنا وشفيق وأزمراي باستمرار ، ونأخذ أبا الذهب يوماً ، ويوماً ذبيح .. وبرغم الوحشة التي كانت تصيبنا جميعاً إلا أن واحدنا ما كان يُظهر ما في نفسه منها .. وكنا نخشى فعلاً أن نُتَخَطف ، وأذكر – والله – أن واحدنا إذا أراد أن يذهب للخلاء لا يستطيع أن يبعد أكثر من عشرين متراً ، لأن المنطقة منطقة غابات كثيفة ومجهولة ، وفعلاً نخشى من أن نُتَخَطف ، ويومذاك تذكرت قوله سبحانه وتعالى : (واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ..) وهكذا بقينا على ذلك الحال فترة ومعنا الإخوة الثلاثة المجاهدون وسائق (البلدوزر) وكنا ونحن على الإفطار نسمع أصوات معدات العدو إذا تحركت سيارة له أو دبابة ، فنقول من حين لآخر : ياشفيق أو يا أسامة قم وانظر ماذا حركوا ! وفي نفس الوقت ، ومن نفس المكان الذي كان شفيق ينظر إليهم كان (البلدوزر) يعمل هناك والمفروض أن يُرى ويُسمع ، لكن بفضل الله

سبحانه وتعالى ما كانوا يرونه ولا يسمعونه .. وعلى هذا الحال إستمرينا أسبوعاً أو أكثر بقليل ، وأظن ظناً أنني كنت أشد الإخوة قلقاً : خائف على الإخوة بحكم أنني المسؤول والجوّ الأمني ليس صحيحاً .. وخائف على نفسي ، لكنني ما كنت أُظهر للإخوة قلقي خشية أن تتأثر نفسياتهم بشيء ، إنما الجو غير طبيعي .. ولو حصلت في هذا المكان مذابح فلن يصل للمجاهدين خبر ! ووقتذاك لم يكن لدينا إلا سيارة واحدة تنزل من الصباح إلى (برجنار) أو إلى (صدى) لتأتي بالأغراض أو بعض الأسلحة ، وحتى الماء كنا نأتي به من العرين بنفس السيارة فلا تصل إلينا إلا المغرب وأحيانا تتأخر فما تأتينا إلا ثاني يوم ، ولم يكن من سبيل آخر للإتصال إلا بالأقدام ! » ويتابع أبو عبد الله : « بعد أسبوع وصلتني رسالة من قائد غُنْد سياف – وأظنه كان سيد غريب – يقول لي فيها : إن أخباراً وصلتهم من مصادرهم في الحكومة الأفغانية تفيد بأنها قد علمت بوجودي في هذه المنطقة ، وعرفوا طبعاً أني أتيت بمعدات .. وهم حريصون على أن يخطفونا أحياء .. ونظراً لأن المجاهدين الأفغان لم يأتوا إلينا بعد فقد ألزمنا بالرجوع إلى العرين ، وعندما ذهبت وقابلته هناك قلت له : أنا أعرف بأن الوضع غير مضبوط لكنني أعرف أيضاً بأني إذا رجعت ورجع الإخوة العرب فإن العمل سيتوقف ، والعمال الذين يعملون على (البلدوزر) وعلى (الكمبريسر) والآخرون الذين يعملون بالأجرة – وكانوا أكثر من عشرين في ذلك اليوم – نخشى أن يعودوا أيضاً .. وبعدما وضحت له هذه المسألة قال لي : إذاً أنت لا ترجع على الأقل . قلت له : حتى أنا يجب أن أذهب . ومازال بي حتى اتفقنا على المبيت في العرين ، واليوم الذي لا تتيسر فيه السيارة يأذن لي في بالبقاء هناك .. فكانت تمر الأيام يوماً هكذا ويوماً هكذا .. وبعد أسبوعين أو أكثر جاءنا سبعة من المجاهدين الأفغان ، وكنا قد شعرنا بقلتنا وبدأت الحراسة ترهقنا حيث نتناوب نحن الخمسة على الليل وحدنا ، لأن العمال لا يحرسون وليس معهم سلاح بالأصل ، فارتأينا أن نرسل لأحد إخواننا وهو الأخ حمزة الغامدي ليأتي إلينا ، ووقتها كان أبو الذهب مريضاً قليلاً فقلت له : تنزل إذاً وتنادي معك حمزة ، فصرنا بمجيئه ستة ، ثم شاء الله أن جاء أخ آخر لا أذكر من هو بالضبط فصرنا سبعة .. » .

.. ويعاود أسامة « أزمراي » الحديث عن هذه الفترة المبكرة من تأسيس المأسدة وذكرياته فيها ويقول : « طلعنا مكان المأسدة على أساس أن نثبت هناك ونقاتل العدو بأي طريقة ، ونحاول أن نقيم مراكز للمجاهدين ثم ندعوهم ليتقدموا إليها .. وأول ما بدأنا بحفره كان النفق الكبير – المرمي حتى الآن على اليسار جانب غرفة العمال على الطريق إلى (الزيكوياك) – وعندما جاءنا أبو النصر اليمني وحمزة الغامدي كبّرنا الخيمة قليلاً ، أتينا بخيمة كبيرة فنصبناها وكان أبو عبد الله قد أمرنا أن نشتري مدفع ٨٢ و (بي – كا) من سوق (صدى) إضافة إلى (الكلاشنات) والأسلحة التي عندنا .. ثم سافر إلى السعودية ليأتي بمجموعة من الإخوة ، فأتينا أثناء سفره بهاون أخذنا نقصف به وبمدفع ٨٢ على العدو ، حدث بعدها إستنفار

لـ (ننجرهار) فذهب أبو الذهب – بعد عودته من العلاج في بشاور – ثم عاد ، فاكتملنا ستة أنفار : أبو النصر ، وحمزة الغامدي ، وأنا ، وشفيق ، وأبو الذهب ، وذبيح ، بعدها بقليل عاد أبو عبد الله ومعه ١٦ من الشباب تقريباً وكان الثلج قد بدأ بالنزول ونحن لا نزال في الخيمة ، وليس لدينا إلا بخاري واحد نتدفأ عليه (٧) .. » .

.. يقول أبو عبد الله : « عدت وعاد معي أمين ، وعلي ، وحسن عجيب أبو حنيفة وصحب من إخواننا ليصبح العدد تسعة عشر فاستأنسنا قليلاً ، لكننا كنا لا نزال في نفس الخيمة فوسعنا فيها قليلاً ونصبنا خيمة أخرى للعمال الأفغان .. » وهنا يسجل أمين ذكرياته قائلاً : « جئنا مع أبي عبد الله : أنا ، وعلي ، وصخري ، وأبوحنيفة ، وأبو حنفي ، وعبد الحكيم .. وكان أبو عبيدة اللحام موجوداً .. قابلناه أثناء قدومنا يركب (الدبّاب) الصحراوي الكبير وعليه زمزميتان ، قال : أنا ذاهب أملأ بهما (الديزل) من العرين .. وكان أبو عبيدة قد أتى بأدوات اللحام وبدأ العمل بها في تحصين أستف الغرف المحفورة تحت الأرض وكان يساعده في هذا العمل حمزة ، وبوصولنا ونحن في هذه المجموعة سبعة أو ثمانية ، لم يكن موجوداً حتى ذلك الوقت إلا الخيمة الكبيرة .. خيمة عادية جلسنا متلاصقين فيها ، وعند النوم كان واحدنا ينام نصف نومة ! رجلاه مرفوعتان وظهره ممدد فقط !! (٨) بعد ذلك وبفضل الله عز وجل تكاثر الإخوة ، وكان أبو عبد الله جزاه الله الخير يجتمع مع الإخوة في كل نزلة للسعودية يحدثهم عن المأسدة ويوصيهم لا أن يأتوا بأنفسهم فقط ، بل وأن يُحَرِّضوا الباقين ، وبفضل الله جاءت فترة ومن كثرة الإخوة الذين توافدوا على المأسدة ، كنا نجعل إثنين إثنين للحراسة ومع ذلك بقي بعض الإخوة ينام شبه جالس أو يتمدد على ظهره دون أن يستطيع مدّ رجليه ! .. » .

ومن جهته يتذكر الأخ علي غزلان تلك الأيام التي وطئت أقدامه فيها أرض المأسدة لأول مرة ، في ثالث زيارة له إلى أفغانستان وبعد أن قرر ترك الدراسة في الجامعة والعودة للجهاد .. ويقول : « جئنا من السعودية على طائرة واحدة نحن الخمسة : أ نا ، وأبو عبد الله ، وأمين ، والصخري ، وأبو حنيفة . وفي بشاور أخذنا من أبي الحسن المدني سيارة إسعاف (من سيارات الهلال الأحمر السعودي بالطبع) وطلعنا فيها إلى المأسدة ومعنا أخ مصري إسمه عد الحكيم ، وأبو حنفي المصري ، وأبو الرضا ، وأبو حفص المدني .. وبالطبع كانت أيام الشتاء وكان الطريق مقطوعاً في بعض مناطقه من كثرة الثلوج ، فكان من الصعب على السيارة أن تمشي إلا بجنازير ربطت على عجلاتها .. وفي أول ليلة نمنا فيها كنا ١٧ شخصاً تقريباً في خيمة واحدة .. » ويتابع أبو عبد الله من جديد فيقول : « بعد ذلك سمع بنا الإخوة هنا في بشاور فبدأوا يأتوننا إثنين .. ثلاثة كل بضعة أيام .. فزاد العدد – ماشاء الله – إلى أن أصبح حوالي ١٥ – ٢٠ وكان الأخ إذا

أتى من إحدى الجبهات ووجد بيت الخدمات في بشاور مقفولاً يسأل فيقولوا له : أبو عبد الله في المنطقة الفلانية فيأتينا ، وفي تلك الفترة جاءنا أخونا أبو هاجر وكان ملتزماً في بشاور بأعمال ومهمات ، لكنه كان يأتينا بالأسبوع .. بالعشرة أيام جزاه الله الخير ، فكان الإخوة يأنسون بمجيئه وبدروسه .. وهكذا بدأ العرب يكثرون في المنطقة .. » .

يقول أبو هاجر : « ذهبت إلى المأسدة في شهر نوفمبر وكان عدد الأشخاص فيها سبعة أو ثمانية من الإخوة .. وكان الأخ شفيق جزاه الله خيراً عمل لنا نقطة حراسة أحاطها بأكياس من الرمل .. لكنني لما أذهب إليها كنت أقول : ماذا أحرس ؟ لا أعرف ! نحن خيمتان في مكان كهذا .. لو يأتي إلينا الكفار فيذبحوننا ويأكلونا ويمصمصون عظامنا وتنتشر رائحة الشواء فلن يدري بنا أحد نهائياً ! بيننا وبين المجاهدين ١٤ كلم ، وكان بعض الناس يستغرق ست ساعات لقطعها بالسيارة ! فكنت لا أتوقع في الحراسة إلا أن أحرس ضد الهليوكبتر فقط .. أما من أين سيأتيني العدو فلا أعرف ! كنت أتوقع فقط أن تنزل هليوكبتر علينا فيأخذوا هذه المجموعة يضعونهم في كيس ويمشون ! حتى الأسلحة لم تكن جاهزة .. وأذكر وقتها أن الإخوة كانوا يغلون الماء و (الديزل) لينظفوا (الجرينوف) ويذيبوا الشحم عن (الكلاشنكوفات) في هذا البرد الشديد ! وسبحان من أعمى أبصار الكفار عنا في تلك الفترة .. » ويضيف أبو هاجر : « بقيتُ حوالي الأسبوع في المأسدة حاولت في نهايته أن أقيّم العمل مع أبي عبد الله فقلت له : إن تحريض الأمة على الجهاد جيد وله أثر طيب بالتأكيد .. لكن هذه المنطقة التي أنت فيها تحتاج إلى أن تدرسها عسكرياً . قال لي : هي آمنة .. قلت : أنا لا أسمح لنفسي أن أقرر ذلك لأني لست عسكرياً .. لكن أقول لك فقط : إبحثها .. وأريدك أولاً أن تبحث الشيء التالي : هل عملك بهذه الطريقة صحيح أصلاً ، فإن لم يكن فأرجو أن لا تتمادى فيه ، وإن كان صحيحاً فلا تلتفت إلى أي شخص ، إمض بكل ثقة ولا تتردد .. وإن كان الأمر حقاً إن شاء الله فسيأتي اليوم الذي يبرز فيه إلى الضوء ويكون عملاً عظيماً .. » .

لم يكن أبو عبد الله ليقصّر في استشارة أهل الإختصاص وغيرهم في مشروعه المثير هذا .. مثلما لم يكن أحد من الزوار أو المقيمين أو السامعين ليقصّر في إبداء رأيه وتقديم نصائحه وتسجيل تقييمه وملاحظاته على هذا العمل الناشيء في طرفٍ قصيٍ من جبل ناءٍ بـ (جاجي) .. ولعل من أوائل العسكريين النظاميين الذين زاروا المأسدة في بدايات تأسيسها وقدّموا الرأي والنصيحة لأبي عبد الله كان الأخ أبو سيف السوري (عدنان إبراهيم) – الذي عمل محرراً في مجلة الجهاد ومراسلاً لصحيفة الحياة فيما بعد – والذي يسجل إنطباعاته التي تشكلت عن أولى زياراته للعرين وللمأسدة وقتذاك .. ويقول [٩] : « كانت فكرة الأنفاق الخلفية فكرة طيبة للتحصين ، فطبيعة الأرض الجبلية هناك تعطي ميزات جيدة للمقاتلين من ناحية الإخفاء والتمويه

ومن ناحية التحصين ، لكن الإستفادة من الأرض لم يكن وارداً عند المجاهدين من قبل بهذه الصورة .. كذلك فقد انتبه الأخ أسامة بن لادن إلى موضوع فتح الطرقات .. فاستقدم بعض الآليات الخاصة به ، ولم يكتف بفتح الطرق إلى المأسدة وإنما فتح طرقاً أخرى للمجاهدين يستخدمونها كمحاور قتال إلى الآن .. » ويضيف أبو سيف : « كانت المسافة الطويلة من العرين الى المأسدة فارغة تقريباً باستثناء موقع واحد شاهدناه للمجاهدين ، وبالتالي كنت أعتبر المجموعة الموجودة هناك في المأسدة منقطعة تماماً .. خاصة في المعارك ، وكان لا بدّ من عمل ترتيبات - من البداية - لتأمين النجدات ولخطوط الإنسحاب إلى المواقع الأخرى ولخطوط التفاف أو هجمات فعالة إذا اقتضى الأمر .. أما الموقع نفسه فالأصل في تمركز الغابات ألا يكون في المنطقة الفارغة من الأشجار (الوضحة) وحقيقة هم حفروا حول المناطق الفارغة إلا أن (البلدوزرات) والمعدات والسيارات كانت تقف كلها في منطقة واضحة فارغة .. وفي وضح النهار .. وهذا الأمر جرى التنبيه إليه أيضاً خشية أن يؤدي إلى كشف الموقع بتفاصيله . قضية أخرى هي الرصد الذي كان يتم من مناطق مكشوفة .. وكان بإمكان الأرض أن تؤمّن مراصد محمية ومموّهة وغير مرئية .. وأما الجانب الأيسر من المأسدة فكان يشكل زاوية ميتة توقعتُ يومها إذا جاء هجوم أن يكون من هذه الزاوية ، بالإضافة إلى منطقة أخرى في المواجهة .. حيث يوجد تل صغير يؤمّن تقرباً مستوراً للقوات الشيوعية إلى مسافة الرمي المجدي للأسلحة .. وبالفعل حصل ذلك في المعركة التي دارت فيما بعد .. لكنه ولأول مرة في أفغانستان فشل الإنزال الروسي عندما فاجأتهم نيران الإخوة ففروا هاربين (١٠) .. » ويناقش أبو سيف قضية وجود العرب كمعسكر مستقل عن المجاهدين الأفغان وكيف دارت الآراء حول ذلك منذ بداية تأسيس المأسدة .. ويقول : « كان هناك رأيان حول الموضوع : الأول يقول بأفضلية أن يكون العرب لوحدهم على مبدأ التميز تطبيقاً لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كان يقول في المعارك : تميزوا .. الأمرالذي يحقق نتائج أفضل ، لكن الرأي الآخر يقول عكس ذلك ، إذ من الأفضل للعرب أن ينتشروا بين الأفغان لرفع معنوياتهم وشحذ هممهم .. لأن التمايز كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بين القبائل لا بين الشعوب .. هذا عدا عن النواحي الأمنية ، على إعتبار أن للعرب تأثير مادي ومعنوي في الجهاد .. ومن المتوقع أن توجه ضربة كبيرة لهم ، ولسوف يتيحون المجال لخصومهم بتحقيقها في تجمعهم المركّز حول منطقة واحدة .. » وكانت خلاصة رأي أبي سيف في هذا التواجد المتنامي : « أن يكون هناك دعم من الأفغان فلا ينبغي أن يكون العرب وحدهم هنا .. صحيح أن الأفغان جاءوا فيما بعد إلى المأسدة لكن العدد لم يكن كافياً ، وكان المفروض أن يكون التواجد الأفغاني هو الأساس .. والتواجد العربي هو الثانوي .. » .

هوامش

(١) في حديثه لي بتاريخ ٩٠/٥/٣ في بيته ببشاور .

(٢) كان السوفييت قد بدأوا مع معركة رمضان ١٤٠٦ أو قبلها بقليل بتأسيس مراكز متلاحقة بدءاً من « تشاوني » وباتجاه الحدود الباكستانية ومواقع المجاهدين الرئيسية في « غُنْد سياف » و « غُنْد الفتح » بـ « جاجي » إعتاد الأفغان أن يطلقوا عليها تسمية « البوستة » . يقول أبو الرضا : « بعد المعركة بدأ العدو خطة جديدة بالإمتداد البطيء لإغلاق طريق (لوغر) وذلك سيضطر المجاهدين - لو تم - إلى المسير ثلاثة أيام إضافية حيث يصل هذا الطريق إلى ١٦ ولاية .. ولأن المجاهدين في المنطقة إعتادوا على القصف الثقيل والبعيد .. ولم تعد لهم عمليات ضرب قريب واقتحام .. إستطاع العدو أن يشكل بوستة بعد أخرى بهدف إغلاق الطريق والإقتراب - إضافة لذلك - من مراكز المجاهدين .. » .

(٣) « عبد السميع » : أحد قادة المجموعات النشطين لدى تنظيم « الأتحاد » التابع للأستاذ سياف في المنطقة ، وهو من الشيعة كما يعرف الجميع . أمضى مع الإخوة العرب فترة طويلة منذ تأسيس المأسدة ، وكان رامياً مجيداً على راجمة الصواريخ (بي . إم) .

(٤) يقول الأخ عبد الله عبد الرحمن : « إن الشيخ سياف كان يرى المكان غير مناسب .. وخطير ، لكنه أمام إلحاح الإخوة - وهو رجل حيي - وافق على مضض .. » .

(٥) الشهيد أبو الدهب : شاب مصري من أصل سوداني ، استشهد في شهر شعبان ١٤٠٧ (كما سيأتي لاحقاً بالتفصيل) .

(٦) يذكر الأخ أسامة « أزمراي » أن الأخ عبد السلام السوري « أبو محمد » كان قد وصل من أمريكا وقتها وجاء إليهم في العرين وأنهم طلعوا جميعاً إلى المأسدة وكان ذلك بعدما اتفق أبو عبد الله مع الأفغان على التعسكر في الموقع ؛ ومن جانبه يذكر الأخ عبد السلام أن أبا عبد الله أرسل إليه عندما سمع برجوعه من أميركا وطلب منه الحضور إلى « جاجي » .. ويقول : « ذهبت هناك وكانوا لا يزالون يحفرون النفق في (الفروجه) فطلب مني أن أشاركهم في التفجير ففعلت ، وفي الصباح انتقلنا بالسيارة أنا ، وأبو عبد الله ، و أزمراي ، وأمين ، وذبيح الله ، وأبو الذهب .. وهؤلاء كانوا قد رافقوني في الطريق من بشاور إلى هناك .. وأذكر أننا مررنا على منطقة مكشوفة للعدو فقصفنا بأربع أو خمس قذائف إضطرتنا للإنتشار .. لكن الوضع كان طبيعياً في المأسدة حتى أننا كنا نشعل النار في الليل ونتدفأ عليها دون أن

يقصفوا علينا ، ولكن أبا عبد الله والإخوة أخذوا المناظير وقت وصولنا وذهبوا للترصد خوفاً من أن يكون العدو قد اقترب ، وكنا قد أخذنا معنا خيمة صغيرة فنصبناها ولكنها ضاقت علينا حتى اضطر البعض أن يناموا على الباب برغم اشتداد البرد .. » ويذكر الأخ أبو محمد أن اثنين أو ثلاثة من الأفغان كانوا معهم إضافة إلى سائق (البلدوزر) ورجل الصيانة .. لكن عبد السلام لم يلبث أن عاد إلى بشاور بعد أيام قليلة ليؤدي كما قال مهام أخرى كانت في إنتظاره . وقد أحس - كمايقول - ببطء العمل في المأسدة أملاً في أن يؤدي دوراً أفضل هناك .

(٧) « البخاري » : موقد أسطواني من الصفيح تُشعَل في أسفله قطع الحطب والخشب وفي قسمه الأعلى خزان على مساحته يُملأ بالماء الذي يتبخر باستمرار فينشر الدفء والحرارة في المكان ، وقد شاع إستخدامه في مواقع المجاهدين .. المرفهة !

(٨) في استقصاء مركّز لأسماء جميع من حضروا تلك الليلة سجل أمين مع أبي محمود الحضور التاليين : ١- أبو عبد الله -٢- أسامة -٣- شفيق -٤- ذبيح الله الطائفي -٥- أبو الدهب (مصري) - ٦- عبد الحكيم (مصري) -٧- علي غزلان (مدني) -٨- صخري (مدني) -٩- أبو حنيفة (مدني) -١٠- أبو حنفي الونش (مصري) -١١-إحسان (سوري) -١٢- أبو عبيدة جعفر (مصري) -١٣- حمزة الغامدي -١٤- أبو النصر اليمني ، بالإضافة إلى أمين نفسه .

(٩) في حديثه المسجل بتاريخ ٣/٥/٩٠ في بشاور .

(١٠) حدث ذلك لاحقاً في المعركة التي بدأت أواخر رمضان ١٤٠٧ واستمرت نيفاً وثلاثين يوماً .. وكانت - كما سيأتي - أشد وأشهر معركة تشهدها المأسدة والمنطقة كلها .

الأنصار العرب (٢٧)

سرية العرب الأولى

إستدعى التزايد المطرد في توافد الإخوة إلى مكان المأسدة – وقد كان يطلق عليه إسم « المركز الجديد » حتى تلك الفترة – الإسراع بتأمين موقع آمن حصين يبيتون فيه بشيء من الطمأنينة والراحة .. فخلال أكثرمن شهر مضت على تواجد العرب في هذه المنطقة ، إنصرف جهدهم نحو إقامة تحصينات للمجاهدين الأفغان إنتظاراً لقدومهم .. وها هي ذي خيمتهم الكبيرة تضيق على الوافدين الجدد . يقول أمين : « مع تزايد الإخوة بفضل الله عز وجل قررنا بناء غرفة تحت الأرض على مقربة من الخيمة التي كنا نجلس فيها ، وهكذا صرنا نخرج يومياً بالفؤوس ، وطبعاً (جاجي) كلها غابات صنوبرية أشجارها طويلة ومستقيمة وقوية ، فكان كل اثنين منا أو كل أخ حسب قوته يختار شجرة جيدة ويبدأ قص جذعها بالفأس حتى تسقط .. ينظفها بعد ذلك ، ينزع القشور واللحاء عنها ، وفي آخر النهار أو عند الظهيرة نجمع الإخوة لنحمل ما احتبطوه أمام الغرفة التي كان (البلدوزر) قد حفرها وأكملنا بناءها بالحجارة ثم كسونا جدرانها بالإسمنت ، ولما انتهينا استخدمنا جذوع الاشجار كسقف وأبواب لها ، وفي اليوم الذي أكملناها وضعنا (البخاري) وسطها وأسرعنا بفرشها فما أن انتهينا حتى كان المغرب قد أذن [1] .. وقتذاك جاء (البلدوزر) وكان طوال اليوم يذهب لإصلاح الطريق ليأتي مع بداية الليل فيقف في المأسدة ، وعندما مرّ قريباً من الغرفة ، ولم تكن حجارتها قد تماسكت ، وطينها لم يكن قد جف بعد ، وهو بصوته الهادر وحركته الشديدة ، لاحظنا قبل أن ننام بأن الجدران كأنما تقعّرت .. البعض قال بأننا نتوهم ، والبعض قال لا .. هذا صحيح ، لكننا سمّينا بالله ونمنا تلك الليلة ، وفي الصباح وقت الضحى وبعد أن أفطرنا ، كان أربعة أو خمسة من الإخوة لا يزالون في الغرفة عندما لاحظوا إزدياد ميلانها فصاح أحدهم : الغرفة ستسقط وخرج بسرعة ، وسرعان ما تبعه الآخرون ، وسبحان الله ، قدّر الله عز وجل ألا يخرج آخرهم حتى سقطت الغرفة مرة واحدة وانطبقت جدرانها والسقف على بعضها البعض فما سلم شيء مما فيها من متاع تقريباً .. » !

.. ويقول الأخ علي غزلان : « بنيت الغرفة مع بداية وصولنا وسقفت ووضع الإخوة عليها مايقارب إرتفاع متر من التراب على كامل مساحتها ولم تكن الجدران قد جفت بعد والطين مازال رطباً ، فأحسسنا أن وصلة طين تسقط في كل يوم .. وكان أبو عبد الله يكلم الإخوة أن يستعجلوا في الغرفة الثانية حتى نترك هذه قبل أن تسقط ، لكننا ما كنا نتخيل أنها ستسقط بالفعل ، وسبحان الله ، كنت موجوداً أنا والصخري وأبو سليم الجزائري – الذي يعمل الآن في بيت الأنصار – وأبو لقمان الجزائري – الذي مكث ثلاثة أشهر معنا ثم رجع – وكنا أيامها نحرس أربع ساعات في الليل وأربعاً في النهار لقلة عددنا ، وكانت الساعة

العاشرة حينما أن انتهينا صباح ذلك اليوم من نوبة حراستنا وعدنا إلى الغرفة لنستريح قليلاً ثم نكمل أعمالنا الأخرى .. وعندما أردت أن أنام والتحفت بالغطاء سمعت الشباب يتحدثون فجلست من جديد .. حتى جاء في معرض الحديث أن الغرفة قد تسقط ، في الوقت الذي أراد الصخري أن يخرج في أمر لا أعرف إلى أين بالضبط ، فقال للإخوة يمازحهم وهو يهم بالخروج : أخرجوا جيعاً فستطيح عليكم الغرفة ، وأنا سبحان الله أحسست وقتها بحاجة للخلاء فخرجت خلفه أجري وأقول لهم مازحاً : أخرجوا .. ستطيح الغرفة عليكم .. طاحت .. طاحت .. فالإخوة الذين كانوا يستعدون للنوم صحوا مفزوعين وأخذوا يجروا .. ومع خروج آخر واحد فيهم طاحت الغرفة بالفعل .. وانطبقت الصخور والأتربة فوق أغراضنا وأسلحتنا وملابسنا كلها .. سبحان الله ! » ويتابع الأخ أمين : « في تلك الليلة كنا قد قسمنا الإخوة ثلاث مجموعات ، في كل واحدة منها ٥ - ٦ إخوة ، ومع كل مجموعة (آر. بي . جي) و (ستكا) [٢] و (كلاشنات) وجعلنا الحراسة أربع ساعات ، فعندما حدث ما حدث في الصباح سَلِمَت الأسلحة ، وأخذنا نحمل الركام والتراب والحجارة والخشب ، وأخرجنا ما يمكن الإستفادة منه .. وفي نفس الوقت أمر أبو عبد الله (البلدوزر) أن يحفر حفرة أخرى لغرفة جديدة .. وبسرعة ، وحتى يجد الإخوة لهم مأوى تلك الليلة نصبنا خيمة إضافية كانت معنا ، وخلال ثلاثة أيام تقريباً أنهينا الغرفة الجديدة ، فقط حفرة سقفناها ووضعنا لها الأبواب ، وكانت كبيرة وواسعة إستوعبت كل الإخوة تقريباً والحمد لله .. وبعدها ، وبعد أن كنا نضع أسلحتنا في حفرة صغيرة كانت موقع أول خيمة لما أتينا ، نقلناها إلى الخيمة التي كنا ننام فيها ، ثم خشينا أن تأتي قذيفة لا قدّر الله على هذا المكان ، فأمر أبو عبد الله سائق (اللودر) الصغير أن يحفر حفرة جديدة ، وجئنا بالعمال لتقطيع خشب كثير معنا ، حتى أبو عبد الله كان يقطع بنفسه ، وكنا نشتغل جميعاً مع بعضنا حتى أتممناها وسقفناها ونقلنا إليها السلاح والذخائر.. » .

في تلك الفترة كان الأخ أبو محمود السوري أحد الذين وصلوا المأسدة في بدايات تأسيسها ، وعايشوا - من بعد - مسيرتها ساعة بساعة ، ويوماً بعد يوم ، لكن أبا محمود إهتم - على غير عادة أكثر العرب هناك - بتوثيق يوميات هذه المسيرة وتسجيل أحداثها الهامة باستمرار .. يقول أبو محمود [٣] : « أخرجونا من بشاور - وقد أُقفل بيت الخدمات - إلى (صدى) وكنا حوالي العشرة ، وهناك وجدنا عشرة آخرين تقدمونا .. ولم تكن في المعسكر إلا غرفة صغيرة نزلنا فيها بينما مضى الشيخ عبد الله وأبو برهان ومعهما الأخ عبد الأول الأردني وإخوة آخرون .. وقالوا بأن ابن لادن قد فتح معسكراً في بداية (جاجي) وسوف يذهبون لإستطلاعه ورؤيته .. ولو وجدوا مجالاً بعدها تبعناهم » ويضيف : « وقتها كنت قد سمعت من أبي هاجر العراقي أن هناك جبهة جديدة إسمها المأسدة ، أخبرنا بذلك وكان عائداً من هناك إلى بشاور وقال بأن شهراً قد مضى على إنشائها ، وأن ابن لادن أخذ الشباب بـ (البلدوزرات) وتقدم بهم على

مكان يطل على العدو مباشرة .. وبعد يومين – وكان ذلك في أواخر شهر ١١ – أرسل الشيخ عبد الله وراءنا لنحضر ، فركبنا سيارة الإسعاف وكنا سبعة تقريباً ، ولم نصل العرين حتى المساء حيث كان أبو معاذ قد بدأ بفتح النفق الأول في الجبل ، وفي الصباح تحركنا مبكرين إلى المأسدة ، وبعد عذاب شديد من مشقة الطريق الذي استغرق أربع أو خمس ساعات وصلنا بتسهيل رب العالمين .. ليستقبلنا أخ فارع الطول بلباس أبيض ناصع .. عصاه في يده .. والعمّة على رأسه .. والهيبة في وجهه .. فقدّرت أنه الأخ أسامة بن لادن .. وكان كما توقعت بالفعل ؛ وفي الغرفة الوحيدة تحت الأرض كان الشيخ عبد الله جالساً مع ثلاثة إخوة سعوديين بشعور طويلة .. شعث غبر عرّفوا أسماءهم : ذبيح الله ، أسامة ، وشفيق .. وكان هناك الأخ إحسان والمجموعة التي خرجت مع الشيخ عبد الله ، فوصل عددنا تقريباً إلى ٣٩ أخاً توزعنا على الغرفة وعلى الخيمة فوق بعضنا .. لكنها كانت من أسعد أيام حياتي .. » ويسجل أبو محمود مشاهداته الأولى عن وضع المأسدة وقتها .. ويقول : « كانت المأسدة مكونة من غرفة وخيمة للإخوة العرب ، وبجانبها غرفة أخرى للمجاهدين الأفغان عبارة عن شق في الأرض ، وغرفة تحت الأرض للعمال فتحها لهم (البلدوزر) وهم بنوها ، وكانت هناك خيمة أخرى في المكان الذي سُمّي بعدها بـ (جبل الزيكوياك) فيها ستة إخوة جزائريين ومعهم أخ سوري واحد ، صعدت في اليوم التالي مباشرة لزيارتهم وكانوا يحاولون بناء غرفة لهم لكنهم لم يبدأوا بعد ، وبرغم حالة الإرهاق والتعب التي عليهم إلا أنهم كانوا مسرورين للغاية .. » ويضيف أبو محمود : « كانت الفرحة تعم الجميع حقيقة : قيام الليل ما شاء الله من الشباب ، الدروس اليومية من الشيخ عبد الله بعد صلاة الفجر ، وبعد الإفطار كان أبو عبد الله يوزع الإخوة على العمل ، وكان هناك أخ سوري يفهم قليلاً في العسكرية فكان يأخذ الشباب الزائدين عن العمل ليدربهم رياضياً ٤ – ٥ ساعات ، في الوقت الذي كان بعض الإخوة الموجودين يعدّون أنفسهم سراً للمشاركة في عملية عسكرية في الذكرى السنوية لغزو أفغانستان .. » .

.. يقول أبو عبد الله : « طلبت من أخينا أبي حنيفة أن يسافر إلى الحجاز ليحرّض بعض الشباب الطيبين ويأتي بهم ، وقلت له : تذهب إن شاء الله وتعود بعشرين من الإخوة أو أكثر ، فكان الإخوة يضحكون من تفاؤلي ويرونه خيالياً جداً .. ومن فضل الله غاب الأخ حسين ٢٤ يوماً فعاد ومعه ٢٤ رجلاً جزاه الله خيراً فقد كان مباركاً في الدعوة والتحريض على الجهاد ؛ ثم ومن فضل الله إزددت تفاؤلاً وسكينة وقلت للإخوة : إن تصبروا شهرين آخرين فسيصبح عددكم أربعين بإذن الله .. فاستغربوا ذلك مني حينئذ .. لكننا وبفضل الله أصبح عددنا أربعين شخصاً بالفعل في شهر ربيع الذي وافق ٦ الجدي أو السابع والعشرين من ديسمبر .. وهو يوم دخول القوات الروسية إلى أفغانستان » ويعود أمين بالذاكرة إلى تلك الفترة .. يوم أن طلب أبو عبد الله منه ومن أسامة أن ينزلا لأول مرة سوق السلاح في قرية « تري منجل » الباكستانية

القريبة ليشتريا ما يحمي هذه المجموعة المتنامية من الغرباء المجاهدين .. ويقول : « في أول نزلة إشترينا ستة رشاشات (كلاشنكوف) وأربعة (سيمينوف) نصف أوتوماتيك [٤] وفي عدة نزلات أخرى ، وعلى فترات متباعدة إشترينا بفضل الله (آر. بي . جي) ثم هاون صغير ٣٨ ملم وهاون كبير وذخائر لها جميعا .. » ويكمل أسامة فيقول : « بعد ذلك طلبتُ من الشيخ سياف مدفع ٧٥ فأعطانا أمراً به مع ٥ قذائف فأتينا بها واشترينا له قذائف أخرى من السوق .. » ويعود أمين فيضيف قائلاً : « .. وغير ذلك كان الشيخ سياف قد أعطانا - جزاه الله خيراً - صندوق (كلاشنات) كامل فيه قرابة العشرين (كلاشن) صيني .. وهكذا مضت الأيام حتى جاء اليوم الوطني لأفغانستان وهو يوم ٧ ثور ذكرى إنقلاب تراقي [٥] .. ففي هذا اليوم إعتاد المجاهدون أن يقوموا بعمليات واسعة لأن مراكزالعدو تحتفل بالذكرى ومن الضروري أن ينغضوا عليهم ، وكان القومندان عبد السميع بجانبنا يريد القيام بعملية يومذاك ، فاشترك معه أسامة وشفيق والشهيد عبد الرحمن رحمه الله والأخ ذبيح وأبو خالد الجزائري » ويسجل أبو عبد الله ذكريات تلك العملية من جانبه ويقول : « في الفترة الأولى وعندما كنا خمسة في الموقع كنت إذا أغيب أترك أخانا أسامة ينوب عني ، وإذا غاب أناب شفيقاً عنه ، وفي ذلك اليوم حيث للمجاهدين عمليات على كل مواقع العدو في أفغانستان طلبوا مني أن يذهبوا للمشاركة فأذنت لخمسة منهم ، فكانت أول سرية تذهب إلى العدو في ذلك التاريخ ، ومن الخمسة القدامى بقيت أنا وأبو الذهب .. أبو الذهب حاول كثيراً أن يذهب مع الإخوة لكنني لم أسمح له لأنه كان يشتكي ألماً من ظهره وكان وقتها عزّ البرد ، فخشيت أن يعطل الإخوة في الطريق ، وبعدما ذهبوا بقي أبو الذهب مريضاً لثلاثة أيام وكل ظني أنها آثار البرد ، لكنه بعد عودة الإخوة بدأ يتعافى شيئاً فشيئاً .. واتضح لي أنني لما منعته من الذهاب مع الشباب أصيب بصدمة نفسية هي التي ألزمته الفراش .. » أما أحداث المعركة وتقرير مادار فيها فيذكرها أبو عبد الله كأنما هي الساعة .. ويقول : « إنقسم الإخوة إلى مجموعتين : مجموعة فيها أزمراي وعبد الرحمن ، وأخرى فيها أبو خالد الجزائري وشفيق وذبيح فيما أذكر ، وبإذن الله إقتربوا من موقع العدو في (أم الخنادق) [٦] بمقدار ٤٠٠ متر تقريباً ، وضرب أخونا عبد الرحمن الله يرحمه عدة قذائف (آر . بي . جي) على غرف الموقع مباشرة ، وكان هناك (غرينوف) ثقيل يضرب على الإخوة أتعبهم جداً ، فانتبه أسامة للرامي - وكان معه (ستكا) - فأطلق عليه ٧٥ طلقة منها حتى أسكته بفضل الله ، أما أنا فكنت أتابع الأحداث من فوق بالأصوات ، وأتصل بالجهاز - ووقتها كنا قد حصلنا على أجهزة إتصال - لكن الإخوة لا يردون ، فأصابني القلق ، واستمريت لأكثر من ساعة ونصف أتصل .. وأخيراً وقبل المغرب بساعة أتاني الرد .. كان شفيق أو أسامة يرد وهو يلهث ، فاطمأننت عليهم وعلمت أنهم بخير ، وكانوا قد إقتربوا أكثر من العدو واشتبكوا معه بالسلاح الخفيف والمتوسط ، بينما ظل المجاهدون على بُعدٍ أكبر يضربونه بالسلاح الثقيل .. » .

هوامش

(١) يذكر أمين أيضاً أنه في اليوم الذي اكتملت فيه الغرفة وقبل المغرب بقليل جاء إلى المأسدة كل من الإخوة : أبو سليم وأبوخالد وأبو أسامة الجزائريين ، وأبو محمد الحموي ، وعماد من جدة ، وعبد الكريم النقيب ، وأبو دجانة الساحلي .

(٢) « الستكا » : المدفع الرشاش الخفيف R.P.D

العيار : ٧٫٦٢ ملم .

المدى المؤثر : ٨٠٠ م .

السرعة الإبتدائية : ٧٤٠ م/ثا .

نظام التغذية : شريط ذخيرة سعة ١١٠ خرطوشة .

المعدل النظري للرمي : ٦٥٠ – ٧٥٠ طلقة/د .

إنتاج : مصانع الدولة في الإتحاد السوفييتي . أنظر « الموسوعة المصوّرة لأسلحة المشاة في العالم / ١٩٨٥ » – جـ١ – صـ٢١٠

(٣) في حديثه المسجل بتاريخ ٩٠/٥/٢٥ في بشاور مع الإستعانة بمجموعة مذكراته الشخصية .

(٤) « سيمونوف » : البندقية القصيرة S.K.S

العيار : ٧٫٦٢ X ٣٩ ملم .

المدى المؤثر : ٨٠٠ م .

السرعة الإبتدائية : ٤٥٠ م/ثا .

نظام التغذية : علبة غير قابلة للنزع سعة ١٠ خرطوشات .

المعدل النظري للرمي : ٦٥٠ – ٧٥٠ طلقة/د .

إنتاج : مصانع الدولة في الإتحاد السوفييتي . أنظر « الموسوعة المصوّرة لأسلحة المشاة في العالم / ١٩٨٥ » – جـ١ – صـ ١٣٦

(٥) يوم ٧ ثور من عام ١٣٥٧ هـ. ش. الموافق ٢٧/نيسان/١٩٧٨ هو ذكرى إنقلاب تراقي ، ومن الواضح أن لبساً قد حدث لدى الأخ أمين في الربط بين التواريخ ، وأن المناسبة المقصودة – كما ذكر أبو عبد الله وكما يدل سياق الأحداث – هي ذكرى غزو أفغانستان يوم ٢٧ ديسمبر ، والتي وافقت يوم ٢٥ ربيع

الثاني ١٤٠٧ هـ.

(٦) « أم الخنادق » : التسمية التي أطلقها الإخوة العرب على إحدى بوستات العدو على ميسرة المأسدة ، وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات منها تقريباً ، وذلك لكثرة الخنادق المحفورة لتحصينها ، وتسمى في اللغة المحلية « خوش باران » .

الأنصار العرب (٢٨)

جبهة المعارضة!

لم تكن بوستات العدو التي لا تبعد أدناها للمأسدة ثلاثة كيلو مترات وحسب هي الجبهة الوحيدة التي كان على أبي عبد الله أن يتصدى لها .. صحيح أن العدو عدو .. لكن معارضة « الأصدقاء » أو عدم اقتناعهم بما يحدث كان كافياً ليسبب هاجساً من نوع آخر لأبي عبد الله ومن معه .

على صعيد المجاهدين الأفغان ، لم يكن لأحد غير « إتحاد » الشيخ سياف علاقة مباشرة بالموضوع ، فمنطقة « جاجي » هذه تعتبر ضمن المناطق التي بسط تنظيم « الإتحاد » عليها لواءه مبكراً فباتت أمورها من إختصاص سياف وحده .. لذلك استأذنه أبو عبد الله من أول لحظة أراد العمل هناك .. ولنفس السبب أرسل سيد غريب « قائد غُنْد سياف » رسالة تحذير مبكرة لأبي عبد الله بعد أسبوع واحد من بداية عسكرته في الموقع .. وللسبب ذاته كان الإخوة العرب يولون ملاحظات الأستاذ سياف وجماعته عناية خاصة ، على الرغم من أن هذه الملاحظات لم تكن لتسرهم منذ البداية ! يقول الأخ أمين : « كان الأفغان ينظرون إلى المأسدة على أنها كمثل الذي يأخذ الفلوس ويرميها في البحر ! يشوفوا المعدات والعمل والإمكانيات تُرمى رمياً بلا أي داعي ، حتى أن أحد قادة (جاجي) – لا داعي لذكر إسمه – جاء مرة وقال بأن الشيخ سياف أمرني بأن أعمل غرفة بينكم ، وبينما كان يتنقل للبحث عن موقع مناسب لها وكنت معه أنا وأحد الإخوة ، قال من جملة كلامه : الأفضل لكم ألا تزوّدوا المصاريف لأنها في أي لحظة سوف تسقط بأيدي العدو ، وسوف نكون نحن الخاسرين فلا تصرفوا عليها الكثير لأنها ساقطة ساقطة » ! ويضيف أمين : « هذه تقريباً كانت نظرة الأفغان للمأسدة ، طبعاً بعضهم كان متخوفاً علينا ، والبعض كان ينظر إلينا نظرة إستهتار ، والبعض كان يرانا جماعة عندهم فلوس ويقول : دعهم يسلّوا أنفسهم مع الفلوس التي عندهم ويحفروا قليلاً في الجبل !! » وواقع الأمر فإن الأفغان المجاهدين لم ينفردوا وحدهم بهذه النظرة ، فعدد غير قليل من العرب ومن مستويات شتى كانوا يشاطرونهم نفس الرأي وذات النظرة ، الأمر الذي جعل أبا عبد الله في غربة مضاعفة ومعاناة مزدوجة ! يقول الدكتور عبد الله عزام : « وجدت أن أبا عبد الله يعمل في منطقة معزولة بين الثلوج مع مجموعة من الشباب لا تزيد على العشرة ، فخشيت أن تنزل عليهم طائرة هليوكبتر فيقبضونهم أحياء ثم يأخذونهم إلى كابل ، ولذلك قلت للإخوة الذين تجمعوا معي في (صدى) : ليس من الإسلام – واللهِ – ولا من الرجولة أن ندع هذا الأخ وحده ، فلنذهب إليه . أخذت الأخوة وذهبنا إلى المأسدة وجلسنا مع بعضنا ، وفي هذه الفترة جاء الأخ عبد العزيز العلي ورأى حالنا فاستنكره ، ورأى أننا لا بدّ وأن نرجع إلى (صدى) وأن نهتم بالتدريب ، فرجعنا وبدأنا الدورة الأولى من كتيبة الغرباء وكانوا ١٥ شخصاً ، تولى تدريبهم الأخ

نور الدين وكان راجعاً من بنشير ، وعندما أنهى التدريب بعد شهرين أو ثلاثة ، إستبقينا منهم إثنين أو ثلاثة للتدريب معنا ، وذهب نصفهم إلى المأسدة وقسم عاد إلى بلده [1] فعلى الرغم من تحفّظنا على المكان إتفقنا من أول لحظة على التنسيق مع أبي عبد الله ، كنا لا نريد أن ندعه وحده ، ولا نريده أن ييأس فيرجع إلى السعودية ، مع أننا غير راضين عن تجمع الشباب العرب هناك ، وكنا نعدّها مخاطرة كبيرة ، فالمكان يحتاج إلى كتيبة لحمايته .. » ويضيف د. عبد الله رحمه الله : « .. ثم سارت المسيرة في المأسدة وسارت مسيرة (صدى) ومع أننا إتفقنا مع أبي عبد الله مرة واثنتين وثلاثاً على ألا يزيد العدد عن عشرين ، لكن الأخ يريد أن يوسع العمل ، ويريد أن يستنفر العرب ، ويريد أن يقاوم الروس ، وفي ذهنه مشاريع كثيرة ، والحقيقة أن حماس أبي عبد الله مع وجود المال بين يديه يمكّنه من أن ينفذ ما يريد » .

* * *

لم يكن من السهل الإتفاق على أن موقف الشيخ عبد الله رحمه الله من المأسدة قد استقر على هذا الذي قاله من أول يوم .. فعلاوة على الحاجة إلى مهلة من الزمان كافية لتكوين الصورة المتكاملة وتحديد الموقف المتبلور ، كان الشيخ – رحمه الله – لا يقلّ عن أبي عبد الله – بطبعه وتكوينه – حماسة وجرأة وحباً لإختراق المخاطر .. ويتذكر أبو محمود ملامح إنعكاسات هذا الجانب من شخصية الدكتور عبد الله على موقفه من المأسدة أول أيامه فيها فيقول : « كان الشيخ عبد الله يشدد على أن يبقى هو وأبو عبد الله في المأسدة معاً ، وأن يكون الإعداد والتدريب من خلال وجوده .. وكان رحمه الله يصرّ على ذلك كلما أراد الضيوف – الذين بدأوا يزدادون – أن يرددوا الحديث عن خطورة المكان على الشيخ وعلى العرب ككل .. وكانت دروس الشيخ عبد الله توحي لنا بأن وجودنا هنا هو الجهاد الحقيقي .. وكان واضحاً أن الشيخ قد أعجب بالوضع وقرر البقاء .. حتى أنه نقل معظم كتبه وأغراضه وحقيبته للمأسدة ، وأجلسني على أن أكون مرافقاً له .. لكن الرسائل ظلت تتوارد من بشاور تدعوه إلى النزول ، إضافة إلى أن مكتب الخدمات كان يلح بكامله على الشيخ عبد الله لينزل .. ثم حدثت زيارة أبي أسامة (عبد العزيز العلي) للمأسدة ، وأقنعوا الشيخ بالرجوع إلى (صدى) ليتولى تربية الإخوة ويتولى الأخ أبو برهان تدريبهم .. وتكون المأسدة بعد ذلك قاعدة للمتدربين ويكون التنسيق بين الشيخ وبين أبي عبد الله على أساس أن يأتي الشباب من بشاور إلى(صدى) .. ومن (صدى) إلى المأسدة » .

أبو أسامة (عبد العزيز العلي) وهو العسكري الخبير بحروب العصابات وقضايا التدريب والقتال والمعارك غير النظامية .. كان أكثر رفضاً من د. عبد الله لمشروع المأسدة وأشد في التعبير عن هذا الرفض

الصريح ، وعندما تحدث عن زيارته الأولى تلك وما دار بينه وبين أبي عبد الله .. وعن الإنطباع الذي خرج منه قال [٢] : « ذهبت إلى أبي عبد الله برفقة الشيخ عبد الله عزام وبعض الشباب الذين يشاركونه وجهة نظره في خطورة هذا العمل ورأيت الموقع : القرب من بوسطات العدو ، الجبال المحيطة ، عدد محدود من الشباب بعضهم غير مدرب ، حفريات ومواقع وسيارات و(كمبريسر) وورشة محترمة ! ورأيت أن احتمال حدوث إنزال أو هجوم على الموقع أمر سهل جداً وإبادته عملية ميسورة فقلت له : يا أخي هذه نصيحة لله تعالى ، هذا موقع لا يجلس فيه إلا العفاريت ! عيال مقاتلين على مستوى عال جداً من الخبرة .. ومع ذلك فالموقع خطير ، ومن الممكن جداً أن يدفعوا الثمن غالياً ، وإن كان لا بدّ منه فلا تبقي فيه إلا إثنين أو ثلاثة لا أن تضع فيه مائتين » ويضيف أبو اسامة : « لم أستطع أن أفهم كيف تُرمى ملايين الدولارات أو الروبيات هناك .. تماماً كالذي يأتي بالمال ويضعه في التراب ! أنا كرجل حرب عصابات ، أفرادي معدودون ، حركتي الكر والفر ، أضرب وأرجع .. أضرب وأرجع .. ولذلك قلت له : يا أبا عبد الله إتق الله في هؤلاء ، إذا كان عندك مقاتلين يستطيعون الدفاع عن أنفسهم والتحرك بسهولة واستعمال الأرض على نحو جيد للنجاة فلا بأس ، لا تستطيع : أخل المكان تماماً وإلا فأنت هدف رائع لعدوك ، فالرجل جزاه الله الخير نادى على السائقين وقال لهم : السيارات لا تنزل ، إنتظروا حتي يُنزِلوا الناس معهم .. أبدى أنه مقتنع بهذا الكلام وانتهينا من الموضوع ، لكن الإصلاحات استمرت فيما بعد ، فعمل طرقاً إلى المكان وعمل مواقع جديدة ووسّع فيها .. وحدث ما حدث » يقول أبو محمود : « .. بعد الإتفاق بين الشيخ عبد الله وأبي عبد الله وكّل أبو عبد الله الأخ شفيق والأخ أزمراي بكتابة لوائح الإخوة غير المتدربين ليرجعوا مع الشيخ عبد الله إلى (صدى) .. وهنا بدأ الفرز وأعادوا ٢٥ أخاً مع الشيخ .. ولكن أبا عبد الله طلب مني أن أبقى .. فبقينا في المأسدة حوالي ١٧ أخاً وقتذاك .. وكان ذلك في بداية شهر يناير » ويتابع أبو محمود : « في تلك الفترة جاءنا الشيخ تميم في أول زيارة له إلى المأسدة مع أربعة إخوة قطريين وجلسوا معنا خمسة أيام ثم نزلوا إلى (صدى) للمشاركة في تخريج أول دفعة من الكلية الحربية يوم ١٠ يناير ، وهناك التقى بالشيخ عبد الله وبأبي عبد الله الذي طلب منه التفرغ للجهاد الأفغاني والبقاء في المأسدة .. وكان لا يزال وقتها يعمل في قطر .. » يقول الشيخ تميم رحمه الله : « كان إنطباعي عن المأسدة إنطباعاً طيباً وأحببتها فعلاً وأعجبت بفكرتها .. ووقتها كانت الثلوج شديدة وكان الإخوة يحاولون أن يجنبوني الحراسة فكنت أزعل منهم ، وإذا قمت في الليل أخذ مكان الذي أخذ مكاني مع أن الحراسة كانت شاقة لأننا نخرج في الثلوج ونعود والقدم قد تجمّدت ، لكن نرجو الله ألا يحرمنا الأجر .. » ويضيف رحمه الله : « كنت وقتذاك في قطر بعد أن خرجت عام ٨٥ من السعودية ، فقال لي الأخ أسامة جزاه الله الخير : ما رأيك لو تتفرغ للجهاد . فأنا سررت جداً وقلت : هذا ما أتمناه .. فجزاه الله الخير فرّغني لهذا وأمّن لي مصروف أهلي ، ونسأل الله أن يجعلها في ميزان حسناته .. »

في تلك الفترة وصل المأسدة لأول مرة أيضاً الأخ أبو عبيدة البنشيري (المصري) بعدما أمضى قرابة الثلاثة أشهر في شمال أفغانستان بصحبة ١٦ من الإخوة العرب بإمرة عبد الله أنس .. تركزت معظمها في « بنشير » .. يقول أبو عبيدة [٣] : « كان ذهابي إلى الشمال بالتنسيق مع أبي عبد الله وبطلب منه ، فلما رجعت علمت أن أبا عبد الله يسأل عني .. وأرسل يدعوني أكثر من مرة إلى حيث استقر في (جاجي) - ولم يكن للمأسدة إسم جينذاك - وفي اليوم التاسع من عودتي ذهبت وتقابلت معه هناك حيث وجدت حجرة واحدة عملوها .. وعدداً من (البلدوزرات) تشتغل في الإنشاءات .. وكان يريد أن يأخذ رأيي في الموقع ومدى صلاحيته من الناحية العسكرية .. فوافقته على ذلك وقلت له : هذا الموقع لا يُترك من قريب أو بعيد لأنه في خط التماس مع العدو ، وكان معظم الناس إلا قليلاً منهم قد أشاروا عليه بترك المكان ، واعتبروا المكوث فيه من الهلاك نظراً لقربه من العدو وانفراده ، وعدم وجود حماية له من جانبه ولا من ورائه .. لكنني قلت له : هذا المكان لا يُترك ولكن يمكن أن يكون خط إنذار مبكر للمجاهدين في الخلف ، أو أن يكون خطاً دفاعياً أولياً ، وقلت له : إذا أحببت أن تحتفظ بهذا المكان فلا بدّ وأن تكون لك حصون من خلفك تحمي ظهرك ، ومن الجانب الأيسر - كذلك - من جهة (أم الخنادق) .. ولقد أحب أبو عبد الله أن يكلفني بأمارة المكان ، لكن إرتباطي بعمل آخر مع إخواني في (خوست) جعلني أقبل العمل لعشرة أيام فقط ، خاصة وقد أحسست بأن الناس جميعاً قد تخلوا عنه في ذلك الوقت .. ثم استمر العمل في المأسدة .. ومضينا في إكمال التجهيزات .. » .

لم يكن سهلاً على أبي عبيدة أن يتخذ قراراً حاسماً بالمكوث في المأسدة أو بالرجوع عنها .. فجدّة الفكرة .. وجرأة الطرح .. وغموض المستقبل .. وقلة المؤيدين .. والظروف غيرالمشجعة .. كانت كلها بعضاً مما قد يرجح التخلي عن المشاركة والإعتذار عن الإستمرار .. لكن الحرج من إيلام أبي عبد الله .. والإشفاق على بقية الإخوة .. والتفاعل مع جرأة الفكرة والإحساس بأهمية الموقع .. جعلت هاجس التخلي يتنحى .. ليتقدمه قرار الإستمرار .. لا عند أبي عبيدة وحده .. ولكن لدى مجموعة رائدة من أصحاب الخبرة والسبق على الساحة من المجاهدين العرب .. أبطأت إشكاليات الوجود العربي من قبل بهم عن المشاركة .. لتنجح حيثيات قيام المأسدة في استدراجهم نحوها بعد مرحلة مكثفة من الدراسة والموازنة والتقييم . يقول الأخ أبو خالد (المصري) الذي اشتهر فيما بعد بـ « القومندان » وحاز على خبرة عسكرية تخصصية من قبل خلال خدمته بالجيش المصري [٤] : « جاءني الأخ البنشيري - يقصد أبا عبيدة - وقال لي : إن الشيخ أبا عبد الله يقوم بإنشاء موقع متقدم في (جاجي) حوله إختلافات كثيرة على جدوى هذا العمل والمصلحة منه .. وطلب من - كعسكري - أن أراه وأحكم عليه وأقدم النصح لمن يهمه الأمر .. » ويتابع أبو خالد : « حضرت إلى

المأسدة بصحبة أبي حفص وشاهدت الأوضاع ووجدت أنها تتمتع بموقع عسكري ممتاز يحقق الرقابة المستمرة على العدو ، ويمكن إستخدامها كذلك كنقطة إنطلاق متقدمة لشن إغارات ناجحة عليه في الليل والنهار ، كما يمكن أن توجه منها نيران المدفعية والصواريخ بعيدة المدى ، ورأيت أن هذا المكان يجب ألا يُترك .. وأن أحسن إستخدام عسكري له أن يكون مركز إنذار متقدم يحقق المهام التالية : ١- يقوم بمراقبة العدو ورصد كل تحركاته -٢- إنذار القوات في الخلف عن أي نوايا تدل على هجوم -٣- نقطة إنطلاق جيدة للغارات والكمائن -٤- نقطة تجمع بعد القيام بالغارات والكمائن على العدو . وفي هذا الأمر تكلمنا مع الشيخ أبي عبد الله ، وقبل ذلك كانت لي بعض التحذيرات مثل عدم تكديس إخوة كثيرين في هذا المكان ، وإنشاء عدد من المواقع الخلفية بين العرين والمأسدة ، وإنشاء عدد من المواقع الهيكلية لخداع الطيران عند القصف ؛ وقد سررت بالروح التي لامستها في أبي عبد الله وفي المتحمسين لإنشاء المأسدة ، ففي هذا إعطاء مثل للأفغان بالرباط القريب من العدو واستمرار مراقبته عن قرب ، ورفضٌ لقطع الإتصال به والإلتجاء إلى الخلف .. ولذلك قررت في نفسي أن أعود ثانية لتقديم المساعدة والمشورة للقائمين على هذا العمل وللمشاركة في بعض العمليات المنتظرة من هذا المكان .. » وواقع الأمر فإن قرار أبي خالد وأبي عبيدة أيضاً .. والمجموعة التي شاركت في هذا الإستطلاع واتفقت على ذلك القرار أتى بعد عزلة بحث مكثف للمجموعة عدة أيام في إسلام آباد .. تدرس المعطيات ، وتوازن بين السلبيات والإيجابيات ، والإعتراضات والردود قبل أن تقول كلمتها وتعلن قرارها .. يقول أبو هاجر : « بقي أبو عبيدة مع مجموعة من الإخوة العسكريين فترة يحاولون دراسة المسألة ، واجتمعوا لذلك حوالي ثلاثة أيام في إسلام آباد من الصباح إلى المساء ، واتفقوا على أن المأسدة بوضعها الحالي لا تصلح .. وكتبوا نقاطاً عن كيفية الإستفادة منها إذا اخترنا أن تكون مكاناً للعمل العسكري .. وما هي الإحتياطات التي يجب أن نتبعها ومستوى الأشخاص الموجودين .. وهكذا » .. ويضيف أبو حفص الذي كان أحد شهود هذا الإجتماع وأحد المدعوين لتقديم المشورة في تلك القضية .. ويقول : « كان كل من في بشاور معارض للفكرة وأنا كنت من المعارضين ، فذهبت مع الأخ أبي عبيدة والأخ أبي خالد المصري ، وانضم إلينا هناك الدكتورعبد الله عزام في محاولة لإقناع أبي عبد الله بالتخلي عن هذه الفكرة وقلنا له : إن التمركز في موقع ثابت ليس وقته الآن ، وإنك إذا أحببت إتخاذ موقع دفاعي فلا بد وأن يكون لديك سلاح مضاد للطائرات ومضاد للدروع .. وإن العدو سيأتي ببساطة لينسف الموقع كما حدث في (جاور) .. وحدثناه عن السلبيات التي كانت هناك ، ولكنه كان مصمماً على الإستمرار .. ولم يكن يدافع عن تصميمه من ناحية عسكرية وإنما كان يتكلم على أساس أنه يريد جمع الأخوة العرب ورفع الروح المعنوية للأفغان .. وأن نكون في مقدمة الصفوف .. وهكذا عملنا جلسة تقييم للموضوع في إسلام آباد : كنت أنا وأبو عبيدة وأبو الوليد وعبد الرحمن فيما أظن .. مجموعة العمل التي كنا قد شكلناها من قبل .. وأخيراً رحبنا بالتعاون مع أبي عبد الله أملاً في أن نقلل الخسائر قدر الإمكان .. وفي التغيير قدر المستطاع .. » .

.. وهكذا وجد أبو عبد الله في جدار المعارضة الذي انتصب أمامه منفذاً يعينه على الإستمرار والمتابعة .. وتمكن آخر الأمر من التقريب بين وجهات النظر .. بمنطق الواقع أكثر من منطق التجريد والإقناع .. حتى جاء يوم المحك والإختبار . يقول أبو الحسن المدني : « طيلة شهرين أو ثلاثة كان أبو عبد الله يعاني الكثير من إنتقادات الإخوة خاصة العسكريين منهم ، لأن الموقع كان في تقديرهم غير صحيح عسكرياً ، ولأن الشباب في المنطقة كانوا معرّضين لأن يؤسروا في أية لحظة ، وبالفعل جاء يوم المحك الذي أثبت عكس ذلك ، لا لأن الإخوة العسكريين كانوا على خطأ ، بل العكس ، هم كانوا على صواب ، وكل الذي قدموه لنا من نصائح كان صحيحاً مائة في المائة ، لكن تقدير المولى سبحانه وتعالى كان أكبر من الحسابات المادية وحدها .. » .

هوامش

(١) يذكر الأخ أبو برهان السوري أنه « بعد تأسيس المأسدة كان بعض الإخوة يذهب مباشرة للتدريب فيها ، لكن إتفاقا تم بعد ذلك بين الشيخ عبد الله وأبي عبد الله وأنا على أن يتم التدريب في (صدى) ثم يذهبوا إلى المأسدة من هناك ، لكن أبا عبد الله لم يستطع الإلتزام تماماً لأن الأمر فوق إرادته ، فكان يردّ الآتين إذا كان موجوداً ، ولكنه لا يستطيع ذلك إذا كان غائباً .. » ويضيف أبو برهان : « وأول مجموعة تدربت في (صدى) وأرسلت للمأسدة في بدايات عام ٨٧ إستشهد معظمهم ، ومن الموجود منهم حتى الآن عز الدين السعودي ويعمل الآن في (القاعدة) وأبو عبد الرحمن زيكوياك وهو سعودي أيضاً ، وأذكر ممن تخرج من أول دورة أيضا الأخ يحيى المصري وقد سافر بعد ذلك ، وأبو عمار المصري وهو من بدايات القادمين ، كذلك فإن الدورة التي ذهبت بعدهم استشهد معظم من كان فيها .. » .

(٢) في حديثه المسجل بتاريخ ٨٩/٣/٢١ أثناء زيارة له إلى أبو ظبي .

(٣) ومع المراحل الأولى من البدء فيه عام ١٩٨٨ .

(٤) في حديثه المسجل بتاريخ ١٩٨٨/١٠/٣ في بشاور .

(٥) في حديث سجله الأخ أبو محمود معه في بشاور كجزء من المشاركة في هذا الكتاب ومع المراحل الأولى للبدء فيه عام ١٩٨٨

الأنصار العرب (٢٩)

مأسدة الأنصار

لم تكن المأسدة حتى فترة متقدمة من عمرها تُعرف بغير إسم «المركز الجديد» سواء بين الأفغان المجاهدين أو الأنصار العرب .. بينما ظل عدد غير قليل من أولئك وهؤلاء لا يعرفون لها إسماً محدداً على الإطلاق ! يقول أبو عبد الله : « ظل موقع المأسدة بدون إسم عندنا على الأقل ، ولم يكن له إسم مشهور عند الإخوة المجاهدين الأفغان ، وأذكر أننا في يوم كنا نازلين فيه من (جاجي) إلى بشاور في سيارتنا الوحيدة أنا وأبو قتيبة وشفيق والأخ عبد الرحمن الأخلافي (عبده) وكنت أتدارس معهم ماذا نسمي الموقع ، فطرح الإخوة عدة أسماء ، لكن شاء الله سبحانه وتعالى أن أتذكر أبياتاً لكعب بن مالك رضي الله عنه – وتنسب أيضا لحسان بن ثابت رضي الله عنه – يمتدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عنهم في معركة الأحزاب ، ومن بينها يسمي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها المأسدة كناية عن شجاعتهم رضي الله عنهم ويقول :

من سَرَّه ضربٌ يمعمع بعضه ... بعضاً كمعمعة الأباء المُحْرَق

فليأتِ مأسدةً تُسَلُّ سيوفها ... بين المذاد وبين جذع الخندق

في عصبة نصر الإله نبيَّه ... بهم متى همَّت بقوم تصدُق

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخطونا ... قُدُماً ونُلحِقُها إذا لم تَلحَق » (١)

ويضيف أبو عبد الله : « كان ذلك في شهر أكتوبر تقريباً من عام ٨٦ الموافق أوائل سنة ١٤٠٧ هجرية .. وتيمناً بذلك سميناها المأسدة ، وتبادر إلى أذهاننا بعد ذلك إسم العرين ، فأطلقناه على المعسكر الخلفي حيث بدأنا العمل .. » .

ويتذكر شفيق رحمه الله تلك الأيام وهاتيك الحادثة بالذات ويقول : « كنا نطلق على المأسدة : المركز المتقدم ، وأظن أن الأخ عبده اليمني كان قد سأل : ماذا نسمي هذا المركز المتقدم ؟ فطرحنا بعض أسماء المعارك أو بعضاً مما يتعلق بالجهاد ، لكن أبا عبد الله لم يقل شيئاً وقتذاك ، حتى تقابل مع أسامة فسأله نفس السؤال ، فذكر له أسامة أبيات الشعر :

من سَرَّه ضربٌ يمعمع بعضه ... بعضاً كمعمعة الأباء المُحْرَق

فليأتِ مأسدةً تُسَلُّ سيوفها ... بين المذاد وبين جذع الخندق ..

وبذلك سمي الموقع بمأسدة الأنصار .. » .

* * *

مضت أيام الشتاء ثقيلة الوطء على المأسدة – وما أشد وطأة برد الشتاء في « جاجي » – لكن حماسة الإخوة الذين أصروا على التحدي كانت كافية لتذيب كل العوائق وتتجاوز كل الصعوبات .. ويوماً بعد يوم كان الصخر المتجلد في تلك البقعة المنعزلة من جبال « جاجي » يتفتت تحت معاول الشباب العرب ، ومايلبث أن يفتح صدره لموقع جديد هنا .. وملجأ بعد ملجأ هناك .. يقول الأخ أمين : « .. لم تمض فترة حتى أهدانا الشيخ سياف جزاه الله الخير (زيكوياك) بسبطانتين كان أول (زيكوياك) في المأسدة ، فحفرنا له غرفة في قمة التبة التي عليها المأسدة ، وعيّن خمسة أو ستة من الإخوة لهذا الموقع الجديد كان ثلاثة أو أربعة منهم ثابتون عليه باستمرار وهم : الشهيد عبد الله المصري ، سيف المغربي ، عبد الحكيم ، الشهيد عثمان (خالد الكردي) .. وكنت أصعد أحياناً أنا وإياه إلى هناك ، وذبيح الطائفي ، وعبد الرحمن الهاون ، وأبو خالد الجزائري ، وأخ من مكة إسمه النقيب ، وأبو أسامة .. وكان الأخ سيف (أبو خالد) رحمه الله من الذين ثبتوا ، وجاء عبد المنان أخيراً وثبت فيه .. ثم لما زاد عدد الإخوة بفضل الله طلب أبو عبد الله بناء غرفة أخرى تكون شبه منعزلة ليكون فيها جهاز اللاسلكي وعيّن لها المكان الذي أصبح الآن (غرفة القيادة) وفي نفس الوقت بُنيت (غرفة بدر) مقابل العدو لتكون نقطة رئيسية لحماية المأسدة من جانبها .. » .

.. يقول أسامة : بدأنا بحفر (غرفة بدر) بعد (الزيكوياك) أنا وأبوالذهب وعبد الرحمن الله يرحمه وشفيق ، بعدها نزل شفيق وذبيح إلى بشاور ليتدربا على الألغام وبقيت أنا وأبو الذهب ، ولأن المنطقة كانت صخرية والحفر فيها صعب جداً فقد أتينا بعمال أفغان لمساعدتنا .. كان الحفر بـ (الكمبريسر) يتلوه التفجير ، وكان الموقع لذلك مفضوحاً للعدو ، فكنا كلما فجّرنا الصخور تصاعد الغبار ليكشف المكان ، لكن ربك ستر . وبعد ٢٦ يوماً إنتهينا من التفجير والحفر ، ومن سقف نصف الغرفة تقريباً .. عندها حضر أبو عبد الله وقال : يجب أن تبنوا السقف والقواعد بالحديد » .. ويتدخل شفيق رحمه الله هنا فيقول : « كان أبو عبد الله يركز دائماً على الحديد . نقول له : خشب . فيقول : لا .. ويتلو قوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) .. » ويعود أسامة يكمل فيقول : « بعد ذلك جاء الأخ أبو عبيدة اللحام ورفع سقف الغرفة على قواعد من الحديد ، وجعله من عوارض الحديد أيضاً ، ثم ردمنا عليه وسكنا فيها ، ولم تمض أيام قلائل حتى عاد شفيق وذبيح من بشاور .. وكانت غرفة جديدة هي (غرفة الطائف) قد فُتحت فسُلّم ذبيح قيادتها وانتقل إلى هناك ، وبقيت أنا وشفيق وأبوالذهب وعبد الرحمن وصخري وبعض الشباب الآخرين في (غرفة بدر) ، وفي (القيادة) كان أبو عبد الله برفقة أمين وأبي محمود وعلي والزبير والشباب الآخرين .. وفي هذه الأثناء كان أبو عبد الله يكلفني بشراء أسلحة وذخائر من (صدى) لأن سوقها أكبر

من (تري منجل) ، ثم كلفني بعد ذلك بأن أحفر غرفة جديدة سماها (غرفة الضيافة) وسلّمها لأحد الإخوة أيضاً ، وسلّم البوابة للعمدة (عمر السقاف) .. واستمر الأمر على هذا الشكل إلى أن بدأ أبوعبد الله بعمل برامج مضادة لطائرات الهليوكبتر التي تنزل لتموين (أم الخنادق) وأمرنا بالقصف عليها لحظة أن تنزل بالهاون وبالـ ٧٥ ملم . وكان يعطينا في تلك الفترة إذناً بأن نقصف أحياناً على البوستات بالمدفع ٧٥ المضاد للدبابات ، لكنْ ولبُعد المسافة التي جاوزت الستة كيلومترات لم تكن دقة التسديد كافية ، والمدى المجدي لهذا المدفع ألفا متر فقط ، لذا كنا نقصف به وبالهاون لإزعاج العدو وحسب .. وفي تلك المرحلة أصبت بإنفجار صاعق بيدي وأنا في موقع (بدر) فانقطعت عقلة واحدة من أصبعي وجرحت كلتا يدي .. نزلت على إثرها إلى بشاور وأمضيت فيها قرابة الثلاثة أسابيع للعلاج .. لكنني ترددت خلالها عدة مرات على المأسدة .. وكان ذلك في جمادى ١٤٠٧ » .

ويفتح أبو محمود - بدوره - صفحات مذكراته على تلك الأسابيع الأولى من سنة ٨٧ فتنفتح لنا نافذة من خلالها على نشاطات الإخوة العرب ويوميات المأسدة وقتذاك .. ونقرأ :

« - الأربعاء ٢/١١ جاءنا الشيخ عبد الله والشيخ تميم في زيارة جديدة ، وفي اليوم التالى عاد الشيخ عبد الله إلى (صدى) وبقي الشيخ تميم تنفيذاً للإتفاق الذي تم بينه وبين أبي عبد الله بالتفرغ للمأسدة ..

- الجمعة ٢/١٣ سافر أبو عبد الله إلى السعودية للمرة الثالثة بعد تأسيس المأسدة .

- الأحد ٢/١٥ حدثت أول زيارة للشيخ سياف إلى المأسدة .. دخلوا علينا ونحن نصلي المغرب ومكث مع مرافقيه حوالى ربع الساعة (٢).. وتكلم عن الجهاد وفضله ، ووعدنا بالعودة بعد أسبوع من أجل النظر في أمر العدو القريب ..

- الإثنين ٢/١٦ زارنا مسؤول (جاجي) في الحزب الإسلامي (خالص) لأول مرة أيضاً ومعه أربع مجاهدين وطلب منا أن نساعده بـ (اللودر) من أجل بناء مسجد وفتح طرقات وتصليح بعض الغرف .. ووقتها قابله الشيخ تميم والأمير أبو عبيدة وأحسنوا إستقباله وأرسلوه إلى (الفروجة) لتلبية طلباته .. وفي نفس اليوم وبعد العصر جاءنا قاضي محمد رفيق مسؤول مركزالشيخ سياف في (جاجي) ومعه وفد من أربعة أشخاص أيضاً وأبدى تعاطفه مع الإخوة العرب ووعدنا بتكرار زيارته لنا وعرض علينا خدماته وأخبرنا بأن الشيخ سياف طلب منه أن يظل على صلة معنا ..

- الثلاثاء ٢/١٦ وصل الأخ أبو حنيفة ومعه ثلاثة إخوة كانوا في (صدى) إضافة للأخ أمين والدكتور أبو بكر المصري وكان في (برجنار) .. والدكتور أبو بكر كان مقيماً في المأسدة .. أتانا من أمريكا قبل أن يتم دراسته . وفي هذا اليوم كانت هناك تدريبات على السلاح الخفيف للذين ليست لديهم فية خبرة سابقة ..

– الأربعاء ٢/١٧ صباحاً بدأ أبو عبيدة التدريب لأول مرة في جميع المعسكر ببداية طيبة ولله الحمد .. وفي نفس هذا اليوم أصيب الأخ أزمراي إصابته الأولى بيده من أثر إنفجار صاعق عليه .. وكان موقفاً صعباً ونحن نبحث عن سيارة لنقله دون جدوى .. حيث حاولنا الإتصال بـ (الفروجة)[٣] مع أبي معاذ لإرسالها ولكن بدون فائدة لأنه كان في بشاور وكان جهاز المخابرة مع المهندس الأفغاني الذي يساعده في (صدى) ! وبعد إجراء الإسعافات الأولية نقلناه بسيارة الجيب الخاصة بالقومندان عبد السميع إلى (الفروجة) ومن هناك تم نقله يصحبه شفيق وأمين إلى المستشفى (برجنار) .. وفي نفس هذا اليوم حضر لزيارتنا أحد قادة تنظيم (الإتحاد) يسمى عبد الوهاب قال إنه مسؤول أركان (الفروجة) وطلب منا (اللودر) لمساعدته في بعض الأعمال فأرسلناه إلى أبي معاذ في العرين ..

– الخميس ٢/١٨ زاد العدد ولله الحمد وزاد التدريب والمعنويات جيدة ، وعند الضحى جاء لزيارتنا وفد من (الإتحاد) أرسلهم الشيخ سياف ومعهم سيد منور مسؤول المستودعات في التنظيم والمسؤول المالي والمخزوني في (جاجي) ومعهم المسؤول العسكري لمنطقة (جاجي) وإسمه عبد الودود يرافقهما عشرة مجاهدين آخرين بينهم مسؤول (الزيكوياك) في (جاجي) .. وحدثونا عن العدو وقربه .. وأخبرونا بأنهم لن يتركونا وحدنا وعرضوا علينا خدماتهم وأصروا إن كان يلزمنا سلاح أن نطلب منهم ، لكننا أخبرناهم بأن أبا عبد الله لا يحيجنا إلى شيء من الأمور بحمد الله صغيراً أو كبيراً .. ووعدونا بالعودة وقالوا بأنهم سيحررون البوسطات معنا بعد أن يأتيهم الأمر من الشيخ سياف وهم بانتظاره .

– الجمعة ٢/١٩ ذهب الشيخ تميم إلى (برجنار) لمداواة أسنانه وزيارة الأخ أزمراي في المستشفى ، وبعد الظهر وصلت السيارة ومعها شفيق فطمأننا عن صحة أزمراي وقال بأنه ذهب والشيخ تميم وأمين والدكتور شاكر الذي كان يعمل في مستشفى لجنة الدعوة بـ (برجنار) ذهبوا كلهم إلى بشاور من أجل العلاج .

– السبت ٢/٢٠ جاءنا الأخ أبو أنيس بزيارة وكان مكلفاً من الأخ أبي عبد الله بالعمل على (البلدوزر) عند الشيخ جلال الدين حقاني في (جاور) وبات تلك الليلة معنا .

– الاثنين ٢/٢٢ عاد الأخ أبو أنيس ومعه أحمد الزهراني ومحد المدني ، ووصل الأخ حمزة الغامدي من بشاور ومعه أخ مصري إسمه أبو رواحة .. وفي هذا اليوم تم توزيع الحراسات في المعسكر لأول مرة على أربع نقاط في كل واحدة منهن سبعة إخوة إضافة إلى سبعة آخرين على البوابة .. وهذا يدل على أن عددنا وصل إلى ٣٥ أخاً تقريباً .. » ويضيف الأخ أبو محمود على يوميات المأسدة الأولى : « كثرت الثلوج هذه الأيام واليوم الثلاثاء مازالت الثلوج تتساقط بكثافة ، فاتصلت بالأخ أبي معاذ وكان الخط مقطوعاً معه فطلبت رقماً آخر قريباً منهم ليخبروه ألا ينقل (البلدوزر) إلى (جاور) قبل أن ينظف الطريق بين (

الفروجة) والمأسدة وإلا فسنكون جميعنا في خطر إذا قطع الطريق علينا والعدو من أمامنا .. والحمد لله أن وصل الخبر إليه ووصلتنا في التاسعة مساء سيارة من طرفه كانت مليئة بالأغراض والمواد الغذائية وفيها صابرالمصري ففرحنا كثيراً بذلك وقد كنا نتوقع أن يغلق الطريق تماماً خلال يومين حيث حيث قارب إرتفاع الثلج نصف المتر » ويتابع أبو محمود : «.. خلال هذا الأسبوع فوجئنا بأن الأفغان الذين يحمون المعسكر والذين أحضرناهم برواتب وأعطيناهم أسلحة من عندنا قد مشوا بأسلحتهم دون أي إخطار !! وبعد العصر زارنا قاضي محمد رفيق مسؤول (جاجي) في (الإتحاد) للإطمئنان علينا فشرحت له قصة الحرس الذين فرّوا فاهتم بالموضوع وقال سأزوركم كل ثلاثة أيام إن شاء الله .

- الأحد ٣/١ وصل أبو الحسن المدني صباحاً ومعه ثلاثة من الإخوة الضيوف ، وبعده بساعة وصل الأخ أبو عبد الله ومعه خمسة إخوة مستقرين دائمين .. وباتوا ليلتهم في (غرفة الطائف) .. ففي هذا الشهر كان أبو حنيفة قد أرسل لنا مجموعة الإخوة الذين عملوا (غرفة الطائف) فزادت غرف المأسدة وأصبحت - مع بداية نوبان الثلوج - ستاً هي : (الرئيسي) - (الزيكوياك) - (الطائف) - (البوابة) - (بدر) - و (غرفة القيادة) وبعدها (غرفة المخابرة والإتصالات) .. وعلى هذه الحالة مضت الأمور حتى معركة شعبان » .

هوامش

(١) روى إبن هشام في سيرته عن إبن إسحق ، أن كعب بن مالك قال في يوم الخندق :

من سَرَّه ضربٌ يُمَعْمِعُ بَعْضُهُ ... بعضاً كمعمعة الأباء المُحْرَق

فليأتِ مأسدةً تُسَلُّ سيوفها ... بين المذاد وبين جذع الخندق

دَرَبوا بضرب المُعْلَمين وأسلموا ... مهجات أنفسهم لربٍّ المشرق

في عصبةٍ نصر الإله نبيَّه ... بهمُ وكان بعبده ذا مَرْفَق

.....

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخطونا ... قُدُماً ونُلحِقُها إذا لم تَلحَق

والقصيدة المذكورة من إثنين وعشرين بيتاً ، وردت في الجزء الأول من سيرة ابن هشام - صـ٢٩٠ - ٢٩٢ والمعمعة : صوت التهاب النار وحريقها . والأباء (بفتح الهمزة) : القصب ، ويقال هو الأغصان الملتفة . والمأسدة : موضع الأسود وأراد ههنا موضع الحرب . والمذاد : إسم موضع القتال . والجذع : جانب الوادي . والمُعْلَمون : الذين يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة يُعرَفون بها ..

(٢) روى الأخ أمين أن الأستاذ سياف أمضى ساعة أو أكثر مع الإخوة العرب في زيارته الأولى تلك ألقى خلالها نظرة سريعة على المأسدة وتناول العشاء معهم وأبدى سروره الشديد لدرجة أنه قال : « هذه مأسدة .. وبشاور مَبْسَسَة » !

(٣) الفروجة : تعريب الأنصار العرب الذين عاشوا هناك لكلمة « بروذة » الفارسية ، وهي كلمة إنجليزية الأصل PROJCT وتعني المشروع لأن أسامه بن لادن لما بدأ عملية حفر الأنفاق في المنطقة سمّى عمله بالمشروع ومن هنا أتت التسمية .

أسلم .. ثم قاتل !

إشتهر إسم المأسدة وقد تبلور وجودها وذاع صيتها بين المهتمين بنصرة الجهاد والمشاركة فيه من العرب ، وكان طبيعياً أن ينجذب هؤلاء نحو موقع - كالمأسدة - أكثر من سواه وقد حقق لهم صفة الإستقلالية والتميز وحماهم من عَنَتِ الغربة .. مثلما أشعرهم بخصوصية الجهاد وفضل الرباط ، لكن وبرغم هذا التوافد المطرد من نوعيات العرب المختلفة ..القادمين للمشاركة بتصورات متنوعة ومراحل من النضج والوعي والكفاءة متفاوتة .. فقد كان على أبي عبد الله ومعه أبو هاجر المربي والموجه غير المتفرغ ، وأبو عبيدة المدرب العسكري الذي يشاطره مشاعرالتذمر من حالة الخلط والفوضى السائدة .. كان عليهم أن يستقبلوا الزوار والعابرين والمتفرجين والمتنزهين !! مثلما يستقبلوا الجادين والمجاهدين والعازمين على الإستمرار في المشاركة والمقام .. وأن يفيدوا جميع هؤلاء ليستفيدوا ويستفيد الجهاد الأفغاني منهم آخر الأمر !

على الصعيد العسكري كان هناك نوع من توزيع المهام والإختصاصات بين الإخوة المتواجدين يحكيه أبو عبيدة فيقول : « كنت قد اتفقت مع أبي عبد الله على المكوث عشرة أيام فقط لإرتباطي فعلاً ببرنامج عمل كبير مع الإخوة في (خوست) .. لكن أبا عبد الله بروحه الطيبة حبب إلي الإستمرار معه ، فكنت أول أمير على المأسدة فيما أعتقد ، وكان كل الإخوة متسرعين للعمليات وهذا يعتبر خطأ وقتذاك لأننا لم نكن جاهزين ، فلا بد من وجود دفاعات كافية ولا بد من تأمين الحماية اللازمة ، لذلك أمضينا فترة طويلة نجهز المعسكر ونقيم له سوراً سلكياً ننشئ من خلاله ما يشبه الدفاعات .. » ويضيف أبوعبيدة : « كانت تجربة جديدة من نوعها : هناك الإخوة الذين كانوا يشتغلون بإعداد المعسكر وبنائه وتجهيز مواقعه .. وهناك الإخوة الذين كانوا يشتغلون بالعمل العسكري ، يتدربون على الأسلحة الثقيلة ويقومون بعمليات الإستطلاع ، وينزلون أحيانا ليضربوا على العدو من قرب ، أو يقصفون عليه بالهاونات من بعيد ضمن برنامج إزعاجي : قذيفة كل نصف ساعة للتأثير على معنوياته ، وهكذا بدأت المعارك الصغيرة .. » .

ويتذكر أسامة أيام التدريبات الأولى لأبي عبيدة ويقول : « إستلم أبو عبيدة المسؤولية كلها ، فأبو عبد الله كانت عليه إلتزامات وأعمال ينبغي أن يؤديها في السعودية ، وكان يأمل في أن يمسك أبو عمرو الأردني وهو جيد في العسكرية - وأبو خالد المأسدة ، لكنهما لم يجيباه إلى طلبه ، ففكر بأبي حفص ، لكن أبا حفص كان مشغولاً في (خوست) وهو غيرمقتنع بالمأسدة أصلاً ، وهكذا إستلم أبو عبيدة الموضوع .. »

ويتابع أسامة : « كان أبو عبيدة يجمع الإخوة في طابور الصباح وينزل بهم للتدريب في الوادي على الرماية والتكتيك ، لكنه لم يرتح في العمل ، خصوصاً وأن بعض النوعيات من الشباب يصعب ضبطها ، والشخص الذي لا يكون قد عمل في تجميع الناس على إختلاف مستوياتهم وجنسياتهم ولديه القدرة على قيادتهم بهذه الفوارق التي فيهم لا يستيطع أن يعمل معهم الكثير .. وتجده يقع في المشاكل ويتعب .. » .. والذي حدث أن أبا عبيدة لم يكن وحده الذي واجه المشاكل وتعب من إختلاف النوعيات وتفاوت الفوارق .. فأبو هاجرالذي استلم المهام التربوية معه لم يكن أقل تشكياً واستياء من هذه الأمور .. يقول أبو هاجر : « بدأ العمل يتسع .. ونماذج مختلفة من الإخوة يتوافدون .. وكان مما يؤسف له أن غالبية هؤلاء لم يكونوا ممن تربوا في حركات إسلامية ، فلا يعرفون ما هي الطاعة وما هو النظام ، وكيف تكون حقوق الأكبر والأصغر ..» ويضيف : « كانت هناك بعض النماذج التي أتعبتنا جداً : عدم الإلتزام ، الخصومات ، غياب التربية .. وكنت أقول لأبي عبد الله : أنت تريد طليعة وهذه ليست طليعة ، وبمثل هؤلاء سيفسد العمل كله .. فكان يجيبني : هؤلاء الذين لبوا النداء فكيف لا نستقبلهم ؟ واستشهد لي وقتها بقوله عليه الصلاة والسلام : أسلِمْ ثم قاتل . قلت له : دعني أوضح لك الأمرحتى يزول الإلتباس : في فترة النخبة والطليعة والبداية يجب أن تكون البذرة صحيحة مبرأة من الدَخَن ، أما إذا أصبح لديك جيش كامل يسير بخطى مدروسة وبإنضباط معلوم ، حينذاك أي حاجة تضعها في هذا السيل العارم تجد نفسها تنقاد معه بشكل طبيعي » .. وفي هذا السياق يضيف أبو الرضا مؤكداً ويقول : « إزداد إقبال الناس على المأسدة ولكنه كان تجمعاً (حبّياً) غير منظم . لم تكن هناك أي ضوابط ، وكان كل شيء متوفر من الطعام والشراب واللباس .. والشباب أكثرهم صغار لا يملكون الفكر ولا الوعي ولا القدر الكافي من الإلتزام .. شباب متحمسون يسمعون (طخطخة) .. وعدو .. وأسلحة .. فيأتي أكثرهم بلا تربية مسبقة ولاتدريب كاف ، وعندما وضع أبو هاجر وأبو عبيدة برامج التدريب والتربية كان إرتباط الإخوة بأبي عبد الله أكثر من إلتزامهم بهذه البرامج والقوانين ، وعندما لا يناسبهم منها شيء يعودوا إليه بمنطق (الحبيّة) ذاته ، ولم يكن أبو عبد الله ليرد أحداً ، وكان حريصاً أن لا يرجع الشباب .. ولذلك تكسرت القوانين وتعب الإخوة كثيراً » .

في تلك الفترة ، وأمام هذه المعطيات وسواها ، قرر أبو عبد الله أمراً ، وأسرّ به إلى أسامة من جملة من أسرّ لهم .. يقول أسامة : « مع إزدياد توافد الإخوة إقترح أبو عبد الله عليّ أمراً فقال : مارأيك أن ننفصل عن الأفغان ونقيم لنا معسكراً خاصاً نُسَوّره فلا يدخل إليه إلا العرب فقط ؟ وقتها أجبته بإقتراح آخر وقلت له : لو أننا فعلنا ذلك بالفعل وأخرجنا الأفغان من المأسدة كلها ، فوقتذاك كان الأفغان مختلطين معنا وخصوصاً الشيعة ، فعبد السميع كان أول من جاء معنا وجلس بيننا ، وكان بينه وبين الغرفة التي يسكنها الإخوة خمسة أو ستة أمتار ، فكان ومجموعته يؤذنون أحياناً أذان الشيعة : حيّ على خيرالعمل .. أشهد أن

علياً ولي الله .. فتحدث بينهم وبين الإخوة مشاحنات ومشادات ، فخشينا أن تتطور الأمور ، ولذلك كان مشروع إخراج عبد السميع خارج المنطقة ، واقترحنا عليه أن نحفر له غرفة في منطقة أخرى يمسكها بنفسه فرحب بالفكرة ، لكننا لما حفرناها له وجهزناها لم يقم بالمطلوب .. فطلبنا من الشيخ سياف أن يجليه عن المكان ، فأرسل قائداً آخر ليحل محله ، لكن عبد السميع رفض وقال : لو أن هذا القائد الذي وصل الآن كانت عنده شجاعة لأتى منذ البداية .. أنا سبقته إلى هذا المكان ، وإن كان قلبه مشتاقاً للجهاد فليحفر في أي مكان غرفة أخرى ويجلس .. هذا ظلم ! وبعد مباحثات ومفاوضات .. وعندما سمع بأن القوة تقترب من المنطقة بالفعل ، سحب مجموعته وأرجعها للخلف .. » وكأنما يعقب أبو عبد الله على هذا الموضوع فيقول : « بعد أن كثر الإخوة العرب في المعسكر ولم نكن قد اتخذنا قراراً مسبقاً بتخصيصه للعرب ابتداء ، حصل التخصيص وكأنه أمر واقع ، فالعرب كانوا هم الكثرة الكاثرة في المعسكر ، ولأسباب أخرى لم يتيسر مجيء الإخوة المجاهدين الأفغان .. فبعد أن أتانا ١٣ منهم في البداية ، ذهب نصفهم بنزول الشتاء ولم يبق معنا إلا سبعة فقط .. » ويضيف أسامة : « في نفس الفترة إقترحت على أبي عبد الله أن يعطيني (غرفة بدر) مع مجموعة خاصة لها صلاحيات خاصة ، وليست لها أية علاقة بالمأسدة ، نعيش فيها ، ويكون لنا برامج مستقلة من العمليات والرصد والإقتحام .. فوافق على ذلك ، وقال لي : (غرفة بدر) لكم تفعلون فيها ما تشاؤون .. فأبو عبد الله كان يريد من المأسدة أن تعوّد الشباب القادمين على جوّ الجهاد فيحبونه إذا عاشوا فيه هذه الفترة .. ليكون ذلك زاداً لهم في المستقبل ، لكننا كنا نريد الهدفين معاً : أن نؤدي عملاً عسكرياً له قيمته ، وهذا الهدف الآخر معه ، لذلك وافق على أن نقسم المأسدة قسمين : قسم فيه عمل عسكري منظم وقتال وعمليات ، وقسم آخر يعيش الزائرون فيه حياة الجهاد العام ومعانيه .. » ويتابع الأخ أسامة : « مع إخراج عبد السميع كان أبو عبد الله قد بدأ التفكير بحفر غرفة جديدة أقصى ميسرة المأسدة هي (المتقدمة) وأرسل (البلدوزر) بالفعل ليشق الطريق إلى هناك ، وكان خلال الفترة الماضية كلها يشق الطرق بين المواقع باستمرار ، في الوقت الذي يقوم فيه (البلدوزر) الآخر بشق الطريق المخفي وراء الجبال بين المأسدة وغُنْد سياف تجنباً للطريق القديم الذي ينكشف على البوستات ويتعرض للقصف باستمرار .. أما (اللودر) فكان يقوم بمهمة حفر الغرف داخل المأسدة .. وهكذا ، وبعد أن إنتهى شق الطريق نحو موقع (المتقدمة) حفرها الشباب وجهزوها وسموها (غرفة المصريين) أو (المتقدمة) .. » .

الأنصار العرب (٣١)

وجاء القعقاع..

مع إكتمال المواقع الرئيسية في المأسدة ، وبعد قرابة الستة أشهر على إنشائها ، لم يعد الشباب المقيمون فيها بقادرين على ضبط أشواقهم ولا تمالك أنفسهم التواقة لخوض المعركة القتالية مع العدو .. وقد أمضوا جُلّ الأيام الماضية يكظمون هذه الأشواق تحت رقابة أبي عبد الله والتزاماً بتنفيذ توجيهاته في حفر المواقع أو شق الطرق أوالرصد والتدريب .. لكن هذه الشهور التي انقضت لم تكن – مع كل ما أنجزه الإخوة من إعداد وتدريب – لتكفي – بنظر أبي عبد الله على أقل تقدير – حتى تخوض المأسدة مواجهة مباشرة مع العدو وهو على بعد قاب قوسين أو أدنى من موقعها .. يقول أبو عبد الله : « طيلة تلك الفترة كان الإخوة يتعجلون كثيراً للنزول في عمليات على العدو وكنت أحاول أن أصبّرهم حتى ننهي الخنادق والمواقع .. أبيّن لهم خطورة موقعنا وبعدنا عن المجاهدين وسهولة ضربنا ، فكيف نضربهم قبل أن نُعِدّ أنفسنا ؟ فكانوا يسكتون حياءاً في بعض الأحيان وأمراً في أحيان أخرى .. » حتى إذا سنحت الفرصة .. ووجد الإخوة الظرف الذي يخدمهم لتحقيق هذه الأشواق العارمة .. حطموا الحواجز كلها .. وخرقوا القوانين بطرفة عين .. واغتنموا فرصة غياب أبي عبد الله عن المأسدة أواخر شهر مارس ٨٧ فعصوا أوامره الصريحة .. وقرروا أن يخوضوا معركة هجوم قريب !

.. يقول أبو هاجر : « كان الإخوة يستعجلون العمليات وأبو عبد الله يمنيهم : إصبروا .. إصبروا .. وأثناء غيابه إحدى المرات ، وبعدما ألحوا عليّ طوال ثلاثة أيام حتي دمروني .. رضختُ آخر الأمر ووافقت أن آخذهم في عملية .. وتهيأت .. ووجدت الشيخ تميم – وكان متحمساً – قد سبقنا ونزل تحت ، لكن إخوة آخرين راجعوني ، كان من ضمنهم أبو محمود ، قالوا : كيف تنساق بعواطف الإخوة وهم غير مدربين التدريب الكافي ؟ قلت له : والله ياأخي أنا أعرف هذا ، لكنني أريدهم أن يرونه عملياً بأنفسهم ، يرون أنهم ليسوا على مستوى العمليات حتى الآن . قال لي : لو ترجعهم .. قلت له : الآن وقد لبست ملابسي وحملت سلاحي يصعب الأمر ، وسأحطم كل معنوياتهم إذا فعلت ، وسأشعرهم بأنهم ضعفاء من هنا .. حاول عدة مرات فقلت له : لا تتعب نفسك يا أبا محمود .. إن شاء الله سأمضي معهم وإن كنت أعرف أن هذا العمل خطأ . قال لي : وكيف تؤدي عملاً وهو خطأ ؟ قلت له : لأنني حُمِلتُ عليه حملاً ، ولأن يذهبوا معي خير من أن يذهبوا بدوني .. » ويتابع أبو هاجر : « كان الإخوة متحمسين جداً .. وعندما ناديت سيف الله وسألته : كم (كلاشنكوف) وكم (آر بي . جي) تحتاجون ؟ هل حددت مجموعات الستر ومجموعات الإقتحام ؟ ما

هي الخطة ؟ قال لي ببساطة : سنذهب نضربهم ونرجع ! قلت له : ياحبيبي .. الذي ستضربه ليس حائطاً تهدمه وترجع .. هذا بشر .. عنده أضعاف ما عندك من الأسلحة ، وعندما تضربه سيجاوبك .. لكنه كان متحمساً للعملية .. قلت له : طيب .. حسبنا الله ونعم الوكيل .. هيا لنمشي ولكن أكتب عدد الأسلحة التي تحتاجها . قال : ليست مشكلة !! والناس ؟ أخذ من أرادهم سيف الله إضافة إلى من أرادوا هم أن يأتوا ، سواء يصلحون أم لا ! وطبعاً كان الشيخ تميم من أول المتحمسين فسبقنا وصار تحت .. وكأني سمعت أنهم قالوا بأنه أرسل إلينا خبراً بأننا سنلتقي في الجنة .. كانت عبارة ضحكت منها .. فكيف يكون القتال بهذه الطريقة وبهذه البساطة ؟! والمهم أن الإخوة كانوا محمّلين بسلاح عجيب جداً بحيث لا يستطيع أحد الإستمرار بحمله لمدة ثلاث دقائق فقط ! قلت لهم : يا إخوة لنأخذ حصاناً نضع عليه هذه الأسلحة . قالوا : لماذا ؟ لن نحتاج . قلت لهم : ستتعبوا وسأتورط أنا فيكم . قالوا : بل أنت إذا تعبت سنحملك مع سلاحك ! وبعد إصرار شديد .. وبرغم عدم إقتناعهم ألزمتهم بأن يأخذوا الحصان ، فحمّلوه بالأسلحة وبالقذائف مفترضين أنه سيرجع بقذائف خالية . قلت لهم : حسناً ، وإذا لم ترموها واضطررتم لإرجاعها ؟ قالوا : لا .. لا بدّ وأن نرميها .. وهذه كلها عيوب طبعاً في الخطة العسكرية ، لأن الصحيح أن تضع أسوأ الإحتمالات وتتهيأ لها .. وهكذا مضينا .. ولم يكن لدى الإخوة فرصة ليُسْرِجوا الحصان جيداً خشية أن يتأخروا ويدركهم الغروب ، فظلت الأسلحة تكاد تسقط مرة بعد مرة ونعيد تعديلها إلى أن نزلنا أسفل المأسدة وكنا ١٤ - ١٦ شخصاً تقريباً ، فناديت سيف الله وأمّرته علينا ، فقال : كيف ؟ أنت أميرنا . قلت له : يا أخي أنا أميركم في المأسدة فقط وأخوكم وحبيبكم ، أما هنا فأنا جندي .. إستفيدوا من رأيي ، أما الأمور العسكرية فلكم . وعندما سألته : هل يعرف أحد منكم الطريق ؟ قال : لا ، أنا وآخر فقط ! وبعد أن إلتقينا بالشيخ تميم واقتربنا من (أم الخنادق) ولم أكن أعرف نفسي إلى أين نحن سائرون ، كان جهاز اللاسلكي مفتوحاً .. وإذ بي أسمع صوت أبي عبد الله وقد عاد .. وعلم بنزولنا وحالنا فأمرنا بالرجوع فوراً . ولما أراد الشيخ تميم أن يأخذ اللاسلكي ويخاطبه بالمكشوف على أننا نريد الهجوم قلت له : دعني أتكلم بالرموز وسأنقل له جميع ماتود قوله بطريقة أخرى . قلت لأبي عبد الله : نحن على مقربة من المطعم ، والطعام مفروش ، ونحن جائعون جداً .. نريد أن نجلس ونأكل من المطعم في (برجنار) ! قال : ترجعوا فوراً . فعدت أراجعه : يا أبا عبد الله دعنا نشتغل .. واللهِ ما بقي شيء .. الإخوة متعبون وجائعون ، لم يأكلوا من زمن فكيف نرجع بلا طعام ؟ فظل يخوّفنا بالله وقال : إعلموا أنكم في معصية مُذ خرجتم ، وإذا لم ترجعوا فأنتم على معصية وأنتم آثمون .. » ويتابع أبو هاجر : « شعرت بالحرج .. كنت أتمنى في الحقيقة أن تخرج عبارة منع الإخوة من العملية وأمرهم بالرجوع من أبي عبد الله ولا تخرج مني ، لأن لها منه وقع آخر ، ولأنني لا أريد أن أفتّ في عضد إخواني .. فقلت أستشيرهم : أنا مثلكم حيران ، هل أعصي الأمير وأجاهد فنضرب هذه البوستة ونرجع بعد أن نشفي صدور قوم مؤمنين ، أم نطيع الأمير ونرجع بجراحات في النفوس ؟ سكت

بعضهم ، وصاح أحدهم يقول : جاء القعقاع وطاب النعناع ! - وكان اسم أبي عبد الله وقتذاك بيننا أبا القعقاع - نبقى في المأسدة ليطعمونا القيمر والعسل ؟! وراح الأخ يبكي بشدة ويقول : جئنا للجهاد .. جئنا لنموت في سبيل الله .. جاء القعقاع وطاب النعناع ! .. لكن معظم الآراء أشارت بأن نرجع ونضغط على أنفسنا أفضل من معصية الأمير ، فاسترحت لذلك ، وقلت للإخوة المعارضين : الأغلبية على هذا .. وإن شاء الله نأخذ من أبي عبد الله عهداً من هذا المكان وقبل أن نرجع أن يرسلنا في عملية بعد أن نرجع ونأخذ الإذن منه فنخرج بطاعته .. وكلمت أبا عبد الله بذلك على الجهاز .. فوافق » ويكمل أبو هاجر : « رجعنا بين زعلان وبين راض وبين متعب .. والحصان الذي أخذته كان يلهث ويأكل الثلج من الإجهاد .. وسقط السلاح من على ظهره عدة مرات .. والإخوة : هذا المتعب ، وهذا الجالس على الطريق ، وذاك الذي نسي سلاحه ! لكن الحمد لله لم نترك أي سلاح ، وكان النشيط من الإخوة يأتي وقد حمل ثلاثة (كلاشنكوفات) ! قلت لنفسي : سبحان الله ! كيف لو نفذنا العملية فطاردَنا العدو ؟ كيف لو حدثت بيننا إصابة لا سمح الله ؟ ورأيتُ وقتها أن مجيئ أبي عبد الله كان نصراً إلهياً .. ووقتها أقسم الشيخ تميم ألا يقربنّ طعاماً حتى يبرّ أبو عبد الله بوعده .. وفعلاً لم يقرب طعاماً قط وظل لا يتذوق إلا الماء ويقول : لن آكل حتى ينزلنا أبو عبد الله عملية .. فبرّ أبو عبد الله بما وعد ، وأنزلهم عملية صغيرة .. ورجع الشيخ تميم يأكل من جديد ! » .

.. ويسجل الشيخ تميم العدناني رحمه الله أحداث تلك العملية فيقول : « كان أسامة الأمير غير موجود وقتها ، وكان أبو هاجر نائباً عنه ، فاقنعته أن ننزل عملية وكنت متشوقاً لها ، وكان معنا الشهيد علي الليبي والشهيد حسين الليبي ، وكنا حوالي ١٥ شخصاً تقريباً .. وكانت العملية عبارة عن مدفع ٨٢ نوجهه على بوستة (أم الخنادق) قبل كيلو متر واحد منها حيث هناك مكان جيد لضربها ، فنصليها هذه الطلقات ونرجع .. وبعد أن نصبنا المدفع وأعددنا كل شيء وكدنا نضرب ، إذ بأبي عبد الله يتكلم على جهاز اللاسلكي ويطلب منا العودة . وقتها كدت أبكي ، وقلت لأبي هاجر : أفهمه الموقف .. فاستعمل أبو هاجر عبارات رمزية وقال : الوجبة جاهزة .. والمطعم أمامنا .. لكن أبا عبد الله قال : إرجعوا ولا تكونوا عصاة .. وأنتم آثمون وهكذا ، طبعاً أنا تأثرت جداً وانفعلت وصرت أبكي ، وكذلك بكى علي الليبي ، وأقسمت بالله ألا أضع طعاماً في فمي حتى أشترك في عملية .. وكنت صائماً بالفعل ذلك اليوم فأكملت صيامي ، وأفطرت على الماء ، وكذلك في اليوم التالي ، ثلاثة أيام لم أضع في فمي سوى الماء ، بعدها برّ أسامة بن لادن جزاه الله الخير بقسمي ، فأرسلنا بعملية مماثلة (١) .. وما صدّقت أن أرجع بعد أن كدت أسقط من شدة الإعياء والجوع .. » .

هوامش

(١) .. وكانت يوم الإثنين الأول من شعبان ١٤٠٧ هـ. الموافق ٣٠ مارس ١٩٨٧ م .

الأنصار العرب (٣٢)

معركة شعبان

دبّ الحماس في شباب المأسدة واشتعلت أنفسهم نشاطاً وحيوية وقد تذوقوا لذة الإنجاز السهل ومتعة الفوز السريع .. وكان لقرار أبي عبد الله في السماح لهم بخوض عملية القصف على البوستة أثر كبير في رفع معنوياتهم واشتعال حماستهم .. وكان القرار نفسه بداية منعطف جديد في مسيرة المأسدة نقلها إلى ساحة المواجهة المباشرة والتحدي ولما يمض على بداية تأسيسها نصف عام أو أكثر بقليل . يقول أبو عبد الله : « كنت أشعر بأن الإخوة لم يصلوا بعد إلى مستوى لقاء العدو ولم يهيؤوا قاعدة تحتمل المواجهة برغم ارتفاع معنوياتهم وصبرهم جزاهم الله خيراً ولا أزكي على الله أحداً .. فالخنادق في المأسدة لم يكن عددها يذكر من قلتها ، ولم نكن نحب أن نوجه ضربة للعدو لا تكسر ظهره فيكون وراءها ردة فعل نحن غير مهيئين لها .. إنما لما ازداد الإخوة بعد ذلك واستمروا في التدريب ، وجاءنا أبو خالد المصري القومندان وأبو عبيدة ورأيا أنه بإمكاننا أن نحقق بمشيئة الله نصراً بالإمكانيات الموجودة وأن نفتح مركز (أم الخنادق) ومركز (النايمة) .. وعندما كاد بعض الشباب – من جهة أخرى – أن يترك الجهاد لأنهم لم يجدوا عمليات معنا ، ولم يكونوا يستوعبوا أن يكون الجهاد قائماً ثم لا ندخلهم في عمليات عسكرية .. لذلك كان قرارنا بمعركة شعبان هو الحل الوسط ، خاصة وأن بعضهم قد يعود فيقول للناس : مكثنا ستة أشهر ولم نطلق على العدو طلقة خلالها ، فيعتقد الناس أن المجاهدين ليسوا بحاجة إلى النصرة .. فالوعي لم يكن كافياً لدى الجميع ليفهموا أن الجهاد يستمر فترة طويلة ، والسمع والطاعة لها حدود ، خاصة وأن معرفة معظم الإخوة بنا ليست بعيدة ، رغم أن المجموعة استمرت بفضل الله ستة أشهر في حفر الخنادق وفي التدريب ، وهم من عامة المسلمين وليسوا عسكريين .. كل هذه الأسباب إضافة إلى رأي أبي خالد وأبي عبيدة وهما من أصحاب الخبرة العسكرية ، وقولهما بإمكان تنفيذ المعركة كان دافعاً لإتخاذ القرار » .

* * *

كانت فكرة الهجوم واضحة وبسيطة إلى حد كبير .. فموقع (أم الخنادق) و (النايمة) بجوارها طالما ترصد الإخوة العرب عليهما وشنوا ضدهما هجمات خاطفة – كما مرّ – .. وبحكم دنوّ هذين الموقعين إلى المأسدة أكثر من بقية المواقع والبوسطات المعادية كان اختيارهما هدفاً لأولى عمليات المأسدة – وهي تتجه لتحرير الوادي والمرتفعات من قوات العدو – أمراً منتظراً ومتوقعاً ؛ أما خطة الهجوم نفسه فنترك لأبي خالد

– قائد المعركة – ليقدم لنا موجزاً عنها .. يقول : « جاءتني الأخبار أن الإخوة في المأسدة يعدّون أنفسهم للقيام بعمل عسكري لكسر الجمود في الموقف ورفع المعنويات بين العرب والأفغان وإنزال خسائر بالعدو ، فتوجهت إلى المأسدة بصحبة أبي حفص ، وهناك التقينا بالشيخ البنشيري (أبو عبيدة المصري) وتشاورنا واستقر رأينا على القيام بتوجيه ضربة نيرانية لكل مواقع العدو وإلى (خرشتل) [1] واستغلال هذا القصف بتحرير موقعين قريبين علينا من المواقع المهمة للعدو هما (أم الخنادق) و (النايمة) وأعددنا لذلك العدة وتم تقسيم قوات المأسدة إلى قسمين رئيسيين :

الأول : أسميناه مجموعة الرعب ، وكانت مهمته القيام بالقصف البعيد والمركز على جميع مراكز العدو بالصواريخ والمدافع والهاونات .

والثاني : مجموعة الفتح ، وكانت مهمتها القيام بالإستيلاء على الموقعين وأخذ الأسرى ثم تدميرهما والعودة إلى المأسدة .. وبدورها قُسمت المجموعة الثانية إلى ثلاث مجموعات فرعية : إثنتان للإقتحام والثالثة إحتياطية .. » ومن جانبه يتابع أبو عبد الله شرح مقدمات المعركة ويقول : « طيلة أسبوعين أرسلنا مجموعة إخوة للترصد على (أم الخنادق) و (النايمة) وكانوا سبعة أذكر منهم : شفيق وأبا الذهب ، ثم لحق بهم أسامة ، وبعد أن ترصدوا بشكل لا بأس به ذهبنا إليهم أنا وأخونا أبو خالد المصري وأبو حفص المصري ، وكانوا قد نصبوا خيمة تحت (أم الخنادق) من جهة الجنوب ، تكفيك دقيقتان ونصف مشياً على الأقدام لترتفع إلى القمة وتكون على نفس مستوى (أم الخنادق) وعلى نفس التبة ، حيث كان تمركزنا من جهة الجنوب وكانوا يتمركزون من جهة الشمال .. وفي مواقعنا التي لم تبعد أكثر من مائة متر عن العدو كنا نراهم ونسمع أصواتهم ، وكان الإخوة يقتربون في الليل ومعهم منظار ليلي إلى بعد ثلاثين متراً فقط ، لا يمنعهم من الدخول إلا الألغام ! » .

.. ويقول أبو هاجر : « تنشّط الإخوة للرصد وحدثت قفزة نوعية للعرب في هذا الموضوع ، فكان واحدهم يذهب في الليل ويقترب من العدو حتى يسمع كلامهم بأذنيه .. وفي الضحى كنت تذهب فتجد شفيق وذبيح نائمين هناك .. حتى أنني لما وصلت إليهم مرة مع أبي حفص المصري وجدت أحد إخواننا نائماً مطمئناً وكأنه في بيته من إجهاد الحراسة والترصد طوال الليل ، فسُئلت سؤالاً شرعياً أثار عجبي وقلت : سبحان الله ، هذا شيء طيب أن يكون في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من يسأل هذا السؤال في أواخر هذا الزمان ! قالوا لي : هل يجوز لنا أن نعتدّ بأذانهم حينما يؤذنون أم نؤذن لأنفسنا ونصلي ؟ – ذلك أن بعض جنود الحكومة المغلوبين على أمرهم يصلّون ويؤذنون – فقلت لهم : سبحان الله رب العالمين الذي يسّر أن تقتربوا من العدو إلى هذا الحد الذي تسمعون أذان جنده .. ووالله هذا السؤال أجمل عندي من الجواب ! » .

ويسجل أسامة « أزمراي » ذكريات تلك الأيام فيقول : « في آخر مرة عدت فيها من بشاور إلى (جاجي) وجدت أبا عبد الله فسلمت عليه - وكنت لا أزال أشتكي من يدي قليلاً ولم يبرأ الجرح بعد - فأخبرني بأن الشباب : شفيق وأبا الذهب وذبيح وصخري والبيشي وحسين الليبي كانوا تحت (أم الخنادق) في الخيمة ، فاستأذنته أن ألحق بهم بسرعة ، فقال لي : إنتظر .. وكنت قد وصلت عصراً فأجلسني تلك الليلة ، وصباح اليوم التالي تحركت ونزلت إلى الخيمة .. » ويتابع أسامة : « كان أبو عبد الله قد سلّم (غرفة بدر) لأبي عبد الرحمن المصري وكان يثق به بعدما أخذ قسطاً من التدريب العملي بحيث يستطيع أن يقصف من (بدر) بالهاون أو بمدفع ٧٥ ويستطيع أن ينظم الشباب هناك ويقودهم ، ويعرف مداخل منطقة الجبل الذي فيه (بدر) ومخارجه .. لذلك صرت أتنقل بين الخيمة و (بدر) ، فقد كان أبو عبيدة يؤكد عليّ أن أذهب إلى (غرفة بدر) لألتقي الشباب هناك وأشرف على ضبط الرماية على البوستات حتى يكون أداؤهم جيداً يوم العملية .. وفي تلك الفترة حدثت أشياء جيدة في حياة المأسدة وحياة الإخوة الذين جاؤوا للجهاد ، فالإخوة الذين يتنصتون على البوستات كانوا إذا سمعوا شيئاً مريباً من محادثات العدو شددوا الحراسة في الليل ليعتمدوا على الترصد مع التنصت ، وكانت خطوة جديدة أعجبتني ، حيث يلتقي أهل التنصت مع أهل الترصد ويحاولوا من مجموع المعلومات التي توفرت للطرفين أن يعرفوا خطة عمل العدو وتحركاته .. وفي إحدى الليالي إتصل أبو عبد الله بنا على (بدر) وطالب بتشديد الحراسة جداً .. وكأنهم أخذوا أخباراً باحتمال حدوث تسلل للعدو من ناحية (غرفة بدر) فأخرجنا الشباب في تلك الليلة ونصبنا الأسلحة في أماكنها ، وفكرنا في طريقة للتصدي لأي قوة صاعدة ، وبرغم قلة الخنادق الموجودة - والتي كانت موجودة أصلاً قبل وصولنا فهي التي حفرها الكوماندوز الروس من قبل - برغم ذلك وضعنا في كل منطقة مهمة شخصين معهما (سليبن باك) واحد ، ينام فيه أحدهما ويحرس الآخر ، فإذا تعب أيقظ أخاه لينام ، وأنا وأخ آخر كنا نعمل عليهم دوريات ثم ننزل ونتصل بالشباب تحت إن كان عندهم حركة غريبة .. ومن هذا الوقت بدأ التقدم عندنا في المأسدة من ناحية إستخدام اللاسلكي والربط بين المواقع به ، وصار القائد أبو عبد الله يستطيع أن يوجه أي مجموعة من أي ناحية وفي أي وقت .. وكانت المشكلة الوحيدة أن بعض الشباب الجدد ما كان بالإمكان ضبطهم بسهولة .. وكان بعضهم يتوتر باستمرار .. وربما يرى قرداً أو نسناساً يتنقل بين الأشجار فيفتح عليه النار صلياً على طول ! وذلك لعدم التروي ولعدم معرفة الموقع ، لذلك كنا نأخذ الشباب الجدد في جولات على المواقع في المنطقة ليتدربوا من جديد التدريب العملي في مواجهة البوستات ، وإن كانوا قد تدربوا في (صدى) من قبل .. » ويتابع أسامة : « في تلك الأثناء كانت القيادة في عمل متواصل ، ولأول مرة تضطر للتفكير العملي في عدة أشياء معاً ، فإذا كان اتخاذ القرار في البداية صعباً فإن النطق بذلك القرار سيكون بعد ذلك سهلاً ، لكن تطبيق ما قلته سيصبح أصعب من جديد .. وهكذا بدأ الإخوة

بتحديد الأسلحة التي يريدونها . كان الأخ أبو خالد المصري ضابطاً في الجيش ، وكذلك كان أبو حفص ، لذلك كان تخطيطهم وتفكيرهم على مستوى الجيش .. ووضع الجيش يختلف بالتأكيد عن وضع المجاهدين أو العصابات الذي نعيش فيه ، ومن هنا وجدت ثغرات عديدة .. لكن الثغرة الأساسية أنهم فكروا بمثالية زائدة ، واهتموا بالجانب التخطيطي أكثر من اهتمامهم بالجانب العملي والتطبيقي ، ومن المعروف أن الخطة كلما ازدادت تعقيداً أصبح تنفيذها أصعب .. فكان البرنامج كله مرتبط بزمن ، وأي برنامج مرتبط بزمن صعب جداً تنفيذه .. فمثلاً : أراد الإخوة أن يكون هناك خمسين صاروخ (بي . إم) تطلق بالأسلاك على زاوية صفر نحو البوستات ، لكنهم لم يحسبوا الوقت الذي يستغرقه نقل هذه الصواريخ الخمسين إلى أسفل الوادي أولاً لمدة ساعة ونصف مشياً على الأقدام ، ثم الصعود بها إلى الأعلى من جديد ساعة إلا الربع على أقل تقدير ، يضاف إليها نصف ساعة أخرى لنصب كل صاروخ بنفسه وتوجيهه إلى الهدف ؛ كان الإخوة يفكرون بأن نضع فلاناً على الهاون في المكان الفلاني ، ولم يفكروا كيف سيصل الهاون إلى هناك ، ومن سيوصله ، وكم سيستغرق ضبطه ، وما هو البديل إذا لم يصل .. إذا تعبنا في الطريق .. إذا لم نستطع .. لذلك أنا أرى أنهم لو أوصلوا الأسلحة في الأول ثم حددوا وقت العملية لكان أنسب لهم ، لكنهم حددوا الوقت إبتداء وربطوه مع المجاهدين الآخرين .. ولم يكونوا قد أوصلوا شيئاً إلى موقعه بعد ! » .

* * *

تحديد ساعة الصفر لهذه المعركة لم يكن قرار الأنصار العرب وحدهم بالفعل ، فالتنسيق مع المجاهدين الأفغان في « الإتحاد » و« الحزب » كان يعني بالضرورة أخذ ظروف الطرفين ورأيهما بعين الإعتبار .. حتى ولو لم تكن مشاركتهم مباشرة . يقول أبو الرضا : « كان رأي أبي عبد الله أن نرتب مع الحزب في (غُنْد الفتح) ومع (الإتحاد) كلٍ على حده ، وبالفعل تم الإتفاق لعلاقتنا الطيبة مع الجميع وطلبنا من (الفتح) أن يساعدونا بالقصف على (تشاوني) بـ (البي . إم . دوازدا) وعلى البوستات في الوادي ، وقال الشيخ سياف : أنا آتي إليكم يوم الأحد لأرى .. خلال ذلك وقبل أن يصل الأستاذ سياف بدأنا بنقل الصواريخ (بي . إم) على أربعة أو خمسة بغال كانت عندنا مع بقية الأشياء إلى خيمة الترصد ، على أساس أن يجتمع السلاح كله هناك ثم يوزع من جديد » ويضيف أبو الرضا : « كان مجيئ الشيخ سياف يوم الأحد على أساس أن نخطط للعملية تخطيطاً ، لكنه أتى الأحد ليقول لنا : العملية غداً الإثنين ! صحيح أننا خططنا العملية ورتبنا مع الحزب ، لكن تجهيزنا لم يكتمل (٢) .. قلنا له : يا شيخ .. نحن غير جاهزين .. لا يمكن ! فأذكر أنه أعطانا مهلة يومين أو ثلاثة كأقصى حد لاستكمال الإعداد والتجهيز والبدء في التنفيذ ؛ أمام ذلك إستنفرنا جميعاً واعتقدنا أن هذه الأيام الثلاثة ستكون كافية على اعتبار أن خطتنا كانت جاهزة وليس أمامنا

إلا أن تصل الأسحة والذخائر للخيمة القريبة .. لكن الوقت كان حقيقة الأمر أقل من المطلوب ، وبعد أن كادت البغال تموت تعباً من مشقة الحمل وكثرة الإستخدام ، إضطررنا لفتح طريق حتى أسفل الوادي بـ (البلدوزر) وصرنا نرسل الأغراض بالسيارات .. » .

أبو عبد الله « أسامة بن لادن » توقف عند قضية تحميل ضيق الوقت أكثر مما تحتمله وقال : « هي وجهات نظر يبديها الإنسان ، إلا أنه لا ينبغي أن يقطع بأنها الوجهة الصحيحة .. » وأضاف : « كان الموعد قد حدد لنا قبل العملية بفترة كافية حتى ننقل أسلحتنا وأمورنا لخنادقنا المتقدمة ، وكان إختيار يوم الجمعة ١٩ شعبان علي أساس أن يكون المسلمون في الدول العربية والإسلامية كلهم في صلاة الجمعة أو بعدها مع فارق التوقيت ، والغالب أنهم يدعون في صلاتهم للمجاهدين ؛ وبالنسبة لساعة الصفر فقد كانت محل نظر بين المجموعات الموجودة وبين الأحزاب ، فالشيخ سياف كان يرى أن تكون في الصباح ، ورأت المجموعات الأخرى أن أنسب وقت للضرب هو الساعة السادسة قبل الغروب بساعة ، حيث يوفر ضوء النهار المتبقي فرصة الهجوم بعد الضرب البعيد ، وإذا ما تدخل الطيران بعد ذلك فستقل كفاءته كثيراً لدخول اليل .. وتم اختيار الرأي الآخر ، وبدأنا نعد لهذه العملية التي كانت أول عملية للمجاهدين العرب بهذا القدر » .

* * *

تحدد موعد الهجوم – إذاً – من خلال المداخلات العديدة مساء الجمعة التاسع عشر من شعبان عام ١٤٠٧ الموافق للسابع عشر من ابريل عام ١٩٨٧ ، أما موقع العدو في الهدف المرصود فكان عبارة عن قمة جبلية تشرف على بقية بوستات العدو الممتدة على طول الوادي باتجاه الغرب حتى « تشاوني » وتطل من جهتها الأخرى على المأسدة والجبال الممتدة من بعدها حتى تنتهي بالحدود الباكستانية – الأفغانية . ومن جانبها كانت المأسدة التي تمتد على قمة جبلية منبسطة تعلو مواقع العدو جميعاً ، تنتهي من جانبها الغربي والشمالي بواد يبدأ بالإنحدار من آخر نقاط للمجاهدين العرب هناك ليرتفع مرة أخرى في سلسلة جبال وهضاب متتالية تنتهي من جهة الشمال إلى الوادي العريض الذي يصل بين المنطقة وامتداداتها من جهة الشرق حتى « لوغر » .. ويمتد غرباً إلى « جاجي ميدان » مروراً بـ « تشاوني » المركز الرئيسي للعدو في المنطقة ؛ وإضافة إلى مواقع المجاهدين العرب الحصينة على جبال المأسدة ، كان ثمة موقع آخر هام إتخذوه فوق الهضبة التالية باتجاه الوادي الشمالي أطلقوا عليه إسم « تبة القيادة » أو « تبة عبد السميع » يوازي الهدف المرصود « أم الخنادق » تماماً في الإتجاه ، ويزيد عنه أو يكاد يوازيه أيضاً من ناحية الإرتفاع ،

وبينهما يستمر الوادي الذي يفصل غرب المأسدة عن الهضبة التالية بعدها ، والتي أقام الإخوة على منحدراتها الخلفية خيمة الترصد .

كان موقع العدو في « أم الخنادق » عبارة عن أصبع جبلي منبسط تليه أربعة أصابع أخرى من جهة اليسار أو الغرب تتفاوت في الطول وفي الإرتفاع .. أقام العدو على الأصبع الثاني منها موقعاً آخر للحماية هو «النايمة » – مثلما أسماه الإخوة العرب – .. بينما لا توجد في الأصابع الثلاث التالية أية قوة للعدو باعتبارها الظهر الآمن – في إعتقادهم – الذي يشرف على « تشاوني » ولا يتوقع أن يأتي المجاهدون منه .. وكان ثمة أصبع آخر يمين « أم الخنادق » وفي إتجاه « تبة القيادة » يتصل بالجبل نفسه ولكنه يتراجع قليلاً عن موازاة « أم الخنادق » إلى الخلف بعض الشيء .. أهمله العدو أيضاً ولم يثبّت عليه أية قوات لإشرافهم المباشر عليه إلى حد كبير ، ولبعده النسبي عن « أم الخنادق » مقارنة بالقرب الحاصل بينها وبين « النايمة » .. أما خطة المعركة فنترك سردها للأخ أسامة « أزمراي » ليقول : « كانت الخطة تقتضي وجود مجموعة ساتر على التبة اليمنى لـ (أم الخنادق) التي هي (تبة عبد السميع) مؤلفة من (غرينوف) أرضي ثابت ومدفع ٨٢ وبعض قاذفات (الآر . بي . جي) إضافة إلى ستة صواريخ (بي . إم) .. بعد ذلك وعلى التبة في الأصبع الأول الذي هو الأصبع قبل (أم الخنادق) تكون أيضاً مجموعة معها مدفع ٨٢ عديم الإرتداد ورشاش ، وعلى الأصبع الثاني أيضاً مجموعة ستر ولكن مهملة ، وظيفتها فقط تفجير الصواريخ نحو (أم الخنادق) ، وعلى الأصبع الثالث مجموعة ستر لـ (النايمة) ، وعلى الأصبع الرابع المتصل بـ (النايمة) مجموعة الإقتحام التي كان يقودها أبو حفص لإقتحام (أم الخنادق) ، وفي الأصبع الخامس كانوا سيضعوا (الدشكا) يذهب بها أبو حنيفة والبتال وبعض الشباب ؛ أما أنا فقد طلبت في الحقيقة الذهاب لـ (أم الخنادق) وأن آخذ معي بعض المتفجرات على شكل (قضيب بنغالور) [٣] لفتح الألغام حتى أفتح ثغرة نحوها ، فإذا نجحت أتصل بالقيادة ، وفي نفس الوقت يكون الشباب قد اقتحموا على (النايمة) ، فإذا نجحوا في ذلك ووجدوا فرصة لإقتحام (أم الخنادق) أرسلوا مجموعة الإحتياط اليها بعد أن أكون قد فتحت الثغرة ، وفي مجموعة الإحتياط هذه كان البيشي وأسد الله وصخري وآخر معهم .. » .

* * *

كان الإعداد للمعركة قد استنفر طاقات الإخوة العرب الحسية والنفسية ، وكانت مشاعر هذه المجموعة الكبيرة من إخوة الإسلام الذين وفدوا من مشارق الأرض ومغاربها كالبحر الهادر الموار .. يقول أبو عبد الله

: « كنا في المأسدة حوالي السبعين ، وطلبنا مدداً من إخواننا الذين أنهوا التدريب في (صدى) فبلغ مجمل العدد ١٢٠ تقريباً بما فيهم الجهاز الطبي ومن يساعد فيه (٤) فكان العدد كبيراً جداً بينما لم يكن ليزيد على أربعة .. خمسة .. سبعة في أية عملية سابقة ، وبالطبع فتجهيز السبعة أمر سهل ، أما هذه المعركة فكانت الأولى التي ندخل فيها بالسلاح الثقيل ، ولم يكن لدى جميع الإخوة بدون إستثناء أية خبرة في موضوع التمرين لهذه المعركة ، رغم أننا أعطينا أنفسنا وقتاً واسعاً أكثر من ١٢ يوماً تقريباً ، إلا أن عدم دخولنا في مثل هذا المجال من قبل جعل تمرين ١٢٠ مجاهد مسألة جديدة علينا ؛ وصباح يوم المعركة كان ١٢٠ أخاً أكثرهم عربي يجتمعون بكامل أجهزتهم وعدتهم وأسلحتهم .. جاءوا من مشارق الأرض ومغاربها ، ما جمعتهم دنيا ولا نسب ولا قرابة .. وإنما جاءوا من أجل لا إله إلا الله ، فكان المشهد مؤثراً جداً ذلك اليوم ، وكان معنا الشيخ عبد الله عزام جزاه الله الخير وألقى كلمة حرضهم فيها على الثبات وعلى الجهاد وعلى إخلاص النية ، ثم بدأ أخونا أبو عبيدة المسؤول العسكري بتوزيع الإخوة على مهامهم ، وكنت قبل موعد المعركة بثلاثة أو أربعة أيام أجد ثقلاً شديداً على صدري وظهري لا أصرح به للإخوة إلا ربما لأبي عبيدة والشيخ تميم .. واشتد ذلك عليّ يوم دخول المعركة بسبب دماءٍ سندخل فيها وما تعودنا بحكم بعد الناس عن الجهاد أن نتحمل مسؤولية بهذا القدر ، فكنت أذكر ذلك للشيخ تميم فيقول لي : إصبر .. وأنا أعلم أنه ليس في الوادي الذي أنا فيه أكرمه الله .. » .

ويسجل أبو هاجر ذكريات صبيحة ذلك اليوم المشهود فيقول : « إقترب موعد العملية وتقاطر الناس فجمعوهم في الساحة الكبيرة ، وخطب الشيخ عبد الله عزام فيهم خطبة عصماء طيبة كانت بعض مقتطفاتها من كتاب (العبرة فيما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في الغزو والجهاد والهجرة) وكانت خطبة جميلة تناول الإخوة بعدها طعام الغداء مبكراً ، وجاء أبو حنفي الونش يقول لي : أبا هاجر ، كأني بالإخوة يأكلون طعام الغداء مع بعضهم الآن ، وكأني بهم في المغرب يتناولون جميعاً طعام العشاء في الجنة . قلت له : اللهم لا أمين ! قال لي : كيف ؟ قلت : اللهم لا تستجب لهذا القول . قال لي : كيف ؟ شهداء ! قلت له : أنت تدعو علينا بالهزيمة .. كل هؤلاء يتعشون في الجنة ؟ إذاً هي هزيمة ! من ينصر الله عز وجل ؟ أما أنا فوالله لا أتمنى ذلك ، إن شاء الله رب العالمين لا يختار منا إلا من يرتضيه شهيداً ومن يراه مناسباً أن يُقتل في هذا اليوم ، وأن يرجع الإخوة سالمين غانمين وأن ينصرنا على عدونا .. » ويضيف أبو هاجر : « وبدأ الإخوة يتحركون مجموعة مجموعة .. وقتها احتضنتُ الشيخ عبد الله وطلبت منه العفو وقلت له : يا شيخ أنا وقعتُ فيك كثيراً أيام إدارتي وأنتم آذيتموني كثيراً .. وأرجو أن تعفو عني في هذه اللحظات .. » .

* * *

كان موعد ساعة الصفر للبدء بالعملية هو الساعة السادسة قبيل المغرب ، وكان الزمن الذي يستبق الإخوة العرب معه لإستكمال استعدادات المعركة هو الفائز المتقدم باستمرار .. لا يكاد يجاريه إلا التردد المتزايد في صدور قادة المعركة بالبدء .. وبالإستمرار ! يقول أبو هاجر : « قبل أن تبدأ العملية وبينما أنا أنظر إلى الإخوة وإلى نفسي أيضاً قدح في بالي أن نؤجل العملية ، لكنني قلت : كيف ؟ فنقل المواد مستمر ، والإخوة على بعد كيلو متر واحد من العدو ، والموعد مرتب مع بقية التنظيمات .. هذا غير ممكن ، ولذلك قلت لنفسي : والله ما أتركها تخرج من فمي .. وفجأة سحبني أبو عبيدة جانباً هكذا وقال لي : يا أبا هاجر ، أرى أن الوقت غير مناسب لنا ، وأرى لو نؤجل العملية على الأقل ١٢ ساعة أو يوماً واحداً حتى نكمل إستعداداتنا . قلت له : واللهِ يا أخي صدقني ما تقوله هو في نفسي ولكنني خجلت أن يخرج مني فأنا جندي ولو تحدثت به فسيخرج بإطار آخر ، أما أنت فعسكري ، ولو قلت ننسحب فلن يُعْتَبَر ذلك تخاذلاً . قال لي : تعال نقنع أبا خالد . جلسنا مرة أخرى مع أبي حفص وأبي خالد ، وتبين أننا كنا نعرف أنه لا يمكن أن نبدأ ، وأن الوقت ليس بصالحنا ، لكن سبباً واحداً جعلنا نستمر هو اتفاقنا مع الأحزاب ، إذ لم يعد لدينا خيار آخر ، فقلت : يا أخي خلاص ، فإذا عزمت فتوكل على الله » .

* * *

إستمر نقل الأسلحة والذخائر على قدم وساق طيلة فترة الظهيرة وحتى عصر ذلك اليوم ، واكتمل توزع أكثر الإخوة العرب على مواقعهم المحددة وقد قاربت الساعة الرابعة ولم يتبق على ساعة الصفر إلا مائة وعشرين دقيقة . يقول أبو الرضا : « تجهزت مجموعات الهاونات في المأسدة كلها في الوقت الذي بدأ الإخوة بالنزول إلى مواقعهم ، وصلنا نحن إلى الخيمة (خيمة الترصد) وقد وصلت عقارب الساعة إلى الرابعة » ويتابع أبو الرضا : « كانت صواريخ (البي . إم) على تبة عبد السميع قد نصبت كلها لكن بطارية التفجير لم تكن قد وصلت بعد من السيارة ، كذلك وصل مدفع ٨٢ لكن قذائفه لم تصل أيضاً .. (جرينوف) واحد و (الدشكا) و (الستكا) كلهم وصلوا مع ذخيرتهم لكن ما طلعوا للأعلى .. مجموعات الإقتحام كانت جاهزة ، وصواريخ (البي . إم) كانت أمام الهدف منصوبة أيضاً ولكنها لم تشبك كهربائياً .. بقية المجموعات جاهزة ، وعلى الأصبع رقم واحد كان (الآر . بي . جي) وربما مدفع ٨٢ جاهزة أيضاً .. » ويضيف أبو الرضا : « كانت سيارة الذخيرة قد وصلت آخر نقطة في الطريق الذي شقه البلدوزر ، والذخائر

فيها لم تصعد بعد إلى الأعلى .. نادينا الإخوة لتحمل كل مجموعة منهم ذخائرها : أهل (الدشكا) .. أهل ٨٢ .. (الغرينوف) .. أبو عبيدة بدأ يصل الكهرباء بين الصواريخ في قسمه .. أهل (الدشكا) وضعوه وناموا بعد أن مشوا فيه نصف ساعة حتى أوصلوه .. الساعة الآن الرابعة والنصف ، بدأنا الإتصال مع المجموعات لاسلكياً ، الكتف الأيمن : هل مجموعاتك جاهزة ؟ نعم ولكن الذخائر لم تصل ! كتف رقم واحد : أين قومندانكم ؟ ذهب إلي السيارة ليأتي بالسلاح ولم يعد للآن ! أسامة ؟ قالوا : أسامة جاهز وهو على رأس التبة . أبو هاجر ؟ قال : نحن جاهزون . أبو حفص (الإقتحام) ؟ قال : نحن مددنا متفجرات حقل الألغام .. وكانوا قد جهزوها من المأسدة . الساعة الآن هي الخامسة ، الخامسة والنصف ، الأمر على وضعه : ذخيرة ٨٢ لم تصل .. (الجرينوف) ما وصل .. و (الدشكا) لم يصلها إلا صندوقا ذخائر .. وأبو خالد يقول لي : سأسحب .. سأسحب .. وأنا أقول له : إنتظر قليلاً .. إصبر .. ليس معقولاً أن نسحبهم .. أنا أخاف على نفسيات الشباب .. نحن أتينا لعملية ، وعرب ، وبين الأحزاب ، وربما هناك سبعين شخصاً الآن حول الهدف ! وهكذا انتظرنا .. ولم يطل الإنتظار كثيراً فقد وصلت الساعة السادسة وبدأ القصف .. » .

يقول أسامة : « كان الإخوة قد انتهوا من تجهيز الصواريخ على (تبة عبد السميع) أما التباب الأخرى فلم يكونوا قد انتهوا منها بعد ، وبرغم ما بذلناه من جهد أنا وبعض الشباب ومنهم أبو الذهب وإحسان وأحمد شاه الأفغاني ، وأبو الرضا في إحدى المرات ، إلا أننا لقلة وسائل النقل لم نستطع أن نوصل إلا ٣٩ صاروخاً فقط من أصل ٥٠ صاروخاً كانت محسوبة في مخطط المعركة .. ثم كان وصول الإخوة في مجموعة الإقتحام بعددهم الكبير ، أكثر من ٣٠ - ٣٥ شخصاً ، وكانوا جائعين ، ولم يكن عندنا في الخيمة طعاماً يكفي الجميع فكانت ربكة ! وفي نفس الوقت وجد الأخ أبو خالد أن مجموعات الإخوة لم تكتمل بعد ، وأن عدداً منهم لا يزال هناك مشغولاً بنقل الذخائر ، لذلك أراد أن يستفيد من الموجودين وبدأ - جزاه الله الخير - يوزع المجموعات من جديد وهو لا يعرف قدرات الشباب جيداً ولا يعرف من يعرف المنطقة منهم .. فازدادت الربكة ! وبعد إن وضع مجموعة إحتياط من الإخوة خطب فينا يصبّر الشباب ويحثهم على الثبات وعلى تطبيق الأوامر وتنفيذها .. وعندما إنتهى جزاه الله خيراً فوجئنا بأن الأسلحة التي كان من المفروض وجودها معنا لم تصل جميعاً .. وإلى ذلك الوقت لم يكونوا قد أتوا بالأسلاك لتفجير الصواريخ ، ولم يكونوا أوصلوا أجهزة التفجير .. فاتصلنا معهم ، وأسرع أمين جزاه الله خيراً بها على الحصان على آخر الوقت .. وبدأ قصف الهاون .. » .

.. يقول أمين : « حوالي الساعة الثالثة ظهراً قال لي أبو عبد الله : خذ الخيل .. سرّجه وتحرك مباشرة . كان هناك خيل جيد جداً وصل الآن المأسدة ، أخذته وحمّلت عليه الأسلاك والأدوات .. وكانت ثقيلة جداً ،

والمسافة طويلة .. فوصلت قبل بدء العملية بنصف ساعة .. أنزلتها وعدت لأبي عبد الله لأنه قال لي : إبق معي ولا تفارقني ، فلما جئت أعود إليه رأيته قادماً يحمل قدر استطاعته من الذخيرة ويسوق الخيل بنفسه .. وكانت هناك سيارة (لاند كروزر) تقف في الخلف بعيداً عن الخيمة مسير ساعة بالأرجل وعليها كل الذخيرة التي نريدها .. والشباب هناك ينتظرون بلا ذخيرة ! نزل أبو عبد الله عن خيله فحمّلناها وحمّلنا الخيل التي كنت عليها ، وكان هناك خيلان آخران أتينا بهما من عند الإخوة في الخيمة حمّلناهما أيضاً .. وحمل الإخوة ما زاد على ظهورهم وأكتافهم ، فكان واحدهم جزاهم الله خيراً يحمل أقل حمل ١٠ - ١٢ كيلو غراماً ويمشي بها الساعة حتى يصل الخيمة قبل موعد العملية ، وأذكر أن الأخ أبا العتاهية حمل ما لا يقل عن عشرين كيلو غراماً فوق كتفه .. فعندما رأى (الجرينوف) لا يزال في مكانه قال لي : إئت به .. مالك شغل فيه ، ثم لفه بخيش وحمله فوق كتفه وأخذ يجري به مسافة الساعة حتى وصل به الخيمة ؛ وكان بعض الإخوة غيره يحمل ثلاثة مخازن (جرينوف) في كل مخزن منها ٥٠٠ طلقة .. يعني حاجة عجيبة ! » لكن الأعجب والأغرب أن بضعة عشر من هؤلاء الإخوة الذين أُجهدوا في نقل السلاح والعتاد فأُمروا بالعودة من فورهم إلى المأسدة ، جلسوا - عندما وجدوا أنفسهم بلا عمل أو مهمة يؤدونها - أماكنهم أسفل الوادي يتنصتون على جهاز المخابرة .. ويترقبون الأخبار والتطورات ! يقول الأخ علي غزلان : « .. كنت وبعض الإخوة نحمل إمدادات من المأسدة إلى موقع المعركة لكننا لم نكن نعرف المنطقة جيداً ، فطلبنا منهم بالمخابرة أن يوقفوا لنا أحداً على الطريق ليأخذنا إلى الموقع المطلوب ، لكنهم قالوا لنا : إرجعوا .. فرجعنا إلى نهاية الوادي .. إلى آخر مكان تصل السيارة إليه ، وجلسنا هناك نتابع المعركة من اللاسلكي .. وكنا حوالي ١٥ أو ٢٠ شخصاً .. وبقينا كذلك إلى أن رجعوا من مكان المعركة .. وأثناء ذلك كانت تأتينا قذائف طائشة ونحن لا ندري ما نفعل ! » .

* * *

كانت مسؤولية القصف التمهيدي بعيد المدى تتبع في هذه المعركة جهتين اثنتين رئيستين : المجاهدين الأفغان في كل من تنظيم « الحزب » بغُنْد الفتح وتنظيم « الإتحاد » بغُنْد سياف .. والإخوة العرب في المأسدة وعلى موقع « بدر » بالتحديد ؛ وعندما بدأت الجهتان القصف بناء على الإتفاق المسبق ووفق التوقيت المرسوم ، كانت الخطة تقتضي أن يتابع الإخوة الذين يرصدون الهدفين : « أم الخنادق » و « النايمة » بإطلاق صواريخ « البي . إم .» لتدك تحصينات العدو كآخر إجراء تمهيدي يسبق الإقتحام .. ومثلما هو متوقع في مثل هذه الحالات ، وبمجرد إنطلاق صواريخ المجاهدين وقذائفهم بعيدة المدى ، فقد استنفر العدو في مواقعه ، وصار على إقتناع راجح بأن هجوماً مباشراً يتهدده ، لذلك انطلق في المقابل بإجراء قصف

إحتياطي للمواقع التي تلي خطوط دفاعاته الآمنة ، حيث تكمن - واقع الأمر - مجموعات الإقتحام وتتمركز المجموعات الأخرى الموكلة بإطلاق صواريخ « البي . إم » دون أن تطلق - حتى اللحظة - أياً منها ! يقول أبو الرضا : « بدأ القصف من (الإتحاد) و (الحزب) والإخوة في المأسدة من جميع الجهات ، وسرعان ما بدأ العدو في البوستات قصفاً أمنياً .. ولم يبق إلا أن نطلق صواريخ (البي . إم) ونبدأ الإقتحام . ماذا يا أبا خالد ؟ نضرب الصواريخ ؟ أجاب : الشباب الآن مختبئون جميعاً وغير ظاهرين ، وحتى (البي . إم) مخبأة ، لكن وبمجرد أن نطلق بعضاً منها فستنفضح مواقعهم . قلت : حسناً .. لنتصل بالمواقع . أصبع رقم واحد : ما أحوالكم ؟ قالوا : القومندان لم يأت ! أزمراي .. أبا هاجر ؟ لا أحد يرد أبداً ! أبا حفص ؟ جاهز .. لكن الذخائر لم تجهز بعد وما زالوا يضبطون الصواريخ ! وازداد الخطر مع اشتداد القصف حينما رأى العدو فيما يبدو أحد الإخوة القريبين منه فبدأوا يقصفونهم بالهاون من جميع الجهات .. ولا بد أنهم إكتشفوهم قطعاً فراحوا يرشون عليهم بـ (الجرينوف) الثقيل .. حتى أصيب أبو محمود .. » .

.. يقول أبو عبد الله : « بدأ القصف .. وراح الإخوة الأفغان يرمون العدو براجمات الصواريخ بينما كنا نستخدم الهاونات فقط من المأسدة ، حيث ضرب الإخوة قرابة الخمسمائة قذيفة هاون في تلك المعركة ؛ وقتها أخذ العدو في تمشيط منطقة الغابات القريبة تحسباً من وجود مجموعات فيها تستعد للإنقضاض عليه ، ويبدو أن بعض الإخوة قد ظهر له أثناء الضوء ، فدارت معركة شديدة بين المسلمين والكافرين .. » ويتابع أبو عبد الله : « كنت يومها عند الخيمة التي هي تحت (أم الخنادق) من جهة الجنوب ، فأصابني كرب شديد وخوف على الإخوة الذين هم في الأعلى . في هذه الأثناء كان معي جهازان للاسلكي يتصل كل منهما بمجموعة على موجة معينة حتى لا يسمع بعضهم عن إصابات البعض الآخر فيتأثروا معنوياً ، وإذ بأحد الجهازين يلتقط أن أحد الإخوة قُتل عليه رحمة الله وأصيب أخ آخر ؛ كان مسؤول السلاح الثقيل هو أخونا أبو برهان في المأسدة ومعه أخونا أبو خالد القطري مساعداً له ، فبلّغناهم أن الأخ الذي قتل يُترك إلى أن يخف الضوء ويُسعف الجريح ، وما أحببنا أن نسأل من الذي قُتل ومن الذي جُرح حتى لا يعلم الإخوة الآخرون فيتأثروا بذلك .. وعلى هذه الحال إستمرينا .. » .

* * *

على خط المواجهة الأول .. وحيث توزع الإخوة حسب المواقع المحددة أو قريباً منها كانت الفوضى لا تزال هي السائدة ! وكان واضحاً أنْ ليس ثمة من استعد لساعة الصفر التي دخلت بالفعل الإستعداد المطلوب . يقول أسامة : « بدأ قصف الهاون .. وبدأت الربكة .. كان هناك شباب لا يعرفون أين هم .. مثلاً مجموعة (الدشكا) لم تكن تعرف أين مكانها .. أين هو الأصبع الخامس ! وربما يصل واحدهم (تشاوني) ولا يدري أين هو !! هذا الوضع تسبب بإرهاق شديد للشباب الذين يعرفون المنطقة : روح مع فلان .. وتعال مع

فلان .. حتى أن أبا الذهب في ذلك اليوم أرهق إرهاقاً شديداً لدرجة أنني كنت أناديه فلا يرد عليّ من تعبه .. على غير عادته ، أما شفيق فكان يرص الصواريخ ولم يكن يحمل إلا المسدس ، وفوجئ بأفواج الإقتحام طلعت وأخذت مواقعها وكان هو ضمن مجموعة الإقتحام .. فلم يكن يدري ما الذي يفعله ، وأنا لما رأيت (كلاشنكوف) شفيق تحت أخذته مع (كلاشنكوفي) وأخذت (آر . بي . جي) على أساس أننا كنا خططنا أنا وأبو الذهب نطلع ونزحف حتى نصل مناطق نعرفها فنقبع فيها ونضرب بـ (الراكيت) والآخر يرش وواحد يفتح الثغرة ونضرب الحارس في البرج من منطقة قريبة حتى يتم قتله بإذن الله ، وإلا فلا يستطيع رفع رأسه حتى نفتح الثغرة ثم نقتحم عليه فنقتله ، ثم نخبر الإخوة أننا فتحنا الطريق ، فإن كان عندهم قوة أتوا إلينا لنؤمّن لهم طريق الوصول .. وكنت قد خططت مع مجموعة الإقتحام الإحتياطية واتفقت معهم على هذا الأمر ، فلما طلعت فوق وجدت الشباب جالسين ما عندهم عمل مثل أبي حفص الشهيد رحمه الله وأسد الله وأحمد شاه الأفغاني فأخذتهم معنا ، وكان معنا البيشي والله أعلم فأصبحنا ستة .. » ويضيف أسامة : « بدأ المجاهدون بالقصف الشديد على مواقع العدو بينما توقف القصف عن الناحية التي نحن فيها حتى نتقدم ؛ جلسنا ننتظر الأوامر ونحن متأهبون .. وفي هذه المنطقة التي نريد أن نقتحم منها كان هناك شباب أصلاً لتفجير صواريخ (البي . إم) منهم أبو هاجر وأبو خالد الجزائري وآخرون .. فاتصلنا بهم وعرّفناهم بوجودنا في المنطقة وباستعدادنا لفتح الثغرة وأن مهمتهم إسنادنا في ظهرنا » ويتابع : « كنا قد سيطرنا تماماً على المنطقة التي أمامنا .. وقسّمت الشباب وكانوا جيدين ويعرفون الموقع جيداً .. ووضعنا خطة جميلة للإقتحام ، فكان (للبنغلور) الذي أعددناه للتفجير أكثر من صاعق حتى إذا لم ينفجر الأول إنفجر الثاني وهكذا .. ومع ذلك كنت قد أخذت أكثر من إحتياط ، فإذا لم ينفجر نهائياً كان هناك طريق بين البوستات نستطيع أن نعمل من خلاله أي شيء ؛ في تلك الأثناء إتصل أبو خالد المصري يسأل عن التغطية النارية ، فحتى ذلك الوقت لم تكن المجموعة المكلفة بالتغطية قد أخذت مكانها ولم تكن الذخائر قد وصلت بعد ! وعندما أخذ الشباب بالزحف صعوداً على التباب مع اشتداد القصف البعيد .. ولما لم تكن هذه التباب مغطاة جميعاً بالشجر وكان القصف على العدو مستمراً من جميع الجهات باستثناء هذه المنطقة التي يتقدم الشباب منها .. فهم العدو الخطة بالتأكيد ، لكنه لم يعد يستطيع عمل أي شيء ضدها لأنه أصبح تحت الكماشة .. غير أنه لما رأى زحف الشباب – بتقديري – رمى عليهم .. وعلى الرغم من ذلك لم يطلق الإخوة أبداً لأن الأوامر جاءتهم بعدم الإطلاق .. حتى أن الأخ أبا دجانة السوري كان خلف شجرة قريبة جداً من حدود العدو ، فضرب الجنود عليها بـ (الزيكوياك) من قرب وبشدة .. فاحترقت أمامه دون أن يتحرك ، ووقتها ظن الشباب أنه قتل ! في هذا الوقت .. وعندما رأى أبو خالد أن الأمر لم يتم قدّر أن الإنسحاب أولى ، وبدأ يطلب من الشباب أن ينسحبوا .. وفي ذلك الوقت أصيب الأخ أبو محمود .. » .

* * *

كان أبو محمود قد تقدم ضمن مجموعة الإقتحام ووفق الخطة المعدة للهجوم حتى لم يبق بينهم وبين العدو إلا أمتاراً لا تزيد عن الثلاثين .. وفي اللحظات التي كانوا يستعدون فيها للإنقضاض على الهدف فوجئوا وكأن جند العدو في الموقع كانوا لهم بالإنتظار ! يقول أبو محمود : « أكرمني الله بأن أكون ضمن مجموعة الإقتحام التي كان أميرها أبو حفص وكنا معه أحد عشر أخاً تقريباً أذكر منهم أبا ماهر السوري وأبا دجانة السوري وأبا سهل المصري الشهيد وأبا عبيدة اللحام ، وكان مقرراً أن يكون الأخ شفيق معنا – رحمه الله – لكنه ضاع عنا منذ البداية ولم يلحق بنا .. » ويتابع : « عندما نزلنا إلى المنطقة القريبة من الهدف ولم يبق بيننا وبين العدو أكثر من ٢٥ – ٣٠ متراً كان الحارس متأهباً تماماً قبل أن نطلق أي طلقة .. وبمجرد أن لمح أبا حفص أعطاه طلقة ، فقال أبو حفص : لقد رآنا الحارس ، وأعطانا أمراً بالإنبطاح فاختفينا بين الأشجار ، ولما حاولنا التقدم مرة أخرى رأينا الرصاص فوق رؤوسنا .. الأمر الذي أشعرنا بأن أخبارنا قد وصلت للعدو من قبل ! وخلال هذه اللحظات ، وبينما كان القصف البعيد قد بدأ على الوادي حيث بوستات العدو الأخرى .. أخذنا نتلفت بانتظار أن تبدأ مجموعات الفتح التي معنا بإطلاق الصواريخ على (أم الخنادق) و (النايمة) تمهيداً لإقتحامنا عليها .. لكن ذلك لم يحدث ؛ ومع إشتغال (الكلاشنكوفات) علينا من العدو كان هناك رشاش (جرينوف) على يسارنا لم يكن لدينا علم بوجوده من الترصد .. أصبح يمشط المنطقة التي تجمّعنا فيها .. حتى احترق الشجر الذي تسترنا وراءه .. ووالله لقد رأيت بعيني الشجرة التي كانت أمامي وأبو دجانة يستر رأسه وراء جذعها مباشرة وهي تحترق ! أما أنا فكانت رجلي ممتدة على طرف التبة فأصابتها طلقتان من العدو .. وعندما أحس الإخوة بإصابتي جاءوا عندي وربطوا لي النزيف وسحبوني للخلف أسفل الجبل حيث كان أبو عبد الله وأبو الحسن المدني يتابعان التطورات .. وينتظرون من الإخوة تنفيذ أمر الإنسحاب » .

.. ومن جانبه يختصر أبو حفص – قائد مجموعة الإقتحام – الأحداث كيف ابتدأت .. وكيف آلت في النهاية إلى قرار الإنسحاب .. ويقول : « تم التحرك منذ البداية بطريقة خاطئة حينما تحركت مجموعة الإقتحام قبل مجموعات الستر (التغطية) .. وفي الوقت الذي لم تصل الذخائر إلى مجموعات التغطية وصلت مجموعة الإقتحام على بُعدٍ قريبٍ جداً من بداية حقل الألغام لا تجاوز ١٥ – ٢٠ متراً .. لكن وبالرغم

من إكتشاف العدو للتقدم من قِبَل بعض المجموعات الأخرى وبدأ عملية تمشيط للمنطقة كلها أخذنا خلالها الأرض لفترة طويلة .. إلا أن إمكانية كبيرة كانت هناك لتنفيذ الإقتحام لو تمت التغطية من قِبَل مجموعات التغطية وإسكات مصادر النيران .. وهو أمر لم يحدث ! » ويتابع أبو حفص : « .. وهكذا صدر أمر الإنسحاب من قائد العملية أبي خالد الذي استشارني في الأمر فأوكلت إليه القرار نظراً لعدم معرفتي بالموقف كله .. » يقول أبو خالد : « حينما بدأ القصف المدفعي وقمت بأخذ تمام على القوة النارية المتوفرة لدى مجموعات الستر الثلاث وجدتها أقل من نصف المقرر في الخطة ، فأيقنت - كرجل عسكري - أن الإقتحام في ظل هذه الظروف سيؤدي إلى وقوع خسائر كثيرة بين مجموعة الفتح التي أعتبرها من خيرة الشباب العربي الموجود في أفغانستان ذلك الوقت .. فاتصلت بالشيخ أبي عبد الله وأخبرته أن الأفضل عسكرياً سحب المجموعة ، فأجابني بأن أفعل الأصلح ، فتشاورت مع أبي حفص فقال : إفعل ما ترى .. فقررت سحب المجموعة ، وصدر قرار الإنسحاب باستخدام الأرض ودخول الظلام .. » .

يقول أبو الحسن المدني : « كان تقدير الأخ أبي خالد قائد المعركة أنه من غير الممكن إتمام العملية الليلة ، وأن إنسحاب الإخوة هو الأفضل ، لكن قضية الإنسحاب تحت القصف الشديد هي في حد ذاتها عملية ! كيف تستطيع سحب الإخوة كلهم من الخطوط الأمامية مع الحفاظ على سلامتهم ؟ والحقيقة أنا أرى بأن الله سبحانه وتعالى ألهم أبا عبد الله الكثير في ذلك اليوم ، فأبو عبد الله لم يتدخل أبداً في قضية الهجوم لأن أبا خالد كان يتولى هذا الأمر ، لكن وفي الساعة التي قرر فيها أبو خالد والإخوة الإنسحاب تكفّل أبو عبد الله بمتابعة العملية .. وأنا تعرفت - حقيقة - على شخصية جديدة بأبي عبد الله تلك الليلة برغم معرفتي به واحتكاكي معه من قبل عشر سنوات .. الرجل كان عنده حس أمني وقدرة على المتابعة ، ولسانه ذاكر بصورة تؤهله بالفعل ليقود عملية جمع الإخوة وإيصالهم إلى المعسكر .. » .

.. ويقول أبو عبد الله : « طلبتُ من الإخوة أن يرجعوا بسرعة ويتقوا ضرب العدو عليهم بالهاونات والسلاح وأن يتركوا القذائف الثقيلة حرصاً على سلامتهم ، لكن الموقف إزداد خطورة لأن بعض المجموعات كانت متقدمة جداً ولم ترد علينا بالجهاز ؛ كان أخونا أبو خالد ينادي : يا فتح واحد ، يا فتح واحد .. فلا تجيب . مجموعة أبي عبيدة أيضاً كانت لا تجيب ، ومجموعة أزمراي وأبي الدهب لم تجب كذلك .. فتعبنا جداً من الناحية النفسية ، لأن الأخ المجاهد لا يشعر بالكرب كثيراً متلما يشعر به الأخ المسؤول عنه ، خاصة وأننا لم نألف تحمل مسؤولية دماء وأنفس بهذا الحجم .. غير أننا كنا نُكثر من لا إله إلا إنت سبحانك إنا كنا من الظالمين ، وما زال يرجع الإخوة حتى رجع أبو الدهب يرحمه الله ، وعندما لاحظ قلقي الشديد على أبي عبيدة والمجموعة التي معه - وكانت فتح ٥ وفتح ٦ قد إنضمتا إلى بعضهما ومعهما أخونا أبو حنيفة

واستمروا في عدم الرد – فقال لي : أنا أذهب وأبحث عنهم . قلت له : لا .. نحن ما صدّقنا أنك رجعت ورأيناك . بعدها قالوا لي : أخونا أبو محمود أصيب لكن الإصابة بسيطة ، قلنا : الحمد لله وتركنا معه إثنين من الإخوة أو ثلاثة على فرس حتى وصلوا إلى المأسدة ، ومن هناك نُقل إلى المستشفى .. أما نحن فاستمرينا حتى الحادية عشر ليلاً تقريباً ، وكان معنا أخونا أبو الحسن وأبقينا سبعة فقط من الإخوة الذين يعرفون المنطقة جيداً هناك ، ورجعت كل المجموعات باستثناء مجموعة أبي عبيدة فتح (٥) وفتح (٦) ، ومن فضل الله سبحانه وتعالى ومع الساعة الثانية عشر تقريباً إلتقطنا صوتهم ، وتبين أنهم ذهبوا من طريق آخر خلف الجبال فالتقينا بهم وصعدنا المأسدة جميعاً » وفي هذا الصدد يقول الأخ البتال أحد أفراد مجموعة فتح ٦ التي تاهت إلى قبيل منتصف الليل : « كنت مشاركاً مع مجموعة (الدشكا) في حماية الإقتحام .. كان أميرنا أبو حنيفة وكان معنا أبو محمد اليمني – وهو رجل كبير في السن – وعندما اشتد القصف وتقدمت مجموعة الاقتحام أصيب ابو محمود ، وكنا نرى أعداء الله وبيننا وبينهم أقل من مائة متر لكن الأمر أتانا بعدم الإطلاق .. ثم جاءنا أمر آخر بالإنسحاب فانسحبنا ، لكننا ضعنا في تلك الجبال حتى الثانية عشر ليلاً حيث تقابلنا مع مجموعة أبي عبيدة وكان معه منصور المصري رحمه الله وأبو حنفي وأبو صهيب المصري أيضاً .. ومع مجموعة أبي عبيدة رجعنا سوياً إلى المأسدة .. » ومن جهته يتابع الأخ شفيق رحمه الله الحديث عن مشاهداته وقتذاك .. ويقول : « كانت مهمتي فتح ثغرة مع المجموعة على البوستة الثانية (النايمة) .. وعندما بدأت المعركة أسرعت للبحث عنهم بالمنطقة المحددة فلم أرهم لأنهم كانوا مختبئين خلف الاشجار وكان الضرب شديداً فظننت أنهم لم يصعدوا بالمرة وقلت لعلهم لا يزالون تحت في الخيمة أو في الطريق لم يصلوا بعد فأصبحت أناديهم ، لكن الضرب بدأ والمنطقة قريبة من العدو ، وعندما سمعت صوت (كلاشن) و(آر . بي . جي) قلت لعل الإشتباك بدأ بين الشباب والعدو . فتقدمت ولم يكن معي إلا المسدس فقلت لنفسي : حتى لو أفتح الثغرة وأدخل بعدها ولو بمسدس أو أشاهد أحداً جُرح أو استشهد من الشباب فآخذ سلاحه وأدخل .. لكنني لم أر أحداً في المنطقة وفق الإتفاق ، فرجعت وبدأت أبحث في الخلف عنهم فلم أجدهم أيضاً .. وفي الأخير وجدت حسين الليبي الشهيد رحمه الله فقال لي : ربما لا يزالوا تحت مع أبي عبد الله في الخيمة لم يطلعوا .. فأسرعت إلى هناك ورأيت أبا عبد الله فسألته عنهم فقال لي : ما زالوا لم ينسحبوا .. فقدّرت أنهم ما زالوا كامنين فوق والضرب عليهم وقلت لأبي عبد الله : أنا طالع لهم . لكنه قال لي : لا تطلع هم سيأتوا وسينسحبوا فانتظرت معه ؛ وأخبرنا أبو عبد الله : أي واحد يأتي من فوق تأمروه بالعودة إلى المأسدة قبل الظلام ، فكان كل من يأتي من الشباب نخبره وكان بعضهم يغضب من ذلك .. ونحن بهذا الحال جاءنا خبر بالمخابرة أن أحد العرب استشهد ما عرفنا من هو لكننا أحسسنا أنه أحمد الزهراني .. أسامة بالأخص أحس بهذا الإحساس وقال لي : هوأحمد . فقلت له : ما أدري .. لم يخبرونا .. وبتنا تلك الليلة بعد توقف القصف ستة أشخاص في الخيمة تحت وصعد بقية الشباب جميعاً .. » .

يقول أسامة : « قبيل المغرب أتانا الأمر بالإنسحاب ، وفي رأيي لو أن الشباب استمروا عشر دقائق في الإطلاق على الشيوعيين المحاصرين لكانوا استسلموا لا محالة حتى بالعدد القليل ولفتح الله عليهم ، فالشباب كانوا مقسمين تقسيماً جميلاً ، وكانت هناك مجموعة تكشف فتحة انسحاب العدو وتستطيع رؤية أي واحد منهم ينسحب وتقتله ، لذلك فضلت أن أكون آخر من ينسحب ، وقلت لأبي خالد : إنني سأبقى فترة حتى يخيم الليل تماماً .. فقال لي : لابأس ، إعمل ما تراه . كنا نفكر أن نعمل شيئا أنا والمجموعة التي معي ، لكن خشية الإثم من مخالفة الأمارة منعتنا ، وعندما جاءت الأوامر بشكل صريح أن انسحبوا حتى لا تكونوا آثمين بدأنا ننسحب الساعة التاسعة ليلاً ، وعندما وصلنا إلى أسفل (عند الخيمة) كان الشباب قد بدأوا الإنسحاب إلى المأسدة .. وفي الليل جاءنا خبر أن هناك شخص استشهد لم يقولوا إسمه وقتذاك ، ولكن وقر في قلبي أنه أحمد الزهراني وقلت لهم ذلك فقالوا : الله أعلم ! فقلت لهم : أنا أظن أنه الزهراني ، وما أظن أن أحداً غيره استشهد .. وقع ذلك في قلبي لأني عندما رأيته في الصباح كان يكلمني بطرقة هادئة ورأيت بوجهه شيئاً آخر ما ألفته فيه ، فلما سمعت باستشهاد أحد الإخوة عرفت أنه هو مباشرة .. وفعلاً جاء الخبر في الصباح أن أحمد الزهراني قد استشهد .. » .

* * *

كان الشهيد أحمد الزهراني واحداً من أفراد المجموعة التي تقرر إبقاؤها في المأسدة لتشارك في إسناد المهاجمين على الجبل المجاور حيث تقبع (أم الخنادق) و (النايمة) بالهاونات .. وبالمدفعية عديمة الإرتداد ، وكان موقع « بدر » .. حيث يؤمّن إمتداده الطبيعي ميزة إيجابية للرماية وللترصد معاً .. كان هو الموقع الذي نُصبت فيه مجموعة الهاونات .. ومنه كانت المشاركة بالقصف البعيد . يقول الأخ أبو برهان : « أتيت المأسدة قبل معركة شعبان بفترة ونحن على علم بها .. وتسلمت الإشراف على رماية المدفعية في كل الموقع .. ووقتذاك كانت لدينا أربع مدافع هاون ٨٢ ومدفع ٨٢ مم عديم الإرتداد وآخر ٧٥ مم عديم الإرتداد أيضاً ، فوزعنا ثلاثة من الهاونات على الموقع أمام المأسدة وكنت وقت العملية هناك معها ، وفي الجبل الذي بجانبه وضعنا مدفع ٨٢ الذي استشهد عليه الزهراني .. وعلى بقية المدافع الأخرى وزعت من بقي من الإخوة » ويتابع أبو برهان : « كان الزهراني يتحرق للمشاركة في المعركة وكنت معارضاً لصغر سنة حتى أني لم أكن أريد إرساله من (صدى) لكنه غافلني وجاء (٥) فلما رأيته هناك لم أقل شيئا .. ووضعته أميراً على المجموعة التي معه وحددت له الرماية .. وفي الساعة السادسة والربع تقريباً بدأنا في الرماية متأخرين ..

وبعد خمس أو عشر دقائق استشهد الزهراني بشظية من قذيفة دبابة أتته وكان معه يحيى المصري وآخر سعودي لا أذكر اسمه الآن أصيب أيضاً بالشظايا (٦) .. وعلمت بالنبأ بعد ثلث ساعة تقريباً بالمخابرة فأعلمت أبا عبد الله باستشهاد أخ وإصابة آخر دون أن أذكر له الأسماء ، وبعد وصول الجريح عاد ومعه اثنان من الأفغان ليدلهما على المكان ، حيث أمرت يحيى بالبقاء عند الشهيد ، فأحضروه في الواحدة ليلاً .. » .

كان أحمد بن عبد الله الزهراني – أول شهداء العرب في الموقع – قد عاصر المأسدة من أيامها الأولى ، وبابتسامته الآسرة ودعابته البريئة وصوته الشجي نفذ أحمد « أبو الليث » إلى قلوب إخوانه وتمكن منها ، فكان بتلاوته الندية إمام غرفة الطائف المحبب ، وبنشيدة العذب وسيلة الترويح المختارة لمن حوله .. يقول الشيخ تميم رحمه الله : « كان أحمد يسمى منشد الطائف . كنا معاً في غرفة الطائف بالمأسدة ، وكنت أحبه كثيراً ، وكانوا كلما صلينا الجماعة يحاولوا أن يقدموني للإمامة فأصر أن أقدم أحمد الزهراني لأستمع إلى قراءته الطيبة بصوته الجميل .. » وكأنما كان أحمد يتنسم في أواخر أيامه بالفعل دنو الشهادة منه فيتهيأ لها ويتحدث عنها استعداداً للقاء المنتظر . يقول الدكتور عبد الله عزام رحمه الله (٧) : « قبل العميلة بيوم كنت معهم وبتّ عندهم . وحدثني أحد زملائه الذي حرس معه أن فترة الحراسة ليلة الجمعة (أي ليلة العملية) قضاها بالتهجد » ويضيف د. عبد الله : « وحدثني أبو فيصل : رأيت أحمد قبل شهر فأهداني مصحفاً وقال : بشرط أن تدعو لي بالشهادة كلما فتحته للتلاوة .. وفي صباح الجمعة .. مرّ على شباب يتحدثون ويمزحون فقال لهم : إشتغلوا بذكر الله . وقال لآخرين : اليوم الجمعة لا تنسوا قراءة سورة الكهف . كان أحمد يحس – والله أعلم – أن هذا اليوم قد يكون آخر عهده بالدنيا فودع أخاه أبا حذيفة – من الطائف – قائلاً : سلّم على والدي فإني اليوم شهيد .. » ويتابع د. عبد الله : « .. ومضت الجموع ، وفي ساعة الإستجابة يوم الجمعة في السادسة مساء انفتحت النيران من كل مكان ، وبدأت أرقب العملية والنيران تحرق مراكز العدو وتلتهم بألسنتها المتطاولة قواعدهم ، وكان أحمد في النقاط المتقدمة يرقب رماية مدفع ٨٢ ويطل على أماكن سقوط القذائف ويطلق أحياناً على المدفع ، وانطلق إلى الأمام ليشفي صدره باحتراق أعداء الله وصاح (خوب) أي ممتاز ، ومع غروب بشمس يوم الجمعة انقطع صوت أحمد وناداه إخوانه ولم يرد عليهم ، واقترب يحيى من أحمد فوجده مضرجاً بدمائه معفراً بالتراب .. » ويسجل الشيخ تميم العدناني رحمه الله المشاهد الأخيرة من حياة الزهراني في معركة شعبان فيقول : « كنت خامس خمسة على مدفع هاون متقدم أنا وأبو حمزة الأمريكي وعبد العزيز التركستاني الذي يسمونه أبا حذيفة السعودي واثنين آخرين .. وكان الشهيد أحمد الزهراني يرحمه الله على مدفع ٨٢ أسفل مني قليلاً وشاهدته وهو يودع الشباب وأنا ودعته فيمن ودعهم الساعة الثانية ، واستشهد في الساعة السادسة رحمه الله .. » ويضيف الشيخ تميم : « كان أميرنا على الهون أبو حذيفة ، ورمينا أكثر من مائة طلقة على الأعداء كانت معظمها في الهدف والحمد لله ، كنا

نرمي على البوستة الأولى وكان كل مدفع مخصص بعدد من البوستات ، حتى الشيخ عبد الله عزام كان معنا أيضاً واشترك في الرمي على الهاون .. أما استشهاد أحمد فما رأيته في الحقيقة ، لكن وبعد انصرافنا وتعتيم الظلام إذ بالإخوة يتحدثون أن أحمد استشهد .. » ويتابع الشيخ عبد الله الذي عاد مع الشيخ تميم إلى غرفة تحت الأرض وسط المأسدة .. يرافقهما الشيخ سياف وقد شارك في مراقبة ما يجري ومتابعة المستجدات قبل أن يعود مع حلول الظلام إلى مركزه قرب الحدود) [٨] .. يتابع رحمه الله يروي تفاصيل أكثر عن استشهاد الزهراني فيقول [٩] : « وصل الخبر .. ونحن ننتظر أنباء المعركة عن كثب بأن أحمد على مدفع ٨٢ قد استشهد ، وانفجر أبناء الطائف باكين لأنهم يعرفونه منذ نعومة أظافره ، ثم بدأ الشباب يهنئون بعضهم بعضاً باستشهاده ويتمنون أن يلقوا الشهادة ويتقبلها الله منه ومنهم .. واصطف الشباب يطالبون بإحضار الجثة في بهيم الليل الداجي والقذائف تمطر المنطقة بوابل نيرانها ، وأصروا على إحضاره ليودعوه فقلنا لهم : من الخطر الآن أن نتحرك بسبب عدم وضوح الطريق ولأن المعركة شديدة ، وكذلك فإن السنّة أن يُدفن القتلى في مصارعهم .. وتحت قذائف نيران العدو وفي جنح الظلام تسلل بعض الشباب ليحضروا جثة أحمد فوجدوه مبتسماً كحالته التي فارق عليها الحياة » ويضيف الشيخ عبد الله رحمه الله : « .. ويشهد لي أبو حذيفة أنه شم رائحة طيبة تخرج من جسده .. وهناك ومقابل الغرفة التي كان يقيم فيها أحمد أثناء رباطه حُفر الجدث وحمله أبو حذيفة ليواري جثمانه الطاهر في التراب ويخلي بينه وبين رب العالمين ..» لكن أمين حدثني رواية أخرى عن دفن الشهيد الزهراني فقال : « في الصباح قال لي أبو عبد الله تبقى عند الشهيد أحمد الزهراني حتى لا يتأثر الإخوة فبقيت هناك .. وكان بعض الإخوة يتأثر جداً فيرتمي عليه ويبكي فأهدئ فيه وأكلم الآخرين ليحملوه عنه .. كنت أسمح لكل أخ يأتي أن يسلّم عليه ويذهب ليراه الوداع الأخير .. بعدها قال لي أبو عبد الله : تعال نحفر القبر ، فحفرناه ثلاثة أو أربعة إخوة ، ثم دعونا له ودفناه .. » ولعل أبا حذيفة كان أحد الذين شاركوا في الحفر وفي الدفن .. ولعل الشيخ عبد الله رحمه الله ظن أن الدفن كان ليلة استشهاده .. حيث نقل التفاصيل – كما يبدو – عن أبي حذيفة دون أن يشهدها مباشرة .. والله أعلم .

هوامش

(١) « خرشتل » : مركز للعدو جنوب غرب المأسدة وعلى بعد عدة كيلو مترات من قلعة « تشاوني » .

(٢) في حقيقة الأمر كان أبو عبد الله قد أرسل يوم الإثنين الموافق للثامن من شعبان ١٤٠٧ رسالة إلى الأستاذ سياف قال له فيها : « .. نحن بانتظاركم من أجل العملية علماً أننا إن شاء الله سنكون مستعدين استعداداً تاماً للبدء بعد أسبوع من اليوم الإثنين .. » وقد أجاب الأستاذ سياف معتذراً عن تأخره وقال :

« .. سأكون عندكم إن شاء الله يوم الأحد .. » والذي يتضح من الرسالتين اللتين اطلعتُ عليهما بنفسي أن الأستاذ سياف كان وقتها في إسلام آباد على الأغلب أو ربما في بشاور ، وكان بدهياً أن يُفهَم من رسالة أبي عبد الله إستعداد العرب للمعركة يوم الإثنين القادم .. ومن ردّ سياف بأنه قادم يوم الأحد وقد اكتمل الإعداد .. ودنت ساعة الصفر .

(٣) « قضيب البنغالور » :

حشوة نظامية تتألف من أنبوب معدني محشو بالمتفجرات القاصمة ، يستخدم لفتح الثغرات في الأسلاك الشائكة أو حقول الألغام أو في أعمال التخريب المتعددة ، ويبلغ طول الأنبوب المعدني ٥ر١ - ٢ متر وقطره ٥ - ٦ سم ووزنه ٦ - ١٠ كغم . يؤدي إنفجار القضيب تحت شبكة الأسلاك الشائكة إلى فتح ثغرة بعرض ٣ - ٥ متر خالية من الأسلاك والأفخاخ والألغام المضادة للأشخاص .. ويؤدي إنفجار البنغالور الممدود وسط حقل الألغام إلى فتح ثغرة خالية من الألغام المضادة للدبابات بعرض ١ - ٥ر١ متر . أنظر : « الموسوعة العسكرية » - ج١ - صـ٢٠٥ - ٢٠٦

(٤) يذكر الأخ أبو محمود « أن حوالي ٥٥ أخاً جاء إلى المأسدة من (صدى) إجابة لنفير المعركة مع الشيخ عبد الله وأبي برهان اللذين كانا قد وصلاها قبل يوم من الموعد المحدد للعملية ، وبذلك أصبح عدد الموجودين ١٢٥ أخاً تقريباً ، بقي منهم ٥٥ - ٦٠ في القسم الخلفي ونزل البقية إلى موقع الهجوم » .

(٥) لم يكن أحمد الزهراني ليجاوز التاسعة عشر من عمره حسبما روى الأخ أبو أنيس ، وكان قبل حضوره للجهاد في رجب عام ١٤٠٦ طالباً في المعهد العلمي بالطائف ، تدرب مع بداية وصوله في « ميران شاه » على معظم الأسلحة الموجودة لدى المجاهدين ثم دخل إلى « خوست » واشترك في عملية على إحدى حامياتها ، لينتقل بعد ذلك إلى معسكر « صدى » برفقة شقيقه الأكبر أيام شهر رمضان .. وفي أواخره ذهب لزيارة أهله ليعود وقد استفتحت المأسدة أيام وجودها الأولى فألتحق بالركب ، لا يفارقه مرحه المميز وصوته العذب وصبره الملحوظ وشجاعته المجربة .. ومداومته على خدمة إخوانه وعلى قيام الليل .. وكان يستعد أواخر أيامه للمضي إلى قندهار سعياً وراء المعارك ، لكن تنشط المأسدة عسكرياً أبطأ به ، حيث قدّر له نوال الشهادة التي طالما تمناها . يقول أبو أنيس : « رأيته يوم العملية التي استشهد فيها وكان شكله جميلاً في غير الشكل الذي أعرفه به ، كنت أراه يسير بخفة وكأنما تخلص من شيء من جاذبية الأرض .. محمرّ الخدين كأن لهما لون التفاح .. وهذه الكلمات ليست غزلاً بل حقيقة رأيتها وهو يذهب وأنا أتابع النظر إليه حتى اختفى عن عيني .. » وفي وصيته التي أرسلها رحمه الله قال : « لا تحيدوا عن الطريق .. ولا تذكروا إسمي فالله أعلم بي منكم » . أنظر : مجلة « الجهاد » - العدد ٣٠ - صـ١٦ - ١٩ ومجلة « البنيان المرصوص » - العدد ١٣ - صـ١٤ إضافة لأحاديث إخوانه عنه في بشاور .

(٦) يذكر الأخ أبو محمود أنه بعدما نُقل إلى المأسدة إثر إصابته وجد جريحاً آخر هناك هوالأخ إدريس السعودي .

(٧) مجلة « الجهاد » – العدد ٣٠ – رمضان ١٤٠٧ – مايو ١٩٨٧ – صـ١٨

(٨) حسبما رواه الأخ أبو محمود الذي قال بأن الشيخ عبد الله والشيخ تميم والشيخ سياف كانوا يطلون على العملية من جبل عال في المأسدة ، وأنهم أرادوا أن يسحبوا أبا عبد الله معهم أيضاً ليشرف على العملية من بعيد لكنه أبى إلا أن يتقدم ..

(٩) مجلة « الجهاد » – العدد ٣٠ – صـ١٨ – ١٩

الأنصار العرب (٣٣)

تكبيرات عربية فوق السحاب !

كان الشباب العرب صبيحة اليوم التالي من معركة شعبان كخلية النحل في المأسدة .. فالإستعداد لردٍ متوقع من العدو بعد أحداث الليلة الماضية كان يقتضي اتخاذ إجراءات إحتياطية غير عادية .. والثغرات التي انكشفت ، والخلل الذي تبدى أثناء الهجوم كان يقتضي كذلك المسارعة لتدارك ما حصل والإستفادة مما وقع ومما لم يقع ! وفي زخم المشاعر والإنفعالات والمستجدات المتداخلة كان قرارأبي عبد الله يومذاك بتوسيع رقعة الوجود العربي في المنطقة .. واتخاذ موقع استراتيجي جديد .. ومتفرد يحمي ظهر المأسدة ويؤمّن للمجاهدين مركزاً متفوقاً للرصد وللمراقبة لعب دوراً بالغ الأهمية خلال معارك الأيام التالية القريبة .. في رمضان وشوال . يقول أمين : « كنا صبيحة اليوم التالي نتوقع ردة فعل قوية من البوستات لأن ما حدث كان أول إثبات للمأسدة ، فكنا قد جهزنا من الليل لإخلائها إلا من العناصر المهمة ، وبالفعل أخلينا بعد رجوعنا مباشرة جزءاً من الإخوة وأعدناهم للعرين ، وفي الصباح أخلينا الجزء الآخر فما بقي إلا قليل من الإخوة ، فقد كنا نتوقع قصفاً بالسلاح الثقيل وبالطيران علينا ، وبفضل الله عز وجل لم يحدث شيء من ذلك » .. ولكن إلى حين كما تبدّى ، فأمين الذي غادر فور ذلك إلى « قباء » – الموقع الجديد الذي توسع أبو عبد الله بوجود العرب إليه – لم يشهد – كما يبدو – أول قصف جوي على المأسدة أو على أكنافها .. يقول أبو الرضا : « كان أمراً غريباً ألا يقصفنا العدو بالهاون أو بغيره طوال تلك الفترة أبداً .. لكن ومع نهاية شعبان تلقينا أول قصف بالطيران على المأسدة ، فأسقطوا علينا قنابل عنقودية لكن الله ستر ولم يُصَب أحد أبداً .. » ومن جانبه يقول أبو حفص : « كنت مقتنعاً بمعرفة العدو لمكاننا ولوجودنا من بداية إنشائه مباشرة لأن منطقة (جاجي) مليئة بالمنافقين ، لكن لم يحصل قصف شديد بالطيران إلا بعد معركة شعبان .. وأظنه كان على المنطقة التي فوق (القيادة) حيث كان يشتغل (البلدوزر) وعلى الساحة أيضاً » .. ويقدم البتال شهادة إضافية عن أول قصف للمأسدة بالطيران فيقول : « لا أذكر تاريخ القصف بالتحديد ، ولا أدري هل كان المقصود به المأسدة بعينها أم موقعاً آخر ، لكن الطائرات كانت تحوم فوق المأسدة ، وكان القصف كذا مرة .. وكانت تنزل مع القنابل صفيحة معدنية .. نزلت إثنتان على بعد ٥٠ – ٧٠ متراً من (غرفة الطائف) .. » .

.. ويتابع الأخ أمين رواية يوميات المأسدة بعد معركة شعبان .. ويقول : « كان أبو عبد الله يرى ضرورة أن يكون للعرب مركز في (جبل قباء) ، وكان قد أرسل الأخ أبا العتاهية من قبل إلى هناك لينظر الوضع مع المجاهدين الأفغان ، فبقي معهم وحيداً حوالي أسبوعين كان يذهب خلال ذلك ويعود .. وبعدما دفنا الشهيد أحمد الزهراني في الصباح طلب أبو عبد الله منا أن نطلع (قباء) ونكوّن مركزاً لنا .. فودعنا الإخوة وطلعنا .. » .

كان تأسيس موقع للعرب في « قباء » .. ذلك الجبل الإستراتيجي الذي يعلو خلفية المأسدة بعشرات الأمتار القرار الأول الهام لأبي عبد الله صباح يومئذ .. وكان قراره التالي الموافقة على استمرار العمليات العسكرية على العدو في الوادي مستفيداً من تجربة الأمس ومن نوعية من الشباب منتقاة .. وبكيفية محسنة . يقول أسامة « أزمراي » : « .. في اليوم الثاني عدنا لنجمع الأسلحة والذخائر التي تركها الشباب وندفنها في أماكن معلومة لدينا . خلال ذلك حضر القومندان كوتشاي وقال لنا بعد أن شاهد الوضع : إن المكان خطير هنا (في خيمة الترصد) والمنطقة مكشوفة للعدو ولا بد أن ترجعوا .. فنحن قلنا له إن شاء الله يكون خيراً ، بعدها اتصلت بأبي عبد الله وقلت له : نحن نريد أن نناوش العدو وأن نضرب أهدافاً معينة فنخربها عليهم ونرجع بالمجموعة الصغيرة الموجودة هنا .. فقال لي : طيب . فما أن بدأت أجهز الموضوع حتى اتصل وقال لي : أريدك في شيء فاحضر .. فالشباب كانوا متخوفين أنه إذا استدعاني فسيقنعني أن لا داعي للبقاء .. فلما طلعت وأثناء مسيري نحو المأسدة اتصل أبو عبد الله بالشباب وقال لهم ارجعوا ويبقى فقط شفيق وأبو الدهب .. فرجعوا ، لكنني عندما قابلت أبا عبد الله أقنعته فأعطاني الإذن ، فاتجهت نحو (بدر) في طريق عودتي لأجد الشباب رجعوا إليها وكانوا بحالة نفسية محطمة ، فأمرتهم في نفس اللحظة بالرجوع ، وسبحان الله ومع أنهم كانوا منهكين جداً من المسير هبّوا جميعاً بكل نشاط لحظة أن حدثتهم عن العملية وعن اشتراكنا فيها وحدنا ، لكننا عندما وصلنا الخيمة وجدتهم متخوفين ومتعبين من أن يتصل أبو عبد الله في أي لحظة ويطلب منهم العودة ، فقلت لهم : لا تخافوا ، سأقفل جهاز المخابرة ولن أستقبل أي اتصال حتى تأتي ساعة العملية .. واتفقنا أن نمتنع عن فعل أي شيء في الليلة الأولى وأن نعدّ في اليوم الثاني لننفذ في اليوم الثالث ؛ وفي الليلة التالية جاء أبو علي الليبي رحمه الله وأبو عبيدة اللحام فأخذوا بعض الأشياء التي تركها الشباب – وكنا قد قررنا العملية في الصباح – لكننا لم نخبرهم بشيء .. » ويتابع أسامة : « كان عددنا قليلاً جداً فتقاسمنا المهام ، طلعنا على (تبة عبد السميع) وبطبيعة الحال كان الإخوة قد أنزلوا (الجرينوف) عنها ودفنوه في الوادي فأخرجناه ثانية ونصبناه على التبة من جديد وقلنا لحسين الليبي أنت المسؤول عنه ، وأعطيناه أربعة شواجير في كل واحد منها ٢٥٠ طلقة إضافة لسلاحه الشخصي وقلنا له : تبقى هنا حتى إذا سمعت التكبير ترمي على مناطق حددناها إشغالاً لأم الخنادق . تركناه وحده في الجبل وكان عمره ١٧ سنة أو أقل في منطقة مكشوفة تقريباً ، والخندق الذي فيه صغير لا يتجاوز عمقه ٢٥ سم . ومن الطبيعي أن الضرب بـ (الجرينوف) يعني أن مكانك مكشوف وأن الدبابات في الأسفل سترمي عليك بشدة .. فالمهمة لا يثبت فيها إلا من ثبّته الله عز وجل .. وعلى ذلك الحال تركنا حسيناً وطلعنا فوق لننقسم أيضاً عدة أقسام : أبو الدهب على الأصبع الأخير لضرب صواريخ (البي . إم) التي كانت منصوبة من يوم العملية الماضية ، فذهب رحمه الله ومعه (كلاشنكوف) وشواجير لينتظر التكبير ، حتى إذا سمعه أطلق الصواريخ ثم عاد لنلتقي ويكمل معنا ، وقسّمنا المجموعة الباقية فحمل أسد الله السندي مدفع ٨٢ يرمي به من الكتف على (أم

الخنادق) وكان عند ذبيح (آر . بي . جي) يرمي به على (أم الخنادق) أيضاً وكل واحد منهما في منطقة ، ويساعد أسد الله في التلقيم البيشي ، ويساعد ذبيح في التلقيم الصخري ، وعند كل منهما (كلاشـنكوف) ويرمون تباعاً ، وأنا وشفيق نذهب من ناحية أخرى على (أم الخنادق) ومعنا (الآر . بي . جي) لنقذف على الأماكن الحساسة فيها مثل (الزيكوياك) والمدفع والخنادق التي يتحصنون فيها .. » ويتابع أسامة : « وصل كل أخ مكانه واتفقنا على أن الوضع جيد ، فطلبت من شفيق أن يجهز نفسه حتى إذا سمع تكبيري يرمي ، وطلعت حتى أرى العساكر في أماكنهم ، وضبط شـفيق (الآر . بي . جي) فكبّرت – مع هدوء الوضع قبل المغرب – تكبيرة قوية سمعها حسين رحمه الله وسمعها أبو الدهب من هذه الناحية وسمعها بقية الشباب بطبيعة الحال ، واكتشفت البوستة أن هجوماً وشيكاً سيبدأ لكنها لم تعرف ماذا تفعل .. لكن شفيق تأخر قليلاً في الرماية وسادت فترة سكون بعد التكبيرة قطعها حسين رحمه الله بالرمي على (الجرينوف) فما أن بدأ حتى توجهت النيران نحوه ، ورمى شفيق ، وأطلق أبو الدهب الصواريخ ، فتهدمت الغرفة التي كانت في (النايمة) حيث كانت جميع الصواريخ موجهة عليها – فسكتت وما عادت تقاوم ، وكانت المجموعة الأولى من الصواريخ تسعة تقريباً ، فلما أراد أن يفجر المجموعة الثانية لم يوفق لأن التوصيلات كانت رديئة ، ورمينا نحن من ناحيتنا ، والإخوة هناك رموا ، وصاروا يكبروا ويرموا ، نحن نكبر ونرمي ، وصار الواحد من الأعداء يخشى أن يخرج ليرد علينا .. فعلى الرغم من أننا كنا واقفين وشبه منكشفين لا تسترنا إلا أشياء بسيطة إلا أن زمام المبادرة كان بأيدينا ، فلم يستطيعوا الرماية علينا مباشرة ولكنهم بدأوا يوجهوا البوستات االبعيدة للضرب علينا بالهاون ، واستمرينا نقصف عليهم حتى انتهت ذخيرة (الآر . بي . جي) عند شفيق ، وكان قد خيم الظلام فقلت له : خلاص ، تأخذ الشباب وتسحبهم تحت على الخيمة .. فمضى بـ (الكلاشنكوف) الذي معي وبقيت أنتظر أبا الدهب وما معي إلا (الراكيت) فارغاً ومسدس (التي . تي) .. وعندما وصل على صوت تكبيري والتقينا كان يعتقد أن شفيقاً أو أحداً آخر قد استشهد لشدة التكبير الذي كنا نكبّره .. كان كل واحد فينا يشعر بنشوة وكأنه يمشي على السحاب ، فكنا نكبّر ونتكلم ضد الشيوعيين بالفارسي وكذا .. وكأن شيئاً لم يحصل مع أن القذائف كانت تسقط من كل مكان .. وفي نفس اللحظة وقعت قذيفة هاون بين الشباب ، جرح بسببها الأخ صخري في صدره بين اللحم والعظام ، وأصيب الأخ ذبيح ببعض الشظايا في وجنته ، وأسد الله أصيب إصابة بسيطة جداً في أنفه .. وانسحبوا ، عندها جاءني أبو الدهب وهو مشتاق فقلت له : أما زال عندك ذخيرة ؟ قال : نعم . قلت له :طيب سنذهب إلى تلك الناحية ونغطي انسحاب الإخوة ، وكان جزاه الله الخير طويلاً سريع الخطوة ، فأصبح يمشي بسرعة وأنا أجري خلفه دون أن أتمكن من اللحاق به حتى اختفى في الظلام عني وذهب إلى مكان لم أعرف أين هو .. وفجأة فتح النار على البوستة التي كانت آخر خيوط الضوء تكشف مناطق الحراسة فيها ، وكان وهج (الجرينوف) يكشف عسكرها الذين يضربون به .. ولم يكن بيننا وبينهم أكثر من ٧٠ – ٨٠ متراً ، فرأيت مكان أبي

الدهب وأسرعت إليه جرياً ، فلما وصلت غيّر مكانه وراح يرمي من مكانه الجديد بـ (الكلاشنكوف) ويتقدم ، وكان طبيعياً أن تكشفه الدبابات التي في الأسفل من وهج طلقاته فأخذته كنيشان ، فكانت القذائف تأتي من الوادي نحونا وتنفجر .. وأنا أجري نحوه ، وكلما جريت أرى (كلاشنكوفه) يضيئ ، فما أكاد أصل إلى المنطقة حتى تأتي قذيفة دبابة وتصيبها ، فيسقطني الضغط أحياناً .. وتضربني الحجارة المتناثرة أحياناً .. حتى أتت آخر قذيفة على وهج نيرانه لم أعد أراه بعدها فظننته استشهد .. وطبعاً أنا من ناحيتي صرت أضرب على البوستة بالمسدس حتى يلفت لهيبه الأنظار نحوي فيحولوا الضرب عن أبي الدهب قليلاً حتى يتوزع الضرب .. وكنت حريصاً على الوصول إليه لأنني أعرف حماسه الشديد وأخشى أن يفكر بالإقتحام أو بشيء مماثل ، فلما جاءت القذيفة الأخيرة ولم أجده .. فقط وجدت أشياء سوداء متناثرة ظننتها لحماً أو بقايا منه .. ووجدت قطعة قماش خضراء ظننتها بقايا جاكيته ، لكنني استمريت في البحث حتى وصلت حدود البوستة وقد كادت ذخيرة المسدس أن تنتهي وليس معي من سلاح إلا (الراكيت) عياقة والمسدس .. وظللت على هذه الحال حتى الساعة التاسعة ليلاً ، فأصبحت أدعو الله عز وجل وأسأله إن كان قد استشهد أن أجد جثته ولا يأخذها هؤلاء الكلاب وأدعوه سبحانه : اللهم إن كنت تحب أن ترزقه الشهادة فليكن استشهاده قريباً منا حتى نأخذه معنا وندفنه ، وتعبت نفسياً جداً .. وبدأت أفكر ماذا أفعل ؟ وبطبيعة الحال كانت البوستات قد جنّ جنونها وركزت القصف المكثف على المنطقة وبدأت التنوير في كل مكان ، فأصبحت المنطقة وكأننا في الظهيرة .. وصار لكل شيء ظل وبإمكانك أن تقرأ أي شيء في جيبك ! وما تكاد قذيفة التنوير تصعد في السماء حتى تليها واحدة خلفها لتنير للقذائف المكان على طريق الإنسحاب ، بعدها بدأوا التمشيط بـ (الدشكات) و (الجرينوف) و (الزيكوياك) .. وأنا في طريقي لا أود أن أغادره حتى أتأكد على أبي الدهب . في تلك الساعة إتصلت بالجهاز إلى الخيمة ففوجئت بأبي الدهب يرد علي .. ويعلمني أنه وصلها من قبل وأنه يبحث عني .. فكانت فرحتي لا توصف ، وسارعت نحو الخيمة لأجده مسرعاً نحوي يقابلني وسط الطريق .. وهكذا عدنا معاً وبتنا الليلة نحرس سوياً .. وكان الشباب فرحين جداً وعاهدتهم وقتها أن تستمر هذه المجموعة في القيام بعمليات جديدة ، وأن ننتخب من الشباب الجيدين في المأسدة من نضمه إلينا .. »

ويكمل أزمراي ذكريات هذه المرحلة العذبة من حياته ويقول : « .. في الصباح حضر إلينا أبو عبد الله ، وعندما رأى الإخوة الجرحى أمرهم أن ينزلوا إلى (برجنار) للعلاج ، لكنْ ومن حبهم للجهاد ما أرادوا الرجوع وقالوا له : إصاباتنا خفيفة ولن نرجع ، فأصر عليهم أبو عبد الله وأخذهم معه ، وبقينا أنا وأسد الله وشفيق وحسين وأبو الدهب رحمه الله ، فنقلنا الخيمة من مكانها إلى خلف (تبة عبد السميع) على اليمين ، وهناك وضعنا خطة للذهاب ليلاً إلى القرية التي خلف (أم الخنادق) ومهاجمتها من هناك ، وأخذنا الإذن من أبي عبد الله بهذا الموضوع وبدأنا إستعدادنا له ، غير أن الله قدّر وما شاء فعل ، فاستشهد أبو الدهب .. وجرحت أنا .. » .

الأنصار العرب (٣٤)

أبو الذهب

كان قد مضى على مشاركة أبي الدهب في نصرة جهاد الأفغان أكثر من عام بدأها برحلة شاقة إلى ولاية « تخار » .. لم يكد يرجع منها إلى بشاور حتى ترامى إلى مسامعه نبأ هجوم الروس على « ننجرهار » فهب يمتشق سلاحه للمشاركة .. ثم لم يلبث أن عرّج في رحلته الأخيرة إلى « جاجي » ليستقر هناك مع إخوانه العرب في « العرين » .. فالمأسدة ، يصارعون زمهرير الشتاء ووحشة المكان وخطورة الموقع ، فإذا سمع هيعة للحرب طار إليها ، حتى إذا عاد لموقعه أمّ إخوانه في صلواتهم بصوته الندي الذي يميزه .. فإذا اشتد الكرب وتأزمت الأمور أطلق دعاباته البريئة .. ونكاته الرقيقة يجلو بها قلوبهم ويروّح بها عن نفوسهم .. إلى أن كان يوم السادس والعشرين من شعبان .. يوم أن غادر أبو الدهب إخوانه – وهو بينهم – إلى غير ما معاد (١).

يقول شفيق رحمه الله : « إنتقلنا إلى تبة عبد السميع لنغيّر مكاننا ونبدأ الترصد من الجهة الثانية ، كنا نريد أن نصل ليلاً إلى أقرب ثغرة من القرية وصولاً إلى البوستة ، وفعلاً بدأ أبو الدهب يترصد على القرية وأعدّ خريطة لها وللموقع وأتي بها إلينا لنتفاهم على خطوات التحرك على أساس أن نبدأ تقدمنا في مغرب ذلك اليوم ونفتح الثغرة ، ومضينا عبر الوادي أنا وأسامة وأبو الدهب على جهة الترصد لنضبط بعض الأمور حتى وصلنا فتحة الوادي التي تبين البوستات أمامنا .. ومن أول نظرة لي شاهدت في البوستة التى أمامنا دبابة واضحة ، فأخذت (الدربيل) ودققت النظر إليها فوجدتها قد وجهت سبطانتها باتجاه التباب التي فوقنا حيث كانت المعركة وراء (أم الخنادق) .. » ويتابع شفيق رحمه الله : « في ذلك الوقت كنا نريد أن نصلي العصر ، فقام أبو الدهب يريد أن يبحث عن مكان ملائم نصلي فيه .. فقال : نصلي في هذا المكان . قلت له : الأفضل أن ترى مكاناً آخر مستوراً من الخلف .. وبالفعل تراجعت إلى الخلف قليلاً أبحث عن مكان نصلي فيه بينما جلسا ينظفان ذلك المكان .. هممت أن أقول لهما : تعالوا نرجع للوراء لأن الدبابة أمامنا وإذ بي أسمع في نفس اللحظة صوت إنفجار ! مع الضغط أنا لفيت .. خرجت أتحسس نفسي هل جرحت أم لا .. ولشدة القرب من مكان الإنفجار لم أصدق أنني لم أصب البتة إلا بشيء بسيط في جبهتي فقط » ويضيف شفيق : « كان الدخان الأبيض يملأ المكان كدخان قذيفة الدبابة فظننت مباشرة أن الدبابة هي التي ضربت ، وقتها سمعت أحداً يكبّر ويقول : فزت ورب الكعبة ، عرفت أنه صوت أسامة فقلت لنفسي : العملية صارت جدية إذاً ! ورحت أبحث مكان الصوت فوجدته وقد تقطعت ملابسه والدم ينزف من يديه ورجليه وهو جالس فقلت له : تعال نرجع قليلاً للوراء لأن الدبابة ستقصف ثانية كعادتها .. في تلك اللحظة فكرت بأبي

الدهب وظننته رجع لأنني لا أرى له أثراً في المنطقة ، أخذت أصيح عليه فسمعت شيئاً كصوت النَفَس الضعيف .. بحثت مكان الإنفجار فلم أجد أحداً .. عاودت البحث فوجدته وقد تقدم أربعة أمتار للأمام : كانت رجلاه مبتورتان ووجهه مغطى بالجاكيت من شدة الإنفجار .. كشفت عنه فلقيته يذكر الله .. ناديته باسمه فوجدته لا يسمع شيئاً لكنه استمر يذكر الله .. فقلت لنفسي : أذهب وأنادي الشباب من الخيمة لنحمله في بطانية أو (بتو) لأن حمله بهذه الحالة صعب جداً ؛ ناديت الشباب .. كان معنا عبد العزيز الأحمدي وأسد الله السندي وعلي الليبي ، وفي الطريق رأينا أسامة يمشي وهو يقول : أستروني ستركم الله ، فمشى معه علي الليبي وأوصله الخيمة ، أما أسد الله فأسرع وحمل أبا الدهب وقد تقطعت ملابسه تماماً إلا الجاكيت ، لكنه كان كلما حملناه يقول : أنزلوني .. لا تحملوني .. أنا مستريح هكذا .. أبعدناه قليلاً عن مكان الإنفجار وجلسنا نتكلم .. كان يقول : سامحوني وكذا .. فكنا نقول له : سامحنا أنت فإنك الآن أقرب .. سامحنا وتذكرنا عند ربك . وعاد يقول لنا : أنتم ما صليتم العصر .. قوموا صلّوا حتى لا يضيع عليكم الوقت . لم يكن يستطيع أن يصلي بالطبع .. ولم يكن يدري أن رجلاه مقطوعتان ، كان هناك جرح في يده حيث طار اللحم عند الكوع ، وكان بين الغيبوبة والصحو يصحو ويغمى عليه .. ويذكر الله عز وجل دائماً . خلال ذلك قمت أبحث عن رجليه التي قطعت فلم أجد شيئاً .. إلى أن جاء أبو الرضا ومعه أبو هاجر يحملان الإسعافات الأولية فتركت أبا الدهب ومضيت أنظر حال أسامة وأتحدث معه قليلاً فوجدت الشباب صنعوا لأبي الدهب نقالة من خشب وحملوه عليها وأتوا به وقد استشهد ، وعندما نظرت في وجهه رأيت عينيه صارت وكأنها بيضاء كلها لا دم فيها من النزيف ، ورجلاه الإثنتان كانتا مقطوعتان من فوق الركبة تنزفان .. » ويكمل شفيق فيقول : « وصلت مجموعة من الأفغان بينهم القومندان كوتشاي لمساعدتنا ، كنت أريد البقاء مع الشباب في الخيمة لكن الأفغان أنفسهم لن يعرفوا الطريق لأنه مفتوح بين الألغام ، فاضطررت أن أمشي معهم ، وتحركنا مع أذان المغرب فلم نصل سيارة الإسعاف إلا في الواحدة والنصف ليلاً لصعوبة الطريق ! فالصخور تملأ المكان .. والليلة غير مقمرة .. والنقالة التي حملها الأفغان وفوقها أسامة ليست في حقيقتها بأكثر من ثلاثة أغصان من خشب الشجر ! فاستغرقت عملية النقل قرابة السبع ساعات ، ولم نصل مستشفى (برجنار) إلا بعد الفجر ! » .

يقول أبو الرضا : « كنا في المأسدة أنا وأبو هاجر حينما أتتنا مخابرة تطلب حضورنا .. قلنا : من أين ؟ قالوا : من خيمة الترصد . فوجئنا بهذه الخيمة فلم نكن نعرف عنها أي شيء وقتذاك ! إنتظرنا حتى يرسلوا لنا من يعرف الطريق ، فلما تأخر واعدناهم على التبة .. ومضينا ومعنا ثمانية أو تسعة أفغان مع قائدهم كوتشاي ، ومن بين الألغام وصلنا الموقع لنجد أسامة هنا في الخيمة ويده ملفوفة بالشاش فقالوا لنا : إذهبوا للأمام فأبو الدهب لا يزال هناك . وصلنا إليه .. كانت يده مهشمة تماماً وعظامها قد سُحقت بالمرة فصارت كاللحم ! لففتها له ، وعندما كشفت عن رجليه وجدتهما مقطوعتان كلتاهما فأغلقت له أوعية الدم وإنْ

لم يعد هناك دم يخرج بالأصل ! وأعطاه أبو هاجر إبرة (سوسيكون) لتخفف عنه الألم ، وأتينا بخشبتين وضعنا عليهما جاكيتات وحملناه فوقهما .. بعدها تركته وجئت إلى أسامة ، فككت عن يده فوجدت أصابعه الثلاثة مفقودة كلها ، ووجدت إصابات دامية في كلتي رجليه ، وعندما وصل الإخوة بأبي الدهب الخيمة كان قد استشهد ، فقررنا أن نحمل أسامة ونعود به ، وفي البداية وعندما وجدنا لدينا بغلاً أتى الأفغان بكيسين من الشعير – كعادتهم – ووضعوهما على طرفي البغل وصنعوا من ذلك ما يشبه السرير ! صلينا المغرب ، ووضعنا أسامة على هذا السرير وربطناه بإحكام وبدأنا الصعود ، في تلك الساعة إشتعلت (أم الخنادق) علينا بـ (الزيكوياك) فهاش البغل وكاد أسامة أن يقع .. ولم يعد بالإمكان الإستمرار في الصعود على هذه الحال .. فأنزلناه ، وحملناه جميعاً وشفيق يكشف لنا الطريق بين الألغام .. فلم نصل مكان السيارة إلا قريب الثانية والنصف بعد منتصف الليل ! » .

* * *

مضت المجموعة بأزمراي تشق طريقها بين الصخور والألغام والعثرات في تلك الليلة المظلمة وبقي أبو هاجر وثلاثة إخوة معه في الموقع حيث لا زال أبو الدهب مسجى بين أيديهم وقد أسلم الروح .. والأخ ياسين الذي تحرك من المأسدة مبكراً لإحضار النقالة لم يصل إليهم .. ولم يعد بحد للمكان الذي انطلق منه .. فاجتمع القلق على الأسى ، وتكاتف الإجهاد معهما ليحطوا بكلكلهم جميعاً على أبي هاجر في ليلته الليلاء تلك ! يقول أبو هاجر : « مضى الإخوة بأزمراي وبقينا أربعة في الموقع : أنا والسندي وأخَوَان آخران لا أذكرهما .. وانقطع كلام أبي الدهب وكان قد توفي رحمه الله ، ولكن ياسين لم يصل بعد ! إتصلت بالمأسدة فقالوا : لم يصل إلينا .. فبدأت أتشوش عليه لأنه لا يعرف المنطقة ، ولأنني رأيت بعيني بعض الألغام في الطريق وقد كشفها المطر .. وعدت للتفكير في أبي الدهب ، أردت أن ندفنه لكني خشيت أن يكون حياً ولا ندري ، وأنه سكن نتيجة الإبرة التي أعطيته إياها .. فجعلت أضع أذني على صدره فلا أسمع لقلبه صوتاً .. فقلنا نتركه للصباح ليتكشف الأمر تماماً ، ولكني كنت آتي خلال الليل فأضع أذني على صدره لعلي أجد نَفَساً .. وفي الصباح تأكدنا أنه فارق الحياة فقررنا دفنه ، ولم نجد لذلك أفضل من الموقع الذي حفره بيده ليختبئ فيه من قصف الطيران .. وما استطعنا أن نحفر أعمق منه فدفناه فيه .. ونظراً لأنه تكلم قبل استشهاده رحمه الله فقد اختلط عليّ الأمر ، فظننت أن الذي يتكلم قليلاً أو كثيراً سواء في حكم الشهيد ، والصواب أن الفرق في الفقه موجود .. فلو تكلم في مكانه كلمات قليلة قبل أن يفارق الحياة إعتبر شهيداً ودفن بملابسه ولم يكفن ، أما إذا طال كلامه – وهذا الذي يسمى حكم المرتث – فقد وجب غسله وتكفينه والصلاة عليه .. فلما اختلط عليّ الأمر رأيت أن أغسله وأصلي عليه وأكون على خطأ خير من أن لا أفعل ذلك وأندم بعدها على ذلك ..

ولذلك أعددنا له في الصباح ماءً سخنّاه على الحطب .. وجعلتُ أنزع عنه ملابسه بعدما لففته بـ (البتُّو) وأنا غير مرتاح لما أفعل ، فالملابس كلها دماء .. وجسده كذلك ، وهذه كلها آثار عبادة .. فتندمت كثيراً على ما فعلت ، وسألت الله رب العالمين أن يسامحني بنيّتي .. ثم صلينا عليه الجنازة - وكان الإخوة قد جاؤوا في الصباح - ودفناه في الموقع .. كان يوم جمعة كما أذكر ، وفور انتهائنا ألغينا النقطة ، وأمرت الإخوة أن ينقلوا المتاع والسلاح والذخائر كلها إلى المأسدة .. » وفي هذا الصدد يقول الأخ علي غزلان : « قرر أبو هاجر أن يسحب الإخوة والأغراض والخيمة ، فحملها الإخوة على البغال وأتوا بها من جهة (بدر) لكنها وقبل أن تصل إلى الأعلى طاحت الأمتعة قريباً منا ، فتركها الإخوة من تعبهم وقالوا : خلاص .. يأتي بها الشباب الآخرون .. فكلفني أبو هاجر مع مجموعة من الشباب أن نأتي بها ، فما أن بدأنا بحملها حتى جاء بنفسي أن قصفاً سيأتي من العدو ! وكنت أمامهم .. فسمعت انفجار قذيفة - في نفس اللحظة - على بعد ٥٠٠ متر أو كيلو متر واحد ، فجاء في نفسي أن التالية ستكون عندنا ، لكنها أتت على بعد ٢٠٠ متر تقريباً ، فلما جاءت الثالثة صحت بالشباب - قبل أن تصل - إنبطحوا .. فما أن فعلوا حتى سقطت على بعد ٢٠ - ٣٠ متراً منا .. فقلت لهم : لا تتحركوا الآن ، وبقينا ساكنين فترة لا نتحرك .. ثم سحبنا الأغراض بسرعة وطلعناها مع استئناف القصف المتواصل .. ولم يصب منا أحد ولله الحمد » .

* * *

انتهت أيام شعبان المتسارعة .. الدامية وقد زادت الأنصار العرب في المأسدة رصيداً غنياً من الخبرة العملية سواء في التخطيط أو في التنفيذ ، وعلى الرغم من تشكي غالبية من سمعت روايتهم وسجلت مشاهداتهم في معركة التاسع عشر من شعبان من أن يوماً واحداً إضافياً من الإعداد كان كافياً لكسب المعركة وتحقيق الغرض الكامل من الهجوم .. ومع اعتقاد عدد ممن شاركوا وكانوا في خط المواجهة المتقدم بأن الإستمرار كان أولى من الإنسحاب .. وعلى الرغم من كل القصور الذي تبدّى والعجز والنقص الذي حدث .. إلا أن محصلة الخبرة التي اكتسبها شباب المأسدة في أول هجوم بهذا الحجم يخططون له وينفذونه - ولو في جزء منه - لم تكن بالشيء القليل ، مثلما لم تكن آثار هذا الهجوم في صفوف العدو بالتي لا تستحق التسجيل .. يقول أبو عبد الله : « كانت محصلة القتلى الذين وقعوا في صفوف العدو خلال الأيام الأربعة من معركة شعبان حوالي الستين ، قتل معظمهم في اليوم الأول وفق ما سجلناه في الترصد ، وحسب ما أدلى به أحد الجنود الذي سلّم نفسه للمجاهدين .. وفي هذه المعارك إزدادت خبرة الإخوة جداً فكانت بداية تحوّل لتجميع الإخوة العرب ، وعلى الرغم من مقتل اثنين من المجاهدين أحدهما من الإخوة العرب والآخر من الأفغان [٢] إضافة إلى جرح ستة من الإخوة الأفغان وستة من العرب أيضاً ، إلا أن المعركة

كانت جيدة جداً من ناحية النتائج ، وكانت بداية تحول في تجمع الإخوة العرب أهلتهم وهيأتهم كثيراً لمعركة رمضان » .

هوامش

(١) الشهيد أبو الدهب « نبيل .. » : من مواليد مدينة مرسى مطروح قرب الإسكندرية بمصر ، هاجر والداه من السودان وأقاما هناك حيث كان مولده ، درس في كلية الزراعة والتزم فيها برسالة الإسلام .. وملأ حب الجهاد نفسه فلم يلبث أن قرر التوجه إلى أفغانستان .. وخطا خطاه الأولى على ثراها برفقة ذبيح الله وعبد الرحمن إلى ولاية « تخار » حيث أمضى عدة شهور هناك عاد بعدها إلى بشاور ثم إلى « ننجرهار » ليؤوب منها إلى « جاجي » حيث استقر في المأسدة فلم يغادرها طوال آخر سبعة أشهر من حياته إلا مرتين : أولاهما لثلاثة أيام فقط أمضاها في بشاور للمداواة من آلام الروماتيزم ، والثانية ليومين قضاهما في العرين بمهمة . كان رحمه الله طويل القامة ، أسمر البشرة ، أشعث أغبر - كما يصفه إخوانه - كثير قيام الليل ، عذب الصوت خاصة في تلاوة القرآن الكريم الذي حفظ منه الثلث - كما يروي أبو عبد الله - ويقول عنه الأخ أزمراي : « رأيت له رؤيتان : الأولى قبل استشهاده بستة أشهر وكانت بشرى له بالشهادة ، والثانية ليلة استشهاده وقصصتها عليه قبل استشهاده بساعتين » وكان شفيق رحمه الله قد رآه كذلك ليلة استشهاده بما يبشر بشهادته ، فأزمراي رآه يتزوج .. وشفيق رآه حليق الرأس .. وعندما أصيب أبو الدهب صاح : الرؤيا الرؤيا يا شفيق ! أنظر : مجلة « الجهاد » - العدد ٣١ - شوال ١٤٠٧ - حزيران ١٩٨٧ - صـ٣٢ - ٣٤ - ومجلة « البنيان » - العدد ١٣ - رمضان ١٤٠٧ - مايو ١٩٨٧ - صـ١٥ إضافة لأحاديث عدد من إخوانه في بشاور . (٢) المقصود بالأخ العربي الشهيد أحمد الزهراني رحمه الله وذلك قبل استشهاد أبي الدهب بالتأكيد .

الأنصار العرب (٣٥)

من (قباء)..الى (بدر)

تأسيس مركز للعرب في جبل « قباء » كان - مثلما رأينا - قرار أبي عبد الله السريع فور الإنتهاء من دفن أحمد الزهراني صبيحة اليوم الذي تلا معركة شعبان في التاسع عشر منه ، وتم إختيار أمين ليكون المسؤول عن هذا الموقع الجديد . يقول أمين : « .. ودعنا الإخوة في المأسدة وطلعنا ، كنا أنا وأبو العتاهية وأبو الزبير والشهيد خالد الكردي رحمه الله وياسين العراقي .. ستة تقريباً ، وفور وصولنا عبر طريق ترابي للمشاة والدواب فقط إخترنا أنسب مكان للخيمة في قمة الجبل شبه المكشوف ، وتحت شجرتين متجاورتين نصبناها وموّهناها ونمنا فيها من أول يوم .. وبعد أربعة أيام أرسل لنا أخوان آخران هما أبو حنيفة وأبو نوفل أمضيا معنا عدة أيام ، بعدها عاد أبو عبد الله وطلب أبا الزبير وياسين فنزلا المأسدة وبقينا أنا والشهيد خالد الكردي رحمه الله والأخ أبو نوفل وأبو حنيفة وأبو العتاهية .. واستمرينا على هذا الوضع وأكملنا عشرة أيام .. » ويتابع أمين : « كانت مهمتنا الحماية الخلفية للمأسدة ومنع أي إنزال متوقع للكوماندز ، وعندما زارنا أبو عبد الله تلبية لطلبنا قال لنا كلمة لا أنساها : أريدكم أن تكونوا هنا كالمسمار الذي يضرب في شجرة البلوط .. لا يمكن أن يخرج أبداً ، وأنتم مهما حدث في المأسدة لا تتركوا مكانكم وابقوا للحماية الخلفية .. وبعد عشرة أيام تقريباً من بقائنا ذهب الأخ أبو العتاهية ثم أتانا الأخ أبو عبد الرحمن السريحي ، وعندما أكملتُ الأسبوعين في (قباء) طلبني أبو عبد الله مع الأخ أبي حنيفة والأخ أبي العتاهية .. فما بقي من القدامى هناك إلا الشهيد خالد الكردي رحمه الله وأبو نوفل ، وطبعاً جاء غيرنا مع أبي عبد الرحمن السريحي الذي كان قد استلم في ذلك الوقت أمارة (قباء) .. وقبل يوم من طلبنا - وكان يوم وصول أبي عبد الرحمن - سمعنا منه أن أبا الدهب قد استشهد فكانت صدمة مزعجة جداً ، وكان للخبر أثره العميق في النفس لشدة ما كان رحمه الله محبوباً ، وعلمت أيضاً بإصابة أسامة فاستغربت لماذا أنزلني أبو عبد الله ، وعندما قابلته قص لي ما حدث ، وطلب مني الذهاب إلى بيشاور للبقاء مع أسامة على اعتبار أنني أعرفه من قبل خمس أو ست سنوات .. وأنه متعب نفسياً بعد استشهاد أبي الدهب ، فتركت المأسدة ونزلت بشاور ، وكان شفيق هناك أيضاً ، لكن أبا عبد الله أخبرني أن أذهب أنا ويعود شفيق ، وكان ذلك تقريباً في العاشر من رمضان ، وبعد خمسة أيام فيما أذكر جاء أبو عبد الله بشاور وكنت لا أزال في المستشفى أقوم برعاية الجرحى من الإخوة الذين أصبحوا - ما شاء الله - ستة أو سبعة : أسامة ، والبيشي ، والرئيس الأحمدي ، وأبو سهل الطويل ، وأبو خالد المصري ، وشفيق التونسي .. وكان معي عبد المنان رحمه الله ، فقال لنا أبو عبد الله : أنتما الإثنين تبقيان للإهتمام بالجرحى ورعايتهم ولا ترجعا حتى أخبركم » .

* * *

كان على شفيق أن يترك بشاور إذاً ويعود ليستأنف عمله في الوديان والهضاب حول البوستات المعادية استكمالاً للعمليات النشطة التي بدأت في التاسع عشر من شعبان . يقول شفيق رحمه الله : « أمضيت عشرة أيام تقريباً في بشاور مع أسامة الذي أصيب في نفس اليد التي كانت قد أصيبت بالصاعق من قبل ولم تفك غرزها الأولى بعد .. فتقطعت أصابعه الوسطى والإبهام ، وكسرت سبابته ، وأصيب بكسور أخرى عديدة في كفه ، فاضطروا أثناء العملية أن يُدخلوا اليد كلها في بطنه حتى يغطي اللحم ظهر اليد الذي كان مكشوفاً بدون لحم ! وهكذا تركته مع أمين وعدت إلى (جاجي) لأجد الشباب هناك رجعوا إلى الخيمة في مكانها الأول .. » ويتابع شفيق : « كنت قد وصلت بعد رجوع الشباب إلى الخيمة بيوم واحد ، فطلب أبو عبد الله مني أن أنزل إليهم وأمسك المجموعة مرة ثانية ، لأنهم كانوا يعدون للعملية من جديد مع العمل على تفادي خطأ الوقت الذي لم يستغلونه في المرة الأولى كما يجب ، وفعلاً تكرر العمل بنفس الصورة ووفق الخطة ذاتها لكن بشكل أحسن ، وقلت لهم : أنتم تنزلوا الإحتياجات ونحن نتكفل بتوصيلها إلى أماكنها في الأسفل وبحفر الخنادق المحيطة بالأسلحة الثقيلة أو بوضع الساتر الأمامي لها .. وبالفعل تم توصيل كل (الجرينوفات) وذخائرها ومدافع ٨٢ وقذائفها ، ووزعناها حول البوستات وصار الأمر جاهزاً تماماً لا يحتاج إلا إلى وصول الأشخاص ليأخذوا أماكنهم وتبدأ العملية » ويكمل رحمه الله : « كنا في الخيمة المسؤولين عن توزيع الأسلحة وتخطيط مواقعها في الأسفل ، وكان أبو خالد ومعه أبو سهل الكبير وأبو عبيدة ومعهم أبو حفص المسؤولين عن التخطيط الكامل للعملية في المأسدة ، وتم الإتفاق على أن تبدأ العملية في السابع عشر من رمضان .. وكنا قد أنهينا الترتيبات جميعاً قبل يومين بالضبط من الموعد ، وفي اليوم المحدد فوجئنا بالأمر يأتينا صباحاً بالإنسحاب .. وقالوا لنا بأن المجاهدين الأفغان سينفذون عملية في المنطقة وربما قصفوا عليكم في الخيمة وهم لا يعلمون بوجودكم فانسحبوا .. لكني ما هضمتها ! بعد كل هذا التجهيز وبعد أن أُحكِمَت الخطة ولم يبق إلا التنفيذ يأتينا الأمر ؟ وحضر أبو حفص بنفسه ليفهمني ما حصل ، فقال لي أن أبا خالد وأبا عبيدة كانا – حقيقة الأمر – يجرّبان تحويل قذيفة (آر . بي . جي) العادية هذه إلى قذيفة شديدة الإنفجار ليزداد تأثيرها في الخنادق ، فكانوا يزيدون المادة المتفجرة فيها ويضعوا فيها مسامير وشظايا إضافية ، وأثناء التجربة تأخر انفجار إحدى القذائف فذهب أبو سهل لرؤية ما حصل ، فتبعه أبو خالد وهو يقول له : إنتظر .. إنتظر .. فلما اقتربا إنفجرت القذيفة فأصابت أبا خالد بعينه ، وأصابت أبا سهل بشظايا متفرقة ، فكان لا بدّ من إيقاف العملية .. » وفي هذا الصدد يقول أبو خالد : « بعد عملية التاسع عشر من شعبان إتفقت مع الشيخ أبي عبد الله على استكمال وتلافي ما حدث من أخطاء ، والعزم على فتح هذه

المواقع في توقيت معركة بدر في رمضان ، وكتبت قائمة طلبات يجب على المسوولين في المأسدة السعي لتوفيرها كان منها ذخيرة شديدة الإنفجار ، لكنني فوجئت بعدم توفر هذا النوع من الذخيرة في الجهاد الأفغاني ولم يتمكن المسؤولون من الحصول عليها ففكرت في إدخال تعديل على طلقة الـ (آر . بي . جي) لتصبح شديدة الإنفجار بدل أن تخترق الدروع وحسب ، وتم إجراء بعض التجارب وكانت النتيجة مشجعة ، وبعد إطلاق آخر طلقة ذهبت لأعاين آثار انفجار إحدى الطلقات فحدث إنفجار فجائي لم يكن متوقعاً أدى إلى إصابتي في العين اليمنى ، وكان الأخ أبو سهل على مقربة مني فأصيب في ساقه وبطنه بشظايا خفيفة .. وهكذا لم أتمكن من حضور المعركة » .. لكن المعركة على الرغم من ذلك كله لم تلغ نهائياً ، ولم تحد آلام الحادثة من حماسة العرب المجاهدين . يقول شفيق رحمه الله : « .. قلت لأبي حفص وأبي عبيدة – بعد أن أصيب أبو خالد – : حسناً .. ليست مشكلة ، سوف نسحب كل حاجة ولكن نبقي أسلحة شخصية لنا فنقوم بعملية بسيطة بأنفسنا ونضرب مراكز حساسة للعدو ونرجع .. وبالفعل تمت الموافقة وجاء ذلك اليوم ، لكن سوء فهم حدث حينها بيني وبين أبي عبيدة ، فأنا وأبو حفص كنا متفاهمين على شيفرة معينة نستخدمها في المخابرة ، وكان المفترض أن يكون عند أبي عبيدة نفس الشيفرة ، وكانت المسألة كلها (حفر قبور) و (الطعم) و (النعش) وهكذا .. وكنت أتكلم مع أبي عبيدة وأقول له : سنبدأ نحن العملية بينما تمهدون من جهتكم بالهاونات والأسلحة الثقيلة قبل المغرب بنصف ساعة ، وهي الفترة التي لا يستطيعون خلالها أخذ راحتهم في الرمي حيث تظلم الدنيا بسرعة ، فكنت أعتقد أن أبا عبيدة موافق وأنه يفهم حديثي بالشيفرة ، فلما أخذنا مواقعنا ودنا الوقت إتصلت بأبي عبيدة وأعطيتهم الخبر وقلت لهم : إننا جاهزون وسنبدأ فابدأوا أنتم بالتغطية والتمهيد .. وقتها فوجئ أبو عبيدة ! كيف ؟ ما الذي يجري وماذا تقصد ؟ قلت له : أقصد الموضوع الذي نتحدث فيه من الصباح ! وقتها أدركت أن أبا عبيدة لم يكن يفهم ما أقول .. وتدارك أبو حفص الموقف وقال له : القصد كذا وكذا .. فقال له أبو عبيدة : لكنني لا أدري شيئاً عن الموضوع .. فقلت لهم : ونحن خلاص جاهزين وقد أخذنا أماكننا حول البوستات تماماً ولن نستطيع الإنسحاب لأننا سنكون مكشوفين ولسوف نُضرب من ظهورنا . فقال لي أبو عبيدة : توكلوا على الله .. بسم الله .. وبدأنا الضرب بالتنسيق طبعاً ، لكن سوء تفاهم آخر حدث لدى واحد من الإخوة ، فقد كنا اتفقنا على أن تكون ساعة الصفر بين الخامسة والنصف والسادسة عندما أعطي أمراً لشفيق التونسي بالبدء حيث معه المخابرة الثانية ، فإذا ضرب شفيق ضرب الذي بعده حتى تصير تغطية .. فهذا يغطي ذاك وذاك يغطي الآخر وكلنا نضرب في وقت واحد ثم ننزل خنادقنا ونحتمي فيها ، لكن الذي حصل أن أحد الإخوة اعتقد بأن ساعة الصفر هي الخامسة والنصف .. وأن عليه أن يبدأ الضرب في ذلك الوقت من نفسه ، وبالفعل بدأ الأخ الإطلاق في ذلك الوقت وكان يحمل مدفع ٨٢ فما أن أطلق أولى طلقاته حتى انفضح مكانه وبدأوا الرد عليه بمدافعهم وتحولت كل النيران نحوه لأنهم لم يعرفوا عنا شيئاً بعد ؛ أمام ذلك رأينا أن نشاغلهم حتى لا يأكل الضرب وحده ،

فكان عندهم في مقابلنا مدفع خفيف يقذف عليه فضربناه ولله الحمد .. وضُرب (الزيكوياك) الذي لديهم أيضاً ، وتهدمت عليهم بعض الغرف ، لكن الضرب اشتد علينا وتركز بمساعدة البوستات الأخرى فقلنا نوقف النار من جهتنا ونقعد في الخنادق .. تكلمت مع شفيق وقلت له : عندما يخف الضرب تماماً يبدأ بالإنسحاب . في هذا الوقت جُرح البيشي وجُرح خميس عندنا (١) وأصيب شفيق التونسي أيضاً بشظية في ركبته ، فانسحبت أنا مع خميس وإحسان الليبي ونزلنا تحت ، وطلبنا من الشباب في المأسدة أن يرسلوا لنا الدواب لنقل الجرحى . بعد ذلك رجعت أنا أيضاً إلى بشاور للعلاج حيث كنت قد أصبت بطلقة سببت لي جرحاً بسيطاً جاءته حساسية إضطرتني للعودة ، وأثناء ذلك وصلني الخبر بأن القوة جاءت إلى المأسدة .. » .

.. يقول أبو عبيدة : « في السابع عشر من رمضان أحببنا أن ننفذ عملية بالأسلحة الثقيلة فقط أسميناها (بدر) واشتركنا فيها بخمسة هاونات وخمسة مدافع ٨٢ ومدفع ٧٥ إستمرت تقصف في آن واحد على العدو لمدة ساعتين ، وفي الوقت ذاته كانت هناك مجموعة معدّة للإشتباك القريب بـ (الكلاشنكوفات) على (أم الخنادق) إضافة إلى مشاركة الإخوة الأفغان بهاون واحد محبة منهم في المساهمة معنا (٢) والحمد لله كان لهذه المعركة أثر طيب جداً ، حيث تسببت في رعب كبير للعدو علاوة على تدمير الموقع ، فهرب ٣٧ من جنوده إثر ذلك بعد أن قتلوا أربعة ضباط في مواقعهم واقتادوا ضابطاً خامساً برتبة كبيرة سلموه للمجاهدين (٣) الأمر الذي رفع كثيراً من معنويات الإخوة ، وعلى النقيض من ذلك أفقد من معنويات العدو الكثير خاصة وهو يحس أنه يُضرب باستمرار ويعيش في حالة ذعر دائم .. » وحقيقة الأمر فقد نشط الإخوة في المأسدة بشكل غير معهود ، وتتالت عملياتهم الخاطفة على بوستات العدو القريبة ، لتبلغ – كما أحصاها أبو محمود – تسع عمليات حتى السابع عشر من رمضان .. يوم أن عاد من بشاور مع أبي عبد الله إلى العرين ، فبلغهم خبر إصابة خمسة من الإخوة في عملية اليوم نفسه : البيشي ، وشفيق ، وأبو دجانة السوري ... وكان أبو عبد الله قادماً لتوه من المملكة ، في ثاني زيارة له إليها بعد عملية شعبان القريبة .

هوامش

(١) يقول أبو عبد الله إن إصابة خميس كانت بطلقة في فمه عولج منها بعد ذلك بفضل الله .

(٢) في حديث آخر مع أبي عبيدة بعد أكثر من سنتين على الحديث الأول ذكر لي أن أربع هاونات قد اشتركت في القصف على مواقع العدو في البوستات و « خوش باران » أو « أم الخنادق » إضافة إلى ثلاثة مدافع ٨٢ وحوالي ٢٢ صاروخ « بي . إم » وأضاف بأن الأخ عبد الرحمن كريسينا رحمه الله قصف وحده ١٥٠ قذيفة على الهاون نزلت جميعاً على العدو ، وأن مجموع الهاونات التي أُطلقت بلغ ٣٠٠ تقريباً ، الأمر الذي أدى إلى إسكات العدو تماماً فبدأ يرد بواسطة المدافع الميدانية « الهاوزر » والدبابات

بقصفٍ مركّز وبعيد ، ونتيجة المعركة هرب ٣٤ جندياً بأسلحتهم بعد أن قتلوا ضابطهم وأسروا ضابطاً آخر من المخابرات الأفغانية « الخاد » إسمه داود سلموه للمجاهدين .

(٣) في حديثه التالي - بتاريخ ١٩٩٠/١٢/٢٦ - ذكر أبو عبيدة أن عدد الجنود الهاربين كان أربعة وثلاثين ، وفي مجلة « الجهاد » - العدد ٣٢ - ذو القعدة ١٤٠٧ - يوليو ١٩٨٧ - صـ٣٠-٣٤ جاء أن ٣٥ جندياً بحوزتهم ٤٠ رشاش « كلاشنكوف » ومعهم ضابط للمخابرات الأفغانية « خاد » يحمل على ظهره جثمان أحد الشهداء إستسلموا فجر الخميس ١٨ رمضان الماضي الموافق ٨٧/٥/١٥ لمركز المجاهدين الأفغان في « الفتح » ، وذكرت المجلة من خلال إعترافات الجنود أنهم اقتحموا مع انتصاف الليل غرفة ضابط المركز رقم واحد التابع للكتيبة رقم ٩٦٩ في قرية « بيان خيل » من « جاجي » فقتلوه مع اثنين من معاونيه وأسروا ضابط « الخاد » قبل أن يهربوا للمجاهدين . وقد أكد الأخ أبو عبيدة أن « الحزب الإسلامي » قام بتسليم بعض الأسرى للإخوة العرب من بينهم الضابط داود حيث تولوا التحقيق معهم من جديد واستفادوا كثيراً من المعلومات التي بحوزتهم ، وأعادوهم بعد ذلك للحزب ثانية .

الأنصار العرب (٣٦)

معركة العيد في (جاجي)

حفلت الأسابيع الأخيرة التي مرّت على مأسدة الأنصار فى « جاجي » بالإنجازات وبالمستجدات المتسارعة .. وفي تحوّل نوعي غير مسبوق ، تطور النشاط اليومي هناك من مرحلة الإعداد والترقب والكمون .. إلى المبادأة والمبادرة والهجوم .. وسرعان ما سرت في الشباب المتحمسين نشوة التفوق الذي أحدثته العمليات الصغيرة منذ منتصف شعبان الماضي على مواقع العدو المحيطة ، لتدفعهم إلى طلب المزيد من العمليات المماثلة ، فى الوقت الذي دفعت العدو إلى اتخاذ قرار سريع بوجوب الرد الحازم على هذا النشاط الإزعاجي الذي تتبدى من ملامحه العامة بصمات المتطوعين العرب ، فتؤكدها تقارير الجواسيس المندسين في المنطقة ، وتعيد محادثات العرب أنفسهم عبر أجهزة الإتصال فيما بينهم تأكيدها – وهي تنطلق بالعربية طبعاً – بين مراكز المأسدة المتعددة ، ومن المأسدة إلى العرين .. أو إلى غُنْد سياف .. وبالعكس ، في منطقة تدخل تلقائياً ضمن إمكانيات أبسط الأجهزة المعادية فى التصنت والتلقي والإستماع !

كان أبو عبدالله قد عاد إلى المأسدة صبيحة الثامن عشر من رمضان (١٤/٥) بعدما أمضى ليلته السابقة في العرين قادماً من السعودية .. وفى الثاني والعشرين من رمضان – الثلاثاء – أرسل أبا محمود إلى صدى برسالة للشيخ سياف ، وجرت الإتصالات مع حكمتيار ، وربما مع « الجمعية » أيضاً لتأمين مشاركة الجميع في هجوم كبير على بوسطات العدو فى الوادي .. « وكادت الإستعدادات تتم – كما يذكر أبو عبدالله – في الرابع والعشرين من رمضان .. وإذْ بالأخبار تصلنا أن قوة قوامها تسعة آلاف رجل من جيش حكومة كابل قد تقدموا يريدون الهجوم على مواقع المجاهدين وقفل الطريق وإبادة القوة المتبقية في المنطقة .. فكأننا التقينا على موعد » .

كان الإخوة العرب لا يزالون أسرى انفعالات المعارك الماضية وحماسة الموقعة المنتظرة التالية .. حينما بدأ العدو بإرسال طائراته المقاتلة على ارتفاعات شاهقة منذ منتصف رمضان تقريباً وبشكل يومي لاستطلاع المنطقة وتحديد مراكز المجاهدين فيها من خلال تتبع مصادر إطلاق النار على الطائرات .. لكن المعلومات التي حصلت عليها الطائرات لم تكن كافية – كما يبدو – بعد أكثر من أسبوع على مهمتها .. ربما لارتفاعها الشاهق ولتوفر إمكانيات التمويه الطبيعية فى المنطقة .. لذلك غيّروا الوسيلة .. وفوجئت مواقع المجاهدين عصر يوم الأربعاء – الثالث والعشرين من رمضان بطائرتين عموديتين تحوّمان على ارتفاع منخفض مفتّحتا الأبواب .. بما قد يوحى ربما بنيّتهما الإستسلام .. لكن مضادات المجاهدين إنطلقت باتجاههما .. فهوت

إحداهما .. وتمكنت الأخرى من العودة بالمعلومات المطلوبة على الأغلب (١) .

لم تصل للعرب فى المأسدة أخبار تقدم القوة قبل الرابع والعشرين من رمضان (٢) .. عن طريق المجاهدين بالطبع ، لكن بداية التحرك سبقت ذلك بأيام .. ففي الحادي والعشرين من رمضان (٥/١٨) أقلعت من « غرديز » عاصمة ولاية « باكتيا » طائرة عمودية تحمل بعض كبار الضباط متجهة إلى « تشاوني » .. لكن قذائف المجاهدين انصبت عليها فور أن اقتربت .. فهوت على الأرض وقتل كل من كان فيها ، وغلب الظن بعدئذ أن الطائرة كانت تقل هؤلاء الضباط لوضع بعض الترتيبات الخاصة بالمعركة القادمة (٣) .. وفى اليوم التالي كان آخر تجمع للقوة فى « غرديز » حيث تجمعت ثلاث فرق : فرقة ثمانية « قرغه » ولاية « كابل » وفرقة ١٤ ولاية « غزني » وفرقة ١٢ « غرديز » ولاية « باكتيا » إضافة إلى خمس كتائب روسية منها كتيبة « كوماندز » .. إضافة إلى قطع متفرقة من سلاح المدرعات .. وقوة من المخابرات الأفغانية « خاد » وقوة من الشرطة المدنية .. وقوة من المليشيا (٤) ولم تلبث القوة أن تحركت على مدى الأيام المقبلة باتجاه « تشاوني » لتقع في الخامس والعشرين من رمضان في كمين للمجاهدين في منطقة « نارَيْ » أوقع فيها ما يقارب الثمانين قتيلاً واحترقت ١٢ سيارة (٥) .. ولكن القوة تمكنت من متابعة طريقها لتبلغ قلعة « تشاوني » حيث سينطلق من هناك الهجوم .

مساء الجمعة .. الخامس والعشرين من رمضان بدأت مقدمات الهجوم الذي بات وشيكاً .. وأكيداً ، حينما انطلقت راجمات صواريخ العدو وهاوناته ومدافع دباباته وطائراته تقصف المنطقة المحيطة بالطريق الذي ستمر منه القافلة لمنع المجاهدين من التعرض لها (٦) .. لكن البداية الحقيقية كانت فى الأيام التالية .. يقول الأخ البتّال : « كنا نعدّ الإفطار فى (غرفة الطائف) وكان أكثر الإخوة منتشرين في الموقع فأتتنا أول ما أتتنا قذيفة هاون في الخلف ، سمعنا صوت انفجارها لكننا لم نتأكد من موقعها .. بعد قليل توالت أربعة أو خمسة انفجارات مباشرة .. لو كانت (غرفة الطائف) مرتفعة مترين فقط لأتت القذائف فيها حتماً ! ولم يلبث الأمير أن طلب منا أن نتوزع .. وبدأ القصف يشتد لكن أحداً لم يصب بفضل الله ، وكان ذلك أول أيام القصف ٢٦ أو ٢٧ رمضان .. » وطوال تلك الليلة – ليلة السابع والعشرين من رمضان – كان رمي العدو بالمدفعية والصواريخ عشوائياً .. ما ترك قمة ولا وادياً إلا ووصل إليه .. وبزغ فجر اليوم السابع والعشرين ولم ينقطع القصف ، وكان النصيب الأكبر منه ينصبّ على مأسدة الأنصار ، ليستمر صباحاً بتركيز شديد ، فيما بدأت راجمات صواريخ المجاهدين « بي . إم . » بالرد المكثف على مواقع القوات المعادية وعلى تجمعات آلياتها ومدرعاتها ودباباتها (٧) .. ومع اشتداد القصف في اليوم التالي (٢٨ رمضان) وعندما أدرك الأخوة العرب فى المأسدة أنهم مستهدفون أمر أبو عبيدة غالبية الموجودين فيها بالعودة إلي العرين .. تخفيفاً من احتشادٍ لا معنى له ضمن نقطة محدودة مستهدفة . يقول أبو عبيدة : « قبل مجيئ القوات حصل قصف

رهيب بالصواريخ الكبيرة وبالطيران على المأسدة ، فعرفنا أننا مستهدفون ، وكان عددنا أكثر من سبعين بل ربما أكثر من مائة فكان لابد من تخفيف القوات الموجودة حتي لا يُقتل أحد بدون داعى .. وبالفعل أرجعنا أكثر من نصف الإخوة يوم ٢٨ رمضان ليلاً إلى العرين مع أن الضرب كان مستمراً فى الليل أيضاً .. ولم يتبق فى المأسدة صباح ٢٩رمضان إلا ٢٥ أخاً تقريباً ، وهو اليوم الذي اشتبكنا فيه مع العدو .. » .

لم يكن العدو الذي اعتاد مهاجمة المراكز الحدودية للمجاهدين سنوياً فى مثل هذا الوقت بعيداً عن معرفة الوجود العربي المتزايد فيها .. بل إن واحداً من أبرز أهداف هذه الحملة الجديدة على المنطقة كان – مثلما نقل أبوعبيدة وأبومحمود عن ضابط إشارة أسره المجاهدون وحققوا معه – « القضاء على مركز العرب الذي كان يضايقهم كالمخرز فى أعين الشيطان ! » .. لكن الأمر الذي لم تحسب القوات الروسية والأفغانية حسابه ولم تقدّر – مثلما لم يكن أحد من المجاهدين الأفغان أو العرب يقدّر كما ينبغي دوره وأهميته – كان في تحقيق الوجود العربي على هذه الرقعة الجبلية المتقدمة تفوقاً ما اعتادت القوات المعادية في كل هجماتها السابقة حدوثه .. أو تمكن المجاهدين منه ، في الترصد والمراقبة .. وفى المبادرة – من ثمّ – بقرارات الدفاع المتبصّر الواعي .. لا البقاء – كما حدث في معارك السنوات الماضية – تحت رحمة الظنون والتقديرات العشوائية ، والإنغلاق على دوائر مشاهدةٍ محدودةٍ لساحة العمليات . يقول أبو حفص : « فى كل سنة مضت كانت القوة تهاجم هذه المنطقة .. وكانت إشاعات بعض المنافقين والمرجفين تخرج معها وتنتشر بتدبير منها : القوة هنا .. هنا .. لا هنا .. فالأحزاب لم تكن تتابع الموقف أو تعرف ما الذي يحد بدقة ، ولذلك كانت معنويات المجاهدين تنهار وينسحبوا .. وتشن القوة حملتها التأديبية بنجاح وتستولي على بعض المواقع .. ثم تعود مرة أخرى ، أما فى هذه المرة فكانت نقاط إنذارنا الإثنتين تعطيانا الموقف أولاً بأول .. الأولى : فوق (قباء) والثانية : أسفل (بدر) وهذا ساعدنا كثيراً جداً جداً على التعامل مع المتغيرات .. » وفي هذا الصدد يقول أبوعبدالله أيضاً : « قدّر الله سبحانه وتعالى أن يكون موقع المأسدة هو أول نقطة باتجاه العدو وأول معسكر فى مواجهته ، وكان لهذا إيجابيات وسلبيات ، أما إيجابياته فكنا نرصد جميع تحركات الأعداء ، سواءاً بالمعدات الثقيلة أو بالأفراد ، وكنا بذلك عيناً لعموم المجاهدين والأحزاب المتواجدة فى المنطقة ، ومن فضل الله كنا نخبرهم بواسطة أجهزة اللاسلكي بتحركات العدو وبالوقت المناسب للضرب عندما يتقدم لمسافة تصلها كل أسلحة المجاهدين .. إلا أن وجودنا كأول معسكر باتجاه العدو جعله يركز ضرباته الشديدة علينا بشكل جنوني في مسعى منه لكسر أول نقطة للمقاومة حتى يحطم معنويات المعسكرات الأخرى وينشر الرعب والذهول فيهم ، ويأخذ بالتالى – إذا ارتقى جبل المأسدة – مفتاح المنطقة التي وراءها حتى يصل إلى الطريق الأساسي لإمداد جميع المجاهدين فى تلك المناطق ، وهو أهم طريق لدخول المدد إلى داخل أفغانستان .. » .

* * *

صباح التاسع والعشرين من رمضان ، كان العمل مستمراً فى تحصين مواقع المأسدة المختلفة وتهيئتها لاستقبال الهجوم الذي بات وشيكاً ، فى الوقت الذي استمر القصف المعادي يطال السلسلة الجبلية الممتدة من واجهة المأسدة وحتى مراكز المجاهدين الخلفية قرب الحدود مع الباكستان ، وبُعيد العصر .. وفي الوقت الذي تميل الشمس فيه إلى جهة الغرب – حيث تتمركز القوة في « تشاوني » – فتعيق المجاهدين – كما يُفترض – عن رؤية تحركات العدو بوضوح .. تحركت آليات القوة ومشاتها عبر الوادي السيلي باتجاه المراكز الحكومية المتتالية على امتداده حيث تبدأ بُعيد ذلك « أرض المجاهدين .. » لكن رصد الإخوة العرب في « قباء » التى ترتفع فوق المأسدة لأكثر من مئة متر .. وتطل على الوادي الذي تتقدم فيه القوة بارتفاع يجاوز المائتي متر ويزيد .. كان كافياً ليسجل أولى تحركات للعدو .. علاوة على موقع الرصد الآخر تحت « بدر » حيث يكشف الوادي وعدداً من بوستات العدو المنتشرة عليه ، وسرعان ما وصلت الإشارة الى غرفة قيادة المأسدة حيث استلم أبو محمود مسؤولية الإتصالات اللاسلكية ، وبلّغ النبأ من فوره لأبي عبدالله وأبي عبيدة والشيخ سياف .. وعاد فتلقى أمر أبي عبيدة لعبد الرحمن الذي كان على راجمة الصواريخ (بي . إم . ١٢) وعلى الهاونات ينتظر الأمر بالإطلاق :

– من ٢١ إلى واحد .. هل تسمعني أجب ؟

– أسمعك جيداً . أجب .

– الموقف يتطلب أكثر من راجمة للصواريخ . أعتقد أن الدبابات تقدمت .

– نحن بأمرك . نعطي الأوامر لعبد الرحمن ليبدأ ؟

– الآن الجبال من عندنا حالت بيننا وبين الرؤية .

– إيش رأيك أتصرف أنا ؟

– عندنا إثنين راجمة صواريخ أم واحدة ؟

– نعم عندنا راجمة ثانية . ما أدري أين موضوعة . القومندان يعرف أين . وعندنا ٥٠ مرمي داخل الديبو . ووصلني ١٢٠ إلى قومندان عبدالسميع فماذا تريدني أن أتصرف ؟

– .. تزود المرمي عندنا عشان بدأت الدبابات تتقدم . وتكلم الشيخ يُرجِع عندنا راجمة وصواريخ كثيرة إن شاء الله .

– الآن . أبشر .

كان ذلك فاتحة الحوار اللاسلكي المسجل بين أبي عبيدة في موقع الترصد وأبى محمود في « القيادة »[٨] .. ومن فوره تحوّل أبو محمود بالنداء إلى المخازن الخلفية فى العرين على رقم إثنين وإلى مركز الشيخ سياف على رقم خمسة وإلى « قباء » .. فأتاه الردّ الأول من « قباء » :

- خرجت الدبابات من القرية قبل قليل وهي متجهة إلى هنا .. وأطلقت قذائف .

.. ولم يطل بالأخوة الأمر .. فالعدو في حركة متسارعة نحوهم وقد أصبح فى مدى راجماتهم (التى تبلغ تسعة كيلو مترات) وما لبث القصف أن بدأ بـ « هدايا » متفرقة لتصحيح الرصد وتسديد الزوايا .. في الوقت الذي اتصل أبو محمود مع الشيخ سياف فى غُنْده .. واستأذنه - باسم أبي عبد الله - أن يستلم الإخوة العرب الراجمة الأخرى من الأفغان ، وطلب مرة بعد مرة أن يرسل إليه « مع أقرب دابة قادمة بعض البرسيم »[٩] .. وبعد نصف ساعة أكد أبومحمود على الأخ خالد - في مركز الشيخ سياف - أن يبدأوا باستعمال الراجمة بعيدة المدى من المركز على بوستات العدو وعلى القوة المتقدمة التى بلغت خمسين سيارة تقريباً وأصبحت بين « علي خيل » و « باني خيل » .. عدا عن ثماني دبابات كانت قد تقدمتها .. وتلتها ثمان أخر - كما أفاد رصد « قباء » - .. وبعد ما صحح أبو عبيدة للراجمات وللهاونات طلب من الجميع التجّهز لتلقي أمر البدء بالقصف .. بانتظار أن يصحح لقذائف الشيخ سياف الأولى .. لينطلق الجميع مشتركين .. فيما كان أبوعبد الله يتابع من غرفةٍ تحت « موقع الزيكوياك » محادثات الأطراف جميعاً ويشارك في التصحيح والتسديد وفي الإشارة بالرأي .. ولم تلبث القذيفة الأولى التي انطلقت من مركز الشيخ سياف أن سقطت علي مركز « النايمة » ووصل إلى أبي محمود - وبجانبه الشيخ تميم الذي وصل قبل دقائق إلى المأسدة قادماً من غند سياف .. - وصل صوت أبى عبيده من موقعه في الترصد يقول : « الضربة التي ضربت على (النايمة) توجد إصابات بين الجنود .. » وتتعالى التكبيرات من الإخوة تنقلها أجهزة اللاسلكي إلى أبعد مدى .. ومرة أخرى يرسل عبد الرحمن من مركز عبدالسميع ١٢ قذيفة من راجمته .. فينادي « قباء » : « السيارات تهرب من أمام (أم الخنادق) .. السيارات تهرب .. علم ؟ » ويصدر أبو عبيدة الأمر للهاونات أن تبدأ أيضاً ، في الوقت الذي يشتد الرمي المعادي على المأسدة ويرصد أبوعبد الله من موقعه طائرة هليوكبتر تقترب من المكان .. فيأمر بتحضير (الأر . بي . جي) إستعداداً للرمي عليها .. وكذلك (الستكا) ، وتعود صواريخ عبدالرحمن الإثنتى عشر تنطلق مرة بعد مرة .. ويصيح أبوعبيدة من مرصده : « الله أكبر .. الضرب ممتاز .. ممتاز .. ممتاز » ويعلو التكبير .. ويأمر أبو عبيدة الهاونات بالبدء ثانية .. ويعود صوته عبر الجهاز يقول : « ما شاء الله . ما شاء الله . ممتاز . ممتاز » ويعود التكبير .. ويسأل أبوعبيدة : « الهليوكبتر أين إتجاهها الآن ؟ » فيجيب أبوعبد الله : « كانت تحوم حول (سيد خان) ولانراها الآن .. » ثم لا يلبث أن يقول بعد دقائق : « إنها عادت » وبدوره يلحظها أبوعبيدة فينادي بالأخوة عبر الجهاز : « الطائرة كاشفة ولاداعي للحركة . التصوير دقيق .. » ومع اشتداد القصف يأتي صوت أبي عبد الله ثانية عبر الجهاز

: « إدّرعوا بالأرض . بدأوا بضرب تأسيسي على السفح ... يبدو أن ضرب عبدالسميع آذاهم فهم يردون بشدة . عُلم ؟ » ومن جانبه ينادي أبوعبيدة على عبد الرحمن ليجهز راجمته لأن هذا الضرب حتى تستطيع القافلة أن تسير .. ويعود أبوعبد الله ينادي : « على جميع المراكز أن يدّرعوا جيداً من هذا القصف . لأن القصف تمشيط للمركز . عُلم ؟ » .. ويستمر قصف العدو لفترة ولكن صواريخ المجاهدين الأفغان والعرب وقذائفهم لا تتوقف .. وبُعيد الساعة السادسة يصل أبوعبد الله إلى غرفة القيادة ليصلي العصر ، ولا يلبث أن يصل صوت أبي عبيدة من مرصده : « ضربة (البى . إم . يك) من الشيخ جاءت في القيادة بالضبط » .. وبعد دقائق يعود صوت أبى عبدالله يأتي من مرصد آخر عبر الجهاز ينادي : « أبو عبيدة .لعلك ترى بعض الجنود يمشون على يمين (أم الخنادق) في الطريق .. » لكن أبا حفص هو الذي يتولى الإجابة هذه المرة – بعدما ذهب أبوعبيدة للصلاة فيوجه القواذف ويصحح الرمي .. وفيما يقترب الوقت من الغروب يرسل الشيخ تميم الذي استلم جهاز المخابرة تقريراً عن آخر الأوضاع إلى مركز الشيخ سياف يقول فيه : « كانت هناك بعض السيارات المتقدمة نحو البوستات . وحصل ضرب مباشر أمامها واضطرت للتراجع . الضرب جاء على الطريق فتراجعت بعض السيارات .. وبعض السيارات دخلت . عُلم ؟ » .

ويُجمل أبوعبيدة محصلة التراشق الصاروخي ذلك اليوم والحال التي انتهت اليه القوة وقد حلّ المساء .. ويقول : « كان الإخوة موفقين في ذلك اليوم والحمد لله .. وعلى مرأى ومسمع منهم كانت الدبابات والسيارات تهرب في كل مكان ، وحدث هرج ومرج شديد بين الجنود ، ورأينا سيارات الإسعاف تأخذ من العساكر ثم تنسحب مرة أخرى إلى (تشاوني) .. وكانت القذائف تلاحقهم حتى الغروب .. حينما توقفوا وراء الجبال بانتظار حلول الليل .. لتنزل القوات التي لم تنسحب إلى (تشاوني) متسللة إلى المراكز .. والحمدلله – وكما روى الأسرى بعد ذلك – فإن الجنود والروس عندما نزلوا من السيارات وأرادوا دخول مراكز العدو مشوا على الألغام التي زرعها جنود الحكومة أنفسهم حول البوستات ، فأصيب وقتل الكثير منهم والحمدلله » وفيما لم يصب من الإخوة العرب طوال الأيام الماضية أحد – بفضل الله – ورغم اشتداد القصف وتركيزه على المأسدة ، فإن يوم التاسع والعشرين من رمضان شهد استشهاد الرائد عبدالوهاب ، المسؤول العسكرى لولاية (جاجي) لدى تنظيم الإتحاد ، على أرض المأسدة نفسها .. حينما سقط بجواره أحد الصواريخ المعادية .. فاستشهد في الحال (١٠)

كانت الأمور لا تزال صبيحة الثلاثين من رمضان هادئة فى ظاهرها بعد عدة أيام من ابتداء تقدم القوة نحو (جاجي) .. وفي الوقت الذي كان الكوماندز السوفييت يتحركون باتجاه المأسدة معتمدين على خبرة تخصصية لا تضاهى ، وكثافة نارية لا تجارى .. كان أبوعبيدة يتحرك من موقع غرفة « المتقدمة » نحو غرفة « بدر » في الطرف المقابل من المأسدة لملاقاة أبي عبدالله .. يقول أبوعبيدة : « كان أكثر الإخوة

مستنفرين طوال الليل وقلقين يحسون أن هجوما وشيكاً بات قريباً منهم .. وأما أنا فكنت في (المتقدمة) خلال الأيام الأخيرة باعتبارها أقرب موقع للعدو ولا بد أن أبقى مع الإخوة هناك .. بينما نام أبو عبد الله ليلته تلك في (بدر) .. أي على طرفي التماس مع العدو ، فتقابلنا الساعة السادسة صباحاً وهو قادم إلى (المتقدمة) فقلت له : سأنزل بجولة سريعة على الإخوة .. وأنا أمشي سمعت أخانا أحمد شاه ترصّد (بدر) يقول : هناك قوات بدأت تصعد طريق (أم الخنادق) على جناح (عبد السميع) .. فلما أردت التأكد رأيت القوات طالعة بالفعل .. عشرة عشرة عشرة .. يتقدمهم عنصر ترصد واستطلاع ، وكان الإتفاق بيننا أن صاحب (الزيكوياك) إذا حصل هجوم على المأسدة أن يضرب ثلاث دفعات من مدفعه فتكون هذه إشارة استنفار للجميع .. وأن هناك خطر داهم على المركز ، فالحمد لله إتصلت بالأخ لاسلكياً وقلت له : هناك إنزال من بعض طائرات الهليوكبتر على ميسرة المأسدة فوق التباب على امتداد (أم الخنادق) .. فأطلق ثلاث صليات ، لكن الإخوة من شدة التعب لم يكونوا قادرين أن يصحوا .. لدرجة أنني قلت لأحدهم بنفسي : هناك روس .. وهو لا يستطيع النهوض من التعب ! لكننا والحمد لله بدأنا ننظم صفوفنا من جديد .. وأصبح الإخوة كلهم في حالة الإستعداد القصوى .. » .

من موقعه فوق جبل « قباء » كانت الصورة لأبي زياد المكي هناك أوضح .. وأشمل .. وسرعان مالحظ اشتراك طائرات الهليوكبتر في إنزال مجموعات الكوماندز السوفييت على التلال المؤدية إلى المأسدة قبل أن يتقدموا عليها راجلين متتابعين . يقول أبو محمود حيث كان لايزال في غرفة القيادة يتولى مسؤولية المخابرة المركزية : « جاءنا من أبي زياد في (قباء) أن هناك تحركات مشاة باتجاه التلال الفاصلة بين البوستات والمأسدة .. كانت الطائرات تنزلهم على التلال البعيدة بجانب البوستات ثم يتقدمون بحركة سريعة نحونا .. وأمامهم تمهيد نيراني من الهاونات ومدافع (الهاوتزر) .. وفعلاً تم التنسيق ما بين (قباء) و (بدر) في الرصد فتبين لـ (بدر) مباشرة أن المشاة روس : أشخاص حمر .. طوال .. تنزلهم الطائرات بيننا وبين (أم الخنادق) مكان العملية التي كنا بدأناها في شعبان الماضي .. لكن وللأسف لم يكن هناك مجاهدون في هذه اللحظات .. وتمكنوا من التقدم مباشرة حوالي ٢ كم دون أي مقاومة » ! ومن جانبه يزيد الأخ حمزة فيقول : « كنت مع أبي عبد الله حينما اشتد القصف علينا ، وإذْ بالطائرات على ميسرة المأسدة مقابل (المتقدمة) تُنزل مجموعات الجنود .. أظنها أربع طائرات ، لكنها كانت بعيدة عنا فلم يحدث اشتباك بيننا وبينهم ، ولكن أعتقد بأن أحداً كان يقصف عليهم بالهاون [١١] .. وقتها كان أبو عبد الله قد طلب مني أن آتي ببعض الأغراض وألحق به إلى (المتقدمة) .. وعندما رجعت أصيب الأخ أبو برهان السوري – أخ آخر غير المدرب – والأخ عبد الحميد السوداني بشظايا هاونات في ظهورهم – وكانا على الخط الأول يحرسان خوفاً من الإلتفاف – فقمت أنا والأخ عبدالرحمن السعودي بنقلهم إلى الخلف ، وكان الدكتور صالح الليبي رحمه الله هناك فأجرى لهم علاجات وإسعافات أولية .. ثم نقلناهم إلى العرين .. ومن ثم إلى (برجنار) .. » .

أدرك أبوعبيدة – المسؤول العسكري عن المأسدة – أن اقتحاماً وشيكاً على المركز لابدّ وأن يحدث لو لم يبادر بإجراء وقائي مضاد .. وفي وضع كهذا لا يتواجد فى المأسدة كلها سوى بضع وعشرون من الإخوة العرب .. كان لابدّ وأن يكون الإجراء نوعياً .. وفاعلاً .. ومركزاً . يقول أبو عبيدة : « عندما رأيت مجموعات الكوماندز طالعة باتجاه(تبة عبدالسميع) قدّرت أنهم يريدون أن يصلوا إلينا .. فأنزلت مجموعة من الإخوة لعمل كمين لهم فى الأسفل بقيادة أبي حفص .. وعملنا تشكيل دفاع دائري حول المعسكر .. وكان عددنا ٢٥ تقريباً ، وأما أنا فرأيت أن أذهب إلى (تبة القيادة) جوار المأسدة بحوالي ٣٠٠ – ٤٠٠ متر أفقياً لنترصد من هناك على أساس أن لدينا طرفان للدفاع : (المتقدمة) و (الكمين) .. وبالفعل نظمنا أنفسنا ، ووقفنا أنا وأبو عبدالله ومعنا الأخ خضر وعثمان السعودى رحمه الله في (تبة القيادة) فكنت أشاهد القوات الصاعدة عشرة تِلْوَ عشرة يتحركون باتجاه موقع الإخوة في الكمين يتقدمهم دليل أفغاني من المنافقين .. لكن ومن كثافة الشجر اختفوا في منطقة معينة وما عدنا نستطيع مشاهدتهم .. فقلنا للهاون : إضرب فى هذا المكان .. لكننا ومع الضرب كنا نشعر بوجود كمية كبيرة منهم أسفل منا دون أن نراهم بالتحديد أو نعرف حجم الإصابات فيهم .. » ويتابع أبو عبيدة : « فجأة بدأ القصف على (تبة القيادة) التى نحن عليها .. قصف رهيب .. بتركيز شديد ودقة فائقة ، وبين الضربة والأخرى لا نستطيع أن نأخذ النفس ! عن يميننا وشمالنا ، ومن تحتنا وفوقنا ! حتى لم يعد بيننا وبين القذيفة سوى متر واحد ، لكننا وبفضل الله كنا متدارين بين صخرتين نحن الأربعة فوق رأس التبة وفي مكان مساحته أقل من متر واحد ! وكل منا جالس القرفصاء .. يتشهد ! ولا أعتقد أن أحداً من الناس الذين فى المأسدة كان يظن بقاء كائن حي في هذا المكان من كثافة الضرب ! فخلال نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة التي عشناها في هذا الوضع ، أُطلق علينا ٢٠٠ قذيفة على الأقل .. ويبدو أن بعض المجاهدين الأفغان أرادوا التدخل .. فما كاد ثلاثة أو أربعة منهم يصلون تحتنا حتى قُتل واحد منهم على الأقل أنا متأكد منه .. وربما يكونوا أكثر من واحد ، وقتها أبوعبد الله أخذ رأيي : ماذا نفعل ؟ فقلت له : لابدّ أن ننسحب من هذا المكان وبسرعة لأنه مستهدف .. فأصبحنا ننتظر ولو ربع دقيقة يسكتوا فيها لننسحب ، وبالفعل توقف الضرب لبرهة . فقلت : أنظرُ مرة أخرى على العدو بـ (الدربيل) فوجدت القوات لا تزال صاعدة .. ورأيت وأنا أنظر طلقة (كلاكوف) انطلقت بيني وبين أبي عبدالله .. مرّت – واللهِ – بين اللحية ودخلت فى الصخرة التى نحتمي بها .. وعادت فعملت شظية بسيطة لي فى الفك ! واستؤنف الضرب مرة أخرى ، ويبدو أنهم شاهدونا فعلموا أننا لا نزال أحياء فأعادوا القصف الفظيع هذا لربع ساعة أخرى .. سكنوا بعدها ما يقرب من نصف دقيقة ، فما كدنا نسرع بالهرب نحو (المتقدمة) بمقدار عشرة أمتار فقط حتى عاد الضرب من جديد لكننا بحمد الله وصلنا بسرعة ، وعندما إلتفتُ إلى (تبة القيادة) وجدتهم أصبحوا فوقها ، فظننت بادئ الأمر أنهم الإخوة المجاهدون ، فوقتها كانت مجموعة أفغانية

من الشيخ سياف وحكمتيار وصلوا المئسدة للدعم .. لم أكن لأتخيل أبداً أن العدو هو الذي طلع التبة بهذه السرعة .. خلال دقيقتين فقط ! إذاً هم كانوا بجانبنا !! وما تصورت هذه الدقة من التدريب : المشاة صاعدون وهؤلاء يضربون بالسلاح الثقيل ! مهارة عجيبة حقاً .. وأمر لا يمكن لعاقل أن ينفذه بهذه الطريقة .. » ويضيف أبوعبيدة : « في الوقت الذي وصلنا فيه (المتقدمة) كانت مجموعة من المجاهدين الأفغان قد وصلت أيضا من جماعة الشيخ سياف والشيخ قلب الدين ، حوالي ٣٠ - ٤٠ من كل جماعة .. وكان ذلك من العيوب الخطيرة برأيي .. صحيح أن الناس كلهم حمدوا ذلك لكنني ذممته ، لأن هؤلاء الذين وصلوا ليسوا من أهل المنطقة ، ولا يعرفون المكان .. وقياداتهم باتت متعددة .. عدا عن العرب ، وإذاً فالتنسيق بيننا وبينهم غير موجود ، والعمل معهم سيكون صعباً .. [١٢] وفي المقابل تتقدم علينا مجموعات من الكوماندوز الروس المنظمين ، لو عرفوا حقيقة حالنا لجروا نحونا جرياً ! لكن العدو كان قد أصبح على قمة (القيادة) وكنت متفقاً مع أخينا سيف الله على (الجرينوف) أنه إذا سمع مني الأمر يضرب على طول ، فلما نظرت مرة أخرى إلى (تبة القيادة) بالمنظار لأتأكد وجدتهم جنود كوماندوز يلبسون الخوذ ويمشون بشكل عادي جداً هناك إعتقاداً منهم أن الأمور انتهت بعد كل هذا القصف العنيف .. فقلت لأخينا : إضرب على القمة فوراً .. لكنه لم يضرب ! إضرب : لم يضرب ! إضرب : لم يضرب !! فظننت أن هنالك شيء .. وعلى الفور بدأت الضرب بـ (الكلاشنكوف) .. فما أن رأني الإخوة كذلك حتى فتحوا النار جميعاً وألحقوها بـ (الآر . بي . جي) .. أما الإخوة الأفغان الذين وصلوا فـ (ناراي تكبير) ولا توصيهم بشيء بعدها ! وبأعيننا هذه رأينا واحداً منهم سقط .. تبعه قتيل آخر .. وسارعوا من فورهم بالإنسحاب للخلف .. فيما كان الإخوة من جانبنا مستمرون في الإطلاق .. وكان الأخ خضر يحمل (الآر . بي . جي) على كتفه وهو ينشد الأناشيد .. ويضرب ! فكلما نظرت إليه أراه يغني ! أما الأخ الذي كان على (الجرينوف) فعلمت بعدها أنه كان قد جهّز طلقة بالفعل في بيت النار استعداداً للإطلاق فور أن يصله الأمر ، لكن الأخ الذي أتى بعده خاف أن يصاب أحد خطأ فسحب الطلقة ، ولذلك داس على الزناد بالفعل لما طلبت منه الرماية لكن شيئاً لم يخرج ! وقتها أحسست أن هناك هرج ومرج عظيم .. لا يوجد تنظيم بالمرة ! وإذا كان الواحد يستطيع أن يتحكم في أفراده وإخوانه الذين معه ، إلا أن الإخوة الجدد الأفغان كانوا يسمعون كلام قادتهم لا كلامي ، فلقد كان واضحاً أن العدو الذي أحس بوجود مقاومة في هذا المكان سيحوّل قوته النارية عليه حتماً ، ولذلك نصحت الجميع بالنزول أكثر من مرة ، وكان معي أخونا عثمان - الذي بُترت رجله أخيرا - ومنصور رحمه الله الذي كان يضرب على الهاونات ، فقلت لهما : تعالا ننزل إلى داخل الغرفة لنفكر جيداً .. وكان أبوعبد الله معنا حتى ذلك الوقت على الهاون في (المتقدمة) مع منصور .. بيني وبينه ١٥ متراً فقط .. وقلت للإخوة الأفغان والعرب : إنزلوا الخندق جميعاً ولا يبقى منكم إلا واحداً أو اثنين للترصد لأن الضرب سيبدأ علينا الآن .. فاستجاب العرب والحمد لله وبعض الأفغان ، ولم تمر ثانيتين أو ثلاث وأنا تحت إلا وأسمع صوت قصف

رهيب – وكان توقعي في محله – تبعه صراخ من الأعلى ، فلما توقف الضرب قليلاً صعدت بسرعة فوجدت أربعة أو خمسة من الأفغان استشهدوا مكانهم : أحدهم جسمه مقسوم إلى نصفين .. شطره معلّق على شجرة قريبة .. ومعه (جرينوف) خفيف .. ولم يكن قد فارق الحياة برغم ذلك حتى وصلنا إليه .. أمام ذلك قررت أن أرجع بالناس قليلاً إلى الخلف .. إلى منتصف المأسدة ، وأنا فى طريقي إلى منتصف الساحة قابلت أبا عبد الله ثانية فأخذ رأيي : ماذا نفعل ؟ هل ننسحب ؟ وكان رأيه وقتها بالإنسحاب . واستدل بحالة سيدنا خالد في (مؤته) .. لكن القرار كان صعباً على نفسي فقلت له : نصبر ، دعنا نجهز الأشياء الثقيلة والعتاد الذي لدينا وننزلها أولاً ، وأما الأشخاص فليصبروا قليلاً .. لكنه رأى أن ينزل الناس أولاً ، وأما الأشياء الموجودة فنحاول أن ننزلها .. نحاول .. وقال : لابدّ أن ننسحب » .

*　　*　　*

فى هذه الأثناء كانت مجموعة الكمين التى نزلت بين الأحراش الملتفة أسفل المأسدة قد اقتربت جداً من أفراد العدو المتقدمين – بعدما تفقدتهم بادئ الأمر – حتى فكر أبو حفص بالإغارة عليهم قبل أن يتمكنوا من التمركز والإستحكام .. ولكن .. يقول أبوحفص : « نزلنا أمام المأسدة لنعمل بعض الكمائن في المنطقة وكنا تسعة أو عشرة بينهم الأخ عبدالرحمن صاحب الهاون ، والأخ محمد صلاح السوري ، وعبدالله المصري ، وبشير المصري ، وأبو عماد السوداني .. لكن كثافة الأشجار كانت مشكلة حقيقية ، فالمناطق الميتة كثيرة جداً ، ومدى الرؤية بات قصيراً جداً ، وعندما تقدمت بعض قوات المشاة كان الإخوة فى الأعلى يوجهوننا بواسطة أجهزة اللاسلكي ، فأخترت بعض الأماكن إستعداداً للكمائن ، لكنهم – ونتيجة هذه الكثافة من الأشجار – تقدموا من منطقة لم نرهم فيها ، واتجهوا إلى (تبة القيادة) التى كان عليها أبو عبيدة وأبو عبد الله وطلعوا عليها من الخلف .. ويبدو أنهم اكتشفوا وجود الإخوة فوقها فاتصلوا بمدفعيتهم لتبدأ بقصف الموقع قصفاً شديداً جداً إضافة إلى (المتقدمة) .. حتى إذا هدأ القصف قليلاً تمكن الإخوة من الإنسحاب عن (تبة القيادة) .. لتتقدم بعض قوات العدو ثانية ، فبدأ التعامل معهم من المأسدة بـ (الجرينوف) .. أمام ذلك اتجهوا لأسفل التبة ثانية من الجهة التي كنت أنا والمجموعة فيها .. فاشتبكنا معهم أيضا وحققنا فيهم خسائر أخرى .. فانسحبوا ثانية وعادت المدفعية تقصف على الإخوة فى (الغرفة المتقدمة) قصفاً شديداً .. فبدأ أبوعبد الله بسحب المجموعة من هناك .. فى هذا الوقت أرسلت أخوين من المجموعة التي معي هما الأخ بشير والأخ عبدالله المصرى – والإثنان قُتلا بعد ذلك – لعمل استطلاع للموقع من خلف (تبة القيادة) مرة أخرى .. فاقتربا جداً من العدو وأخبرانى بأنهم يحاولون حفر خنادق هناك .. وأنهم يتكلمون لغة يظنونها الروسية ، كما أعطياني تصوراً بأن عددهم لم يكن كبيراً فى البداية ، فاتصلت بالإخوة فى المأسدة وقلت لهم

: إننا نستطيع عمل التفاف عليهم من الجانب أو من الخلف .. ويفضل أن يكون ذلك الآن لأننا إذا تأخرنا يوماً آخر فسيتخندقوا ويتمركزوا - خاصة إذا كانوا روس - وسيكون طردهم من المنطقة مشكلة بعد ذلك ، لكن أبا عبد الله كان قد تشاور مع أبي عبيدة .. ثم تشاورا معي بقرار الانسحاب .. فالإخوة الذين كانوا معي كاد أن يُغمى عليهم عندما سمعوا خبر الإنسحاب ، لكن أبا عبدالله كان مصمماً .. فحاولت مع الإخوة كثيراً .. وبدأت أقنعهم أن الخير في طاعة الأمير .. ونفذنا الأمر .. ووصلنا المأسدة بعد العصر ومع اقتراب نهاية اليوم فوجدت مجموعة صغيرة جداً باقية من الإخوة ، وبعضهم انهارت معنوياته فبدأ يرمي سلاحه من الضيق ومن الحالة النفسية التي وصلوا اليها .. بينهم صخري وذبيح رحمهما الله .. أما أبوعبدالله فكان قد انسحب بأكثر الإخوة » .

* * *

فى غرفة القيادة على ميمنة المأسدة كان قد أُسقط بيد الشيخ تميم وفشل فى أن يشارك فى المعركة مباشرة لاعتبارات عديدة أهمها ثقل وزنه - رحمه الله - وبعدما استلم أبو محمود أمور المخابرة منذ فجر ذلك اليوم وجد الشيخ تميم نفسه بدون عمل .. فى ظرف ينطق من هوله الحجر .. وعلى رقعة من الأرض تبذل فيها المهج والأرواح .. فكان قراره المبادرة ولو بمفرده لطلب الشهادة .. واختلاق الظروف - ولو لم تكن مواتية - لنيل المنيّة فى سبيل الله ! يقول رحمه الله : « كنت قد سهرت طوال الليل على جهاز اللاسلكي ولم أنم إطلاقاً ، فلما أيقظت أبا محمود عند صلاة الفجر نمت ساعتين وأمسك هو الجهاز ، فلما استيقظت طلبت منه الجهاز ثانية فما أعطاني إيّاه وقال لي : أنا صاحي .. وبقى معه . ماذا أفعل ؟ طلبت من أسامة بن لادن جزاه الله خيراً أن أشارك في العمليات إلى الأمام فرفض أيضاً وقال لي : جسمك ثقيل ولا تستطيع . رجوته فأصر وقال : طاعة الأمير واجبة ، فاضطررت لطاعته .. وبدأت أسمع اصوات الإشتباكات والضرب ، وكنت أتمنى الشهادة فى هذا اليوم ، فخرجت الى شجرة بجانب (غرفة القيادة) فكتبت وصيتي .. وجلست أتلو من كتاب الله وأنا أنتظر الشهادة ، والقذائف والقنابل والهاونات تنزل حولي وبعضها لا ينفجر ، والشظايا تتطاير والدخان يملؤ المكان والطائرات ترمي - والله -والدبابات .. وأنا أقول : لعلها الشهادة فى رمضان .. آخر يوم فيه يا رب .. حتى تلوت سبعة أجزاء خلال أربع ساعات ونصف : من التاسعة والنصف تقريباً إلى الظهر أو ما بعد الظهر .. حتى الواحدة والنصف أو الثانية ، بعدها جاءت قذيفة طائرة قريبة جداً اهتز لها المكان واهتززت بنفسي .. فخرج أبو محمود من الغرفة في الأسفل يصيح : من أجل الله إنزل .. وهو يسحبني بالقوة خوفاً عليّ .. فنزلت ، ومن شدة التعب والإستمرار فى السهر نمت قليلاً .. وإذْ بأسامة بن لادن يوقظني وهو يقول : هيا .. إنسحاب كامل . كيف ؟ .. إنسحاب ؟! صرت أبكي وأشدّ شعر رأسي

ولحيتي وأقول له : ياشيخ إتق الله .. ماننسحب . شعرت بالخزي وقتها .. فكيف ننسحب والمأسدة نحن بنيناها بأكتافنا وعرقنا وتعبنا فيها حتى أصبحت من قلوبنا .. لكنه قال لي : أنت آثم إذا لم تنسحب ، وهؤلاء الشباب الذين فى السيارة كلهم فى رقبتك لو جاءت قذيفة هاون الآن وقتلتهم .. أنت مسؤول عنهم . فاضطررت أن أركب معهم لننزل تحت القصف الرهيب إلى العرين .. لكنني ازددت يقيناً من ذلك اليوم أن الانسان لا يموت قبل أجله » .

* * *

كان قرار الإنسحاب من المأسدة بمثابة المفاجأة للجميع .. فعلى مدار الشهور الماضية كان العرب المتواجدون فيها يُمنّون أنفسهم ببلوغ مثل هذا اليوم الذي يتصدون فيه لقوة العدو في موقع لم يعتد مواجهة المقاومة فيه .. ليحركوا فى مجاهدي المنطقة المبادرة بالتقدم على مراكز الشيوعيين ومواقعهم بدل انتظار قدوم القوة على مشارف معسكراتهم كما يحدث في كل عام .. وها هو اليوم المنتظر قد حلّ ، والمعركة لاتزال فى بدايتها ، والمواقع والإستحكامات والإمكانيات التي بين أيدي العرب غير قليلة .. فلماذا يكون الانسحاب ؟

يقول الأخ أبو محمود : « أعتقد أن التقدم السريع والمباشر للعدو شلّ حركة الإخوة خاصة في (المتقدمة) .. وعندما رآهم أبو عبد الله من هناك مصرّين على التقدم تراجع بالإخوة خوفاً على أرواحهم .. ثم ارتأى أن يكون الإنسحاب كاملاً من المأسدة .. » ويضيف الأخ أبوحفص : « عندما أَبْلَغَنَا الإخوة بقرار الإنسحاب ونحن لا نزال أسفل المأسدة فى الكمين أوّلت الأمر بأن هذه أول مواجهة لنا بهذا الحجم ، وأن شدة القصف مع قلة الخبرة جعلت أبا عبد الله يصمم بالفعل على الإنسحاب ، لكنني كنت أقارن وقتذاك بين القصف الذي يحدث هنا على المأسدة فى الأعلى والقصف الذي حدث في (جاور) من قبل فلا أرى هذا إلى ذاك شيئاً يُذكر ! » .. ومن جانبه يقول أبوعبيدة : « لم أكن فى داخلي مستريحاً لأمر الإنسحاب بالمرّة .. لأننا – أولاً – تعبنا فى هذه المأسدة تعباً يشهد عليه الله سبحانه . ثانياً : لو أن العدو تمكن من دخولها فستبقى له حصناً حصيناً وستكون شوكة في ظهر المجاهدين ، وسيصبح الطريق منها مفتوحاً أمامهم لو أحبوا أن يصلوا إلى بشاور بالدبابات ! وثالثاً : هذه أول معركة وأول محك كبير بين العرب والعدو ، والنصر فيها سيكون نقطة تحوّل رهيبة لصالح المنتصر لا يعلمه إلا الله .. لكن أباعبد الله أصرّ .. » ويتابع أبو محمود : « كان القرار بالانسحاب كالصاعقة على الإخوة .. وأنا ذهلت حقيقة حينما سمعته وقلت لأبي عبد الله : فلنتروَّ حتى نرتب الأمور .. نسحب الإخوة .. نسحب المواد على الأقل ، فصرخ بوجهى وتكلم معي كلاماً لم أسمعه منه من قبل .. وحينما قال الشيخ تميم : لا أريد أن أنسحب ، أمسكه من كتفه وسحبه إلى

السيارة التي امتلأت بالإخوة .. وقال : من كان يستطيع أن يمشي فليمشي بدون توقف ، وبالسلاح الفردي فقط ، ومن لا يستطيع المشي فليصعد إلى السيارة .. وأخيراً إقتنع أبو عبد الله أن ينسحب بالإخوة لألحق بهم أنا بعد أن يرحل الجميع بحكم موقعي على أجهزة الإتصال .. وفعلاً بدأ الأخوة ينسحبوا وكانوا حوالى ٤٥ أخاً ، وكانت أول تجربة من هذا النوع : القصف لم يتوقف لثلاثة أو أربعة أيام ، والروس على مشارف المأسدة ، والأمر أمرٌ بالإنسحاب .. » ويضيف أبومحمود : « بدأت الفوضى تدب بيننا .. في غرفة (بدر) قام أحد الإخوة الأفغان النشطين بتفجيرها حتى لا يغنم العدو شيئا .. أحرقوا موقع (الزيكوياك) فى الأعلى بعدما فككوا المدفع ودفنوا بعضه في الأرض ودحرجوا بقية معداته الثقيلة أسفل الوادي حتى لا يستخدمه العدو .. وكان لدينا غرفة أخرى فيها مواد غذائية قام الأخ أبوماهر السوري بإطلاق قذيفتي (آر . بي . جي) عليها .. أما غرفتي - غرفة (القيادة) أو غرفة (الإتصالات) أو (الضيافة) كما كنا نسميها أحياناً - فأصررت على ألا يفعلوا بها أي شيء من ذلك ، فقد كانت مليئة بالأجهزة وبالأسلحة الفردية .. عدا عن مستودع السلاح المليئ .. فبدأتُ والحمد لله بمساعدة بعض الإخوة فى تعبئة الأجهزة الكهربائية والإلكترونية والكاميرات والأسلحة الفردية .. فى بسترات النوم ذات السحاب ، وتحميلها على البغال نحو العرين ، ثم لما شحنت معظم المواد التي عندي إتصلت بالعرين وقلت للأخ أبى معاذ أن يرسل لي شاحنة لنفرّغ مستودع السلاح كله .. حيث لايزال أمامنا مجال لذلك .. وأثناء ذلك كان الإخوة فى غند الشيخ سياف وفي غند الفتح وفي العرين ينادون عليّ باللاسلكي وهم يتصورون أن المأسدة أخذت .. فلا أرد عليهم فى ربكة الأحداث .. إلى أن ناداني (قباء) يقول : أرجوك يا أبا محمود أن تردّ على القيادة .. يريدونك . فعرفت أنهم مصرون على الإنسحاب .. وقتها كان الأخ أبوعبيدة وأبو حفص في حيرة لا يستطيعان اتخاذ قرار فقلت لهم : ياجماعة .. نحن لدينا الإمكانيات لمقاتلة العدو عن قرب برشاشاتنا الخفيفة وننسحب إذا استدعى الأمر عبر المناطق الجبلية المشجّرة ، فلنفرغ السلاح الآن وبعدها نمشي ، فوافقانى على ذلك ، وعندما اتصل الشيخ سياف واتصل أبوعبد الله يريدون أن نعطيهم آخر الأخبار قال أبو عبيدة : ما زال هناك مجال وعندنا سعة ، والعدو لايزال بعيداً .. ومع الغروب كنا قد أفرغنا السلاح والذخائر فى الشاحنة .. فأرسلناها وأرسلنا معها أربعة إخوة عرب بينهم الأخ عثمان المصرى ، وكانت قذيفة دبابة قد جاءتنا قبل الغروب بساعة فخرج الدم من أذنيه بسببها ، فأرسلناه ليستريح معهم .. وبقينا وقتذاك تسعة عرب فى المأسدة : أبوالفضل المصري الذى استشهد رحمه الله وكان يحفظ كتاب الله ، أبوسهل ، أبوعبيدة ، أبوحفص ، العبد الفقير ، خالد الكردي .. فلما دخل علينا المغرب والأفغان معتادون ألا يحدث تقدم للعدو في الليل ، إتصلنا بالشيخ سياف وقلنا له : هناك سعة ، وسنجلس هنا إلى آخر لحظة .. وأخبرنا المشايخ بذلك فقالوا أخيراً : لا بأس ، إذا كنتم ترون أن جلوسكم مناسب فاجلسوا . وزاد الشيخ سياف فأخبرنا بأنه سيرسل لنا مجاهدين أفغان ليجلسوا معنا ، وأعطانا أبو عبدا لله أمراً بأن نتوزع وسط المعسكر وننام على تبة هناك تطل نوعاً ما على جميع أطراف

المركز ، وكان الإعياء قد دبّ فينا ونحن ثلاثة أو أربعة صائمين ، فمضيت أنا وأبو عبيدة لننام .. ومضى بعض الإخوة ليحاول تدبير طعام بعدما احترق المخزن وتوزع ما فيه .. وقبل أن ندخل غرفتنا وجدنا ١٠ - ١٥ أخاً من مجموعة القومندان (كوتشاي) بقيادة أخيه لايزالون فى المأسدة يتناولون الطعام فاطمأننا على أن وسط المعسكر مؤمّن والحمد لله ، وأخبرناهم بأننا باقون أيضاً .. وأتانا إتصال أخير من الشيخ سياف قال لنا إنه سيرسل قادة المنطقة لينامو عندنا أيضاً .. وبعدها لم أعد أحس بشيء ! » .

.. ومن جهته يتابع أبوعبيدة تفاصيل الأحداث التي انتهيت إليها آخر أيام رمضان في المأسدة - ويقول : « أرجع الإخوة جميع الأسلحة والذخائر تقريباً ولم يعد هناك إلا أسلحتنا الفردية .. وقتذاك كان العدو قد وصل (تبة القيادة) واحتلها واستحكم فيها من الخلف .. فاتصلت بالإخوة في العرين وقلت لهم : سأبقى مع من بقي من الإخوة لعلنا نصدّ هؤلاء إذا حاولوا التقدم والهجوم . قالوا : سوف نتشاور .. وبعد فترة طويلة كأنهم وافقوا على مضض ، فبقينا نحن التسعة ومجموعة من الإخوة الأفغان ، ولم يكن بيننا وبين الكوماندوز إلا ٣٠٠ -٤٠٠ متر ، ولو أنهم علموا مابداخل هذه المأسدة من أفراد لدخلوها جرياً بدون أسلحة ! لكن الفضل والمنّة من قبل ومن بعد لله سبحانه » ويضيف أبوعبيدة : « فى الساعة الثانية عشرة وأنا فى تعب شديد جاءتنا مجموعة من الأفغان يسألون : هل سنكمل أم سننسحب ؟ وكان بينهم كومندان - ماشاء الله لا قوة إلا بالله - كان مصراً على الإستمرار بأي طريقة .. فارتفعت المعنويات قليلاً .. وبعد مناقشات طويلة استمرت ساعة تقريباً قلنا نستمر بفضل الله ، وفى نفس الوقت كان أبوعبد الله قد اتصل بنا في الليل وقال بأنه سيرسل لنا مجموعة من الإخوة .. وصلوا بالفعل قرابة الواحدة وكانوا حوالى ١٥ أخاً تقريباً .. فازددنا ولله الحمد اطمئناناً تلك الليلة .. » .

* * *

.. وفى تلك الليلة كان الجدل على أشده في معسكر الشيخ سياف بـ « جاجي » بين مؤيدى الإستمرار فى الدفاع عن المأسدة وبين المشفقين على أرواح إخوانهم والمؤيدين للإنسحاب .. يقول الأخ أبو الحسن المدني : « ليلة العيد كان الإخوة قد وصلوا كلهم إلى معسكر الشيخ سياف ، وكان القرار : هل يتم الإنسحاب أم لا يتم ؟ . كان بعض الإخوة الذين يغلب عليهم الحماس يرفضون الفكرة ، بينما كان رأي الإخوة الذين يحاولون تقليل الخسائر ومالهم سابق تجربة بالمعارك .. الإنسحاب . لكن رأي الشيخ سياف كان هو الفيصل فى الموضوع حيث قال : لا بدّ وأن نخوض هذه المعركة وألا نتراجع عن المأسدة لأنها الخط

الأول هناك ، ومهما دفعنا من تضحيات فهي أرخص جداً من سقوط المعسكر وسيطرتهم على طريق القوافل . ولأول مرة وجدنا الشيخ سياف يعامل الأخ العربى كما يعامل الأفغان ، وعلى العكس كان يطالب بإرسال إخوة منا كقوة تعزيزية لإخوانهم الموجودين في المأسدة .. وبالفعل ذهب على رأس هؤلاء شفيق ومعه مهند وإخوة آخرون حرسوا المأسدة فى تلك الليلة » .. ويضيف أبومحمود : « خلال الليل كان أبوعبد الله جزاه الله خيراً قد أرسل إلينا مجموعتين من الإخوة العرب : شفيق ومجموعة ، وحمزة ومجموعة حوالي ١٥ أخاً وصلوا في الواحدة ليلاً ، إنتشرت الأولى في وسط المعسكر والأخرى على تبة (الزيكوياك) .. وفي وسط الليل فوجئت بقادة (جاجي) الميدانيين كلهم من جماعة الشيخ سياف حولي أيضاً .. نحن نائمون فى الغرفة لا نحس بشيء وهم جالسون ينظرون إلينا ! سألتهم : هل تتسحروا ؟ قالوا لي : نَمْ يا أبا محمود اليوم عيد .. فاطمأننت ونمت ! » أما الأخ حمزة فبعدما نقل الجرحى ظهر ذلك اليوم من « المتقدمة » إلى العرين .. فـ « برجنار » عاد إلى العرين ثانية ليجد أبا عبد الله قد انسحب بأكثر الأخوة ثم عاد واتخذ قرار الرجوع لدعم من تبقى فى المأسدة .. ويقول : « بعدما رجعت من (برجنار) قابلت أبا عبد الله فقال : جهزوا أنفسكم حتى ترجعوا إن شاء الله إلى المأسدة ، وبالفعل جهزنا أسلحتنا وذخائرنا وتحركنا فى الليل أنا والأخ مهند وشفيق رحمه الله مع بقية الإخوة ، لكن شدة القصف جعلتنا نترك السيارة في الطريق ونكمل مشياً .. وحينما وصلنا وجدنا المعسكر مقلوب على آخره ! حتى أننا ضيّعنا بعض الدروب فيه من كثرة القصف الذي نزل هناك .. وأخيراً وصلنا (مركز المتوسطة) وأخذنا استراحة فيه الى الصباح » .

هوامش

(١) أنظر : مجلة «الجهاد » – العدد ٣١ – شوال ١٤٠٧ – يونو ١٩٨٧ – صـ٢٩ وصحيفة « الثبات » – العدد ٢٧ – ٣٠ شعبان ١٤١٠ – ٢٧ مارس ١٩٩٠ – صـ٦ – لكن أياً من المصدرين لم يشر لمكان سقوط الطائرة أو الجهة التي أسقطتها بالتحديد .

(٢) ينفرد الأخ أبو الرضا فيذكر أن ضابط المخابرات الأفغانية « خاد » الذي سلمه الجنود الأفغان الذين استسلموا للمجاهدين قبل فترة قصيرة سألوه متى ستأتي القوة ؟ قال : في العيد !

(٣) أنظر : مجلة « البنيان المرصوص » – العدد ١٤ – ذو القعدة ١٤٠٧ – يوليو ١٩٨٧ – صـ١١ وصحيفة « الثبات » – العدد ٢٨ – ٨ رمضان ١٤١٠ – ٣ ابريل ١٩٩٠ – صـ٦

(٤) أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ٣٢ – ذوالقعدة ١٤٠٧ – يوليو ١٩٨٧ ومجلة « البنيان » – العدد ١٤ – صـ١١ وصحيفة « الثبات » – العدد ٢٨ – صـ٦ – وفيما قدّر أبو عبد الله قوام هذه القوة بـ ٩ آلاف

رجل من جيش حكومة كابل .. أفادت مجلة « المجاهدون » – العدد السادس – رمضان وشوال ١٤٠٧ – مايو ويونيو ١٩٨٧ – صـ٢٣ : « أن القوة ضمت ثلاثة آلاف جندى حكومي وسوفييتي .. ووصل عدد الدبابات إلى ٨٠٠ دبابة إضافة إلى أربعة مدافع (بي . إم . ٤١) و ١٥ مدفع (بي . إم . ١٢) وعدد آخر من مدافع الهاون و (أوبوس أو – سي) الثقيلة .. إضافة الى قوة من الكوماندز ومليشيات محلية »

(٥) أنظر : مجلة « البنيان » – العدد ١٤ – صـ١١ – و « الثبات » العدد ٢٨ – صـ٦ مع ملاحظة أن مجلة « البنيان » هي التى أوردت تاريخ الكمين في الثاني والعشرين من مايو الذي وافق الخامس والعشرين من رمضان ، بينما ذكرت « الثبات » أن الكمين كان يوم الرابع والعشرين من رمضان جدير بالذكر أن اضطراباً ملموساً وقعت فيه مجلات المجاهدين المختلفة وروايات الإخوة العرب كذلك حول تواريخ تحرك القوة من موقع لآخر .. وبين يوم ويوم .. ومردّ ذلك – على الأغلب – إلى عدم وجود توثيق يومي للأحداث وقتها ، وإلى حدوث هذه التحركات والتنقلات بعيداً عن ساحة الرؤية المباشرة للمجاهدين فى المنطقة .. ولقد ذكرت مجلة « الجهاد » – العدد ٣١ – صـ٢٩ أن أخبار الرصد يوم الخميس ٢٤ رمضان وافت بأن « القوة تحركت من ولاية (لوغر) فى طريقها إما إلى قلعة (تشاوني) وإما إلى (خوست) لدعم مراكز العدو هناك ، وما لبثت أن اتجهت إلى (تشاوني) لتنطلق عبر الوادي فى طريقها إلى مراكز العدو .. » وإذا كان احتمال أن تتجه القوة إلى « خوست » قائماً – قبل أن تتجه بالفعل إلى (تشاونى) – فان التاريخ المذكور لاينطبق مع بقية الروايات الأخرى ، والمكان « لوغر » مختلف كذلك عما أوردته المصادر الأخرى من إنطلاق القوة من « غرديز » بعد أن تجّمعت فيها فرق عديدة إحداها فرقة « لوغر » الثانية عشرة .. قبل عدة أيام .

(٦) أنظر : مجلة « الجهاد » – العدد ٣١ – صـ٢٩ وقد أكد ذلك أيضا الأخ أبومحمود الذي سجل التاريخ كبداية لقصف الطائرات .

(٧) أنظر : مجلة « البنيان » – العدد ١٤ – صـ١٢ و « الثبات » – العدد ٢٨ – صـ٦

(٨) جميع المحادثات اللاسلكية المذكورة .. والتى سترد لاحقاً نقلتها عن مجموعة أشرطة كاسيت سجلها الإخوة أثناء المعركة ووصلني منها ١٤ شريطاً ، ثلاثة منها ليوم ٢٩ رمضان .

(٩) فى مبادرات ذاتية .. حاول بعض الإخوة العرب استخدام « الشيفرة » فى المخابرات اللاسلكية بينهم ، وكان أبومحمود من أكثرهم إبداعاً وطرافة في هذا الأمر .. فكان يسمي السيارة : « دابة » والقذائف أو المرمي بـ « البرسيم » أو بـ « الهدايا » والراجمة بـ « الآلة » أو « الماكينة » .. وهكذا .. علاوة على وجود نظام عام للشيفرة كان متداولاً بين مراكز الإتصال قبل المعركة يستخدم غالب الأمر للمحادثات بالغة الأهمية والحساسة .

(١٠) أنظر : مجلة « البنيان .. » – العدد ١٤ – صـ٢٠ ويضيف الأخ البتال « أن الشهيد عبدالوهاب كان يرمي على راجمة الصواريخ (بي . ام . ١٢) أمام غرفة الطائف ، ولاندري هل انفجر قاذفه بنفسه أم سقط صاروخ بجواره فاستشهد رحمه الله .. » .

(١١) يذكر أبوحفص أن القصف المذكور بالهاون كان من قبل القومندان « نعيم » من « الحزب الاسلامي » حيث أنه يتمركز في هذا الجانب .

(١٢) يذكر الدكتور عبدالله عزام رحمه الله فى مجلة « الجهاد » – العدد ٣٢ – صـ٦ أنه « أثناء الدقائق الثلاثين – التي كان القصف على أبي عبدالله وأبي عبيدة والأخوين الآخرين فى (تبة القيادة) منهمراً عليهم – بدأ الأخوة يستغيثون ويطلبون من غرفة الإتصالات النجدة من أية جهة من جهات المجاهدين ، وصاحوا بالأخ الذي يحمل اللاسلكي بأن يتصل بالشيخ سياف أو المهندس حكمتيار بأن يوجهوا نيران مدافعهم الثقيلة نحو مصدر الهاون وأن يرسلوا النجدة ، فأرسل الشيخ سياف أربعين مجاهداً وأرسل حكمتيار مثلهم .. » .

الأنصار العرب (٣٧)

عيد النصر والشهداء

تنفس صبح الأول من شوال على مأسدة الأنصار وقد هبّ شبابها - الذين باتوا ليلتهم بين فكي الموت بحق - يستعدون لملاقاة العدو الكامن على بُعد أمتار قليلة لا تجاوز العشرات ، وبينما إنشغل الإخوة في إدراك فريضة الفجر قبل أن يسرعوا في إعداد أسلحتهم وتجهيز احتياجاتهم وذخائرهم .. كان على أبي عبيدة - الأمير والقائد العسكري - المسارعة بإعادة تشكيل خطوط الدفاع وإعداد خطة المقاومة ، ليتم توزيع الإخوة الذين باتوا الليلة هناك وإخوانهم الذين وصلوا خلال الليل من العرين على المواقع المناسبة . يقول أبو عبيدة : « صلّينا الصبح قبل أن أبدأ الطواف على المواقع ثانيةً فوجدت معنويات الإخوة مرتفعة والحمدلله ، وكل منهم يجهز نفسه وسلاحه ويعدّ العدّة مرة أخرى وقد وصل عددنا حوالى - ٢٥ - مرة أخرى بالمجموعة التي وصلت خلال الليل ، إضافة الى عشرين أو أقل من الإخوة الأفغان ..» ويضيف أبو عبيدة : « حتى السادسة صباحاً لم يكن قد بدأ الضرب بعد وكان اليوم أول أيام العيد ، فأفطرنا وعيّدنا على بعضنا وكأنما لا توجد حرب ولا معركة ! ثم وصل أبو عبدالله وأبو الحسن المدني ومعهما حوالى ٨ - ١٠ إخوة فقلنا : إن شاء الله سنعود لنعمل دفاعاً دائرياً عن المعسكر مرة أخرى ..وعلى هذا الأساس بدأنا نوزع المجموعات ، وبعدما أرسلنا أحد الإخوة لإستطلاع موقع (الغرفة المتقدمة) ورصد العدو على حولها ووجدهم لم يدخلوها ، فذهب أبو عبدالله أميراً على مجموعة من الإخوة لصد العدو من هناك .

ومن جانبه يسجل أبو محمد بدايات اليوم الأول من أيام العيد على المأسدة ويقول « : أخَذَنا أبو عبيدة جزاه الله الخير الى منطقة (الزيكوياك) ومن هناك شاهدنا العدو على تبة (الزهراني) بواسطة المنظار يركز مواقعه الدفاعية قريبة منّا جداً .. وكان سيف الله المغربي يناوش عليهم بالـ (جرينوف) بين الحين والآخر كلما لمح رأساً من رؤوس الجنود يرتفع .. وبعد أن وضع أبو عبيدة مجموعة هناك نزلنا الى وسط المعسكر فوزع مجموعة أخرى ، ثم عدنا فوجدنا بقيّة الإخوة قد إستيقظوا جميعاً وأفطروا وأستعدوا وكانت الساعة قد بلغت السابعة صباحاً .. جاءتنا بعدها الأخبار من العرين بأن أبا عبد الله سيأتي إلينا بمجموعتين ، في الوقت الذي كان أبو عبيدة قد إتفق مع الإخوة على ضرب العدو عن قرب قبل أن يثبت مواقعه في المنطقة .. وبالفعل إتصل معي أبوعبيدة ليقول أنه في طريقه لملاقاة العدو مع مجموعة من ثمانية إخوة وأضاف : إذا حضر الأخ أبو عبدالله فأخبره بذلك .. وعند الضحى وقرابة التاسعة إلاّ ربعاً وصل أبو عبدالله وأبو الحسن المدني ومعهما مجموعتان من المجاهدين ، وبعدما وزع الإخوة الذين جاءوا معه ذهب مع أبي الحسن الى (المتقدمة) .. »

ويقول أبو حفص : « نهضنا صباح العيد فوجدنا الجماعة الذين إحتلوا قمة (تبة القيادة) جالسين يتخندقون ويعدون أنفسهم فيها وقد دفعوا بعض الأفراد للأمام بإتجاه (المتقدمة) في الوقت الذي كنّا فيه قد

تركنا (المتقدمة) أصلاً ولم نعد نراهم من هناك.

وقتها إتصل أبو الحسن من العرين وسأل عن الموقف فقلنا له إنه عادي جداً . وقالوا نريد أن نأتي .. قلنا : تعالوا . وعندما وصل أبي عبدالله أحسست وقتها أن أبا عبدالله لم يعد يريد إتخاذ أي قرار في هذا الموقف وترك الأمر لأبي عبيدة ، فقلت لأبي عبيدة : لو أننا تأخرنا أكثر من ذلك فهؤلاء سيتمركزون أكثر وأكثر.. ولابدّ من البدء في عملية الإلتفاف ، فوافقني الرأي وبدأنا نوزع الإخوة من جديد ، فذهب أبو عبدالله بمجموعة لـ (المتقدمة) الهدف منها تثبيت العدو من الواجهة وإشغاله ليتم الإلتفاف من الأجناب الضعيفة بالمجموعة الأخرى ، أما أنا فجلست أبحث عن أحد يصلح من الإخوة للمشاركة في عملية الإلتفاف ..» ومن جانبه يتحدث أبو الحسن عن بداية وصوله مع أبي عبدالله وتوجههم الى المتقدمة حيث بدأ العدو في التقدم من تلك الناحية .. ويقول « صباح ذلك اليوم ذهبت أنا والأخ أبو عبدالله ومعنا الأخ ياسين وأسد الله وأبو الوليد العتيبي الذي أستشهد في ذلك اليوم في بداية المعركة ..وكان السؤال عندما قابلنا أباعبيدة : ماهو العمل ؟ فأجابنا بأن ميمنة المعسكر – التي هي (بدر) – قد أُمّنت ، وظلت الميسرة – من ناحية (المتقدمة) – هي المنفذ الذي يريد الروس الوصول من خلاله الى المعسكر ، وكان يرى أن ينزل هومن وسط المعسكر مع مجموعة من الإخوة ثم يتجه الى ميسرته –حيث (المقدمة) – لصدّ العدو . فسأله أبوعبدالله : ما المطلوب منّا ؟ قال: أن تذهبوا وتحرسوا ميسرة المعسكر فلاأظن أنهم سيدخلونه إلا من هذا المكان لأنه أقصر الطرق..

وبكل بساطة أضاف : فإذا جاؤوكم ردّوهم ! وكان الموقف الجميل هنا أننا عندما ذهبنا نبحث عن طعام نأخذه معنا كان بعض الإخوة في اليوم السابق قد تسرّعوا - عندما علموا أن الروس وصلوا المعسكر – فأحرقوا الكثير مما في الغرف .. فما وجدنا بعد البحث الا الليمون ! جاء الأخ أبو عبيدة اللحام ودار على الإخوة بكيس ليمون .. فكان كل أخ منّا يأخذ ثلاث ليمونات ..أمّا أبو عبدالله فكان على العكس من ذلك يحتاج الى الملح حتى يرفع الضغط لديه فأخذ كيساً منه وكان حتى يمشي – لا حتى يقاتل – فقط حتى يستطيع أن يمشي ..كان يتوقف كل خمسة دقائق ليأخذ شيئاً من الملح ويشرب عليه الماء .. وهكذا ذهبنا الى (غرفة المتقدمة) ..».

* * *

في موقع (الزيكوياك) – حيث ترتفع أرض المأسدة الى أعلى نقاطها – كان الإخوة الذين عادوا للموقع خلال الليل من العرين قد نشطوا منذ الصباح في ترصّد أفراد الكوماندوز المتخندقين في (تبة القيادة

) المقابلة أسفل منهم .. والرماية عليهم برشاش (الجرينوف) بين حين وآخر ، الأمر الذي أكدّ للعدو الزاحف إستمرار وجود مقاومة منظمة على هذا الموقع المقابل على الرغم من كل القصف الذي مسح المنطقة خلال الأيام الماضية .. وكان لابدّ إذاً من إستئناف القصف والقضاء على كل إحتمالات المقاومة قبل أن يشرع الكاوماندوز السوفييت في التقدم من جديد .. يقول أبو عبيدة : « حينما عرف العدو بوجود الإخوة في موقع (الزيكوياك) توقفوا عن التقدم - على عادتهم - وأعطوا الإشارة للمدفعية أو الطيران لتضرب على النقطة المقصودة ،وهكذا بعد ماأنهيناتوزيع الإخوة وبدأنا النزول بمجموعة الإلتفاف من ناحية (بدر) بدأ القصف على (الزيكوياك) في الأعلى .. ووصلني صوت سيف الله باللاسلكي - ونحن في طريقنا للنزول - يقول : إستشهد ثلاثة من إخواننا هناك » ! وفي هذا الصدد يقول الأخ علي غزلان : « كان الشهداء الثلاثة : حسين[1] وعلي[2] ونورالحق[3] رحمهم الله ينظفون الـ (جرينوف) الذي دفنوه بالأمس قبل إنسحابهم .. وكان معهم الأخ / حمزة فيقول: طلبوا مني زيتاً للتنظيف أو شيئاً من هذا القبيل ، فلماذهبت لإحضاره أتت قذيفة فانبطحت .. وعندما رجعت وجدتهم قد إستشهدوا »ويقول الأخ حمزة الغامدي : « أذكر أنني كنت في غرفة الطائف في الوقت الذي كان الإخوة ينزلون للإلتفاف ..حينما بدأ القصف بالهاونات على مركز (الزيكوياك) ، وكان هناك الأخ عبدالصمد وسيف الله وحمزة المصري وحسين وعلي ونور الحق رحمة الله عليهم .. فلما أصيبوا طلبوا سيارة إسعاف فصعدتُ اليهم ماشياً من جهة الطائف وتقدمت السيارة اليهم وفيها الدكتور صالح[4] رحمه الله من مركز القيادة .. وعندما وصلت وجدت الإخوة الثلاثة قد إنتهوا .. وسيف الله ومجموعته لا يزالون يقاومون ..»

* * *

كانت مهمة (موقع الزيكوياك) في ذلك الصباح صعبة ومعقدة ، فعلاوة على مهمته في مناوشة العدو الذي تمركز قريباً في « تبة القيادة » المقابلة ومحاولة إعاقته عن التقدم ، كان على الإخوة هناك تأمين تسلسل مجموعة أبي عبيدة أسفل المأسدة من جهة (بدر) للإلتفاف على العدو وحماية المجموعة الأخرى على ميسرة المأسدة وانقطع الإتصال بهم زمناً غير قليل ، كان أبو عبدالله على رأس مجموعة من خمسة إخوة يتصدون لتقدم الكوماندوز نحو موقعهم .. ويستميتون في منع العدو من تحقيق النجاح .

يقول أبو عبدالله : « ماكدنا نأخذ مواقعنا أعلى الغرفة المتقدمة وإذْ برجل في لباس المجاهدين يتقدم من ميسرتنا على بعد حوالي ثلاثين متراً ، فسألت أخانا أبا الحسن المدني : هل هذا من ربعنا ؟ قال : نعم .

لكنني إستنكرت الأمر ، فالروس يستخدمون على الدوام واحداً من أبناء المنطقة المنافقين يلتحي ويلبس لباس المجاهدين ويتقدمهم بسرعة .. فإذا وجد واحداً من المجاهدين توقف قليلاً فيعلم الروس ذلك ويستعدوا : فناديت الرجل بالفارسية أن تعال (أواذراه بِيَا) وإذْ به يولي الأدبار من المفاجأة .. عندها ومن توفيق الله سبحانه وتعالى طلبت باللاسلكي من أول قوة خلفنا أن يمشطوا المكان بعدما وصفته لهم .. وكان معهم رشاش (جرينوف) ثقيل وهم على بعد ٢٠٠ متر منّا تقريباً ..فبدأوا الإطلاق عليهم بغزارة .. وردّ العدو فوراً وأصبحنا – لأننا أسفل من (جرينوف) الإخوة – نميز صوت الطلقات .. وقدّرنا أن مجموعة العدو بقيت تشاغل إخواننا وتمكنت المجموعة الأخرى من الإنسحاب التكتيكي بعدما تأكد لهم وجود مقاومة يقظة في المنطقة ..» – ويتابع أبو عبدالله : « وقتذاك وقد كنا خمسة فقط طلبت من الأخ ياسين والأخ أبي وليد محمد منير العتيبي ، رحمة الله عليه أن يتقدما ويضربا على العدو – الذي قدر إنسحابه ١٥٠ متراً في هذا الوقت – بالـ (الآر. بي .جي) وبالأسلحه الخفيفة و القنابل اليدوية .. ففعلا ورجعا من فضل الله سالمين . في هذا الوقت إتصل بي أحد الإخوة وأتصلت به فأشتكى من ضعف صوتي لكثرة التعرجات الجبلية ، فارتفعت على شجرة بسيطة مقصوصة فوق سطح الأرض بعدما كنت في خندق الى منتصف الجسم .. وتكلمت معه ، وإذْ ببعض الأعداء الخبثاء في المحور الأوسط وماكنت اعلم أنهم يرونني – وماكنت أعلم أن هناك أحداً منهم – فأطلقوا علىّ قاذفتين (آر. بي جي).

مرّت هكذا بجوار رأسي على اليسار وفوق رأس أبي الحسن بإعتباره كان ولايزال في الخندق دوني وإرتطمتا بالجبل وانفجرتا .. والله أعلم من السكينة التي كانت لدينا نزلت وكأنني ومارميت إلا بحجر من طين وحسب .. ونزلت على مهل ..ونبهت الأهل وعدت فحددت للأخ أبو وليد وليأسين مكاناً أبعد من المكان الأول الذي رميا عليه حتى نُشعر العدو أننا نتابعه ونتصدى له .. وفي هذه الأيام وصلنا خبر إصابة إخواننا على (الجرينوف) فوق الجبل (الزيكوياك) : نور الله المغربي وحسين وعلي عليهم رحمة الله .. وأزداد كربنا وقلقنا لإنقطاع الإتصال حتى ذلك الوقت بيننا وبين أخينا أبي عبيدة وثمانية من خيرة إخواننا الذين نزلوا في عملية الإلتفاف ..وفجأة شاء الله أن يتصل أبو عبيدة ليخبرنا بأنهم قتلوا الكوماندوز الروسي وهم الآن صرعى تحت أقدامهم ، وأنتشر التكبير في كامل المعسكر وعمّ السرور بفضل الله .. وكانت هذه نقطة البداية العملية في تحوّل مسار المعركة لصالح المجاهدين ..»

ومن جانبه يسجل الأخ أبو الحسن ذكريات تلك الساعات المشهودة في مواجهة العدو على موقع (المتقدمة)..ويقول : « كان أبو عبدالله يكلف الأخ ياسين العراقي أن ينزل الى الروس ويقذفهم بالقنابل اليدوية ويفتح الرشاش عليهم ويعود ثانية حتى يمنع تقدمهم .. ويرسل معه الأخ أبا الوليد حتى يغطيه بضربات (الآر . بي . جي) ليتمكن من النزول إلى أسفل ..هذه العملية البطولية تكررت أكثر من مرتين فأخّرت من

وصولهم ، لكنها كانت عشوائية بلاشك ، وبدليل أن الروس ظهروا ثانية بين الأشجار ولم يعد بيننا وبينهم سوى خمسين أو سبعين متراً ..» ويتابع أبو الحسن : « كنا إذا أتت الطائرات لتقصفنا ونحن أعلى الكهف نزلنا الى الغرفة في الأسفل نحتمي فيها ، فإذا ذهبت الطائرة صعدنا من جديد .. فمن كثرة ماصعدنا ونزلنا أُرهقنا وتعبنا تعباً شديداً حتى وصلنا الى مرحلة أرتمينا فيها على الأرض من التعب . كان ذلك بين التاسعة والعاشرة صباحاً ، عندها إتصل أبو عبيدة يقول : إن معظم الروس تحت أقدامنا صرعى وقتلى .. فرحنا ثم كبّرنا وأستمرت فرحتنا حوالى دقيقة ونصف إتصل أبوعبيدة اللحام بعدها يقول : معظم الإخوة قتلى وجرحى ..أرسل لنا نجدة . ماهي النجدة ؟ أنا بالنسبة لي لا أعرف إذا ذهبت لهذه الشجرة كيف أرجع الى الشجرة الأولى .. لاأعرف المنطقة ولا أعرف طبيعتها ولا إلى أين أذهب ! كان معي أبو الوليد وياسين .. فأما أبوالوليد فأتّجه الى أعلى حتى يضرب من هناك وما نزل معنا ، وتقدمت أنا وأسدالله وياسين .. وتقدمنا ياسين قليلاً حتى يكشف ويستطلع ، فما أن تقدم حوالي ٥-٧ متر حتى ضربوه برصاصة جاءته شظية منها في ركبته فعاد يجري الى خلف الشجرة .. ولما وجدناه يستطيع السير بمفرده قلنا له إرجع ..وأضطررنا أنا وأسد الله أن نبقى فقال نتقدم - فكلما تقدمنا أطلق علينا القناصة .. وبدأت الدائرة تضيق .. ففضلنا أن يذهب كل منا في إتجاه لتتسع الدائرة ولايتمكنوا من الإحاطة بنا بسهولة .. لكننا كلما هممنا بالحركة من شجرة لأخرى إستهدفنا الرصاص .. حتى طارت طاقيتي أنا من فوق رأسي برصاصة !! وبقينا على هذه الحال حوالى نصف الساعة لا نستطيع أن نتحرك .. الى أن أمّنوا إنسحابهم ففتحوا علينا (الدشكات) بعد ذلك من الجهة المقابلة ولمدة نصف ساعة أيضاً .. حرثت الأرض وقطعت الشجر ، بعدها فُتحت علينا الهاونات .. فمازلنا تحتها لا يستطيع أحد منا أن يتحرك حتى بلغت الساعة الخامسة عصراً ..».

* * *

في الأحراش الملتفة أسفل المأسدة .. ومن غرفة (بدر) بإتجاه (تبة القيادة) حيث تمركز الكوماندوز منذ أمس .. توجهت مجموعة الإلتفاف بُعيد الضحى .. يعبرون على شفير الموت .. ويمضون الى حيث تخندق الأعداء يتنسمون فرصة الإيقاع بهم على غرّة فلايتركونهم يشعرون بمعنى الإستقرار والإنتصار . يقول الأخ أبو حفص : (بعدما ذهب أبو عبدالله ومجموعته الى موقع (المتقدمة) في الصباح جلست أبحث عن أحد يصلح للإشتراك في الإلتفاف فلم أجد لأن هذه العملية تحتاج أشخاصاً متدربين معاً ومتفاهمين جداً .. إضافة الى معرفتهم بشئ من التكتيك .. وأنا لاأعرف الإخوة جميعاً ولاأعرف مستوياتهم .. وهكذا

أخذنا مجموعة من الإخوة القدامى الذين رأينا فيهم إمكانية القيام بهذا العمل .. فبلغ عددنا تسعة : أبوعبيدة – وأنا – وأخونا أبو سهل المصري – وأبو فضل المصري – ومختار السعودي – وأبو عبدالله المصري – وعثمان المصري – وأبوعبيدة اللحام المصري .. إخترت عثمان ومنصور لأنهما كانا يدربان في (صدى) ، وأخذت عبدالله على أساس أنه إستطلع المنطقة في اليوم السابق وسوف يكون دليلاً لنا ، وأما أبو سهل رحمه الله فكنت أتصل مع (الزيكوياك) لأطلب جعفر الذي هو أبو عبيدةاللحام ليشاركنا ، فكان أبو سهل بجواره فقال لي : أباحفص لاتنساني . فقلت له : حسناً تعال . وعلمت منه أنه رأى في المنام في ذلك اليوم رؤيا طيبة جداً ..رأى أنه واقف على باب الجنة ومعه د. صالح رحمه الله وأن هناك ملَكاً ينادي بالأسماء فنادى عليه بإسمه الحقيقي فدخل الجنة فوجد أبادجانة – وكان قد قتل رحمه الله – فأخذه بالأحضان .. وبعدها وجد الدكتور صالح معهما ، نسأل الله أن يكونوا شهداء (٥) .. وهكذا تشكلت المجموعة وهممنا بالتحرك ، فقال لهم أبوعبيدة : أميرنا في هذه العملية الأخ أبو حفص .. فقالوا : جزاهم الله الخير : خيراً .. وبعدما نزلنا من جهة (بدر) قلت للإخوة : سنسير الآن على شكل قطار .. فإذا أعطيتكم إشارة أخرى تتحولون الى شكل خطي – وهو التشكيل الوحيد الذي بإمكاننا الهجوم به أو الإقتحام – وهكذا مشينا ولاحول لنا ولا قوة إلا بالله لنلتف على (تبة القيادة) من جانبها .. ودفعت أخانا عبدالله كعنصر إستطلاع في الإمام لمعرفته السابقة بالمنطقة وبالطريق المؤدية الى «تبة القيادة» ..) – ويتحدث أبو عبيدة من جهته عن بداية تحركهم للإلتفاف ويقول : ما أن أنهينا توزيع الإخوة وبدأنا النزول من ناحية (بدر) حتى بدأ القصف على (الزيكوياك) في الأعلى .. ووصلني صوت سيف الله باللاسلكي – ونحن في طريقنا للنزول – يقول : إستشهد ثلاثة إخوة هناك . لكننا أكملنا بالطبع وقلنا : هكذا الحرب .. وكنت بين حين وآخر أسمع صوت أبي عبدالله يقول : بيننا وبين العدو ثمانون متراً .. وهم يتقدمون بيننا وبين العدو أربعون متراً ، فتيقنت أنهم مصرّون على الدخول فأغلقت الجهاز حتى لايؤثر على معنويات الإخوة معنا ومضينا نلتف وراء (تبة القيادة) حتى لم يعد بيننا وبين قمة التبة نفسها أكثر من ١٥ متراً وحسب – ويعود أبو حفص يكمل روايته ويقول : أثناء صعودنا على الهدف نفسه أرجعت أخانا عبدالله وتقدمت أنا كعنصرأستطلاع في الأمام ، كانت المنطقة مملؤة بالأشجار ولذلك أصبح مدى الرؤية الممكنة قصير جداً .. وعندما اقتربنا من قمة التبة سمعنا صوتاً .. فأعطيت الإخوة إشارة التشكيل الخطي مع التمركز في وضع كمين ولم نلبث أن رأينا إثنين من الكومندوز ينزلان في نفس الإتجاه الذي صعدنا منه لكنهما إنحرفا عنا ، ففضلت أن نتركهما حتى تتم المهمة المطلوبة وواصلنا التقدم ، فسمعنا صوتاً آخر من جديد لكنه أقوى من الأول .. فأعطيت الإشارة للتشكيل الخطي من جديد مع عدم إطلاق النار إلا إذا تلقوا الأمر مني .. وبدأ الصوت يقترب .. يقترب .. ونزلت أمامنا مجموعة لا أذكر خمسة كانوا أو ستة .. ولم يعد بيننا وبينهم إلا عشرة أمتار تقريباً .. لكن .. وكأنها ضربة واحدة طلعت رشقة من كل الأسلحة التي معنا تقريباً مع بعضهم بإتجاههم لا أدري من الذي أطلق أول ماأطلق هل

هو مختار أم غيره ، لكنني أحسست أنها جماعية .. كلنا ضربنا في نفس الوقت .. حتى أنا لأنهم ظهروا لي .. فنزلوا جميعاً يتدحرجون وسطنا تماماً .. ومباشرة عملنا إلتفاف حولهم وأخذنا نخلّص على من لايزال بينهم حياً.. خصوصاً وأن أحدهم كان يحمل قاذفة لهب معه وأراد أن يفتحه فضربته في دماغه .. وبنظرة سريعة عرفنا أنهم روس : أحدهم ضابط والبقية تابعون له ، وأظن أن هؤلاء كانوا قيادة القوة الموجودة فوق التبة .. ».

ويعود أبوعبيدة الى الحديث ويقول ..« حينما كدنا نصل سمعنا كلام قريب منا جداً ونحن صاعدين .. فوجدنا إثنين من الروس نازلين لكن في إتجاه آخر ليس بإتجاهنا فما أردنا الإحتكاك بهم حتى نكمل إنجاز مهمتنا .. وأكملنا الصعود بعدما إبتعدا ،لكننا عدنا وسمعنا صوت أشخاص متجهين نحونا هذه المرة ، فكان لا بد وأن نتقابل .. وحينما ظهروا لنا كانوا بين أربعة وستة ضباط من الروس بينهم ضابط وكل منهم يضع (الكلاكوف) على كتفه ويسير في أمان .. فاتفقنا فيما بيننا بالإشارة أن نأسرهم .. واختبأ كل واحد منا خلف شجرة وهم لايزالون نازلين ، وكانت معي زمزمية ماء وضعتها على الأرض .. ووضعت الكاشنكوف بجانبي على أساس أننا سنأسر .. لكن أحد الإخوة فتح (الستكا) فجأة عليهم وانطلقت الرصاصات نحوهم ، أنا رأيته .. ولم يكن مختار كما يقول كل الإخوة .. وإنما أبو الفضل رحمه الله وكان على شمالي .. ولعله لم يسمع الأمر أو أن قرب الروس منه أغراه .. وهنا وما أن سمعنا الضرب حتى فتحنا النار كلنا مرة واحدة .. ورأيت الروس ولله الحمد في دحرجة حتى أرجلنا .. وكان إثنان منهم لم يقتلا فخلصتُ عليهم .. وأحب احدهم أن يقتلنا بقاذف اللهب فلم يقدر بفضل الله أن يخرجه .. فاحترق دماغه والحمدلله ، وهنا أخذتنا نشوة النصر فبدأنا نجمع الغنائم بسرعة .. واتصلت أنا بأبي عبدالله وقلت إننا تقابلنا مع كوماندوز والحمد لله قتلناهم فقال لي : أعد ، فكررت الإشارة لكننا لم نكن قد إنتهينا بعد ، فبعد عشرة أمتار فوقنا لايزال العدو ..فذكرنا الإخوة والحمدلله ، وبدأنا بتشكيل رتل هجومي بسرعة .. وأنطلقنا لنهاجمهم ، في الوقت الذي أحسوا هم بالضرب فأداروا (الجرينوف) علينا وبدأوا يتعاملوا معنا بالقنابل اليدوية .. »

ويكمل أبو حفص مرة أخرى ويقول : حينما رأيت بعض الإخوة يأخذون أسلحة القتلى شخطت فيهم وقلت لهم : تحرك على طول ... إقتحام ،، وبنفس التشكيل الخطي صعدنا نحو القمة التي لا تبعد أكثر من عشرين متراً ، كان على أقصى اليمين أخونا عبدالله ثم أبو سهل ثم أنا ثم أبو عبدالله اللحام ثم أبو عبيدة المصري ثم منصور ثم أبو الفضل .. أما مختار فقال لي إن (الستكا) التي معه تعطلت وهكذا .. طلعنا في تشكيل خطي ، لكن هذا التشكيل من عيوبه أن القائد لا يستطيع أن يسيطر على كل الأشخاص ، فكان عثمان الوحيد الذي أستطيع أن أوجهه لأنه كان بجانبي ..وكان معه (آر . بي. جي) فكنت أشير له على بعض الأماكن التي تخرج منها نيران فيضربها .. ثم أرمي قنبلة بعد ذلك وأطلق رشة رصاص وأتقدم قليلاً ..

وفي هذه المعركة كانت معي إحدى عشر قنبلةرميتهم جميعاً .. وحصل هرج شديد لدى العدو خصوصاً في المجموعة التي كانت من الخلف ، وبدأ غالبية الروس بالإنسحاب .. وأنا كنت أراقب الموقف تماماً .. بدأ الروس يجروا وينزلوا الى الأسفل .. فكنت أضرب عليهم بعض الرشات وأحرك الأخ عثمان ليضربهم بـ (الآر. بي. جي) حتى وصلنا أنا وإياه الى الصخور النهائية للقمة .. فأصبحنا نحن في طرف وهم في الطرف الآخر ، وبدأ التعامل بالقنابل اليدوية الصغيرة ، وكان لهم خط دفاعي عبرناه وقتلنا الذين كانوا فيه ، كان هناك أحدهم رميت عليه قنبلة فأنخفض الى الخندق ليحتمي منها ، فلم يقم إلا وأنا فوقه – وكان لايزال حياً – فأطلقت النار على رأسه .. وفجأة توقف إطلاق النار تماماً من كلا الجانبين ، ولم يكن هناك فوق التبة إلا أنا وعثمان ، أما أبو عبيدة فما إن بدأنا الصعود حتى أصيب بقنبلة دفاعية وأصيب أبو سهل معه بشظية صغيرة ففضلوا الإنسحاب مباشرة ، وأما مختار فبعدما تعطلت معه (الستكا) بقي تحت .. ونزل أبو عبيدة الآخر إليه ، وأما منصور وأبو الفضل فقتلا وهما يصعدان .. وكذلك قتل عبدالله ولم يعد إلا أنا وعثمان هناك ، ولم تكن معنا طلقات أخرى من (الآر ، بي ، جي) كما لم يتبقى لي أكثر من شاجور ونصف من الطلقات وقنبلة يدوية فيما أظن ، ففضلت الإحتفاظ بها لأنه لم يكن لنا إمداد – بالتأكيد – أو قوة في هذا المكان ، وكنت قد إتفقت مع الإخوة سابقاً على صفارة إنسحاب معينة ، فلما وجدت النيران توقفت أعطيت الصفارة ونزلت .. حتى رأيت أبا عبيدة اللحام ومختار ، سألتهما : أين أبو سهل وأبوعبيدة ؟ أين بقية الإخوة ؟ قالا : لا نعرف . قلت : نطلع مرة أخرى .. لابدّ وأن نأتي بهم أحياء كانوا أو ميتين . طلعت التبة .. وجعلت آخذها ذهاباً وإياباً بنفس المحاذاة أنا وعثمان ، صعدنا حتى النهاية حتى وصلنا الى أبي الفضل ومنصور ولم يتبقى بيننا وبينهما أكثرمن خمسة أمتار فوجدت شخصاً أفغانياً من العدو مائلاً عليهما يحركهما . فقال عثمان : أضربه ؟ قلت لاداعي . ونزلنا ثانية ونحن في حزن شديد : هذان خلاص أحسسنا أنهما قتلا .. لكن أين البقية .. كيف نترك إخواننا ؟ وقتها كانت مواجهة العدو قد بدأت في الإنسحاب تحت غطاء بعض أفرادها إليهم ، ونزلنا نحن الى الروس الذين قتلناهم فقلت للجماعة يأخذوا منهم السلاح .. فأخذوه (٦) ونزلت أفتش عن أبي عبيدة والإخوة لعلهم أصيبوا وتدحرجوا .. لعلهم .. لعلهم .. وأتصلت بأبي عبدالله ليضرب بالهاون على الجبل .. لو فيه أحد يمشي ولاأدري هل ضربوا أم لا ، المهم جلسنا نحن الأربعة فقلت لهم : ياجماعة تعالوا ندعوا الله أن يفك هذه الأزمة .. فجلسنا ندعوا وبمجرد ما أنتهينا وجدنا أباعبدالله يتصل بي باللاسلكي ويقول إن أبا عبيدة عندي هو وأبو سهل ».

.. يقول أبو عبيدة : « أدار العدو (الجرينوف) علينا وبدأ يتعامل معنا بالقنابل اليدوية ونحن متجهون إليهم في حالة إشتباك ، والحمدلله قُذفَتْ عليَّ قنبلتين : واحدة على يميني والأخرى على يساري ، فأصابت هذه اليسرى سنّي بشظية وكسرته ، وأصابتني التي عن يميني بشظايا في جنبي .. وأصيب أبو سهل

هذه اليسرى سنّي بشظية وكسرته ، وأصابتني التي عن يميني بشظايا في جنبي .. وأصيب أبو سهل بشظية صغيرة في رأسه ، فأعطيت جهاز المخابرة لأبي عبيدة الآخر وقلت له : أكمل .. إطلع للأمام ، والإخوة ولله الحمد طلعوا للأعلى ، ورأى أبو حفص أحد الروس فقذفه بقنبلة يدوية فلما خفض جسمه ليختبئ في الخندق كان أبو حفص قد جرى عنده وقتله وهو فوق رأسه ، وحصل للعدو هرج ومرج والحمد لله .. وبدأوا ينسحبوا ، ووقتها كان أبو الحسن وأبو عبدالله يردون العدو من جانبهم ، فأصبح الذين تقدموا على (المتقدمة) بيننا وبينهم ، وصرنا ولله الحمد خلفهم .. فحصل لهم ذعر رهيب .. وأحسّوا أن هناك مقاومة من خلفهم ومن أمامهم .. فرجعوا جرياً من جانب اليمين ، وكان أبو زياد يراهم من فوق قباء وينادي : الآن يجروا .. يهربوا .. الحقوهم .. الحقوهم .. أما أنا فانسحبت مع أبو سهل .. ورأيت أبا الفضل رحمه الله يتعامل معهم وهو واقف[٧]. ولعله أصيب أو أتته شظية وهو علي حالته تلك ، ورأيت منصور أيضاً يتعامل معهم بقنبلة يدوية وهو واقف .. فأصيب في رأسه أيضا وجُرى عبدالله ناحية اليمين ولم أعد أراه[٨] .. وهكذا إنسحبت مع أبي سهل الى المأسدة ..ونزلنا من هناك الي بيشاور للعلاج ...» .

* * *

في (موقع الزيكوياك) ودماء الشهداء الثلاثة لم تكد تجف بعد .. كانت القذائف المعادية لا تكفّ عن متابعة كل رشقة (جرينوف) يطلقها سيف الله ومجموعته الذين يغطون تسلل مجموعة الإلتفاف حيناً .. ويحمون مجموعة المتقدمة حيناً آخر ، وكان بدهياً أن الموقع أكتُشفَ دون ريب .. ومدفعية العدو إستطاعت تحديد إحداثياته بدقة لتعود فترسل قذائفها القاتلة على الإخوة هناك . فتتتابع الإصابات ويزهر سجل الشهداء .. يقول الأخ البتال : « ما أن وصلنا المأسدة صباح العيد حتى بشرنا أحد إخواننا بمقتل الإخوة علي وحسين الليبي ونور الحق المغربي في (الزيكوياك) فحمدنا الله برغم الصدمة ، وكان أملنا الوحيد أن نرد أعداء الله .. ووقتها كأنما طلب أبو عبدالله نزول شخص آخر مع أبي حفص يعرف إستخدام (الستكا) فذهبت لألحق به ، في الوقت الذي كان سيف الله وشفيق التونسي على (الجرينوف) فوق (تبة الزيكوياك) يطلقون على العدو في (تبةالقيادة) بكثافة هائلة جداً ليغطوا الإخوة في نزولهم .. فلاحظنا أن جميع المدافع والطائرات تتجه بقذائفها على (موقع الزيكوياك) ولم يلبث أن أصيب الإخوة : أتت إحدى القذائف فحملت شفيقاً في الجوّ وعادت فرمته ، وأصيب سيف الله أيضاً ، وكنت قد أصبحت قريباً من الموقع فاتصلوا معي حتى أرشد أبا زينب العراقي الي الجرحى لأنه لا يعرف الطريق ، فجلست أنتظر وصوله بالسيارة وإذْ بي أحسّ شخصاً يتحرك على يمين (الزيكوياك) فأعتقدت أنه عدو .. وسحبت أقسام السلاح وتقدمت بحذر فوجدت رجلاً منبطحاً .. بيني وبينه حوالي الثلاثين متراً والأشجار والنار تكاد تحجبه عني .. فقلت في نفسي : لعلي إذا تقدمت قليلاً أستطيع أن أمسكه أو أتأكد على الأقل هل هو مجاهد أم عدو فلما تقدمت أكثر عرفته ..وإذْ به أبو خالد الجزائري[١٠] رحمه الله فيه إصابة قوية.. ومؤخرة الرأس غير موجودة .. لكنه لايزال يئن ، فلما رفعته أصبح مخّه في يدي ، فلففت رأسه

رأسه وحملته قليلاً ثم أتى إخوة أفغان وحملوه إلى (القيادة) بينما صعدت مع أبي زينب - وكان قد وصل إلى (الزيكوياك) فوجدت شفيقاً التونسي مصاباً في ركبته إصابة قوية فحملناه .. وحملنا سيف الله أيضاً وأوصلناهما غرفة (القيادة) ثم عدنا الى الموقع نفسه ..»

* * *

..ولم يتوقف العطاء ذلك اليوم .. وجادت المأسدة قبل أن ينتهي أول أيام عيد الفطر بشهيد ثامن على خط التماس الأول مع العدو هو الشهيد أبو الوليد العتيبي.. حيث كان في المتقدمة يتصدى لمجموعات الكومندوز بـ (الآر . بي . جي) منذ الصباح . يقول أبو الحسن : « عدنا الساعة الخامسة من أسفل الكهف (المتقدمة) فوجدنا أباالوليد في الأعلى وقد أصابته شظية كبيرة في ظهره ودخلت في مقتل ، فجاء أحد الأفغان ليساعدنا في حمله لكننا خشينا عليه من القصف الذي كان لايزال مستمراً فقلنا له : إذهب . كنت أنا وخالد الكردي رحمه الله ولا أدري من أيضاً ، فما أن مشى الأخ الأفغاني ثلاثين متراً حتى أصابته شظية قاتلة قطعت له رقبته !! » ويتابع الأخ علي غزلان الذي أحضر الشهيد بُعيدَ ذلك ويقول : (في ذلك اليوم أتيت لعدة ساعات الى المأسدة ثم عدت ..وخلال ذلك ذهبت مع الأخ أبي زينب وأبي ياسر العراقي فيما أظن لنحضر أبا الوليد ، فوجدناه متربعاً في جلسته ونائماً على ظهره .. فتعاونا حتى حملناه بالسيارة وعدنا به الى (القيادة) حيث كان أبوعبدالله موجوداً هناك ..) . ومن جانبه يتابع الأخ البتال بقية الحكاية .. ويقول : « رجعت الى القيادة عائداً من (الزيكوياك) وكنا أربعة إخوة أو خمسة بينهم مختار وعماد الدين من المنطقة الشرقية الذي إستشهد رحمه الله في (شكردره) قبل فترة ، فأردنا أن ندفن أبا الوليد فوق المخزن (الديبو) قريباً من قبر أحمد الزهراني رحمه الله ، وكان هناك خندق سابق نظفناه وهيأناه لكن العدو رآنا فيما يبدو لأن المكان كان مرتفعاً فوجّه القصف علينا ، فرمينا أبا الوليد رحمه الله ودخلنا نحن الخمسة في القبر! فكان مختار يقول : سبحان الله .. نحن حفرنا الخندق وأخاف أن يكون الآن قبراً لنا !! » .. أما شهداء الإلتفاف الثلاثة منصور - أبو الفضل - وعبدالله (المصريين) ..فقد عاد الإخوة اليهم بعدما إنسحب الكوماندوز آخر النهار .. فوجدوا منصور وأبو الفضل فقط ودفنوهما متجاورين فيما ظل عبدالله مفقوداً لمدة ثلاثين يوماً قبل أن يجدوه . يقول أبو حفص : « تحركت بعدالعصر بمجموعة من الإخوة الى (تبة القيادة) من ناحية (المتقدمة) فوجدنا آخانا منصور وأخانا أباالفضل فدفناهما الى الأعلى قليلاً ، ولكننا بحثنا كثيراً عن أخينا عبدالله فلم نجده أما جثث الكوماندوز

فلم نعثر عليها وقال الإخوة أن طائرة جاءت وسحبتهم .. لكننا وجدنا ملابس وذخائر وطلقات إشارية وصواريخ وقاذف (آر . بي. جي١٨) وسيخ سبر كبيرخاص بالروس وبعض أجهزة اللاسلكي وقنابل يدوية وأشياء مثل ذلك .. وبعدها هدأ الوضع مباشرة وأصبح هذا المحور منتهياً بالنسبة لهم وأنسحبوا من هذه السلسلة التي كانوا قد نجحوا في إحتلالها ..» ومن جانبه يقول أبوعبدالله : « أنتهى أول أيام العيد بتوفيق من الله سبحانه وتعالى وقد إنكسرت معنويات العدو ..وكانت عملية الإلتفاف المفاجئة نقطة البداية في تحول مسار المعركة لصالح المجاهدين بفضل الله تعالى ..» ويعقب أبو عبيدة أيضاً على أحداث ذلك اليوم المشهود ويقول : « كان الإلتفاف في إعتقادي السبب في تحويل مسار المعركة .. فيوم الثلاثين من رمضان كان يوم كرب عصيب .. ويوم العيد كان عيداً لنا والحمد لله رب العالمين[١٢]..».

هوامش

(١) الشهيد حسين الليبي (خالد ونيس) من مواليد عام ١٩٧٠ بمدينة بنغازي ، قدم الجهاد عام ١٤٠٦ ولم يكمل دراسته الثانوية بعد ، أبيض الوجه - أشقر الشعر - وسيم الطالع - هادئ الطبع - شديد الحياء -كثير الصمت - يداوم على تلاوة القرآن وحفظه حتى لم يتبقى له إلا عدة أجزاء ليتم حفظه .. وكثيراً ماكان يؤم الإخوة في الصلوات عندما يكون أبو الذهب - رحمهما الله - غائباً .. وأحياناً كثيرة يقدمه أبو الذهب للإمامة لصوته الندي وترتيله المشوب بلثغة محببة . وصل الى باكستان ويده اليمنى معصوبة من مفصل الكف الى نصف الساعد تقريباً وذلك نتيجة جرح أصابه بينما كان يصلح زجاج أحد نوافذ منزلهم الذي تحطم بسبب الطائرات الأمريكية التي قصفت ليبيا وقتذاك وكسرت حاجز الصوت .. فعثرت قدمه وهو يُخرج الزجاج المكسور من إطار النافذة ليشق يده من راحتها الى مايقارب نصف الساعد .. وليدخل في غيبوبة لم يفتح عينيه بعدها إلا وقد أنهى الأطباء خياطة الجرح بما يقارب العشرة غرز ..ولم تندمل جراحه إلا بعد أن جاء الى الجهاد ولصغر سنه كان أبو الذهب - رحمه الله - يداعبه بأبيات ينشدها فيقول :

يـاطفـلاً يـهجـر معـهـده ... لصفوف الثـورة .. للتعـب
لو عـدّوا العمـر لما وجـدوا ... قـد جـاوز سـناً للعـب

لكن وبرغم ذلك كله أمضى أكثر أوقاته في الجبهات والمعارك .. فأشترك في صد القوة التي تقدمت على (ننجرهار) وشارك في عملية شعبان وفي معارك رمضان الذي تلاه .. وفي العمل مع الإخوة الذين نزلوا ونصبوا الخيمة في الوادي لمهاجمة البوستات ، علاوة على معارك صغيرة في (جاجي) قبل إنشاء المأسدة . تعلّق بأخيه الشهيد [حسين] فما يكادان يفترقان حتى يلتقيان ، وفي ذلك اليوم كانت شهادتهما

مع نور الحق المغربي ودفن الثلاثة في خندق واحد أول أيام العيد . أنظر كمجلة (الجهاد) - العدد ٣١- صـ ١٤ ومجلة (البنيان) - العدد ١٤- صـ٢١ إضافة لأحاديث إخوانه عنه ورواياتهم في بيشاور .

(٢) الشهيد علي الليبي : لم يجاوز العشرين عاماً بكثير .. حصل على الثانوية قبل أن يأتي للجهاد عام ١٤٠٦ وتعرف على حسين فما عادا يفترقان . كان شديداً في الحق .. حاد الطبع .. يرفض إلا أن يكون في الصفوف الأمامية ، وحينما صدر الأمر لشباب المأسدة بالإنسحاب في اليوم الذي سبق إستشهاده ثار ورفض ، ولكنه إلتزم بالأمر أخيراً ، ثم عاد بعد صلاة الفجر مع حسين وسيف الله وإخوة آخرين . إكتسب من حسين محبة القرآن ، وكان مؤذن المعسكر الذي يتواجد فيه ، وكان يحب الإكتحال .. شارك في معركة شعبان وأصيب قبل إستشهاده إصابات خفيفة .. ودفن مع إخوته في موقع (الزيكوياك)- المصادر السابقة..

(٣) الشهيد نور الحق المغربي : هادئ.. متزن .. بشوش .. منير الوجه .. أميل بقامته الى الطول .. له من العمر ٢٢ سنة - حاز على دبلوم الدراسات الشرعية ، ونجح في الحصول على الحزام الأسود في (الكراتيه) - قدم الساحة بعد حج عام ١٤٠٦ فوجد الشيخ سياف قد أنشاء مدرسة لتعليم أبناء الأفغان في بابي سماها (حراء) فالتحق بها يدرس لغة القرآن ويدرب الأبناء على ألعاب (الكراتيه) .. وكان يأتي الجبهات بين الحين والآخر في زيارات متقطعة فيغبط إخوانه الذين تفرغوا هناك واستقروا ، وعندما إستشهد كان في إجازة من عمله ليشارك في المعركة .. وفي العشر الأواخر من رمضان ، وحينما أصدر أبوعبدالله أمراً بعودة جميع الإخوة الجدد من المأسدة الى العرين رفض وأحتد .. وقال لمن كان معه : كيف يرجعوننا عن الشهادة وعن القتال ؟ لكنه إلتقى بأبي عبدالله يوم إستشهاده فاسترضاه فرضي ، وأتت قذيفة الهاون على موقع (الزيكوياك) ضحى أول أيام العيد ، لتنقل نورالحق وأخويه حسين وعلي الى عالم الشهادة بإذن الله - المصادر السابقة -.

(٤) الشهيد الدكتور صالح الليبي [صالح محمد الفارسي] : من مواليد عام ١٩٥١م في مدينة بني غازي . حصل على شهادة الطب من جامعة (قار يونس) مسقط رأسه ومضى ليحضر الدراسات العليا بقسم طب الأطفال بلندن ، لكنه ترك الدراسة وقدم ساحة الجهاد عام ٨٣ ليتجه الى ولاية غزني ليمكث مع المجاهدين ثمانية أشهر هناك يمتشق بندقيته بيد ، ومبضعه وحقيبته بيد أخرى .. ولدى عودته الى بيشاور بعد ذلك كان عبدالله أنس قد عاد من « مزار شريف » يبحث بين الأنصار العرب - ضمن من يبحث - عن طبيب متخصص يردّ به كيد الأطباء الفرنسيين الذين أقاموا لهم في (مزارشريف) مستشفى مجهزاً حديثاً .. وتمكنوا بذلك الوصول الى قلوب بعض الأفغان وعقولهم .. فوجد في الدكتور صالح وطبيب آخر من مصر نِعْمَ القصد والطلب ، ووجد الدكتور صالح المهمة الجديدة غاية

مايتمنى .. وأنطلق الركب الى (مزار) .. وأصدر القاضي عبدالله - وقد وجد البديل المسلم - فتواه الشهيرة بحرمة التداوي لدى الفرنسيين وقد زالت الضرورة التي دعتهم لذلك من قبل .. فحزم هؤلاء أمتعتهم وجميع معداتهم ومضوا ، فيما أمضى د. صالح سنتين في « مزار » كان للإخوة العرب نِعْمَ الأب والمربي وللأفغان خير طبيب وآسي - يقترض على راتبه ليستطيع مواصلة عمله في المستشفى ، وإذ شحّ الدواء أرسل الى مكتب الخدمات يطلب راتب الستة أشهر القادمة مقدماً ليسد به عجز الأدوية .. ولما عاد الى بيشاور بعد هاتين السنتين لم يلبث كثيراً حتى أشتدت معركة المأسدة فشارك فيها .. وجُرح .. ثم إمتطى قافلة الترحال مرة أخرى نحو « تخار » برفقة ٢١ عربياً إصطفاهم أبو إبراهيم - أميرهم - من المعسكرات إصطفاءاً .. فمكث ستة عشر شهراً في المستشفى عاد بعدها في رمضان ١٤٠٩هـ حيث كانت معركة « جلال آباد » على أشدها .. فخاض غمارها لينال في العشرين من صفر عام ١٤١٠هـ الشهادة مع أخ آخر هو أحمد المبارك الصومالي على جبل [قباء] قريباً من جبل [ثمر خيل] الأستراتيجي ..حينما سقطت بجانبهما قذيفة هاون أودت بهما الى عالم الخلود بإذن الله ، ودفن - رحمه الله - في « بابي » بين إخوانه الشهداء من العرب والأفغان . أنظر مجلة (الجهاد) - العدد ٦١ - ربيع ثاني ١٤١٠هـ - نوفمبر ١٩٨٩م - صـ ٣٧ - ٣٩ (بتصرف) .

(٥) الشهيد أبو سهل الصغير [أيمن صبري] : من مواليد الإسكندرية ، بلغ من العمر ٢٨ عاماً ، حافظ لكتاب الله ، مربوع الجسم ، مستدير الوجه ، دخل الجبهات في « قندهار » و « غزني » و «خوست» .. إلى أن كانت إصابته في الإلتفاف أول أيام العيد في المأسدة ، لكنه إستطاع بادئ الأمر الصعود الى المركز متماسك القوى ، بل إن أباعبيدة كان يتكىء عليه ! ثم لم يلبث أن دخل في غيبوبة تامة لثلاثة أيام متوالية ، قضي فيها عليه - رحمه الله - وقد وصل بيشاور . من الطرائف التي يرويها أبو حفص عنه قصة إستشهاده الأولى !!! وذلك حينما كان في [قندهار] وكتب وصيته ثم أتبعها برسالة الى أهله أراد أن يرسلها مع أحد المسافرين لكنه أخطأ الهدف .. فوضع الوصية بدل الرسالة .. ومضى الى الجبهة لا يعلم بما حدث .. في الوقت الذي تلقى الأهل الوصية فاعتقدوا بإستشهاده وأقاموا العزاء .. وأنتشر الخبر ، حتى حانت له زيارة أخرى الى بيشاور فاتصل منها بأهله في الإسكندرية يريد محادثتهم .. فأجابه أول من أجابه شقيقه . قال له : من ؟ قال : فلان . قال : فلان من ؟ فلان قُتل !؟ أجابه أبو سهل : بل أنا فلان . فحوّل سماعة الهاتف لوالدته .. فلما كلمها سقطت مغشياً عليها .. وكان ثمة من يعزيهم فيه وقتذاك فلم يدروا كيف يواجهوا المفاجأة !! وفي نفس اليوم - وكان يوم جمعة - مضى والده الى الصلاة فكانت الخطبة عن أبي سهل الشهيد ... وزاد الخطيب فقال : ووالد هذا البطل موجود بينكم الآن !! فقام الناس بعد الصلاة يحتضنونه ويباركون له .. وهو قد تلقى قبل قليل خبر حياة إبنه ! وإستمرت المفارقات الى أن أصروا على لقائه .. فقدم السعودية وكان في إستقبالهم في المطار ..

فلما رأوه سجدوا لله سجدة شكر .. وبعدإستشهاده حقيقة أرسل الوالد لمجلة الجهاد رسالة قال فيها :
((إن نبأ إستشهاد إبني في جبهة القتال أثار في نفسي الشجون - فما أبناؤنا إلا فلذات أكبادنا - ولكن سرعان ماغشيتني رحمة الله فأنزل على قلبي برداً وسكينةً حين تذكرت ما أعدّ الله للشهيد وأهله .. عند ذلك تمنيت أن يستشهد أبنائي السبعة الباقين ويلحقني بهم شهيداً ..)) أنظر مجلة « الجهاد » - العدد ٣٧ - ربيع ثاني ١٤٠٨ - ديسمبر ١٩٨٧ - صـ٤٥ إضافة الى روايات إخوانه في بيشاور .

(٦) يذكر أبو حفص إن السلاح الذي أخذوه كان رشاش [ششكوف] وخمسة رشاشات (كلاكوف) مع المخازن ، بينما يذكر أبو محمود أن الـ [كلاكوفات] كانت أربعة فقط.

(٧) الشهيد أبوالفضل المصري : ذو وجه مشرق ولحية طويلة خفيفة .. كثير الصمت - دائب العمل كان يعد نفسه للدخول في أعماق أفغانستان منذ فترة لكن أحداث [جاجي] منذ ١٩ شعبان أخرت رحلته ليشارك في معارك المأسدة وينال الشهادة أول أيام عيد الفطر .. ويدفن مجاوراً لأخيه منصور . أنظر : مجلة (الجهاد) - العدد ٣١ - صـ ١٧.

(٨) الشهيد منصور المصري « أبو دجانة الثاني » : كُني بذلك لشدة شبهه بالشهيد أبي دجانة المصري أيضاً .. والذي نال الشهادة في ولاية (بغلان) أواخر عام ٨٦ - فارع الطول - رياضي الجسم - خفيف الروح - أخضر العينين - حافظ لكتاب الله - من مواليد المنيا في صعيد مصر . درس في كلية الآداب في القاهرة وتخرج فيها من قسم اللغة العربية .. إشترك في معركة ١٩ شعبان وكان في مجموعة الإقتحام ، وفي الأول من شوال نال الشهادة حينما أتته رصاصة بين عينيه ولم يجاوز السابعة والعشرين من العمر - ودفن رحمه الله بجانب أبي الفضل . أنظر مجلة (الجهاد) - العدد ٣١ - صـ ١٦ ومجلة (البنيان) - العدد ١٤ - صـ ٢٢ .

(٩) الشهيد عبدالله المصري : سمح الوجه - قليل الكلام - هادئ الطبع - قوي البنية - شديد الحماس للدعوة - يكره الغيبة ويحب العمل الجماعي - نال شهادة الدبلوم في الكهرباء - وقدم الى الجهاد قبل رمضان عام ١٤٠٦ - إهتم بجمع المعلومات العسكرية وإتقان استخدام الأسلحة وكان له دفتر خاص يسجل فيه ما يتعلمه بإستمرار .. كان يكثر من تلاوة القرآن وقيام الليل .. وكثيراً ماكان يبكي في الصلاة .. كما كان يكثر من التنقل بين الجبهات : [قندهار] - [لوغر] - [جاجي] - [كونر] الى أن قدم المأسدة .. وكان له مدفع ٨٢ يرافقه دائماً ويتقن الرماية عليه .. فكان ينزل الوادي قريباً من البوستات ويضرب على العدو .. وتمكن إحدى المرات من نزع برج دبابة هناك .. وبعد شهر كامل من فقده في المعركة عُثِرَ على جثته قريباًمن الموقع بين الأحراش وقد شجّ رأسه .. وبان مخّه .. ومدّ ذراعيه لكنه لم يتغير أو يتحلل ، وحين ضموها الى جسده ضُمتا من غير عناء .. فحملوه الى أعلى الجبل ودفن أمام غرفة القيادة بجوار أبي الوليد رحمه الله . أنظر مجلة (الجهاد) - العدد ٣١- صـ ١٧-١٨ ومجلة

(البنيان) – العدد ١٤ – صـ ٢٢ إضافة الى روايات إخوانه في بيشاور.

(١٠) الشهيد أبو خالد الجزائري : في العقد الخامس من عمره – ناحل الجسد – لاتظهر عليه آثار العلم أو التربية الإسلامية العميقة – إلا إنه صاحب وفاء وحياء .. ورجولة وإباء . كان حليقاً أول الأمر ثم أطلق لحيته .. ولم يكن ينتسب لحزب من الأحزاب أو يتعصب لجهة من الجهات . إستشهد في الطريق الى المستشفى أول أيام العيد بعد إصابته بقذيفة هاون . أنظر مجلة [الجهاد] – العدد٣١ – صـ٢٠. ومجلة (البنيان) – العدد ١٤ – صـ ١٩ .

(١١) الشهيد أبوالوليد العتيبي [محمد منير العصيمي العتيبي] : من المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية . شاب على الفطرة . ذو ثقافة بسيطة وعشق للجهاد لايكاد يوصف – معتدل الطول – حنطي اللون – بالغ الطيب – شديد الأدب – طاف أفغانستان من جنوبها الى شمالها وألقى عصا الترحال في [بلخ – مزار شريف] ومكث هناك عدة أشهر . كان شديد التشوق للشهادة – وعندما ذهب الى السعودية لكي يتزوج ويحصن نفسه لم يقدّر له ذلك فعاد بهمة أعلى وإرادة أشد وكان يقول لإخوانه بأن الله سوف يفرجها بالحور العين إن شاء الله . وهكذا كانت شهادته في المأسدة أول أيام عيد الفطر ودفن أمام غرفة القيادة بجوار إخوة له سبقوه الى لقاء الله . إنظر مجلة (الجهاد) العدد ٣١– صـ ٣٠ ومجلة (البنيان) – العدد ١٤ – صـ ٢٥ إضافة الى روايات إخوانه في بيشاور ..

(١٢) ذكرت مجلة (البيان) أن أكثر من ٢٥ من الكوماندوز السوفييت قتلوا في عملية الإلتفاف التي قامت بها مجموعة العرب التسعة .. ونقلت عن أحد الدبلوماسيين القادمين من كابل بأنه رأى ٢٥ تابوتاً في مطار كابول متجهة الى روسيا – لكن ضابط الإتصال الذي سلم نفسه للمجاهدين بعد ذلك صرّح بأن عدد القتلى يقارب الأربعين روسياً – حيث أنه قد بلّغ الرسالة الى كابول . أنظر : مجلة (البنيان) – العدد ١٤ – صـ ١٤ .

الأنصار العرب (٣٨)

أهل المأسدة أدرى بشعابها...

إنتهى أول أيام العيد وقد إمتلك الإخوة العرب في المأسدة زمام أنفسهم من جديد .. واستعادوا توازنهم الى حد كبير .. وحققوا على صعيد الذات إنتصاراً لايقدر بثمن حينما حققوا الإنتصار على الكوماندوز أثناء الإلتفاف وجندلوهم في مواجهة وجه لوجه ، بعدما كادوا يُخلوا المكان قبل يوم واحد ولم يكن قد سقط لهم - حينها - أي شهيد ، لكن الإنتصار على مشاعر القلق وأحاسيس الرهبة لم يكن العطاء الوحيد لتجربة الأول من شوال الناجحة - فالعرب إنتصروا خلال ذلك اليوم الحافل بالأحداث على شعور آخر في أنفسهم كان لابد من دخول التجربة تلو التجربة للإنتصار الكامل عليه .. وهو شعور الإستهتار بالعدو والإستهانة بأي لقاء محتمل معه ، فالإخوة الذين كانوا يجرون وراء المعارك والإشتباكات من قبل ، باتوا بعد تجربة اليوم وقسوة الأيام القليلة التي سبقته يدركون أن القتال لاتحسمه العواطف والشجاعة الفدائية - على أهميتها - وحسب ، وأن النصر لايتحقق بإندفاعة واحدة أو بهجمة خاطفة وقودها الحماس وحده .. ولذلك أتى إقرارهم بأثر الإرهاق وبمحدودية الإمكانيات - على وفرتها - وبضرورة الإستعانة بالمجاهدين الأفغان - ولو كعنصر بشري يستر فراغات الخنادق والمتاريس - .. أتى في ذلك اليوم أكثر منطقية وقبولاً من قرار الإنسحاب المفاجيء يوم أمس .. قبل دخول التجربة وقبل إمتلاك زمام النفس وإستعادة الثقة ، وهكذا .. وعلى جهاز المخابرة كان أبو محمود بعد ظهر الأول من شوال يحادث الشيخ سياف في غُنْده وقد رجع مَنْ سَلِمَ من عملية الإلتفاف - ووصلت الغنائم مثلما وصلت أخبار تتابع الشهداء وأنباء إحتدام القصف وإشتداد الزحف المعادي على « مركز المتقدمة » ويقول له : « .. أبو عبدالله يحييك ويقول لك ياشيخ إن الهجوم مركز للإستيلاء على المركز . ففي الساعة الواحدة والنصف نزل ٢٥ كوماندوز جديد وكلهم روس وإذا أخذوا المركز فتعلم أنت النتيجة . يريدون أن يتقدموا الى هنا . ويقول لك الشيخ أبو عبدالله بأن صدّهم الآن أحسن من صدّهم مستقبلاً . عُلم ؟ ». ويجيبه الشيخ سياف : « نعم . ماذا تريدون .. وماذا تقترحون الآن ؟ أجب » ويجيب أبومحمود : « .. إرسال قائد ومسئول عسكري من عندكم يكون كفواً لإستلام نصف المعسكر من طرفهم (أي العدو) علم ؟ ». ويعود بعد دقائق من الحديث فيقول : « .. ياشيخنا أبو القعقاع (أي أبو عبدالله) يعلمك بأن جماعتنا تعرف منذ أربعة أيام ومعظمهم قد تعب جسدياً . عُلم ؟ » ويضيف مخابرة لاحقة : « .. الباقي من المجموعة كلها الخمسة عشر الذين يتصدون في المتقدمة أربعة من قومنا كانوا لا يزالون هناك حتى الدقائق الأخيرة ، وقومكم قد تركوا منذ ربع ساعة .. » ثم لا يلبث أن يبادر أبو عبدالله بالتحادث مع الشيخ سياف مباشرة عبر اللاسلكي ليؤكد له على هذه المعاني ويقول : « ..إن شاء الله يكون الحال بخير ، نحمد الله ، لكن اليوم هو اليوم الرابع منذ بدء المعركة بشدّة فمعظم الإخوة أرهقوا ولكن من فضل الله قدّر ولطف أن العدو بعد أن هاجمنا بشدة واقترب من مركزنا قرباً شديداً أخزاه الله وجاءت عليه بعض القذائف فبدأ ينسحب .. وعندنا الآن عشرون أخاً من الحزب الإسلامي نحاول أن يكونوا بدلاً عن إخواننا في الميسرة لكن الميمنة ما فيها عدد كافي أكرمكم الله فانظروا ماذا ترون » ويضيف في سياق المحادثة

: « قدّر الله وغنموا بعض أسلحتنا ، وأستشهد منّا اليوم والحمدلله على ماقضى وقدّر خمسة من الإخوة نرجوا الله أن يتقبلهم شهداء وستة جرحى .. فنرجوا أن ترسلوا مدداً بديلاً وجزاكم الله خيراً »[1]. وبالفعل أرسل الشيخ سياف مدداً من مجاهديه .. علاوة على تكثيف الرماية البعيدة من مركزه .. وزيادة إمداد الهاونات والراجمات التي يعمل عليها العرب بالقذائف والصواريخ .. وفيما إستمر الإخوة العرب في المقاومة النشطة ، ومع إستقرار حالة التوازن بين وجوب الإستمرار في هذه المقاومة وتطويرها وبين وجوب التعقل في إتخاذ القرارات ورسم الخطط .. كان الصّف الخلفي حيث إجتمع الشيخ سياف والدكتور عبدالله عزّام والشيخ تميم رحمهما الله وأبو الحسن وأبو عبدالله من بعد أبعدمن الوصول الى هذا التوازن فيما يبدو[2]. وفي الوقت الذي استمر العرب في المأسدة كأصحاب المبادرة المتفوقة والأداء المتميز والنوعي خلال الأيام التالية من المعركة.. سواء على صعيد القتال أو الترصد والتوجيه ، - كان الشيخ سياف والذين إنقطعوا عن خوض عباب المواجهة مباشرة لايزالون يميلون للإشفاق على حفنة العرب هناك .. وربما على مجد المعركة أن ينفرد العرب وحدهم برسم صورته !! لكن القرار الذي فجع الإخوة بتسليم المأسدة لإخوانهم الأفغان جملة وتفصيلاً لم يأت إلا بعد سلسلة من الأحداث جديرة بالإهتمام وبالتسجيل . يقول الأخ أبو الحسن : « في اليوم الثاني من أيام العيد ذهبت أنا وأبو عبدالله الى [قباء] وجلسنا هناك نرصد تحركات الروس كلها ونوجّه (البي . إم) في عملية ضرب الكوماندوز على نفس نقاط تحركهم .. وبقينا على هذا الأمر يومين إثنين ربما.. ثم كانت هناك مهمتنا بعد أن رجعنا الى الخط الثاني أن نجمع الأحزاب كلهم مرة أخرى في خطة دفاعية واحدة » . . أمّا في المأسدة نفسها ومع إستمرار القصف وتكرار محاولات العدو للتقرب من أطرافها .. فقد عمد أبو حفص - الذي تولى إمارة الموقع بعد إصابة أبي عبيدة - الى التخفيف قدر الإمكان من عدد المجاهدين فيه ، والخروج بمجموعات الإخوة الى محيط المأسدة بعيداً عن قذائف العدو - قريباًمن تحشداته وخطوط تقدمه .. فتجربة أبي حفص خلال السنوات الماضية مع مجموعة عبدالرحمن حول [خوست] علمته - ضمن ماعلمته - أن التفوق يأتي من الكيف لامن الكمّ .. ومن حسن إدارة المعركة لامن الإنخراط في المعركة وحسب . يقول أبوحفص : « إنسحب العدو من السلسلة الجبلية التي كانوا يحتلونها وغيّروا محور تقدمهم فأصبح في السلسلة الأمامية القريبة جداً من الوادي لتأمين تقدم دباباتهم عبره.. وقت ذاك حصلت على أبي عبدالله ضغوط شديدة من الأستاذ سياف فمشى من المأسدة وبقيت أنا في إمارتها فبدأت بتنظيم المجموعات من جديد ، وركزت على أن تكون خارج نفس منطقة المأسدة وبقيت التي تقصف بإستمرار .. وفي الأمام منها على المنطقة التي نعتبرها منطقة محرّمة بيننا وبينهم .. وهذه كانت أأمن المناطق بالنسبة لنا من الضرب والقصف ، وهكذا بدأت أستريح حقيقة بالنسبة للإخوة .. وعدنا نأخذ الموقف أولاً بأول ونوجّه كل الأسلحة الثقيلة للمجاهدين عن طريق نقاط ومراكز ترصدنا ، لكن القصف إستمر شديداً جداً علينا خاصة على منطقة [الزيكوياك] .. فلم تلبث أن نزلت إحدى القذائف هناك فقتلت إثنين من الإخوة هما بشير - الذي قُصمَ نصفين - وسراقة .. فبلغ عدد الإخوة الذين إستشهدوا سبعة عشر -[١٧] متتابعين[3] الأمر

الذي زاد الضغوط الشديدة على أبي عبدالله ليسحب الإخوة من المأسدة ..» .

كان أربعة عشر من الإخوة العرب قد باتوا مساء الثالث من شوال في موقع (الزيكوياك) يحمون هذا الموقع الهام ويحمون بقية المواقع الهامة في المأسدة . كانت ليلة باردة.. مظلمة والنيران تشتعل في الأشجار برغم تساقط المطر ، والإنفجارات لا تكف عن الإستمرار ، وبعدما قسم أمير الموقع - بشير- الإخوة على مجموعتين للحراسة ، تكلم بكلمة عامية عبّرت عن بساطة ثقافته وعن عمق إيمانه .. وقال : « الحمدلله الذي اختارنا لنحمي ثغرة من ثغور الإسلام ، فهذه نعمة كبرى لاتأتي لكثير من الناس .. نعم إن الأمر صعب والعدو قريب والبرد شديد ولكن بتوكلنا على الله فلن يخذلنا..[٤]» وفي الساعة الرابعة فجراً إندلعت أصوات الطلقات فجأةً فأستعد الجميع لمعركة محتملة .. ثم لم تلبث راجمات العدو وهاوناته أن بدأت بقصف المنطقة بعنف .. تلتها الطائرات ، ولم يلبث أن إنبلج النهار عن إستشهاد بشير وسراقة .. وإصابة آخرين . يقول الأخ البتال: « في اليوم الثالث قبل صلاة الفجر سمعت صوت عدو تحت (الزيكوياك) بموازاة (المتقدمة) يطلقون الرصاص علينا تبعه قصف شديد جداً على الموقع ، الأمر الذي أكد أن العدو صعد إلينا[٥]. يومها كان أميرنا بشير المصري رحمه الله ، فطلب مني بعد ذلك في الصباح أن آتي بجهاز المخابرة .. وكان بين هذا الموقع والموقع الآخر حوالى ٢٠ متراً وكان القصف شديداً جداً بالهاون والصواريخ وكنا نرى الطائرات تنزل عمودياً على (الزيكوياك) حتى أننا كنا نرى القنبلة التي أسقطتها وهي تنزل ! فلا يستطيع الواحد منا أن ينبطح وكأنما أصابته حالة شدّ نفسي ..فنراها تصيب طرف التّبة ثم تنزل في الوادي .. فذهبت الى أبو حذيفة في الغرفة التي تحت الأرض[٦] وكان كثير النكات.. فجلسنا نشرب الحليب ونضحك!!وإذْ بقذيفة تأتي على نفس الغرفة .. في نفس الوقت الذي كان الدكتور صالح الليبي رحمه الله وأبو الحسن المقدسي يريدان الوصول إلينا .. فأتت عليهما قذيفة ، فلما دخلا كانا مصابين بشظايا وينزفان دماً كثيراً .. وقال د. صالح : الله أعلم أن بشير وسراقة إستشهدا . إذهبا وأنظرا إليهما ذهبنا فوجدنا بشير نصفين[٧]. وسراقة وجدت به إصابات شديدة[٨] حملناهما ودفناهما في نفس اللحظة وبقينا نحن في الموقع ..» ويتابع الأخ البتّال وبسمته لاتفارق محيّاه : « .. مع إشتداد القصف بقيتُ منبطحا قرب واحد من الخنادق البرميلية هناك حيث جلس أبو حذيفة فيه .. فرأيت أخانا برغش يجري مسرعاً الى الخندق ويريد أن يحتمي من القصف وهو لا يدري وجود أحد فيه .. فلما أرتمى على أبي حذيفة أعتقد ذاك أن قذيفة سقطت عليه .. فكدت أموت من الضحك وأنا أنظر إليه .. وأريد أن ينتهي القصف لأرى وجه أبي حذيفة !! » ويزيدني البتّال من مفارقات المعركة الفكهة فيقول : « بعد ذلك طلبوا منا النزول الى (المتقدمة) فوراً فنزلنا . كان هناك أبوعبيدة الصغير وعثمان المصري وعبدالرحمن كريسينا رحمه الله فتوزعنا من جديد ، وبينما كان أبو حذيفة يصلي - واقفاً بالطبع - أتت قذيفة نحوه ، فأمسك بأخيه الذي يأتم به وجلس ! وبعدما أنهى الصلاة قال : واللهِ لو أعلم أن

الصلاة تجوز وأنا نائم لصليت نائماً !! » .. لكن هذه الروح المستبشرة التي كانت تسود المأسدة والمعنويات العالية التي زادت من ثبات الإخوة العرب لم تكن لتتغيّر من قرار الأستاذ سياف ومن وافقه بإخلائها منهم وتسليمها للمجاهدين الأفغان .. يقول أبو حفص : « إشتد الضغط على أبي عبدالله ليسحب الإخوة العرب من المأسدة . تال لهم : « طيّب .. أنا موافق لكن لا بد وأن نأتي بأبي حفص ونسمع رأيه في الموضوع لأنه هو المسؤول الأن هناك . » وبالفعل إتصل بي أبو عبدالله وقال لي : ضروري أن تأتي . فذهبت .. وهناك في مقر الأستاذ سياف كان حوالي المائة من العرب موجودين في المغارات بعد أن منعنا إرسال أحد إلا بإذن .. لأنني لم أكن أريد تكديس الإخوة في المأسدة ، فكنت كلما مررت على أحد يعرفني منهم أخذني بالأحضان وهو يقول : يكرمك الله تأخذني معاك .. فلما دخلت على الجماعة وجدت الدكتور عبدالله قام جزاه الله الخير وأكرمني إكراماً شديداً في هذا اليوم ، وكان الأستاذ سياف موجوداً والشيخ تميم العدناني وأبو عبدالله كذلك ، فطلبوا من بادئ الأمر تقريراً عن الوضع .. فجلست أشرح لهم وأقدم تصوراً عاماً ، فجمعوا اللجنة العسكرية للأفغان من الحزب والجمعية والإتحاد وجلسوا معي أيضاً .. فأتيت بالخرائط وشرحت لهم آخر الموقف ومواقع القوات وأهدافها المتوقعة .. فلما إنتهينا من ذلك وجدتهم يحاولون كل المحاولات ليسحبوا العرب من المكان ، وفي الحقيقة كنت أتمنى حدوث ذلك بالفعل فوافقت ..لأنني كنت أريد أن آخذ الإخوة فأدخل المنطقة التي بيننا وبينهم وأعود لعمل الكمائن من جديد ، لكن الأستاذ سياف قال لي : هناك الآن مجموعات مسلحة وجاهزة من الأفغان تنتظر في الخارج وأنت ستشتغل بهم .. فقلت له : ياشيخ هذا النوع من العمل يحتاج لأشخاص متفاهمين تماماً وأنا لاأستطيع التفاهم مع الأفغان .. وكل ماأطلبه أن تسمحوا لنا بمجموعتين فقط من العرب كل واحدة منها ١٥ شخصاً مع حرية التحرك في المنطقة .. فقال وآلاتكفي مجموعة واحدة من عشرة أشخاص ، ووجدت الدكتور عبدالله مصمماً ومتشبتاً بذلك لاأدري لماذا !! فأخذت أوضح لهم أن العشرة لايصلحون ، فلو أن واحداًمنا جرح لن نستطيع نحن العشرة حمله بين الجبال !! وقلت لهم : أنا لا أتنازل عن أن يكونوا مجموعتين من ١٥ شخصاً لكل منهما ، وبعد المحاورات والمفاوضات وافقوا على مجموعة من ١٥ شخصاً ومجموعة أخرى تكون إحتياطية لها .. وكان ذلك إقتراح أبي عبدالله وبعدما خرجنا بهذا الإتفاق جلسوا ليتناقشوا من يبقى في المأسدة ، فأختاروا أباهاجر وثلاثة من الإخوة العراقيين : أخانا محمد حسن - وأخانا عبدالعزيز - وأخاً آخر يعتبروا مستشارين للشيخ شير علم الذي سيستلم الموقع منا ، أما نقاط الرصد والإستطلاع فقالوا إن العرب أفضل من يقوموا بهذا العمل ويعطوا أرقاماً دقيقة خالية من المبالغة .. فقال لهم أبو عبدالله : إذاً تتركوا لنا (قباء) والرصد الأمامي . في ذلك الوقت كنا بحاجة شديدة جداً الى الراحة - فذهبت مع أبي عبدالله الى العرين ، ونزلت كل مجموعاتنا من المأسدة الا مجموعة المستشارين هذه وأهل الرصد ..

وهناك بدأنا ننظم أنفسنا من جديد ..» .

* * *

كانت أكثر من عشرة أيام على بدء تقدم القوة بإتجاه مواقع المجاهدين في المنطقة قد إنقضت دون أن تحقق إنتصاراً لها يذكر أو إنجازاً يرضي مطامح القادة الذين خططوا لها وشاركوا فيها ، ومع تكرار الهجمات المضادة والمفاجآت التي لا تسرّ باتت القوة بحاجة ملحّه الى تغيير ما في أسلوب الهجوم أيضاً . فدفاعات المجاهدين التي صمدت الى الآن وكمائنهم التي تبدّت .. واضح أنها تتركز في رقعة محدودة من الأرض بدايتها موقع المأسدة والمراكز الدفاعية التي تتعاقب على محاذاة السلسلة الجبلية التي تليها بإتجاه الشرق حيث غُنْد الشيخ سياف والفتح هنالك .. أما عمق هذه الدفاعات وتلك الكمائن فلا يتعدى - كما أتضح خلال الأيام الماضية - تلك الهضاب التي تفصل بين قوات الحملة الزاحفة والمواقع الدفاعية المتقدمة للمأسدة ، ولم يكن صعباً على قادة هذه الحملة أن يقرروا توسيع محاور الهجوم إذْ ذاك لتلتف على هذه المواقع الحصينة لخصومهم المجاهدين من جهتين : أولاها على يسار الوادي الذي قدمت القوة عبره صعوداً الى القمة « خرشتل » التي لاتجاريها في الإرتفاع قمم أخرى في المنطقة .. الأمر الذي يوفر للقوة مواقع رصد ومراقبة بالغة الأهمية . والثانية : على سلسلة الجبال العالية المقابلة والتي تشكل ظهر المأسدة بالتحديد .. ومركز ترصدها الأساسي ورمايتها الفاعلة وهي (جبل قباء) وإمتداداته . ولقد كان واضحاً أن السيطرة على هاتين الجهتين - إذا تمّ - سيكون بمثابة الكماشة المرعبة التي ستطبق على المجاهدين بلا رحمة ، فتجعل من كل حديث عن إستمرار المقاومة - وقد أحيط بهم - أمراً عبثاً .. وبالفعل تمكنت القوة المهاجمة يوم الثامن من شوال من الإستيلاء على قمة « خرشتل » - حيث لم تكن هناك مراكز للمجاهدين فيما يبدو - ووضعت فيها نقطة ترصد ، وبدأ القصف بتركيز شديد على مواقع المجاهدين إضافة الى قصف طرق الإمداد بدقة وبإقتدار .. وعندما حاولت مجموعات من المجاهدين إقتحام القمة والقضاء على نقطة الترصد لم توفق واستمر الموقع بيد العدو .. أما (٩) (قباء) فقد كان للإدراك المبكر والوعي بأهميتها أثر في إفشال محاولات السيطرة على مركز المجاهدين هناك ، ولقد تمكن المجاهدون العرب والأفغان من التصدي لهذه المحاولات على الرغم من نجاح العدو في التمركز على الطرف الآخر للجبل بإتجاه الغرب وإشتراك الطيران المكثف في محاولة زحزحة المجاهدين عنه . يقول الأخ أبوعبدالرحمن السريحي -أمير الموقع وقتذاك (١٠) -: « في البداية لم نكن نتعرض للقصف لأن مكاننا لم يكن معروفاً للعدو بالتحديد ، لكن إخواننا الأفغان لم يكونوا يعبئوا بالمسألة التكتيكية كما هو معلوم ، فجاءت مجموعة منهم والتقت بمجموعة أخرى

وأخذوا يعانقون بعضهم على القمة تماماً ، ووقتها كان رصد العدو قد إتخذ له مكاناً مقابلاً لنا بالضبط وعلى جبل (خرشتل) الذي يرتفع عنا قليلاً ، فرأوهم وكشفوا المكان ، وبدأت الطائرات بقصف الموقع قصفاً شديداً . كانوا يرمون على الإخوة في الأسفل قذائف زنة ٥٠٠ كيلو ، أما إختصاصنا نحن كان قذائف من زنة طن !!! لكن موقعنا ولله الحمد كان جيداً ، حيث ضُربت كل النقاط من حولنا وكانت خيمتنا تهتز من القنابل التي تمرّ من فوقها لكنها سلمت بفضل الله » . ويضيف الأخ أبوعبدالرحمن : « كان العدو قد أقام له مركزاً على الطرف الآخر من الجبل ، ولقد حاولوا التسلل مع هذا القصف حتى يباغتونا ، فأرسلنا من جانبنا نقاطاً متقدمة للحماية والإنذار المبكر ، وأثناء إعدادهم للمواقع تحت القصف الشديد أصيب أحد الإخوة الأفغان ، ولكن الله ثبتنا ولم ينجح العدو في مسعاه . »

والذي يبدو أن قيادة القوة أرتأت أن تستفيد من محاولة التطويق الواسع هذه وإنشغال المجاهدين بمقاومتها لتعود فتهاجم موقع المأسدة ذاته من جديد وقد تحقق لها أكبر من إمكانية الترصد والإشراف الأشمل على [ساحة العمليات] .. حدث ذلك كله والمجموعات العربية قد إنسحبت كلها من المأسدة - حسب الإتفاق الذي تمّ - وبقي أبو هاجر أميراً على حفنة من الإخوة العرب لا يجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة ، في الوقت الذي إحتشد عشرات المجاهدين الأفغان فيها ولم يكن أكثرهم قد رأى المكان من قبل ، ولا كان معظمهم من أهل المنطقة نفسها أصلاً .. ولذلك لم يطل الأمر بهم ليعود العرب من جديد الى معسكرهم الذي خبروا كل زاوية فيه ، وخاصة وأن الأنباء عن هجوم جديد على المأسدة قد سرت خلال لحظات لتبلغ المجموعات العربية المتأهبة في العرين ، يقول أبو محمود : « صدر الأمر بإنسحاب العرب ، وأرسل الشيخ سياف حوالي ٢٨٠ من المجاهدين الأفغان أكثرهم ممن لهم خبرة في بلده (بغمان) بقيادة حاجي شير علم الذي إستلم قيادة المنطقة ، وهو قائد مشهور في أطراف كابل ولكنه لايعرف المنطقة بالطبع .. وعينوا كوتشاي نائباً له .. وبقينا في المأسدة أربعة من العرب فقط : أبو هاجر - والعبد الفقير - وأبو صادق العراقي - ومحمد الحسن الكردي . أما مجموعة (قباء) فظلت على ماهي عليه ، وبقينا على هذه الحال حوالي الأربعة أيام ثم طلب أبو هاجر النجدة فأرسل أبو عبدالله الينا بمجموعتين : واحدة وصلتنا والأخرى بقيت في (مركز عبدالسميع) الذي يبعد ثلاثة كيلومترات خلف المأسدة -.. » ويقول أبو الرضا : « مع إزدياد عدد الشهداء العرب إشتد الكلام علينا .. كانوا يقولون : إذا بقينا على هذه الحال عشرين يوماً آخرين فلن يبقى ولاعربي في كل باكستان ! ولذلك قالوا : لابد أن ينسحب العرب من المأسدة وأن يسلموها للأفغان .. وهكذا إنسحبنا الى العرين وسلمنا أمارة المأسدة للأفغان .. وتركنا لهم مجموعة صغيرة من الإخوة العرب .. وقررنا أن نغير التكتيك : إذا كنتم تريدون المأسدة خذوها أما نحن فسنقاتل العدو من مكان آخر ، وعندما ذهبت للعرين أرسلوني الى بيشاور لإعادة الإخوة الذين كثر عددهم هناك .. ولتنظيم سفر الذين يريدون المغادرة

، ولكن الإخوة لم يلبثوا أن عادوا للمأسدة من جديد ..» .

يقول أبو حفص : « جلسنا في العرين نتابع الوضع عبر اللاسلكي بعدما نظمنا الإخوة في مجموعات متأهبة ، في الوقت الذي كان أبو هاجر في حالة يرثى لها هناك الى درجة أنه طلب بأن يعفى من الأمرولم نلبث أن وجدناه ينادي على الجهاز ويستغيث : هناك تقدم .. هناك تقدم .. وكأنما وصل الخبر بصورة مهولة فناداني أبو عبدالله وقال لي : هيّا .. حركات .. حركات .. وبدون إذن من الأستاذ سياف ولا الدكتور عبدالله تحركنا بالسيارات الى المأسدة ومعنا مجموعات الإخوة ، ووقتها كان شفيق قد عاد من بعد إصابته فأرسلته بمجموعة الى منطقة عبدالسميع ومضيت أنا بمجموعتين الى المأسدة .. وفور أن وصلنا سألت : من أين التقدم ؟ قالوا من جهة (بدر) ، فالعدو الذي ترك المواقع القريبة من المأسدة كان قد أحتل سلسلة أمامية موازية يستطيع عبرها تأمين طريق إمداداته وتحريك دباباته وقواته خلال الوادي .. وحاول أن يتقدم من هذه السلسلة الى (بدر) فوزعت الإخوة الذين معي الى مجموعتين : واحدة أعطيتها للأخ أبي عمرو وأخذت الثانية .. و مضى أبو عبدالله الى القيادة ، وبعدما حددتُ لأبي عمرو مكاناً ينصب فيه الكمين ونزلنا من جهة (بدر) أخذت مجموعتي نحو المنطقة التي بين السلسلتين في محاولة للإلتفاف وقطع الطريق الذي يحتكرون عليه ..» .

* * *

مع إبتداء نزول المجموعتين نحو الأودية المتعانقة أسفل (بدر) كانت المأسدة تتلقى زخماً جديداً وشديداً من قذائف العدو وصواريخه ، ولم تلبث المقادير أن إصطفت مجموعة جديدة من الشهداء ومن الجرحى كان من بينهم الأخ أمين الذي نجا من الموت بأعجوبة ! يقول أبو عبيدة : « أثناء نزول الإخوة في الصباح إشتد القصف المركز علينا لمدة ساعتين تقريباً بشكل رهيب ..وقتها كنت وعبدالرحمن رحمه الله في (بدر) ننتظر إكتمال نزول الإخوة ونتابع حركتهم حينما إبتدأ القصف ، فلم نستطع مغادرة خندقنا من شدته الا بعدما توقف بعد ساعتين .. ففي ذلك اليوم كان معنا جماعة من مجاهدي (الجمعية) أرسلوا لنا (بي . إم . يك) فذهبوا مع الأخ أمين لينصبوه .. ولم ألبث أن أتاني صوته بالجهاز وهو يشهق و يقول : أُصبت .. فما أستطعت من شدة القصف حتى أن أتحرك إليه .. »!

ويعود الأخ أمين بالذاكرة الى تلك الساعات الفاصلة من حياته .. ويقول : « عندما أخبرتنا المأسدة أن هناك هجوماً جديداً عليها جهّز أبوعبدالله نفسه مباشرة وطلب منا التحرك ، فانطلقنا معه

أنا والأخ خضر والأخ أبو سياف مع أخ أفغاني مساعد له وأبو عبيدة فيما أذكر .. وتوجهنا مباشرة الى المأسدة وفي الطريق قابلنا شفيقاً والإخوة الذين كانوا معه فقال لهم أبو عبدالله : تأتوا من الجبال وتبقوا خلف المأسدة بالضبط .. وتابعنا ، فمامضت خمس دقائق أو عشر دقائق على وصولنا المأسدة حتى أتانا الصوت باللاسلكي : الى الأخ أبو حفص .. أبو حفص .. هناك تقدم جديد على (غرفة بدر) إستعدوا . كان أبو حفص متمدداً وقتها فنهض وأخذ (الكلاشنكوف) وقال لأمين : إذهب وأيقظ لي حوالى عشرة إخوة (جرينوف) و (آر. بي. جي) و (كلاشنات) .. في ذلك الوقت كان القصف قد إشتد وبدأ يتركز حتى أنني مضيت منبطحاً الى غرفة القيادة .. وحين إستعد الإخوة للتحرك وهممت بالمضي معهم ناداني أبو عبدالله وقال لي : هؤلاء الأفغان معهم (بي . إم . يك) خذهم ودلّهم على مكان جيد لتقصفوا منه على (البي . إم) لكن البطارية لم تكن موجودة ، فأتصلنا بالقيادة وطلبناها ثم جلسناننتظر . في هذا الوقت إشتد القصف الى درجة جنونية بمعنى الكلمة فكان كالمطر فعلاً وخاصة على (غرفة بدر) .. وقدراً كان أبو عبدالله قد حفر في الجبل هناك غرفة لم تكتمل .. ومازالت وقتها بدون سقف ، لكننا ومع إشتداد القصف إضطررنا أن ندخل فيها ونُدخِلَ معنا (البي . إم . يك) وننتظر ، لكن ومع كل قذيفة حولنا كانت الحجارة تأتي عليّ .. فما أعجبني المكان ، وأنتقلت الى أسفل الجدار داخل الغرفة .. وبينما كنت أتكلم مع قائد الأفغان – وكانوا خمسة وأنا العربي الوحيد معهم – وبعد قرابة نصف ساعة من الإنتظار وسط هذا القصف الجنوني .. قدراً هكذا جائت قذيفة في طرف الغرفة وفي نفس الجدار الذي فوقي بالضبط .. وكنت لحظتها متمدداً على ظهري ورأسي متكيء إلى الجدار .. فما أحسست إلا بالضغط يشتد جداً جداً .. الى أبعد درجة ، والدخان الأسود ورائحة البارود تنتشر معه .. ولمدة أربعين ثانية تقريباً تصلب جسدي كله فما أستطعت أن أحرك أي عضو فيه ، ثم لما تمالكت نفسي نظرت فوجدت الدم ينزف بغزارة من رقبتي .. فظننت أن الوريد قد قطع وأنني سأستشهد الآن ، فلما إنكشف الدخان قليلاً إستطعت أن أرى الأفغان .. وكان ثلاثة منهم قبل الإنفجار أمامي والإثنان الآخران بجانبي وكنت ثالثهم تحت الجدار ، فهؤلاء أتت القذيفة خلفهم – مثلي – فحفظهم الله عز وجل من الشظايا نوعاً ما ، أما الذين أمام القذيفة فقد إستشهدوا كلهم رحمهم الله .. لكنهم كانوا لايزالون في حالة الإحتضار ، وكان أحدهم قد أخذ نفس المكان الذي كنت قد تركته من قبل .. فقُتل هذا من فوره ، وكان الآخران لايزالان يحتضران وهما يكبّران ويسبّحان .. وأنا أقول لهم : قولوا لاإله الا الله محمد رسول الله .. الشهادة الآن .. الشهادة .. ولكني وجدت نفسي لم أُستشهد .. ولم تفض روحي كما أتوقع !!فنظرت الى الأخوين على يميني فوجدت فيهما جراحاً بسيطة ومازالا يكبّران ويصيحان وهما خائفان جداً ..فقلت لهم : إصبروا .. ونظرت الى جهاز اللاسلكي الذي كان معي فوجدته قد تكسر لكن لما جربته وجدته يعمل ..حاولت أن أتكلم .. لكن الجرح الذي برقبتي لم

يمكنني الا أن أقول : جُرحنا ..جُرحنا .. فجاءني صوت من القيادة يسأل : من يقول جُرحنا . من .من ؟فما أستطعت المتابعة في البداية .. ثم تمكنت آخر الأمر أن أقول : أمين .. وأنقطع الصوت مني تماماً .. وأشرتُ للأفغان ليتابعوا الحديث وأنا ممسك لهم بالجهاز .. فأبلغوا عن حالتنا وطلبوا سيارة لنجدتنا .. ومباشرة كان أبو عبدالله قريباً منا بحوالي خمسين متراً من جهة (غرفة بدر) .. فلما سمع صوتي مباشرة جزاه الله الخير ترك الأخ خضر في موقعه الذي يشرف على الكوماندوز وتحرك اليّ والقصف – والله – مثل المطر بالضبط .. بالصواريخ وقذائف الدبابات والهاونات .. فلما لم يجد أحداً أتاه بالسياره تحرك مباشرة الي (غرفة القيادة) مرة أخرى وأخذ يبحث هنا وهناك حتى وجد (سوزوكي) صغيرة والقصف مستمر بشكل جنوني .. ووصل الدكتور ابو بكر المصري الينا أيضاً فوجد إثنين لا أمل إطلاقاً في حياتهما .. فأخذ الثالث .. والأثنين الأخرين الجريحين عن يميني .. وناداني أبو عبد الله لأصعد الى السيارة .. فأخذت أشير له بأن يبقى الآن لأن القصف شديد وقد يصاب فما رضي .. قلت له : إجلس ، الشظايا تتناثر في كل مكان .. لا تقف لكنه كان يقول لي : لا ، إطلع ، لازم ننقلك بسرعة .. وبالفعل تحركنا جميعاً ، فما أن خرجنا من بوابة المأسدة حتى يسّر الله قذيفة سقطت بجانب شجرة فقطعتها وقطعت الطريق ! حاول في البداية أن يزحزحها بنفسه فما استطاع .. أتى ببعض الجرحى الأفغان الذين معنا فلم ينجحوا أيضاً .. خرجت أنا ويسّر الله عز وجل فاستطعنا جميعاً أن نرفعها عن الطريق ونكمل الى مركز إسعاف بسيط في (جاجي) أول الأمر .. ثم تحركنا الى (برجنار) وكانت ثلاث شظايا قد دخلت أسفل الأذن اليمنى بشكل زاوية واستقرت في القصبة الهوائية ..فكنت كلما حاولت أن أتكلم مع أبوعبدالله وجدت الدم والهواء يخرجان من نفس هذه الفتحة التي تحت الفك .. والدم يتناثر على ثياب أبي عبدالله جزاه الله خيراً أيضاً ، فَفُتِحَتْ الرقبة من الوريد الى الوريد .. ووجدت الشظايا الثلاث داخل القصبة حيث إستقرت هناك ! » .. ويسجل البتال جانباً آخر من تلك الحادثة شهدها بنفسه ويقول : « كنت مع شفيق وأبي نوفل وأبي مصعب السوداني .. حوالي ٧–٨ إخوة متجهين الى (بدر) من (مركز عبدالسميع) فرآنا العدو أثناء الطريق فقصف علينا .. لكن أحداً منا لم يُصب والحمدلله .. فلما وصلنا (بدر) وجدنا أبا عبدالله يحمل أمين في (سوزوكي) أبيض مصاباً .. فأكملنا الى الغرفة التي سقط عليها الهاون (هاون غراناي) فوجدنا قطع لحم ويد وعظام منتشرة فيها .. ورائحة طيبة جداً ماشاء الله تملأ الغرفة ، ولم يكن أحد من العرب أو الأفغان قد وصل إليها قبلنا .. وحتى أتأكد أمسكت اليد بنفسي وشممتها فوجدت نفس الرائحة .. وهذه الرائحة شممتها من كثير من المجاهدين قتلوا أمامي .. وأقرب رائحة اليها رائحة المسك الذي نعرفه .. ولكنها أطيب منه بالتأكيد .. ».

* * *

في موقع (بدر) كان أبو عبيدة لايزال محاصراً تحت القصف لم يستطع مغادرة خندقه لأكثر من ساعتين .. حتى وجد الفرصة آخر الأمر فسارع الى (القيادة) لينظر الى أين وصلت الأمور.. يقول أبو عبيدة : « هدأ القصف قليلاً فقلت لعبدالرحمن : لا تتحرك من هنا حتى نحمي ظهر الإخوة في الأسفل ، وأنا سأذهب آلى (غرفة القيادة) لأعرف الأخبار .. وأثناء تحركي فوجئت بأحد الأفغان في إنفعال شديد وهو يصيح : إقتحام .. إقتحام ! ولم يلبث أن إشتد القصف من جديد ووصل الى (غرفة القيادة) حتى خُيّل الىّ أنهم يرصدون تحركي ويتابعونني بالقذائف .. لذلك صدّقت خبر الإقتحام ، لأن المعتاد أن يسبقوا ذلك بعملية التمشيط المكثفة كهذه .. فقلت : إذاً الإخوة الذين في الأسفل راحوا ! وأردت أن أصل الي الغرفة لأنظم الإخوة وأخبرهم بأن العدو قادم ، لكنني ولكثافة الضرب أقسم بالله أنني لم أكن أقدر أن أتحرك ولا أن أرفع رأسي .. وبيني وبينهم حوالي ٢٥ متراً فقط ، لكن الله سبحانه حرسنا وحفظنا ، وتمكنت أن أصل اليهم آخر الأمر ، فوجدت بعض الإخوة أذكر منهم خالد وصالح عدّو الطواغيت ، وأخاً سعودياً إسمه أبو القاسم ، ثبته الله كان سبباً في تثبيت الإخوة .. قلت له : ستعمل كذا .. فقال لي وهو يبتسم وسط هذا الجو أبشرْ . فنزلت هذه الكلمة على قلوب الناس وعلى قلبي بالذات لتثبيته ، فقلت لهم : ليأخذ كل منكم موضعه وليعمل كذا .. وعدت فسألت الأخ الأفغاني ثانيةً : أنت رأيتهم ؟ – وكان موجوداً على الخط الدفاعي الأمامي – قال : لا . قلت له : إذاً كيف عرفت بالإقتحام ؟ قال : سمعت طلقات نار ! فجريت الى خط التماس بسرعة لاتأكد من الأمر فلم أجد أحداً ، فأستنتجت بأن إخواننا قد إشتبكوا في الأسفل وحسب .. وعندما سمع الأخ أصوات طلقات قريبة منه ظن أن العدو قد إقتحم المأسدة !! فهممت بالرجوع .. وإذْ بي ألمح أرنباً أمامي لايدري أين يختبيء من شدة القصف .. فأطلقت عليه النار لكنه كان قد هرب .. وعندما رجعت وسألني الإخوة ماذا حدث .. ماهذه الطلقات ؟ حكيت لهم الحكاية فسموها معركة الأرنب !! »..

ويتابع أبوعبيدة : « .. وبعد قليل إتصلنا بالإخوة تحت فكانوا والحمدلله قد كمنوا للقوات المتقدمة في مجموعتين : الأدنى بقيادة أبي عمرو والتي قتلت ترصدهم وأخذت منهم السلاح ، فلما إرتدوا قابلهم أبو حفص بمجموعته واشتبكوا معهم وقتلوا منهم ثلاثة أو أربعة وأخذوا سلاحهم أيضاً .. وقُتل في هذا الإشتباك أبو حفص الأردني – رحمه الله – . » .

* * *

كان أبو عمر القرشي ظهيرة الجمعة التاسع من شوال قد غاص بمجموعته في الأحراش التي تغطي سلاسل الشيب وكودية المتابعة بموازاة جبل المأسدة وحتى المواقع التي تراجع العدو اليها وعاد لينطلق منها في محمية جديدة لمهاجمة مواقع العرب .. في الوقت الذي حثّ فيه أبو حفص الخطى مع أفراد مجموعته الأخرى بإتجاه العمق بين السلسلتين .. وفي إتجاه محور آخر .. ولم تلبث المجموعتان أن إصطدمتا في الوقت نفسه بمجموعات للعدو في المنطقة ، فأحدث الإصطدامان درجة من الذعر لدى القوة التي كانت كثيفة وعزعة هجومها وإفشال محاولتها هذه في التقرب وفي التقدم .. يقول أبوحفص : « نزل الأخ أبو عمر الى المكان الذي حددته له ، ونصب فيه كميناً بالمجموعة التي معه ، ونزلت أنا بمجموعتي الى منطقة بين السلسلتين على جانب القوات وكان معي ممن أذكره الأخ حمزة المصري وأبوحفص رحمه الله الذي قتل في هذه العملية ، وأحمد شاه الأفغاني وهو يجيد التحدث بالعربية ، وأبومعاذ اليمني وأبو أسامه وأبو خالد الجزائريين .. وظلينا نمشي في هذه المنطقة الكبيرة والعميقة حتى وصلنا الى الطريق الذي يتحرك عليه مشاة العدو فوق هذه السلسلة .. والذي يعتبر طريق الإمداد لهم ، وهناك.. وقبل ذلك عن كثب بقليل .. قررنا أن نعمل كميناً للعدو .. ووقتها كنت قد دفعت بأبي حفص رحمه الله كعنصر إستطلاع أمامنا .. فلما سبقنا للطريق وجد عليه عنصر أمن من الروس تكون مهمته منع العساكر من الهرب في الغالب ، فعاد وأخبرني بذلك .. فقلت :هذه فرصة لكي نأخذ أحد الروس أسيراً ..وبالفعل دفعت بعض الإخوة في الجوانب ليؤمنوا لنا الطريق .. ودفعت الاخرين لعمل كمين .. وطلعت أنا وأبو حفص لنرى صاحبنا .. وصممت أن أذهب إليه بنفسي لكي أستطيع السيطرة على الموقف فلما وصلت له نجد أحداً ، وقدرت أنه تحرك في إتجاه آخر كشأن الدوريات .. ثم لم نلبث أن سمعنا صوت إشتباك قريب لم نعرف طبيعته أو مصدره .. تحركت بسرعة .. وأمرت أباحفص أن يذهب لأحمد شاه ينظر الوضع ، فلما تحرك وجد الإشتباك بين أحمد شاه ومجموعة أربعة أو خمسة من مشاة العدو على الطريق بينهم ضابط شيوعي ، فوجدها فرصة وفتح عليهم (الكلاشن) والقنابل فقتلوا لا أدري بعضهم أو كلهم .. وأصيب أحدهم وسقط خلف شجرة هناك..[11] فلما شاهد أبوحفص الإشتباك أسرع ليأخذ موقعاً مناسباً له .. فوقف وراء هذه الشجرة بالضبط .. فقام ذلك المصاب من فوره ورماه بالرصاص في صدره ولم يكن بينهما شيء .. فصرخ أبوحفص صرخة قوية جداً وأخذ يجري نحوي ، فلما أصبح قريباً مني سحبه الأخ أبو أسامه وأتى به الىّ .. فحملته وسألته هل تريد شيئاً ؟ قال : أريد ماء . أعطيته قليلاً منه ولم يلبث أن فاضت روحه – رحمه الله – ولم نستطع إسعافه بشئ لأن الإصابة في قلبه ..»[12] ويتابع أبو حفص : « .. في تلك الأثناء كان أحمد شاه قد سحب سلاحاً أو سلاحين من القتلى وأنضم الينا وبدأت المجموعات الموجودة فوق القمم تشتبك معنا إضافة الى المدفعية ، فحملنا الأخ أبا حفص تحت الضرب وطلعنا في السلسلة المقابلة بإتجاه المأسدة .. وعلى بعد مائة متر تقريباً

أنزلناه وغطيناه وتركناه هناك الى اليوم التالي .. وغيرت طريق الإنسحاب الى طريق آخر تماماً .. وبينما إنصبت المدفعية والهاونات على المنطقة التي كنا فيها كانت مجموعة أبي عمرو تشتبك في نفس الوقت الذي كنافيه نشتبك مع أفراد آخرين للعدو على [تبة الهاون] .. فقتلوا منهم وردوهم أيضاً وكان فيهم روس فيما أظن[١٣] وإضطروهم الى الإنسحاب مباشرة ، بينما لم يتحرك أبو عمرو جزاه الله خيراً من مكانه إلا بعد ماحقق إتصالاً معي وأعطيته أمراً بالإنسحاب .. وانسحبنا جميعاً والتقينا في المأسدة مرة أخرى .. لكن هذه العمليات على بساطتها سببت لهم ذعراً لاتتخيله لدرجة أنهم إنسحبوا من هذه السلسلة وقد أحسوا أن المجاهدين دخلوا المنطقة بينهم .. وعندما صعدت المأسدة من جهة (تبة القيادة) الى (المتقدمة) قابلني شير علم هناك وسألني : ماهي الأخبار ؟ وبالطبع لم يكن يعلم كيف أتينا أو كيف نزلنا ولا الذي فعلناه .. فقال لي : ياأخي أشركونا معكم في العمليات ! قلت له غداً إن شاء الله » .

* * *

في الغد كانت الكفة قد رجحت لصالح المجاهدين ، والحقت كمائن الإخوة العرب بالقوة في المنطقة هزيمة نفسية مؤلمة تُجاوِزُ حجمها الحقيقي بكثير .. وفيما إستعاد المجاهدون المزيد من الثقة ومن الفاعلية ، عاد العرب الى مواقعهم في المأسدة من جديد ، وعاد « شير علم » يسألهم المشاركة في الكمائن التي وصلته أخبارها – كما وصلت سواه – بعد أن انتهى كل شئ ! – يقول أبوحفص – رحمه الله – : « صباح اليوم التالي جاءني شير علم وقال لي مرة أخرى : نريد أن نُشرك الإخوة الأفغان معكم في العمليات.. قلت له : لا بأس ، وسأرسلك الى مكان جيد جداً تدفنوا أخانا الشهيد فيه وتعملوا كميناً في المنطقة ، وبالفعل تجهزت مجموعة يرافقها أحد الإخوة الذين شاركو معنا بالأمس كدليل ، إضافة الى بعض الإخوة الذين جاءوا جدداً كأبي مصعب السوداني وأبي الشهيد الأرحبي وغيرهم .. فذهبوا ودفنوا أباحفص – رحمه الله – في مكانه ، وكمن الإخوة بعدها للعدو فترة فلما لم يقابلوا أحداً منهم ملّوا ورجعوا .. وأثناء ذلك عثر الأخ عصام الدين الليبي والأخ أحمد شاه الأفغاني بلغم وتدي وراء (تبة الهاون) في السلسلة الموازية لها .. فأصيبا ، ولكن الإصابات كانت عادية .. فحملهما الإخوة ورجعوا.. وبعد ذلك مباشرة إنسحبت القوة من هذه السلسلة كلها .. وأخذت كفة المجاهدين ترجح في كل العمليات .. لتبدأ القوة كلها بالإنسحاب بعد ذلك ..» وفي ذلك اليوم .. العاشرمن شوال كان أبوحفص يجيب بالمخابرة على (خالد) في العرين وينقل إليه آخر مالديه من تطورات .. ويقول : ..« بعد الضرب وتدمير إحدى المدرعات وإحدى الناقلات الكبيرة أظن أن بعض الدبابات إتجهت الى [تشاوني]لكي

تفرّ من المنطقة التي كان عليها القصف وهناك بعض الدبابات دخلت بعض الأحراش والقرى ..» ولم يلبث أن عاد يضيف : « ياأخي . الشاحنة التي كانت مشتعلة أتى لنا خبر أنها إنفجرت لأنها كانت تحمل ذخيرة .. » وحتى آخر ذلك اليوم كانت بقية المحادثات اللاسلكية تؤكد على هدوء الوضع هناك .. وعلى إستقرار الحال وإرتفاع المعنويات .. فيما كانت المعركة الدامية تلملم أطرافها وتتجه نحو النهاية بقدر الله المقدور .

هوامش

(١) يفسر أبو حفص هذه العبارة من أبي عبدالله للشيخ سياف على أنها محاولة منه لإجتذاب الأفغان الى التقدم والمشاركة في المواجهة وتغيير عادتهم في الإحتماء بمراكزهم ومواقعهم المتأخرة وترك القوة تتقدم اليهم كعادتها كل عام .

(٢) حتى أبو عبيدة الذي أصيب في الإلتفاف ومضى مع أبي سهل رحمه الله الى بيشاور للعلاج ، كتب الى أبي عبدالله من هناك رسالة بخطه يقول فيها : « .. أنصحك في الله ألا تتشبثوا لإنقاذ المعسكر إذاكان عليكم أكثر مما تطيقون ، علماً أنني على يقين أن جميع الإخوة الآن في حالة إرهاق بدني وذهني رهيب ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. » - عن نص الرسالة بتاريخ ٢ شوال .

(٣) الصحيح أن عدد الشهداء العرب منذ إستشهاد أحمد الزهراني في عملية ١٧ شعبان وإلى تاريخ إستشهاد بشير وسراقة بلغ ١٣ شهيداً بالتحديد .

(٤) روى ذلك أبو الحسن المقدسي - وهو إبن أخت الشيخ عبدالله عزّام - رحمه الله - في مجلة [الجهاد] - العدد ٣٥ - صـ ٣٢ - ٣٣ عن مشاهداته في معركة المأسدة .

(٥) يذكر أبوهاجر أن الإخوة توهموا حدوث هجوم عليهم تلك الليلة دون أن يحدث ذلك بالفعل يقول : «..كانت ليلة إستشهاد بشير وسراقة ليلة عجيبة حدث فيها خطأ أمام المطبخ وأشتغل الإطلاق والقنابل مع صلاة الفجر حتى قلنا : خلاص حوصرت المأسدة ! ففي تلك الليلة كان الشيخ سياف قد أرسل يحذرنا من أن شيئاً سيحدث تلك الليلة .. وكانت أعصاب المعسكر كلها متوترة .. والذي يبدو أن الإخوة توهموا وقتها أو أنهم رأوا أحد الحمير يتحرك قريباً منهم فأخطأوا الظن وأفرغوا عليه الأسلحة من كافة الأنواع!! والذي طمأنني بعدئذ في الحقيقة كأنني كنت أراقب النيران فأجدها تخرج كلها من مكان واحد .. من المأسدة الى الوادي ..دون جواب ! » وفي هذا الصدد يقول أبوحفص بأن أباهاجر « كان ليلتها في [قباء] فكان بإمكانه رؤية ما يحدث في المأسدة بوضوح والذي حدث أن أحد الحرس الأفغان التابعين لكوتشاي وكان وسط المعسكر تماماً في الساحة المطلة على الوادي .. فوجد حشرة مضيئة من النوع الذي يكثر

في الغابات فظنها عدواً يحمل كشافاً بين الأشجار .. فأطلق النار بإتجاهها !! وسرعان ما توافد الأفغان اليه وأخذوا الأرض وفتحو نيران رشاشاتهم على الوادي .. فلما سمعنا إطلاق النار - وكنت في [القيادة] ليلتها - خرجت ومعي أخ آخر لنعرف ماذا حصل فقالوا : وجدنا شخصاً ومعه كشاف ... فأطلقنا عليه النار ومشطنا المنطقة!!! ».

(٦) بالطبع كان الإخوة قد أحرقوا الغرفة قبيل الإنسحاب الأول يوم الثلاثين من رمضان فتكسرت أخشابها وأسودت أركانها وماعادت تصلح للجلوس .. لكن البتّال الذي جلس مع أبي حذيفة يحتمي من القذائف المنهمرة فيها يقول : « حرارة الدخان ولاحرارة الشظايا!!» .

(٧) الشهيد بشير المصري :من مواليد الإسماعيلية - بلغ من العمر ٢٦ عاماً- متواضع الثقافة - هادئ النفس - دائم الذكر - بسيط دون تعقيد - واضح دون غموض - يقول عن نفسه : « كنت سلفياً ثم إنتقلت الى جماعة التبليغ وأخيراً جئت الى الجهاد » وكان قد أتى الباكستان مع جماعة التبليغ أوائل عام ١٩٨٦م فلما تعرف على الجهاد في أفغانستان نوى أن يمضي في ركبه .. وفي « صدى » رأى النبي صلى الله عليه وسلم في الرؤيا فسأله : أنا على حق أم هؤلاء ؟ .. فأجابه : أنت على حق وأخذ بيده . وكان يكثر من الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم .. ويداعبه إخوانه كلما التقوه أو حاوروه فيرددون جملته التي لاتنفك عن لسانه يكررها [صلِّ على النبي] فما يضيق ولا يتبرم .. ويظل على عادته وحسن خلقه حتى أطلقوا عليه (ذو القلب الأبيض) . وبينما كان يعد نفسه - وقد أنهى التدريب - لمرافقة إحدى القوافل إحتدمت معركة المأسدة فمضى الى هناك .. ونزل على [موقع الهاون] ثم أتته الأوامرليصعد [الزيكوياك] حيث كانت شهادته بعدما صلى الفجر ، وقد إنشطر بفعل القذيفة الى شطرين . أنظر مجلة (الجهاد) - العدد ٣١ - صـ ٢٢ ومجلة (البنيان) - العدد ١٤ - صـ ٢٦ إضافة الى أحاديث إخوانه في بيشاور .

(٨) الشهيد سراقة « أحمد الحزامي » : من المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية .. أسمر الوجه .. واسع العينين - كثير الصمت - كثير العمل - قليل الطعام - شديد الحرص على الحراسة حتى ولو لم تكن نوبته . وصل قبل إستشهاده بشهرين - بعدما ترك المدرسة الثانوية - ومضى الى التدريب حتى إذا هلّ رمضان وقد نشطت السرايا والكمائن في محيط المأسدة كان هناك وفي عزمه أن يمضي مع إحدى القوافل الى الشمال .. وجاءت القوة وكان جديداً على الوضع لكنه لم يجزع لحظة واحدة أو يرتبك .. وبات يجدّ في الحراسة ليلاً .. ويثبته الله بسكينته فيستسلم للنوم أثناء النهار وسط قصف العدو وقذائفة المكثفة .. وفي اليوم الثاني من العيد وقد جاء خبر إستشهاد أبي الوليد وبدأ أحد الإخوة يقرأ وصيته وقد كتب فيها [« أرجو عدم الكتابة عني أو تصويري .. »] قاطعه سراقة رحمه الله وقال للأخ مهنّد شبانه - محرر مجلة [البيان] - أكتب عنه ولاتسمع كلامه لكي تثبت به الإخوة وتحي في

نفوس الشباب فريضة الجهاد من جديد .. ولم يلبث أن قضى نحبه بعد أيام في موقع [الزيكوياك] ودفن هناك بجوار بشير المصري - رحمهما الله - . أنظر مجلة [الجهاد] العدد٣١- صـ٢٢ ومجلة [البنيان] العدد ١٤ - صـ ٢٥ إضافة الى أحاديث إخوانه عنه في بيشاور .

(٩) أنظر مجلة [البنيان المرصوص] العدد ١٤ - صـ ١٥ -١٦ .

(١٠) في حديثه المسجل بتاريخ ١٩٨٨/٩/٢٨م. في بيشاور .

(١١) تذكر مجلة [البنيان] العدد ١٤ - صـ ٢٧ أن أحمد شاه الذي كان يحمي مؤخرة المجموعة فوجىء بأربعة ضباط يتقدمون نحوهم فأفرغ فيهم رشاشه وثلاث قنابل يدوية فقتل منهم ثلاثة على الفور وأصيب الرابع .

(١٢) الشهيد أبو حفص [« هشام هاني منصور »] : أردني الجنسية من أصل فلسطيني . ولد عام ١٩٦٤م ونشأ وترعرع في عمّان على طاعة الله وحبّ الجهاد - فمنذ كان أبو حفص في العاشرة من عمره إتّجه - بتوجيه والده - الى بيوت الله .. وأنتظم بتوجيه موجه المسجد مع نادي اليرموك الرياضي .. فأشتد عوده ولحيته الخفيفة وقدّه المنحول وبسمته التي لاتكاد تفارقه .. ودخل مع أخيه في الله أبي أسيد السوري أرض المعركة ثم لم يلبث أن عاد مع إنتهاء إجازته الى الكويت - حيث كان يعمل والده - ليلمس البون الشاسع بين عيشة الرغد والدعة والخمول وحياة العزة والكرامة والجهاد .. وليقرر العودة من جديد فيقبل والشوق يحدوه يسأل عن أبي أسيد الذي سبقه الى « مزار شريف - بلخ » ثم لا يلبث أن يلحق به ليمضى عاماً كاملاً هناك خاض خلاله عدة فتوحات موفقة كان من أهمها فتح [« شويكجر »] حيث كان في مجموعة الإقتحام ومن السابقين لدخول مركز العدو .. ولما عاد مرة أخرى الى بيشاور كان يريد الحصول على بعض متطلبات الجبهات خاصة الصحية والتعليمية منها ليمضي ثانية الى شمال أفغانستان ، وعندما يمم شطر المأسدة ووجد الإخوة يعدون لمعركة ١٩ شعبان شارك معهم وتعلق بالمكان .. ثم لم تلبث معركة العيد أن إندلعت .. ليندفع أبو حفص في غمارها .. وليختتم حياته في أوارها .. في التاسع من شوال ، ولقد شهد الذين واروه الثرى أن هالة من النور أشرقت على وجهه الأسمر بعد إستشهاده.. وعندما دفنوه في اليوم التالي كان جسده طرياً يتثنى .. وكان بجانبه قتيل من الشيوعيين إسودّ وانتفخ . أنظر مجلة [الجهاد] - العدد ٣٢- صـ ٢٠ - ٢٣ ومجلة [البنيان] - العدد ١٤ - صـ ٢٧ إضافة الى أحاديث إخوانه عنه في بيشاور .

(١٣) ذكرت مجلة [الجهاد] – العدد ٣٢ – صـ ٩ « أن القتيل – كما قيل – هو [ولي جان] قائد الميليشيات الشيوعية في باكتيا ، وأن أباسالم اليمني هو الذي سدد له عدّة طلقات فأرداه قتيلاً ».

الأنصار العرب (٣٩)

شهادات.. وشهداء

إنتهت المواجهات القريبة بين المجاهدين العرب وأفراد القوة التي إنكفأت مدمّاة الوجه مشتتة الجنان ، لكن شبان المأسدة إستمروا يمطرون أرتال العدو ومجموعاته المقاتلة بالصواريخ وبالقذائف ساعة وراء ساعة .. ويوماً وراء يوم ، ونقاط الترصد في (بدر) و (قباء) ماضية في مراقبة التحركات ورصد المستجدات وتوجيه النيران كالمعتاد ، وما لبث أن سقط آخر شهيد من الشهداء العرب في المعركة وفاتحة شهداء اليمن في أفغانستان : أحمد محمد الأحمدي [« سبع الليل »] ضحى الإثنين الثاني عشر من شوال وهو يجهز صواريخ الـ (بي . إم) مع مجموعة من مجاهدي (الجمعية)[١] .. في الوقت الذي تحولت طبيعة المعركة - تلقائياً من الدفاع - بالنسبة للمجاهدين - الى التمكن والمبادرة والإندفاع ، صحيح أن أحداً من المجاهدين الأفغان أو العرب لم يكن ليستطيع أن يجزم بقرب إنتهاء المعركة أو يعلم بقرار الروس وجند الحكومة بالإنسحاب ، لكن الروح المعنوية كانت مرتفعة لدى الجميع .. والعدو تقهقر بأفراده وبآلياته نحو البوستات مخلياً سلسلة التلال التي إندفع من خلالها في البداية نحو المأسدة .. أما القوات التي إستحكمت في « خرشتل » وأقامت لها ثلاثة مراكز جديدة هناك فقد تلقت هي الأخرى قصفاً مركزاً من صواريخ المجاهدين ومدفعيتهم ثم لم تلبث أن أنسحبت منها في اليوم الذي تجهز قرابة المائتي مجاهد من عدّة أحزاب لإقتحامها وفيما استمرت القوة تتراجع كلها منذ منتصف شوال عبر الطريق الذي قدمت منه .. إستمر المجاهدون[٢] يطاردون الآليات المتراجعة والدبابات والمدرعات المنسحبة ميلاً بعد ميل .. وكميناً إثر كمين .. حتى وصلت مدينة « جرديز » في العشرين من شوال في حالة لم تكن لتحسد عليها بالتأكيد ..

..وفي المأسدة .. وعلى إمتداد مواقع المجاهدين التي عاشت واحدة من أقسى المعارك التي واجهتها ، كانت الأحاسيس أبلغ من أن توصف والمعاني أرهف من أن تحيط بها الكلمات .. وأهازيج النصر التي انطلقت بها الألسنة بشتى اللهجات سرعان ما أستجابت لها العيون الدامعات على فراق الشهداء . ساعتها عدّ العرب ١٣ شهيداً منهم وأكثر من عشرين جريحاً .. وعدّ الأفغان سبعين شهيداً منهم وحوالي المائتين من الجرحى ، كما قدّم الأنصار الباكستانيون شهيدين إثنين[٣] .. أما خسائر العدو فكانت - كما قدّرتها مصادر المجاهدين الأفغان - أكثر من مجموع شهدائهم وجرحاهم جميعاً .. عدا عن أرقام - وصفها أبو عبيدة بأنها خيالية !! - للطائرات والدبابات والعربات والذخائر التي دُمّرت .. والغنائم التي غنمها المجاهدون[٤] .. وفي ميدان الأرقام والإحصائيات كان ملفتاً للنظر ومثيراً للجدل الرقم الذي ذكر عن أعداد القذائف التي استهلكتها راجمات المجاهدين .. فلقد قدّرها الدكتور عبدالله عزّام

رحمه الله – بـ ١٥ ألف صاروخ « بي.إم » من مخصصات الشيخ سياف وحده . وقد قال أبوعبيدة أنها ١٣ألف صاروخ قدّم الشيخ سياف منها تسعةآلاف .. وروى أبو محمود أن القذائف التي إستهلكها الإخوةالعرب في المعركة كانت كلهامن [الإتحاد] وبناءاً على تصريح الشيخ سياف .. وقال إنه سمع رقمين بهذا الصدد أحدهما تسعة الآف والآخر ١١ألف قذيفة « بي . إم » وهذه كانت مخزون ولايات أخرى تابعة لتنظيم « الإتحاد » أما ابوالرضا فقال : (إن العرب ضربوا خلال الأسبوع الأول للمعركة ١٤ ألف قذيفة .. حتى أصبحت الكثافة النارية لديهم أشدّ وأكثر مما لدى العدو نفسه[٥] .. وهو أمر يحدث في أفغانستان لأول مرة !!» . وبينما استبعد أبوعبيدة أن يكون كل هذا الإستهلاك بمثابة الإسراف ، ورأى « أن ما أطلقه المجاهدون يعادل نسبة واحد الى ألف من كمية الضرب الذي تلقوه من طائرات العدو أوصواريخه أو مدفعيته .. بل إن المعشار سيكون أيضاً نسبة غير صحيحة .. » فإن أبا حفص الذي أقر بوجود مبالغة في الإستخدام فسرّ الأمر على أنه « نوع من التعويض عن إستخدام القوة البشرية .. فالمشكلة أنه لم تكن هناك أي مجموعات تعمل في مواجهة القوة مباشرة بإستثناء كمائن العرب ..وربما كان للحزب الإسلامي مجموعات مماثلة في المحور الآخر » . وواقع الأمر فإن الجميع أقرّ بعد هذه المعركة بدور العرب المتميز الفاعل فيها .. وتكررت شهادة القادة والزعماء تشيد بهؤلاء الأنصار المجاهدين ، ليتناقلها أولئك وينشرونها بفخر وبإعتزاز ، ففي مجلة [الجهاد] تحدث الدكتور عبدالله عزّام – رحمه الله – عن [« شهادات القادة »] وقال[٦] : « يقول حكمتيار : لقد كان لثبات الإخوة العرب في المأسدة وصدّهم خمس محاولات لدخولها أثركبير في تحطيم معنويات العدو وكسر شوكته . ويقول سياف : لقد بُهِرَ جميع قادتنا بثبات الإخوة العرب وإقدامهم . ويقول الأخ مزمّل (كاتب وخطيب مشهور في الحزب الإسلامي) : كان الإخوةالعرب في كل مرة ضيوف علينا وفي هذه المرة نحن ضيوف على الإخوة العرب ..» . وفي العدد الذي سبقه كتب الدكتورعبدالله أيضا[٧] : « سمعت الشيخ سياف يقول أمس : إن سقوط أي عربي شهيد يعدل في نفسه سقوط جبهة . ويقول : إن الدم العربي قليل عندنا وكل قليل عزيز » ويروي الشيخ تميم رحمه الله فيقول : « سأل الشيخ سياف الكومندان كوتشاي – وهو قائد الأفغان في المأسدة – قال له : كيف وجدت جهاد العرب ؟ فأجابه بالحرف الواحد ما ترجمته : [لقد مرّغ هؤلاء العرب أنوفنا بالتراب بشجاعتهم ..] وقريباً من هذا الموضوع يروي الأخ البتّال إنطباعات أحدضباط الجيش الباكستاني إلتقاه قدراً بعد ذلك في بيشاور .. ويقول :[كنا – أنا وأبو أنيس – عند أحد محلات البقالة حينما قابلنا رجلاً باكستانياً في الخمسين من عمره .. فلما سمع حديثنا بالعربية ورأى ملامحنا تكلم أول الأمر مع أبي أنيس وسأله : أنتم كنتم في المأسدة ؟ قال أبو أنيس : نعم . فسألني : وأنت ايضاً ؟ قلت : نعم . فبدأ يأخذنا بالأحضان ويبكي .. قال : أنا أصلاً ضابط كوماندوز متقاعد في الجيش الباكستاني .. حينما علمنا أنكم طلبة في الثانوية وفي الجامعة ولم تأخذوا تدريبات عسكرية حَزِنّا جداً

وأردنا أن ندخل لمساعدتكم وضغطنا على الحكومة لتمكننا من ذلك لكنهم رفضوا تماماً .. فكنا طوال المعركة نبكي وندعوا الله أن يعينكم .. » ويضيف البتّال : « كانت فرحة الرجل بلقائنا عظيمة ، وهو الذي أخبرنا أن أول مجموعة كوماندوز روسية صعدت نحو المأسدة أبيدت كلها .. » . ولقد روى لي أبو حفص - بمناسبة الحديث عن الباكستانيين - « أن بعضاً من ضباط الجيش الباكستاني حضروا بعد إنتهاء المعركة بفترة للمأسدة - ولم أكن أنا موجوداً في ذلك اليوم - وعاينوا المنطقة ..» وهو إجراء إعتيادي طالما فعله الجيش الباكستاني في الجبهات المستعمرة عموماً .. وفي المعارك التي تدور على بوابات الباكستان الحدودية خصوصاً ، وهكذا وبعد نيّف وعشرين يوماً من الكر والفر ..والتقدم والتقهقر .. والألم والأمل .. والدمعة والبسمة .. وبعدقرابة السبعة أشهر على إبتداء تأسيس المأسدة وماتبع البداية من مشقات وكبد .. ،معاناة ومصابرة وجلد.. وبعد أن روى الشباب العرب المنطقة بدماء زكية عزيزة .. وأشرأبت الأعناق من حولهم تحوطهم بنظرات خليطة من الإعجاب والتقدير...والتعجب والتحسب .. والتخوف والتذمر .. والتربص والمعاداة ...كان الذين إنفعلوا بالجهاد الأفغاني من قبل وأحبوه .. والذين ناصروه وأيدوه .. والذين تشوّقوا للمشاركة فيه وما بلغوه .. هؤلاء وغيرهم وعلى إمتداد بلاد العرب ودول الإسلام .. لم يلبثوا إلاهنية حتى إندفعوا على الساحة بالعشرات .. يريدون المشاركة للحظة .. ويطلبون المأسدة بالتحديد .. ويقصدون غرفة كذا أو موقع فلان !! وبات واضحاً منذ ذلك الحين أن الوجود العربي على ساحة الجهاد الأفغاني قد دخل مرحلة جديدة .. وأنتقل الى طور متطور .. قدمه العيد في [جاجي] .. وساقته نحوها مستجدات الساحة نفسها ، ومثلما كانت البداية الأولى : مريرة عذبه .. وقاسية مشوّقه .. وقاصرة متفائلة .. كانت كذلك البداية للمرحلة التالية .. وبداية كل مرحلة من بعد .. مدادها الدماء الزكية الطاهرة تخط لمن بعدها يوميات هذا الوجود .. وسطورها سِفْر غني لتجربة الخطأ والصواب .. والإحسان والإساءة .. والنجاح والفشل .. لاتنتظر التحسر أو الإشادة .. ولاالتبكيت ولاالثناء .. ولكنها تحتاج منا الدّرس والبحث وإستخلاص العِبَر .. ونجتاج إليها - وفصولها لاتزال مشرعة للراغبين - مدرسة سخيّة العطاء .. وافرة المعاني .. [(ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)] .

هوامش

(١) الشهيد أحمد محمد الأحمدي [سبع الليل]: - من أبناء لواء أبّ باليمن ، وفي السابعة والعشرين من العمر على وجه التقريب - متوسط الطول - صغير الحجم - بسيط الثقافة - حاضر البديهة - موفور الشجاعة - شديد الجرأة حتى لقبه الدكتور عبدالله عزّام - رحمهما الله - « سبع الليل » لشجاعته ، مداوم على تلاوة القرآن الكريم وعلى قيام الليل ، حضر الى الجهاد أواسط عام ١٤٠٥هـ وشارك مع المجاهدين الأفغان في سرايا عديدة

على العدو في منطقة [بَدَله] وعلى قلعة [تشاوني] بـ (جاجي) ..كما كان في طليعة العرب المشاركين بكتيبة الغرباء الذين تجهزوا لنجدة المجاهدين أثناء الهجوم الشهير على « جاور » كان يشاهد كثيراً وهو يوقظ إخوانه على صلاة الفجر وعلى السحور في رمضان وهو يرتجز : « يانايم .. وحدّ الدايم » أو ينشد بلهجة أبناء بلده : « يا إبن الناس قوم .. شمس الحرية أشرقت ..» ومن أبياته : « والله يارجال ماتنفع الإجابة .. الا بالنار والمدفع والدبابة » . روي أن خلافاً في وجهات النظر حصل بينه وبين أحد الإخوة الذي أحتد عليه فيما يبدو .. فأعتذر سبع الليل بالروس في [جاجي] وقال : الأولى أن نتقاتل معهم بدل الخوض في بعضنا البعض !! وفي مرّة غيرها [حضر أحد الأشخاص مجلساً كان سبع الليل فيه وجعل يطعن في واحد من المسلمين . فسأله الشهيد : هل قاتلت الروم .. أو الفرس .. أو الترك ؟ قال لا. قال : تركت أعداء الله وجئت تحارب أخاك ! ومن طرائف مواقفه أنه دخل المسجد ذات مرّة بسروال إحدى رجليه طويلة والآخرى قصيرة ، فلما سُئل عن ذلك قال : واحدة للإخوان والأخرى سلفية ! وفي معركة العيد بالمأسدة حمّله الدكتور عبدالله رسالتين خطهما الى الأستاذ رباني والمهندس حكمتيار يوضح فيهما ضخامة المعركة وضخامة التضحيات وشدة الأمر بالنسبة للمسلمين ، وأنه لابدمن إلقاء الثقل الإسلامي فيها ووجوب مضاعفة الذخائر والأسلحة لمقابلة هذه القوة الضخمة . وعندما عاد سبع الليل من مهمته قال : غداً لابد أن نتحرك من الصباح مع راجمة الصواريخ ، وكان رحمه الله يشارك مع هذه الراجمة التابعة لتنظيم الجمعية قبل أن يمضي لتسليم الرسالتين ، ثم أضاف : أنا ما جئت لأكل الموز ! ثم وجد مجموعة ستنطلق بعد صلاة الفجر للترصد في [خرشتل] على العدو فقال له أبو عبدالله : هناك عملية جريئة للتعرض للكافرين . قال « سبع الليل » : أذهب من الصباح الى الظهر للترصد ، وبعد الظهر أكون جاهزاً ولكن مجموعة الترصد إنطلقت بعد صلاة الفجر ولم يكن هو نائماً في ذلك المكان ، فحزّ في نفسه أنه لم يدركها ولم ينطلق معها ، وعندما ذهب الى الراجمة وأخذ ينشط في نقل الصواريخ وإعدادها ساقت له المقادير قذيفة أصابت رأسه فأغمى عليه ، ونقل الى المستشفى في « برجنار » لكنه أسلم الروح قبل أن يصلها ، وكان ذلك يوم الأثنين الثاني عشرمن شوال وأمر الشيخ سياف أن يدفن في [بابي] .. وقد شهد إثنان من الإخوة العرب هما أبو أحمد والأخ صالح اليمني « عدو الطواغيت » أنهما إستروحا رائحة المسك من دمه . وقد كتب في وصيته رحمه الله : « إن على كل شاب مسلم أن يقف أمام الباطل وأن لايخاف في الله لومة لائم وأن يجاهد في الله حق جهاده وأن لا يطأطيء رأسه لكائن من كان .. » . أنظر مجلة [الجهاد] العدد ١٤ – صـ ٢٦ – ٢٧ إضافة الى أحاديث إخوانه عنه .

(٢) كما روى الأخ أبو عبيدة . أنظر : مجلة [البنيان] العدد ١٤ – صـ ١٦ .

(٣) ذكرت مجلة [البنيان] – العدد ١٤ – صـ ١٩ أن عدد الجرحى الأنصار قد بلغ ٣١ جريحاً ، ووجدتُ أبا محمود قد سجل أسماء هؤلاء الجرحى بالفعل إبتداءاً من معركة شعبان وحتى آخر معركة العيد ، أما شهداء الأفغان وجرحاهم فلم أعثر على إحصاء دقيق لهم ، والأرقام المذكورة تقريبية بين ما ذكرته المجلات أو رواه

المتحدثون .

(٤) كان أمراً بدهياً أن تأتي تقديرات المجاهدين الأفغان لخسائر العدو في المعركة متباينة ومبالغ فيها .. فعلاوة عن طبيعة كل طرف في المبالغة ، لايملك المجاهدون وسيلة دقيقةلإحصاء لقتلى عدوهم أو خسائره .. ولقد ذكرت مجلة (البنيان) – العدد ١٤ صـ ١٧ أن خسائر العدو كانت ما يقارب من ١٥٠٠مابين قتيل وجريح وعشرة أسرى من الشيوعيين عدا عن إنضمام ٩٢ جندياً وضابطاً الى المجاهدين ، أما في المعدات فهناك أكثر من ٢٢ طائرة نفاثة وعمودية مابين سقوط وإصابة ، وتدمير ٢٥٠ دبابة ومدرعة وإحتراق ما بين ٨ الى١٢ مخزن ذخيرة ، وغنيمة ١٠٠ قطعة سلاح ، ومن جهتها أوردت مجلة (الجهاد) – العدد ٣٢ – صـ ١٥ « نقلاً عن مسؤول باكستاني كبير أن نتائج خسائر العدو الروس في معركة (جاجي) من خلال أجهزة التصنت التي التقطناها كالتالي : ١/ تدمير ٢٥٠ دبابة وآلية –٢/ ١٥٠٠ قتيل –٣/ إصابة ٢٢طائرة . ثم عقّب المسؤول الباكستاني قائلاً : لم يرى الروس خسائر في معركة أكثر منها في هذه المعركة » .. وأما مجلة [المجاهدون] الناطقة بإسم (الجمعية الإسلامية) فقد ذكرت في عددها السادس – رمضان وشوال ١٤٠٧– صـ ٢٢ أن خسائرالعدو في هذه المعركة كانت ٧٥جندياً روسياً قتلوا مع ثلاثين جندياً من جنود الحكومة وميليشياتها وجرح ٨٥ آخرون كما أحرقت سبعون سيارة عسكرية مختلفة الحجم ، ودمّر مدفع « بي .إم ٤١ » ومدفعين آخرين و١٢ دبابة و٢٥ مصفحة ، كما أسقط المجاهدون طائرتين حربيتين وغنموا ١٣ رشاش [كركوف] وخمسة رشاشات [جرينوف] وعشرة رشاشات [كلاشنكوف] .. من جانب آخر قدّر مسؤول كبير في الحكومة الأمريكية أن المجاهدين الأفغان قتلوا وأصابوا مابين ٢٥٩ و ٣٠٠ جندي من القوات الخاصة السوفييتية وأسقطوا ١٥ طائرة سوفييتية وأفغانية خلال الأسبوعين الأول والثاني من شهر يونيو في معارك دارت حول (على خيل) في إقليم بكتيا . ولكن صحيفة [واشنطن بوست] الإمريكية التي نقلت هذا التصريح لم تحدد من هو المسؤول المقصود . أنظر صحيفة [الإتحاد] عدد ٤٨٩١ – ١٩٨٧/٧/٧م .

(٥) ذكرت مجلة «البنيان » – العدد ١٤ –صـ ١٥ – أن العدو أطلق في هذه المعركة أكثر من ٤٥ ألف صاروخ وقذيفة مدفع ، دون أن تنسب هذا التقدير الى مصدر محدد.

(٦) مجلة [الجهاد] – العدد ٣٢ – صـ ١٤.

(٧) مجلة [الجهاد] – العدد ٣١ – صـ ٢٣.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة .	٥
الإجتياح .	١١
المفاجأة .	١٧
الصدى .	٢٣
خطوات على الطريق .	٢٩
مسلسل الإتحادات .	٣٥
المأزق الحرج .	٤٣
لجنة الـ (١٧) .	٤٩
فرحة لم تتم !!	٥٥
آيات الرحمن .	٦٣
فرض العين .. فرض الكفاية .	٧١
أول الشهداء العرب .	٧٧
(جاجي) نافذة على بعض الحقيقة .	٨٣
تساؤلات على الطريق .	٩١
مكتب الخدمات .	٩٧
في معسكرات التدريب .	١٠٩
لجان الخدمات .	١١٧
إنقلاب في خارطة التحالفات !	١٢٥
التّرحيل	١٣٧
فرسان التّرحيل .	١٤٣
الشهيد : يحي سنيور .	١٥٣

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تحت الحصار في كونر ٠	١٦٣
كتيبة الغرباء ٠	١٧١
الشهيد : حمدي البنّا ٠	١٨١
من سجلّات النقد الذاتي ٠	١٩١
الإستقلال .. والإستقرار ٠	٢٠٣
من العرين .. الى المأسدة ٠	٢٠٩
سريّة العرب الأولى ٠	٢٢٣
جبهة المعارضة!	٢٣١
مأسدة الأنصار ٠	٢٣٩
أسلم .. ثم قاتل ٠	٢٤٧
وجاء القعقاع ٠	٢٥٣
معركة شعبان ٠	٢٥٩
تكبيرات عربية فوق السحاب!!	٢٨١
أبو الذهب ٠	٢٨٧
من (قباء) .. الى (بدر) ٠	٢٩٥
معركة العيد في (جاجي) ٠	٣٠٣
عيد النصر والشهداء ٠	٣٢٣
أهل المأسدة أدرى بشعابها ٠	٣٤١
شهادات وشهداء ٠	٣٥٩
المحتويات ٠	٣٦٧